

رواية
طلح
السدرا
علينا

رواية

الدكتورة

دانة أحمد الجدع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٠/١٠/٤٠٥٩)

٢١١

الجدع، دانة أحمد

طلع البدر علينا / دانة أحمد الجдец - عمان : المؤلف ، ٢٠٢٠
(٨٦٠) ص.

ر.إ. : ٢٠٢٠/١٠/٤٠٥٩.

الواصفات : /الثقافة الإسلامية//التربية الإسلامية//القصص

الإسلامية//التاريخ الإسلامي/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة

١٤٤١ هـ | ٢٠٢٠ م

أنس أحمد الجдец
دانة أحمد الجдец

تصميم الغلاف
رسمة الغلاف

دانة أحمد الجدع، مواليد ٢-٣-١٩٨٤ الدوحة - قطر، ابنة الأديب المعروف أحمد عبد اللطيف الجدع.

تخرجت من مدارس الأردن، ودرست الطب في الجامعة الأردنية في عمّان، وتخصصت في الأمراض الباطنية في الأردن. عملت في مستشفيات الأردن والإمارات، وأحبت الرواية منذ الصغر، ولديها سبع روايات منشورة، ومتوفرة بالمجان على الموقع الإلكتروني الشخصي.

استغرق العمل في كتابة رواية تحمل في طياتها أكرم الشخصوس على وجه البسيطة سنيماً، وما يزال الجهد المبذول فيها قليلاً لما تستحق، ولكن كان الهدف الأول من كتابة السيرة النبوية على شكل رواية هو تقريبها لعموم الناس، وبالأخص للجيل الجديد المحب لكل ما هو مثير.

فعندما أمر على أناس قد قاموا بما أؤمن أنه "تبسيط العلوم" أجد فيهم أناساً ساهموا في إثراء الحضارة بما هو عريق، ودعموا حياتنا بما هو أساسي، وكسبوا القلوب ببساطتهم وعفويتهم.

بدأت تجميع المعلومات والأحداث في ٩-١٢-٢٠٠٧م، الموافق ٢٩-١١-١٤٢٨هـ، واستمر تجميع المعلومات إلى لحظة طباعة الكتاب. وبدأت بتنسيق المعلومات كرواية متكاملة في ١٨-٧-٢٠١٤م، الموافق ٢٠-٩-١٤٣٥هـ في رمضان.

وأنتهيت الكتابة الأساسية للجزء الأول الذي ينتهي إلى الهجرة النبوية الشريفة في ٣١/٣/٢٠١٨م، الموافق ١٤/٧/١٤٣٩هـ، كما أنهيت تحقيقه النهائي في ٢/٢/٢٠٢٠م، الموافق ٨/٦/١٤٤١هـ.

هذه رواية، مسرودة بأسلوب قصصي، إنها ليست كتاباً للبحث، ولا يجوز الاقتباس منها، ولا استنباط أي تشريع. أرجو التعامل معها كأى كتاب تاريخي قصصي.

ومن الجدير بالذكر هاهنا أن جميع الأحداث مقتبسة من كتب السيرة، وليس من خيال المؤلفة فيها من شيء، كما أن الحوارات قد تم تفصيلها بما يتناسب مع أسلوب الرواية، ما عدا كلام رسول الله ﷺ فلم نزد عليه حرفاً أو ننقص، بل نُقل كما هو عن المراجع المبينة في نهاية الكتاب. أضف إلى ذلك أن الأحاديث المأخوذ بها هي ليست قطعية الصحة، فهي ما روى أغلب المحدثون، كما أنها ليست مكذوبة أيضاً، فلم نعتمد على أي حكاية تحوي الدسائس من أي نوع.

حب النبي ﷺ يبدأ بمعرفته، فهذه الرواية ما هي إلا الخطوة الأولى، ولا يكفي الاستمتاع بالسيرة، وإنما حب النبي الحقيقي هو بالافتداء بأفعاله عليه أفضل الصلاة والسلام.



أهدي هذه الرواية إلى أمة الإسلام، وإلى العالم أجمع، مذكرة
البشرية بوحدة الخلق، ووحدة الأنبياء، ووحدة العبادة للخالق
الواحد.

كما أهديها إلى زوجي العزيز وبناتي الجميلات.
اللهم أدم المحبة والسلام بين أهل الأرض جميعاً.

دانة أحمد الجدع

Danajada84@yahoo.com

www.dr-danajada.com

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:
تبدأ الروايات بذكر تفاصيل الزمان والمكان، وجذور الشخص
والأحداث.

في روايتنا هذه، تمتد الجذور إلى جذور التاريخ البشري،
ونبدوها بآدم ﷺ.

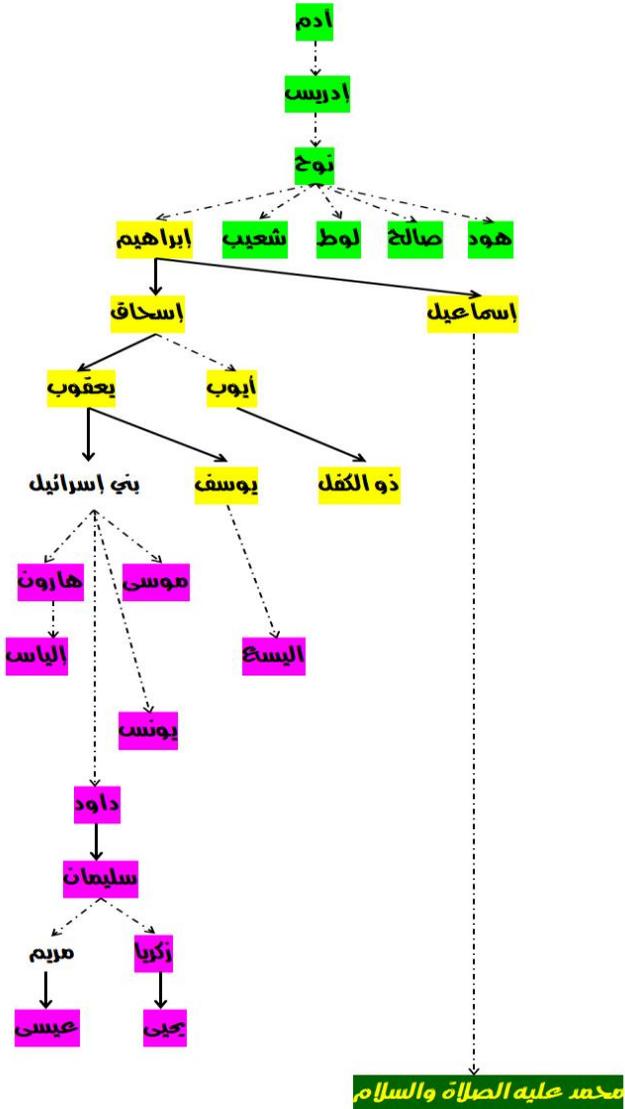
خلق الله آدم ليبدأ حياة الإنسان على الأرض، وبعثة الأنبياء
لعبادة خالق الخلق.

من ذرية آدم ﷺ كان إدريس، ومن بعده نوح ﷺ، وهنا حدث
الطوفان العظيم الذي ميز الله فيه عباده المؤمنين عن الكافرين، وكانت
سنة الله في الكون أن الغلبة لعباده الصالحين.

وتكاثرت البشرية، وظهرت القبائل، الصالح منها والظالم، ولم
يكن الله ليترك الناس على ضلالهم، فأرسل في كل أمة رسولا يهدي إلى
الحق وإلى الطريق المستقيم، فكان منهم هود وصالح ولوط وشعيب
وإبراهيم ﷺ.

ثم اختص الله أنبياءه من ذرية الإمام إبراهيم ﷺ، وورثه
بإسماعيل الذبيح، وإسحاق ﷺ.

شجرة الأنبياء عليهم السلام



ومن ذرية إسحاق كان هناك أنبياء مثل أيوب وذي الكفل، وممن اختص الله في ذكرهم بإسهاب في كتابه الكريم هم ذرية يعقوب ابن إسحاق النبي ﷺ.

يعقوب الذي أطلق على نفسه اسم إسرائيل، وكان بنوه من بعده هم بني إسرائيل، أرسل الله منهم يوسف بن يعقوب ﷺ.

ومن ذرية يوسف ﷺ كان النبي اليسع.

أما بقية الإخوة الأحد عشرة، فقد كان من ذريتهم موسى وهارون ﷺ، اللذان أرسلوا إلى فرعون، وحرروا بني إسرائيل من العذاب المهين.

أنزل الله على النبي موسى ﷺ الألواح، التي كانت هدى لبني إسرائيل، ومن هنا بدأت الديانة اليهودية بكتابها المقدس.

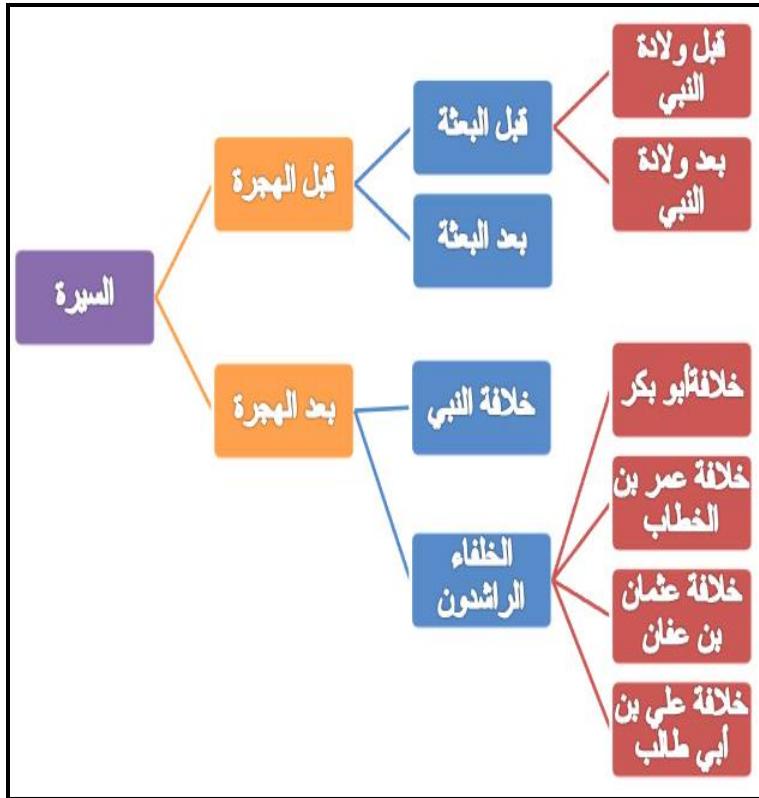
ومن أنبياء بني إسرائيل كان إلياس، ويونس، والملوك الأنبياء داود وابنه سليمان ﷺ.

ومن ذرية سليمان كان زكريا النبي، وعمران والد السيدة مريم ﷺ. ولد بمعجزة الله يحيى ولدًا لزكريا، وعيسى ولدًا لمريم العذراء من غير أب، فكانا آخر أنبياء بني إسرائيل، ومن عيسى ﷺ انبثقت الديانة المسيحية.

ولكن ماذا عن ذرية الإمام إبراهيم من ولده إسماعيل ﷺ ؟
لم يتقوّل أحد من ذرية إسماعيل النبوة، وكانت العبادة في
الجزيرة العربية كما علّمهم إياها نبيهم إسماعيل، وكانت حياتهم
معلّقة بالكعبة التي بناها أنبياءهم إسماعيل ووالده الإمام إبراهيم
ﷺ، إلى أن بدأ الناس يحرفون ما عرفوا، ويُدخلون عباداتٍ ما عرفها
آباؤهم من قبل، وصنعوا الأصنام وعبدوها، وتوارثتها الأجيال، ولكن
ما كان الله ليتركهم دون نذير، وما كان الله ليترك قوماً دون مذكّر.
فكانت بعثة النبي محمد ﷺ، خاتماً لجميع الديانات، بعثه
الله نبياً ورسولاً للعالمين.

فطلع البدر على العالم أجمعين.





القسم الأول...

قبل الهجرة

[أ] قبل البعثة

[١] قبل ولادة النبي ﷺ

٧٤٣هـ - ١٠٠م تقريباً

تُبَّع

عمت الفوضى مدينة يثرب^(١)، هناك أصوات تعلو، وأناس
تركض، ونادى المنادي: الجيش الجيش! لقد وصل الجيش!
عم الفزع، واختبأت النساء والأطفال، واجتمع الرجال يتناقشون
فيما بينهم: كيف لنا أن نقاتلهم وهم كثرة وذو خبرة في القتال؟
قال آخر: سنقاتل إلى آخر رمق في عروقتنا.
قال آخر: إنه تُبَّع^(٢)، قدم من اليمن انتقاماً لمقتل ابنه، لا طاقة
لنا بهم.
قال آخر: نجمع جميع رجالنا، وحلفاءنا من اليهود، ونقف
لنواجهه.

(١) يثرب هو اسم المدينة المنورة قبل هجرة النبي إليها.

(٢) تبَّع هو لقب ملك حمير في اليمن، وهنا اسمه تبَّان أسعد.

عندها سُمع صوتٌ من بعيد: يا أهل يثرب! سلّموا دياركم
وأموالكم، فلا طاقة لكم اليوم علينا!
نظر أهل يثرب إلى بعضهم، ووقفوا وقفة رجل واحد قائلين:
إنها الحرب، ولن نستسلم.

وخرج الرجال يحملون السلاح، يواجهون جيش اليمى بقيادة
تُبّع، واستمر قتال عنيف، أدرك فيه تُبّع أنه يقاتل رجالاً أشداء.
وكان اليوم الثاني، فقرر تُبّع أن يُفسد يثرب ويحرق نخيلها،
فأمر الرجال فأوقدوا النار، ولما عرف أهل يثرب نيتهم في حرق المدينة
أدركوا أنهم هالكون.

في هذه اللحظة خرج رجل مسن من باب المدينة، ومشى وحده
إلى حيث تُبّع، ووقف أمامه، إنه كبير اليهود، أوقف تُبّع أتباعه
ليستمع إلى ما سيقوله الحبر اليهودي.

كان هذا الحبر المسن أعلم اليهود بالديانة، وأكثرهم خبرة في
الحياة، وأفضلهم حكمة، نظر إلى تُبّع بعين صادقة وقال: أيها الملك،
مثلك لا يقتل على الغضب، فلا تتسرع، فإنك لا تستطيع أن تخرب
هذه القرية.

تعجب تُبّع لهذه الثقة! وقال: ولم؟

أجابه الحبر: أيها الملك، هذه البلدة محظوظة، فإننا نجد اسمها في الكتاب طيبة، وإنها مهاجرٌ نبي من بني إسماعيل. وأشار الحبر اليهودي بيده تجاه مكة وقال بصوت إيماني: يخرج من هناك.

اقشعرّ بدن الملك، وشعر بإيمان ويقين ما يقوله هذا الحبر الحكيم، ونظر إلى حيث الكعبة، واستشعر عظمتها ورهبتها، هل هذه هي اللحظة الفارقة في حياته؟ هل هنا يتحول ملكه وقوته إلى إيمان وتقوى؟

في لحظة إيمانية، أشار تُبّع إلى جيشه بالانسحاب، وترك يثرب وأهلها بأمان واتجه تجاه مكة، وإلى الكعبة المشرفة تحديداً، دخلها وطاف بها، فعلم يقيناً أن الحق هنا، وأعلن أنه يؤمن بالنبي القادم، إذا ما لحقه أو لم يلحقه، وأمر أتباعه فصنعوا ستاراً للكعبة وقاموا بتزيينها، فكان أول من ستر الكعبة.



١٧٨هـ | ٤٥٠م تقريباً

هاشم^(١)

كانت الظهيرة في مكة، واجتمع العبيد الفقراء إلى زاوية بعيداً عن أسيادهم يأخذون قسطاً من الراحة، بينما كان أسيادهم يتسامرون ويأكلون الذبائح.

قدم أحد العبيد راکضاً إلى أصدقائه يقول: يا أصحابي، إنه هاشم! نهض العبيد سعيدين بسماع هذا الاسم، هاشم العطوف الكريم، كان وحده من يتذكرهم بالطعام والماء.

عمرو بن عبد مناف كان كريماً وحكيماً، وعطوفاً على العبيد، فكان يحضر لهم الماء والخبز، ويهشمه ليوزعه عليهم، ومنه لُقّب بهاشم. وزّع عليهم الطعام وهو يقول: كلوا وارتووا، أعانتكم الآلهة على ما أنتم عليه.

(١) هاشم هو عمرو بن عبد مناف، الجد الأكبر للنبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

فحضر أخوه عبد شمس بن عبد مناف ينظر إليه ويزدري ما يفعل: لن يطعمك العبيد بإطعامهم يا عمرو، ولن يكونوا لك عوناً على السيادة.

ابتسم هاشم، فهو يعلم غيرة أخيه منه، وقال: ما كنتُ طالباً الطعام من العبيد، أما السيادة فهي بالعدل والحكمة.

ثم نظر إلى أخيه وقال: خطرت لي فكرة يا عبد شمس، أظن أن فيها خيراً لمكة وأهلها، اجتمع لي كبار القوم في المجلس.

رد عليه عبد شمس: يستحسن أن تكون فكرة عظيمة لأجمع لك سادة القوم.

قال: إنها كذلك بمشيئة الآلهة.

جمع عبد شمس القوم، وجلس هاشم إليهم يطرح عليهم فكرته: يا قوم، يحضر إلى مكة العرب من جميع الأنحاء ليطوفوا بالبيت العتيق، الكعبة، ونحن نعتمد على العبادة وتجارة مكة في مكاسبنا، وبين العام والعام يصيبنا الجوع والفقر، فما بالناس لا نتاجر خارج مكة؟ صمت القوم، ثم بدؤوا يتهامون فيما بينهم، وقال قائل منهم: ماذا تقترح؟

قال هاشم: نتاجر، نرسل تجارنا ببضائعنا إلى اليمن في الشتاء،

وإلى الشام في الصيف، ويحضرون بضائع من هناك، فتزدهر التجارة كما لم تكن من قبل.

نهض عبد شمس قائلاً: رحلة طويلة كهذه خطيرة جداً، هناك قطاع الطرق، والقرى المجاورة للطريق لن تسمح لنا بالمرور بهذه السهولة.

قال هاشم: أما بالخطورة، فلسنا بالجبناء أو الضعفاء، أما القبائل المجاورة للطريق، اتفقنا معهم، وآلفنا بيننا وبينهم، فكاتبناهم على اتفاق يسمح لنا فيه بالعبور، ويضمنون لنا الأمان لرجالنا ومتاعنا، فيكون إيلاًفاً بيننا.

لاقت فكرة هاشم الرضى، بل ارتفعت منزلته في قريش بحكمته، وانطلقت التجارة خارج مكة، وازدهرت مكة كما لم تزدهر من قبل وكسبت المال الوفير، وباتت ملتقى التجارة للمدن المجاورة لها.

كان فضل هاشم على أهل مكة كبيراً، وأسندت إليه مهمة إطعام الحجيج وسقايتهم، وإلى أبنائه من بعده.

وتميز هاشم واشتهر صيته بين القبائل، حتى كانت له تجارة إلى الشام مرض فيها، وتوفي في غزة ودُفن فيها.

في هذه الأثناء كانت زوجته حاملاً بابنه، وعندما وضعته خارج مكة أطلقت عليه اسم شيببة^(١)، فلما صار صبياً أخذه عمه المطلب ليقوم بتربيته بين أسياذ قريش، ولما دخل المطلب مكة كان شيببة يركب خلفه، فقالت قريش: جاء المطلب بعبد.

قال المطلب: بل هو شيببة بن هاشم.

وأطلقت عليه مكة اسم عبد المطلب، واشتهر بهذا الاسم.

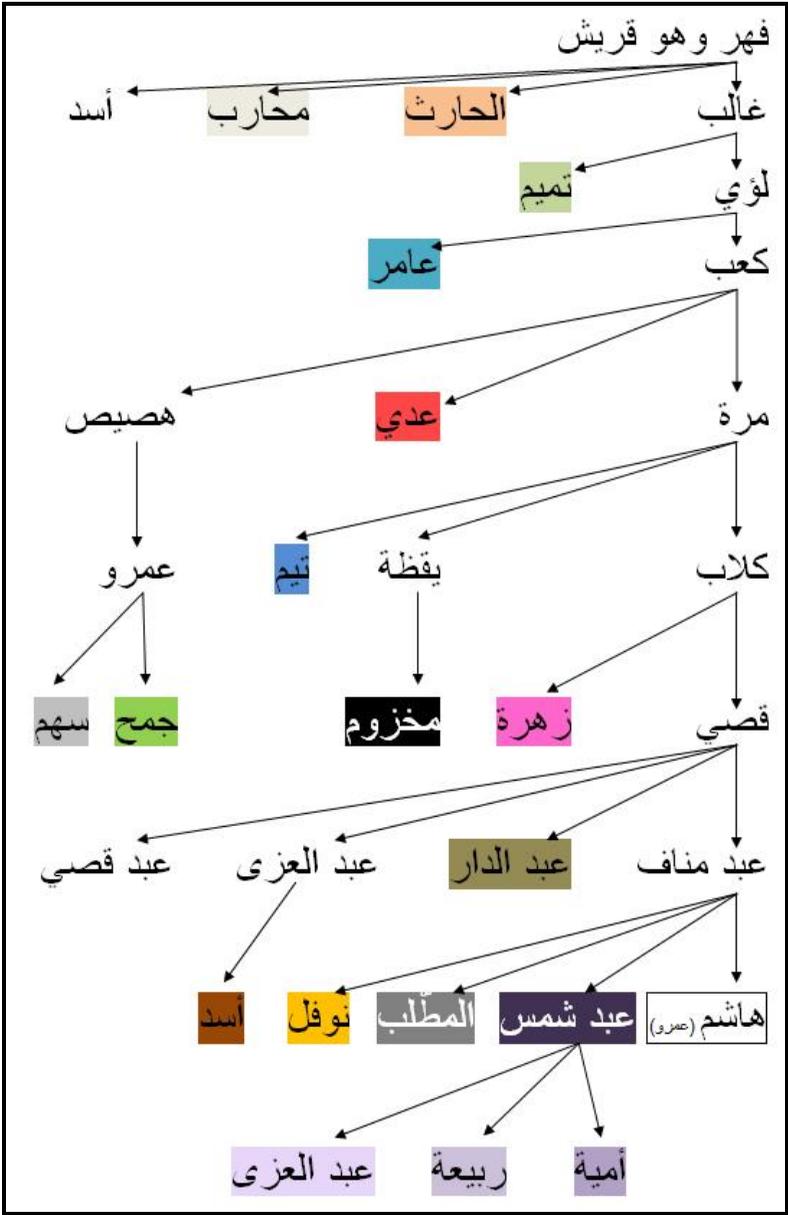
كبر عبد المطلب وكان محبوباً وحسن الصيت في مكة، وورث الرفادة^(٢) والسقاية وقام بها أحسن قيام، وكان أكثر أهل مكة هيبة ووجاهة.

بينما وُلد لعبد شمس أمية، وورث عن أبيه الغيرة من هاشم وبنيه، فبينما كانت أمور العبادة تخص بني هاشم، سيطر بنو أمية على أمور السياسة.



(١) شيببة بن هاشم هو عبد المطلب جد النبي ﷺ، له دور في السيرة قبل البعثة.

(٢) الرفادة هي إطعام الحجيج.



- ١١٤هـ | ٥١٢م تقريباً

عبد المطلب

رأى عبد المطلب بن هاشم رؤيا في منامه، هناك رجل يقف أمام الكعبة، لا يراه أحد من الناس سواه، وسيم وطويل ونير الوجه، كان ينظر إلى عبد المطلب مباشرة ويقول له: احفر طيبة، احفر برة، احفر المذنونة، احفر زمزم.

استيقظ عبد المطلب من منامه يتصبب عرقاً، نهض يغسل وجهه ويستذكر حلمه، من هذا؟ ماذا يكون هذا الحلم؟

دخل عليه ولده الحارث بن عبد المطلب، وكان عمره اثنا عشر عاماً، أحس بالقلق على وجه أبيه، فسأله: هل هناك خطب يا أبي؟ قال عبد المطلب: هو منام أفلقتني.

سأله الحارث: وما رأيت يا أبي؟

قال عبد المطلب: زمزم.

تعجب الحارث: زمزم! البئر القديم الذي طمرته جرهم قبل

رحيلهم مهزومين؟

قال عبد المطلب: هي ذي، زمزم المباركة.

تعجب الحارث: ما كانت الرؤيا؟

ابتسم عبد المطلب لابنه وقال: إنه حلم يا بني، لا عليك،

لنظف بالكعبة ونشرف على إطعام الحجيج.

أطاع الابن أباه، وأشرفوا على إطعام الحجيج وسقايتهم كما

ورثوها عن أبيهم هاشم إلى أن أطبق الليل، وعاد عبد المطلب إلى

فراشه، وما كان له إلا أن رأى الرؤيا ثانية، ذات الرجل يقول له: إن

زمزم لا تنزف أبداً ولا تُذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين

الفرث^(١) والدم، عند نقرة الغراب الأعصم^(٢)، عند قرية النمل.

استيقظ عبد المطلب يعلم يقيناً هذه المرة أن الرؤيا حق وأن عليه

أن يجيب.

نهض من فراشه إلى فأسه، ونادى ابنه الوحيد الحارث ليساعده،

فاستجاب الحارث من فوره يذكر ما قصه عليه والده من أمر زمزم.

(١) الفرث أي الأمعاء.

(٢) الأعصم أي الذي عليه بياض.

بحث عبد المطلب عن الموقع المقصود، وقف عند الكعبة يبحث عن الدم، فإذا برجال جاؤوا ببقرة ليذبوها تقرباً للآلهة عند الكعبة، فسالت دماؤها، ورخصت تهرب من الذابحين، إلى أن أمسكوا بها وشقوا أمعاءها، فعرف عبد المطلب أن زمزم بين الدم الأول، وسقطة البقرة بأحشائها، فنظر فإذا به يجد بيت نمل، ولكنه كان كبيراً، إلى أن رأى الغراب الأعصم يحضر وينقر في بيت النمل، فعرف أن هذا المكان المحدد للرؤيا، وبدأ الحفر هو وابنه، فالتفت قريش حولهما متعجبين! قال أمية بن عبد شمس^(١) لابن عمه: ماذا تفعل يا عبد المطلب؟ أتحفر الصحراء! هل دفنت كنزاً هنا؟

قال عبد المطلب: بل أحفر زمزم.

جفل الجميع لما سمعوا ثم ضحكوا، قال أمية: زمزم القديمة

هنا! لقد مر عليها زمن طويل، ما أدراك بمكانها؟ بل ما ذكرك بها؟

قال عبد المطلب: إنها الرؤيا يا أمية، وإني لحافرها كما أمرتُ.

قال أمية: ومن أمرك؟ الآلهة؟ أوتصطفيك الآلهة من بيننا بزمزم؟

لم يُجب عبد المطلب، وتابع الحفر مع ابنه الحارث رغم

ضحكات قريش واستهزائها.

(١) أمية بن عبد شمس هو جد أبي سفيان بن حرب، دوره في السيرة إلى جانب عبد المطلب جد النبي فقط.

طال الحفر وانفض الناس، وتعب عبد المطلب والحارث، فهما
وحدهما يحفران، والحارث صغير السن، فقدم أمية إليهما وشدّ
الحارث من ذراعه يقول: كفا عن هذا الهراء، لقد سخر الجميع
منكما.

فأحس عبد المطلب بضعفه وقلة حيلته بابنه الوحيد الصغير،
فرفع يده إلى السماء قائلاً: أيتها السماء، إن رزقتني بعشرة أولاد،
فإني ناذر ولداً منهم، أذبحه عند الكعبة.

ودقّ بفأسه الأرض فارتطمت بحجارة! توقف عبد المطلب وأبعد
التراب بيديه، فإذا به حجر البئر القديم، إنها زمزم!

صرخ عبد المطلب: يا الله! يا الله! إنها زمزم! إنها زمزم!
اجتمعت قريش حول عبد المطلب، إنها فعلاً زمزم! ما كادوا
يصدقون أعينهم، تابعوا الحفر وخرج الماء، ماء عذب بارد متدفق،
إنها زمزم المباركة.

تراجع أمية، بينما أقرت قريش بمكانة عبد المطلب بن هاشم،
فلما رأى أمية ذلك قال للجميع: هذه زمزم مكة، إنها لنا جميعاً.
فقال عبد المطلب: بل أخصني الله بها برؤيا في منامي ولم
يصدّقني أحد، هي لي ولأولادي من بعدي.

فقال رجل آخر من بني مخزوم: هذا أمر كبير، علينا أن
نجتمع له.

فتردد القوم، فلما رأى عبد المطلب ترددهم وتشاورهم قال: هذا
أمر خُصصت به دونكم، فاجعلوا بيننا وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.
فكر الجميع، فقال أحدهم: نحتكم إلى كاهنة بني سعد، في
معان في الشام.

تمتم الجميع، إنها مسافة بعيدة، ولكن أمر زمزم يستحق
العناء، فقال عبد المطلب من فوره: وأنا أحاكمكم إليها، فاجمعوا
أمتعتكم.

تجهز الجميع للخروج، وخرج من كل قبيلة رجل، وخرج مع
عبد المطلب عشرون رجلاً من بني عبد مناف، فلما كانوا في وسط
الطريق في الصحراء إلى الشام نفذ منهم الماء، فعطشوا جميعاً، فأوقفوا
المسير وجلسوا يتشاورون بينهم.

قال أمية بن عبد شمس: الطريق ما تزال طويلة، ولم نمر على
بئر واحد، وهذه أرض صحراوية، لن نجد الماء قريباً.
قال آخر: إنه الهلاك.

فقال أحدهم: أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه، فكلما مات رجل دفنه أصحابه حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً فيموت وحده دون دافن أيسر من أن تموتوا جميعاً في الخلاء.

فأجمعوا على ذلك، وبدؤوا يحفرون ينتظرون الموت، واشتد بهم العطش أكثر، فقام عبد المطلب وقال: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا لعجز، ألا نرتحل في الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض هذه البلاد.

كان الجميع مرهقون، ولكن أي محاولة أفضل من الموت على هذه الشاكلة، فاستجابوا له وقاموا إلى الإبل، وقام عبد المطلب إلى إبله فركبها، فلما أزاحت قدمها انفجرت تحتها عين ماء عذب، فهتف عبد المطلب: يا قوم! هذا ماء عذب!

فاجتمع الجميع يرون الماء بأعينهم، فهتفوا، وحفروا، وشربوا جميعاً حتى ارتووا، فقال عبد المطلب: لقد سقانا الله.

هدأ الجميع وأحسوا بهيبة الموقف، واجتمعوا حول عبد المطلب، وقال أحد سادتهم: قد قُضي لك علينا، الذي سقاك هذا الماء بهذه الغلاة هو الذي سقاك زمزم، فوالله لا نخاصمك فيها أبداً.

فرضي الجميع، وعادوا إلى مكة ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا

بين عبد المطلب وولده وبين زمزم، وأشرف عليها وعلى السقاية منها
بنفسه هو وأولاده من بعده.



٧٠هـ | ٥٥٥م تقريباً

عبد الله بن عبد المطلب^(١)

مضت السنين وتحقق لعبد المطلب عشرة أولاد، أكبرهم الحارث بن عبد المطلب، وأصغرهم عبد الله بن عبد المطلب.

كان الأخوة العشرة متحابين، يساعدون أباهم في شؤون الرفاة والسقاية، وكان الجميع يحب أصغرهم عبد الله، ويأخذونه معهم أينما ذهبوا، كما كان يفضلهم أبوه عبد المطلب.

وبلغ عبد الله الثالثة عشر من العمر، فقدم أمية بن عبد شمس إلى ابن عمه عبد المطلب بن هاشم في اجتماع القوم يقول له: قد بلغ أولادك العشرة يا عبد المطلب، وبلغ أصغرهم الرشد، ألا يذكر ذلك بشيء؟

قال عبد المطلب بحزم: لا تظن يا أمية أنني أنقض عهدي مع السماء، ما نسيتُ نذري ولم أكن لأنسَ نذراً من قبل، فقد نذرتُ يوم

(١) عبد الله هو والد النبي محمد بن عبد الله.

زمزم أن إذا ما رزقتني السماء بعشرة أولاد يكونون عوناً لي، فإني
بفاد أحدهم، أذبحه عند الكعبة حمداً للسماء وامتناناً.

قال أحد الحاضرين: لأبأس عليك يا عبد المطلب، لقد كان قولاً
في لحظة شدة، ليس عليك أن تعتبره نذراً.

فقال عبد المطلب بحزم: بل هو النذر، وإني لموفيه.

ضج المكان بالنقاش، عندها وقف أمية يقول: فلنضرب
بالأقداح، نضع أسماء الأبناء العشرة على الأسهم، ويسحب عبد المطلب
اسم ولده الذبيح.

صمت الجميع لا يطيقون ما يسمعون، ولكن عبد المطلب قال
بحزم: وهو كذلك، إليّ بالأقداح.

اقترب رجل يحمل الأقداح وعليها عشرة أسهم، وقف عبد
المطلب في المجلس أمام كبراء قريش يترقبون الحدث العظيم.

رفع عبد المطلب سهمه، ثم نظر فيه، يقرأ اسم أحد أولاده،
أحبائه، أفلان كبده، ينظر في الاسم ويقرأ ببطء: عبد الله.

صمت الجميع، عبد الله أصغر أولاده وأحبهم إلى قلبه، هذا حدث جلل.

أخذ عبد المطلب نفساً عميقاً، واستجمع قواه وقال: إنه الغد،

سيكون الذبح عند الكعبة في الغد.

عندها وقف أحد الرجال من بني مخزوم يحل الموقف: بحق
الآلهة لا تذبحه فيذبح الواحد فينا ابنه، فتصبح عادة في الناس!
أجمع الجميع معه، ولكن عبد المطلب قال غاضباً: إنه النذر،
وإني ذابحه في الغد.

قال أحد الرجال: نفديه بجميع مالنا.

قال عبد المطلب: لا يكون ذلك أبداً.

فقال أحدهم: هناك كاهنة عالمة، نعرض عليها الأمر، وإن
أمرتك بذبحه فلك أن تفعل.

فكر عبد المطلب قليلاً ثم قال: نحتكم إليها، ونرى ما تقول.

فذهب القوم إلى الكاهنة، وعرضوا عليها أمر النذر، ففكرت
وفكرت، وحدّقت بالجميع، ثم أمعنت النظر في عبد المطلب، ثم قالت:
غداً، آتيكم بالخبر.

انصرف القوم عن الكاهنة، وعاد عبد المطلب إلى منزله، وينظر في
أولاده الذين لا يعرفون ما جرى، وينظر إلى عبد الله يمسك بأخيه أبي
طالب^(١) يشده ليعلمه القتال، ويضحك معهما أخوهما عبد العزى^(٢).

(١) أبو طالب بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، له دور أساسي في السيرة إلى ما بعد البعثة.

(٢) عبد العزى بن عبد المطلب هو أبو لهب، اشتهر بأبي لهب لتلهب وجهه وحمرة، وفي
عينيه حول، له دور أساسي في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

نادى الأب أبناءه العشرة، وقصّ عليهم ما حصل في المجلس،
وكيف وقع النذر على عبد الله.

تشبّث الإخوان التسعة بأخيهم الأصغر عبد الله، لا يريدون أن
يقع له أي مكروه، وحثّوا والدهم على ألا يفعل، ولكن عبد المطلب قال
بحزم: سيكون ما تحكم به الكاهنة، أيّاً كان.

جفل الجميع، والدهم مصر على ما يفعل، والأمر في غاية الجد،
ظل عبد الله صامتاً لا يدري ما يفعل، ولكنه بعد صمت طويل قال:
يذكرني ذلك بجدنا إسماعيل.

ساد الصمت المكان، ولم يعلّق أحد، بل ظل الجميع مستيقظين
الليل بطوله، ينتظرون قرار الكاهنة في اليوم التالي، وجلس الإخوة
جميعاً إلى جانب عبد الله، لا يطيقون فراقه.

أشرقت شمس اليوم التالي، وذهب الأب والأولاد إلى الكاهنة
ينتظرهم سادة قريش هناك، ووقف عبد المطلب أمام الكاهنة يسألها
عن الخبر، فنظرت إلى أولاده العشرة، وإلى عبد الله بصورة خاصة، ثم
قالت: كم دية القتل فيكم؟

أجابها رجل: عشرة من الإبل.

قالت الكاهنة: اضربوا الأقداح، سهم لعبد الله، وسهم للإبل،

فإن وقعت القرعة على عبد الله فزيدوا في الإبل عشرًا إلى أن ترضى السماء.

كان ذلك عادلاً، ورضي الجميع بحكم الكاهنة، وأحضرت الأقداح، وكتب اسم عبد الله على سهم، وعشرة من الإبل على سهم آخر، وبدأ عبد المطلب يسحب الأسهم.

سحب سهم عبد الله، فرفع الفداء إلى العشرين إبلًا.

ثم سحب السهم ثانية، فكان عبد الله، فأصبح الفداء ثلاثين.

شدّ أبو طالب يده بيد أخيه عبد الله، الذي كان صامتًا لا يكاد يبلع ريقه من هول الموقف، ووضع أبو لهب يده على كتف أخيه يشدّ من أزره، ووالدهم يقف بحزم ويسحب السهم.

السهم الثالث، عبد الله، فأصبح الفداء أربعين إبلًا.

تصيب العرق من جبين عبد الله، وسحب عبد المطلب السهم

الرابع، فكان عبد الله، وزاد الفداء إلى الخمسين.

جفل سادة القوم، وقال أمية: يبدو أن السماء لن ترضى إلا

بالذبح.

ولكن عبد المطلب تابع سحب السهام، السهم الخامس لعبد الله،

أصبح الفداء ستين إبلًا.

السهم السادس لعبد الله، أصبح الفداء سبعين.
بدأ الحزن يعم الجميع، وعبد المطلب يدعو السماء بشدة أن
يهون عليه ويفديه الإبل.

السهم السابع عبد الله، ثمانون إبلاً أخرى.
دعا الأخوة التسعة لأخيهم الأصغر، الذي كان صابراً لحكم
السماء.

السهم الثامن لعبد الله، فرغ الفداء إلى تسعين إبلاً.
السهم التاسع لعبد الله، ورفع الفداء إلى مئة من الإبل.
رفع عبد المطلب السهم العاشر، فكانت الإبل!
جفل الجميع، ثم صرخ أبو طالب بن عبد المطلب: إنها الإبل!
لقد رضيت السماء!

وتقافز الإخوة العشرة ببيكون، وعمت الفرحة قريشاً، إنها المئة
إبل فدية عبد الله بن عبد المطلب، ولكن عبد المطلب صاح في القوم قائلاً:
لا والله حتى أعيدها ثلاثاً، فأكون واثقاً من رضى السماء عليّ.
ساد الصمت المكان، فقال أحدهم: لماذا يا عبد المطلب؟ إنها مئة
من الإبل!

قال عبد المطلب: لن أقبل حتى ثلاثاً، فتكون السماء راضية عني.

جفل الإخوة العشرة، وأشار عبد المطلب إلى الكاهن ليعيد ضرب الأقداح، فعمّ القلق القلوب، وسحب عبد المطلب السهم من جديد، إنها الإبل.

بقي سهم واحد، أغمض الإخوة أعينهم يدعون بحرارة، ويمسكون بأخيهم الصغير، ونظر سادة قريش يترقبون السهم الأخير، وسحب عبد المطلب السهم، فكانت الإبل.

صاح الجميع، وتعانق الإخوة العشرة بحرارة، وبكى عبد المطلب كثيراً، وحمد السماء حمداً كثيراً، وكذلك فعل الإخوة العشرة، وعانق عبد المطلب ابنه الحبيب بعشق شديد، وبات عبد الله أسطورة مكة، فقد فداه الله بمئة من الإبل بلا شك.

فكان عبد الله بن عبد المطلب الذبيح من بعد جده الذبيح إسماعيل بن إبراهيم ﷺ.



٦٠هـ | ٥٦٥م تقريباً

رحلة البحث عن الحقيقة

ورقة بن نوفل^(١)

وزيد بن عمرو^(٢)

كانت قريش تتحضر لاحتفال كبير، وتجهز صنمها ليوم الغد، قام النحات بإصلاح ما تآكل العام الماضي من الصنم، وقام الأغنياء بتزيينه بالذهب والحلي، وجمعوا الخمر لغد صاحب يقيمونه لهذا الصنم يوماً كل عام.

(١) ورقة بن نوفل هو ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد -زوجة النبي من بعد- له دور أساسي في السيرة إلى البعثة.

(٢) زيد بن عمرو هو والد سعيد بن زيد -أحد العشرة المبشرين بالجنة من بعد- وابن عم عمر بن الخطاب، من الشخصيات المهمة في السيرة قبل البعثة.

في اليوم التالي سادت الاحتفالات إلى الليل، غنت المغنيات،
وسجد الناس لسنمهم، وطافوا حوله، ونحروا المواشي أمامه تقرباً
وتعبداً، وأكل الجميع وشربوا وتسامروا.

بينما كانت قريش في لهوها، كان هناك أربعة شباب يقفون من
بعيد ينظرون إلى ما يفعل الناس، إنهم ورقة بن نوفل، وزيد بن
عمرو، وعبيد الله بن جحش^(١)، وعثمان بن الحويرث^(٢).

قدم الخطاب بن نفيل^(٣) إلى ابن أخيه يقول: ما بالك تقف هنا يا
زيد؟ تعال شارك الشباب في اللهو والمرح.

قال زيد بن عمرو: لا حاجة لي فيما يفعلون.
تعجب الخطاب قائلاً: ألا ترغب في العازفات الجميلات،
والخمور الفاخرات؟

قال زيد: يفترض أنكم تعبدون صنمكم، ما حاجته بلهوكم
ولعبكم؟

غضب الخطاب قائلاً: إلى ما ترمي يا زيد؟ ألا تعبد أصنامنا؟

(١) عبيد الله بن جحش، له دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة، ونرجو التفريق بين عبيد الله
بن جحش وعبيد الله بن جحش، كلاهما أولاد عمّة الرسول أميمة بنت عبد المطلب.

(٢) عثمان بن الحويرث، سيذكر في هذا الموقع فقط.

(٣) الخطاب بن نفيل هو والد عمر بن الخطاب، وعم زيد بن عمرو بن نفيل.

قال زيد: إنه يقف هناك، ينتظر من يعبده ويزينه ويعتني به،
لا حاجة له بي.

سمع الخطاب أصواتاً تناديه، فقال لزيد: إنه عيد، لا تفسد
علينا فرحتنا، كن كشباب قريش الفتى.

وغادر المكان، عندها قال ورقة بن نوفل لزيد بن عمرو: لقد
كدت تلقي بنفسك إلى التهلكة.

قال زيد: هم من يلقون بأنفسهم إلى التهلكة ولست أنا.

قال عبيد الله بن جحش: فلنبتعد قبل أن يرانا الآخرون.

ابتعد الأربعة عن لهو قريش إلى المساء، وقتها كان الجميع تعباً
وغادروا إلى منازلهم، وتركوا صنمهم وما بقي من احتفالاتهم لينظفهم
عبيدهم في الصباح.

التقى الأربعة مجدداً، كان الجو هادئاً، والسماء صافية،
اقتربوا من الصنم الكبير الذي كان الجميع يعظمونه ويطوفون حوله،
فإذا به ملقى على الأرض لم ينتبه إليه أحد!

ابتسم ورقة بن نوفل وقال: ها هو الصنم الأعظم.

قال عثمان بن الحويرث: إنهم حتى لم ينتبهوا إليه عندما

سقط.

قال زيد بن عمرو: هذا سخف واضح، أين عقول الناس؟
يطوفون بصنم ويتركون بيت إبراهيم!

عندها قال عبيد الله بن جحش: اصدقوا الحديث، وليكنتم
بعضكم على بعض.

قالوا: أجل.

عندها قال ورقة بن نوفل: تعلمون والله ما قومكم على دين،
ولقد أخطأوا الحجة وتركوا دين إبراهيم، ما حجر يطوفون به لا
يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر.

أشار الثلاثة بالإيجاب، فتابع قائلاً: يا قوم، التمسوا لأنفسكم
الدين، فما أنتم والله على شيء.

نظر الثلاثة إلى بعضهم، قال زيد بن عمرو: فأين نلتمس الدين
الصحيح؟

قال عثمان بن الحويرث: نذهب إلى الشام، ففيها الكثير من
العلماء.

وافقهم الثلاثة، وهكذا قرروا بداية الرحلة للبحث عن الدين
الصحيح.

عاد زيد بن عمرو إلى منزله، استقبلته زوجته فقال لها:
جهزي أمتعتي، سأرحل إلى الشام.

قالت مستبشرة: فلتحفظك الآلهة، ولتعد إلينا ببضاعة ثمينة
وربح وفير.

قال زيد: الآلهة لن تحفظني، ادعي الله أن يهديني إلى الطريق
الصحيح.

قالت زوجته: وما الفرق؟ الآلهة تقربنا إلى الله، ندعو لها
فندعو لله.

قال زيد: بل هي حجارة لا تضر ولا تنفع، تشركونها بالله
الواحد.

تنهدت زوجته وقالت: لا تفكر في الأمر كثيراً، ركز في التجارة
الآن.

ارتحل عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو معاً
في قافلة واحدة إلى الشام، كل منهم يرجو أن يقع على الحقيقة
الكاملة، ويصل إلى المعبود الحق، بينما بقي عبيد الله بن جحش في مكة
على ما هو عليه.

بينما كانت قريش منشغلة بتجارتهما في الشام، كان كل من ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو يسألون الناس عن الديانات السائدة في البلاد، فدلهم الناس على رهبان النصارى.

التقى ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو براهب ذو علم وحكمة، رحب بهما وعرض عليهما النصرانية، وقص عليهما ما كان من أمر عيسى ومريم، وأمر الديانات السماوية.

خرج الاثنان من عنده، فقال ورقة بن نوفل: إنه رجل حكيم ولديه علم وفير.

قال زيد بن عمرو: قد يكون كذلك، ولكن ليست لديه الحقيقة الكاملة.

قال ورقة: ماذا تعني؟

قال زيد: دين إبراهيم.

قال ورقة: عيسى على دين إبراهيم.

قال زيد: هذا ليس الدين الخالص، وليست عبودية الله الواحد،

ألم تر تعظيمهم الصليب؟

قال ورقة: إنه تعظيمهم لشأن عيسى بن مريم.

هز زيد بن عمرو رأسه فقال ورقة بن نوفل: لقد أعجبني

أمرهم، أظن أنني سألازم هذا الراهب حتى أتعلم منه العلم الوفير.

فقال زيد: إنه أول من نسأل يا ورقة، تعال نضرب في الأرض أكثر.
وافقه ورقة بن نوفل على أن يبحثوا عن عالم آخر رغم أنه كان
قد اقتنع بأمر النصرانية من الراهب العالم.

ارتحلاً معاً إلى الموصل، حيث دله الناس على راهب عالم فيها،
فلقيه ورحب بهما، وكان لديه من العلم الكثير، ففرح به ورقة بن
نوفل كثيراً، وزاد اقتناعاً بالنصرانية، بينما ما يزال زيد بن عمرو
منها في شك.

لاحظ الراهب اهتمامهما في شأن دين إبراهيم، فسألتهما: من أين
أقبلتما؟

أجابه زيد: من بيت إبراهيم.

سأل الراهب: وما تطلبان؟

قال زيد: الدين.

فقال الراهب: فما رأيكما بالنصرانية؟

قال ورقة: أنا أقبلها، إنها على دين إبراهيم.

بينما قال زيد: لا حاجة لي فيها.

فقال الراهب لزيد بن عمرو: ارجع، فإنه يوشك أن يظهر الذي
تطلب في أرضك.

استبشر زيد بن عمرو كثيراً، بينما ظل ورقة بن نوفل عند رأيه يريد تعلم النصرانية على يد العلماء في الشام.

هرع زيد بن عمرو عائداً وحده إلى مكة وهو يقول: لبيك حقاً حقاً. وصل زيد مكة بسرعة، ونزل إلى الكعبة وطاف بها ينظر حوله، سيعود دين إبراهيم، هنا دين إبراهيم، وقف قائلاً: لبيك حقاً حقاً، تعبدوا ورقاً.

لم تطل فرحته واستبشاره طويلاً، حيث عاد ينظر إلى قومه يسجدون للأصنام، ويذبحون لها، ويأخذون الأموال من الفقراء تقرباً للآلهة، ويشربون الخمر ويقتلون المواليد الإناث.

نظر إلى الكعبة، ثم إلى السماء وقال: آمنت بما آمن به إبراهيم، وعدت بك بما عاز به إبراهيم. وسجد عند الكعبة.

نظر إليه الناس باستهجان، واقترب منه عمه الخطاب بن نفيل وقال: متى عدت من الشام يا زيد؟

قال زيد: عدت للتو، وطففت ببيت إبراهيم.

قال الخطاب: فما كان ما تقول قبل قليل؟

قال زيد: آمنت بما آمن به إبراهيم.

قال الخطاب: ونحن أهل بيت إبراهيم.

قال زيد: بل تشركون بالله وتعبدون الأوثان التي تصنعونها
بأيديكم، وتقتلون البنات من المواليد، وتأتون المنكر، وتسرقون
وتكذبون، وما كان هذا من إبراهيم.

غضب الخطاب وقال: أتترك دين آبائك يا زيد؟

عندها ركز زيد بن عمرو ظهره على جدار الكعبة وقال في
الناس: يا معشر قريش! ما على الأرض إنسان على دين إبراهيم غيري.
ضح الناس مما سمعوا، وغضب الخطاب بن نفيل غضباً شديداً،
وقال لزيد: فأنت تترك دين آبائك!

قال زيد: حجارة لا تضر ولا تنفع، لقد ضللتكم أنتم وآباؤكم،
وأنا لا أشرك بربي شيئاً، وإني على دين إبراهيم، لو أعلم أحب
العبادات إلى الله لتعبدت بها.

وسجد ثانية إلى الكعبة ثم أنشد:

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور؟
عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا هبلأ أدين وكان رباً لنا في الدهر إن حلمي يسير

وقال: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم.
غضب الخطاب بن نفيل لجرأة ابن أخيه، فقال: اذهب فتعبد
دينك خارج مكة.

قال زيد بن عمرو: الله في كل مكان.
فصرخ الخطاب بن نفيل في شباب قريش: يا شباب قريش،
عليكم بزيد بن عمرو، لا يدخلن مكة ولا يخالطن أهلها.
فتجمع شباب قريش وسفهاؤها حول زيد بن عمرو يطردونه
أمام الناس، فقال زيد: الله في كل مكان، وهذا بيت إبراهيم، وأنا أحق
الناس به.

غادر زيد المكان مرغماً، وذهب إلى منزله حيث تنتظره زوجته،
قالت بلهفة: كيف كانت التجارة؟ هل هناك من مال وفير؟
ولكن زيدا قال: سنغادر المنزل.

قالت: ماذا حدث؟

قال: سنسكن أعلى مكة، سنبتعد عن القوم.

قالت: ماذا فعلت؟

قال: سأعبد إله إبراهيم هناك، لا حاجة لي في ضلالات القوم.
استاءت زوجته كثيراً وقالت: ما دين إبراهيم؟ أتترك دين

آبائك وتغادر قومك؟ ما هذا برأي.

قال: بل هو الرأي والصواب والنجاة، احزمي الأمتعة، سنخرج حالاً.

نظرت إلى خارج المنزل فإذا بسفهاء قريش يلقون الحجارة على المنزل، فحزمت أمتعتها تلوم زوجها على كل ما جرى، وخرجا إلى أعلى مكة يسكنان بعيداً عن الناس.

وفعلاً خرج زيد بن عمرو يسكن أطراف مكة يتقرب إلى الله الواحد ويعتزل الأصنام، وكان الخطاب بن نفيل يبعث إليه شباباً وسفهاء من قريش يمنعونهم من دخول مكة إن حاول.

أما عثمان بن الحويرث، فقد كانت رحلته إلى الشام ذات هدف مختلف، فقد رأى عظمة قيصر، وعظمة الروم، وحاجة قريش لتجارة الشام، وبات يرغب في السلطنة، وفكر في طريقة يسود فيها مكة ويضمها معه إلى حكم قيصر، فتنصّر، وحدثت له قصة بين قيصر وقريش، مات على إثرها مسموماً^(١).

(١) قصة عثمان بن الحويرث:

تنصر عثمان بن الحويرث ودخل على قيصر يقول له: أيها الملك العظيم، جئتك من بلاد تدين لها العرب، جئتك من مكة فيها بيت تطوف إليه العرب، جئتك من بلاد تتاجر

إليك العرب كل صيف، فلو ضمنتها أيها الملك إلى ملكك، تكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاء، وأكون لك خادماً عليها، مطيعاً مخلصاً ما حييت.

ترجم المترجم الكلام لقيصر، فأعجبه ما قال، ووافق عليه، وملك عثمان مكة، يكون والياً له عليها، وكتب له كتاباً يقرؤه على أهل مكة مختوماً بالذهب، وبعثه على بغلة عليها سرج عليه الذهب.

وصل عثمان بن الحويرث مكة، وطاف بالبيت يقول: يا قوم، إن قيصر من قد علمتم، أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم، وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما آخذ منكم بعض منتجاتكم فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمتنع منكم الشام، فلا تتجروا به، ويقطع مرفقكم منه.

هال الأمر أهل مكة، وخافوا قيصر، وخافوا على تجارتهم إلى الشام، فأجمعوا على أن يسمعوا كلام عثمان، ويعقدوا على رأسه التاج في المساء.

حل المساء، وطاف الناس حول الكعبة، فوقف رجل في الناس وصاح: يا عباد الله! أملك في قريش؟

فتوقف الناس عن الطواف، وتجمعوا يقولون: صدق واللات والعزى، ما كان في قريش ملك قط، ما لنا ولهذا الأمر؟ نعطي أموالنا إلى قيصر ونخضع للملوك.

ونظروا إلى عثمان بن الحويرث في غضب، وقالوا: انصرف عنا، فلست ملكاً علينا، وليس لقيصر منا شيء.

فرد عثمان قائلاً: فلنرى إذا سخط قيصر عليكم.

وركب حصانه وذهب إلى قيصر ليعلمه، أما قريش فقد أرسلت إلى رجالها في الشام ليفسدوا العلاقة بين عثمان وقيصر، فبعثوا برجل إلى المترجم ليحرف كلام عثمان لقيصر، وفعلاً وصل عثمان إلى قيصر يكلمه، فسأل قيصر المترجم: ما قال؟

قال المترجم: مجنون يشتم الملك.

غضب قيصر وأراد أن يقتل عثمان، وأمر بسجنه، فمر بعثمان رجل من أصحاب قيصر من أصول عربية، فقال له عثمان: إني أراك عربياً، فمن أنت؟

قال الرجل: رجل من بني أسد، وأنا أكره أن يدروا بنسبي.

سأل عثمان: فما دهاني عند قيصر؟

قال الرجل: المترجمان، كان يحول كلامك.

قال عثمان: أرجوك أدخلني على قيصر مدخلاً واحداً.

٧ / - ٥٤ هـ | ٨ / ٥٧٠ م تقريباً

آمنة بنت وهب^(١)

كبر أولاد عبد المطلب، وانخرطوا في أمور قريش، وبات عبد الله بن عبد المطلب شاباً يافعاً وسيماً، كريم الخلق، شريف النسب، تتطلع إليه كل نساء القبائل.

سار عبد الله في طرق مكة، فاستوقفته إحدى الفتيات تقول:
يا عبد الله، اقض الليل في نادينا، ستشهد ليلة أسعد ما تكون إلى قلبك.
فقال لها عبد الله: مالي حاجة في لياليكن يا فتيات الهوى،
ابحثن عن غيري.

وافق الرجل، واحتال لإدخال عثمان بن الحويرث إلى قيصر ثانية بوجود المترجم ذاته، فوثب عثمان على المترجم، فعلم قيصر أن لعثمان قصة، فطلب مترجماً آخر، وفهم القصة، فعاقب المترجم الأول، وأمر عثمان بن الحويرث على تجار قريش في الشام يعاقب من تأمر عليه، ولكنه وأثناء تواجده في الشام قام تجار قريش بدس السم له، وقتلوه مسموماً، وذهبت معه قصة الملك.

(١) أم النبي ﷺ، لها دور في السيرة قبل البعثة.

فقالت: ما في غيرك ما في وجهك يا عبد الله.

أشار إليها أن لا فائدة من الجدل، وتابع مسيره بينما قابل أخاه أبا لهب الذي فرغ من توه من التمسح بالأصنام والتقرب إليها، يقول له: ما لك ترفض الحسان يا عبد الله؟ وقد حالفك الحظ في وجه جميل يجتذب النساء.

قال عبد الله: مالي فيهنّ من حاجة، إنما أريد زوجة صالحة يا أخي.

ضحك أبو لهب وقال: زوجة صالحة! إن قريشاً تبادل زوجاتها مقابل القليل من المال، وأنت تريد زوجاً صالحاً.
انزعج عبد الله من ضلالات أخيه وقال: ما تفعله قريش ليس قويمًا وإن فشى.

قال أبو لهب يائساً من أخيه: ستبقى حياتك مملة يا أخي، أما أنا فأستمتع بكل لحظة فيها.

قال عبد الله: حتى عندما خسرت مالك في القمار وسرقت آلهة المعبد الذهبية.

تلّفت أبو لهب خشية أن يكون أحدهم قد سمع ما قال عبد الله، ثم أمسك يده بشدة ينهاه عما تفوه به وقال: لقد اقتصت قريش من

الفاعل، وليس لي شأن بهذا.

ابتسم عبد الله يقول: اقتصت من المساكين الذين أمرتهم بما أردت فعله، ولولا نسب أبيك وجدك لما نفذت من العقاب، وقريش جميعها تعلم ذلك.

دفع أبو لهب أخاه بقوة غاضباً مما يقول، وتركه قائلاً: إياك أن تتحدث في أمور لا تخصك، ابتعد عني، سأكثر من الخمر هذه الليلة حتى أنسى لقاءنا هذا.

تابع عبد الله سيره في مكة، واتجه نحو الكعبة، التي كانت تحوطها تماثيل الآلهة من كل مكان، ذهب وخشب وحتى التمور تشكلت بأشكال الآلهة.

وقف عبد الله إلى إحداها يقول: أيتها الآلهة، أريد زوجاً صالحاً، ما لي بشيء من ضلالات قريش.

عندها سمع أخاه أبا طالب ينادي: عبد الله! يا عبد الله! إن أبانا عبد الملطب يطلبك.

قال عبد الله: خيراً؟ ماذا يريد أبي مني؟

قال أبو طالب: أظنه خير يا عبد الله.

كان وجه أبو طالب مشرقاً، فاطمأن عبد الله للخبر، فسأله: ألا

تذهب معي إلى والدي؟

قال أبو طالب وقد تغير لون وجهه: أنا في طريقي لأحل مشكلة

الوآء في قريش.

قال عبد الله: فتاة أخرى، وضحية أخرى.

هزّ أبو طالب رأسه يقول: ما يزال الرجل يظن أن ابنته تجلب

العار وهي ما تزال طفلاً رضيعاً.

حزن عبد الله بهذا الخبر، ولكن أبا طالب وضع يده على ذراع

أخيه يقول: اذهب إلى أبنينا، إنه ينتظرك، ودع عنك ضلال قريش.

ذهب عبد الله إلى أبيه عبد المطلب الذي كان يحبه حباً جماً،

ويرى فيه الخير الكثير من بين إخوته جميعاً.

جلس عبد الله إلى أبيه عبد المطلب بن هاشم، يلعب أولاده

حمزة والعباس اللذين باتا في الثانية والثالثة من العمر، ما إن شاهدها

أخاهما عبد الله حتى انطلقا إليه يعانقانه، فقد كان حنياً بهما، وكانا

يحبانه كثيراً.

طلب عبد المطلب إلى أولاده أن يتركوه مع ابنه عبد الله لوحدهما،

ففعلا، فقال عبد الله: ما الأمر الذي تناديني من أجله يا أباي؟

قال عبد المطلب: لقد كبرت يا بني، واشتدّ ساعدك، وبتّ رجلاً
تريده كل نساء قريش، فإني ناصح لك بزواج يتمناها جميع الرجال.

قال عبد الله: فمن تكون يا أبت؟

قال عبد المطلب: زهرة قريش.

قال عبد الله: آمنة بنت وهب؟

ابتسم عبد المطلب وقال: أفضل نساء قريش حسباً ونسباً، والدها
سيد بني زهرة، وجدها من والدتها أسياد بني عبد الدار، وهي
صاحبة بيان وذكاء، ولسان طليق.

قال عبد الله: ما أنقصت من حقها شيئاً يا أبي، إنها أفضل نساء
قريش ولا أعلم أفضل منها، ويسرني أن تكون زوجي، وأم أولادي.
ابتهل عبد المطلب، ونهض من فوره يأخذ بيد ابنه ويقول: هلمّ
إلى منزل وهب بن عبد مناف الزهري.

انطلق عبد المطلب إلى جانبه ولده الحبيب عبد الله، اليوم لاحظ
عبد الله فتيات مكة ترمقنه بنظرات قوية، وبعضهنّ لم يأبهنّ بتواجد
والده عبد المطلب إلى جانبه، بل توددن إلى عبد الله تطلبن إليه أن
يحضر إلى حجرهنّ.

اعتاد عبد الله على مظاهر كهذه في مكة، ولكن ما يحدث اليوم كان أكثر مما اعتاد عليه من قبل، هل يعلمن أنه زاهب لخطبة آمنة؟ لا يظن أن والده قد أفضى بالأمر لأحد قبله.

وصلا منزل وهب بن عبد مناف واستأذنا بالدخول، فرحب بهما وهب ترحيباً حاراً: يا مرحباً ببني هاشم، يا مرحباً بأشراف القوم، تفضلوا.

بعد حوار قصير حول أوضاع قريش، قال عبد المطلب: يا شريف بني زهرة، نحن هنا نطلب جوار ابنتك الشريفة، زهرة قريش، آمنة بنت وهب لابني الحبيب عبد الله.

ابتهل وهب، وقال: نعم النسب والأخلاق، لا يرد أحد بني هاشم، فلنسمع رأي آمنة في ذلك.

طلب وهب أن تحضر آمنة، فدخلت عليهم تلبس أفضل الثياب، تدخل بحياء الأميرات، وتقف إلى جانب والدها، فسألت: سمعاً وطاعة يا والدي، ما الخبر؟

فقال وهب لابنته: هذا عبد المطلب شريف قريش، يطلب خطبتك لابنه الحبيب عبد الله، فماذا تقولين؟

نظرت آمنة إلى عبد الله في حياء، ثم قالت: الدَّبِيح، ابن حافر

زمزم، ابن هاشم الثريد، ابن الذبيح اسماعيل، شرف على شرف.
نهض عبد المطلب يقول: حفظتك السماء يا آمنة، كريمة شريفة
وذات لسان طليق.

وقف عبد الله سعيداً بما قالت آمنة، راضياً بها زوجة سالحة،
لن يرضى عنها بديلاً.

فقال عبد المطلب: الليلة نطعم الطعام، ونذبح الذبائح، وتعزف
القيان بزواجكما.

فكان الزواج، وزُفَّتْ آمنة بنت وهب لعبد الله بن عبد المطلب،
وفرحت قريش بزفاف شريف ونسب عظيم.

وقضى عبد الله الليلة في منزل بني زهرة، كما كانت الأعراف،
وقضى ليلة جميلة مع زوجته الكريمة آمنة.

في هذه الليلة رأت آمنة ما لم تخبره من قبل، نور ساطع أضاء
المكان، بل أضاء لها الدنيا بأكملها، حتى أنها رأت بعينها قصور
بصرى في الشام، وكأن حاجزاً قد أزيل من أمامها، وسمعت منادياً
يقول: يا آمنة! لقد حملت بسيد هذه الأمة.

ظلّ الصوت يتردد في أذن آمنة، وسألت زوجها عبد الله إذا ما
كان سمع ما سمعت، ولكنه قال: أظن أنني لاحظتُ نوراً غريباً،

ولكنني لم أسمع شيئاً، لربما كان التعب يا آمنة.
أطرقت آمنة تفكر، لم يكن ما رأته وسمعت نتاج الإرهاق
والتعب، فقد كان حقيقياً أكثر من أن تتجاهله.

بارك الجميع للزوجين في اليوم التالي، وخرج عبد الله إلى قريش
يتابع شؤونها وتجارته.

لاحظ عبد الله أن نساء قريش أعرضن عنه، فاجأه التغير الشديد
في موقفهن بين يوم وليلة! فاستوقف إحداهن وقد كانت قد طلبت إليه
بشدة أن يستجيب إلى مطالبها من قبل، وسألها: ما بال نساء قريش
يعرضن عني بهذه الطريقة؟

فقالت: فارقتك النور الذي كان بالأمس، فليس لنا بك حاجة.
وأعرضت عنه وتابعت سيرها تتودد إلى رجال آخرين.
نور! ألم تقل آمنة أنها رأت نوراً ساطعاً؟

بدأت قريش تجهز أمتعتها لتنطلق إلى الشام، ولم يمض على
زواج عبد الله وآمنة أكثر من عشرة أيام، وكان عبد الله منطلقاً مع
القوم، حزن آمنة لفراق زوجها الحبيب، وودعته بدموع العاشق

تستودعه الآلهة أن يعود إليها سالماً.

كانت الرحلة طويلة، ويصعب على آمنة التعرف على خبر القافلة وحال زوجها، ولكنها صبرت وانتظرت أخباراً عن زوجها.

مرت الأيام وعلمت آمنة أنها حامل، وفرحت قريش بهذا الخبر، ونسب هذا الطفل العظيم، وشأنه الكبير الذي ينتظره في قريش بين أقربائه، ولكن آمنة كانت تشعر بشعور مختلف، إنه ليس الحسب والنسب، إنهم ليسوا الأقرباء، إن هذا الطفل مختلف.

لم يمض شهران على حمل آمنة، وبدأت ترى رؤى غريبة، قدم إليها رجل حسن في المنام يقول لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة. استيقظت آمنة تتصبب عرقاً، تتلمس بطنها وحبیبها الصغير فيه، سيد الأمة.

في ليلة أخرى، جاءها ذات الرجل، ونظرت في بطنها حيث نور يسطع فيه، فقال: يا آمنة! هذا سيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولی أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سمّيه محمداً.

أفاقت آمنة، وما يزال صوت الرجل يتردد في أذنها، محمد.. محمد..

مرّت الأشهر على حمل آمنة، وبدأ الحمل يظهر بوضوح عليها،

ولكنه كان حملاً خفيفاً يسيراً، وبينما كانت تفكر في شأن هذا الطفل العظيم كانت تنتظر بفارغ الصبر خبراً عن حبيبها عبد الله الذي طال غيابه عنها.

كان عبد المطلب سعيداً بآمنة، ومحباً لحفيده قبل أن يولد، وكان يقول لولديه الصغيرين العباس وحمزة أن ابن أخيكما عبد الله سيكون خير صديق لكما.

رحل عبد المطلب في قافلة صغيرة لتجارة قرب مكة، وهناك نزل هو وزملاؤه على عالم في الكتب السماوية، فرحب بهم وسألهم: من أي قوم أنتم؟

أجاب عبد المطلب: من مكة، أهل البيت.

استبشر العالم وقال: أجد في الكتب السماوية أن رسولاً يبعث في آخر الزمان من هذه المنطقة، وأظنه يولد هذا العام، وسيكون اسمه محمد.

نظر الرجال إلى بعضهم يفكرون في كل امرأة حامل يعرفونها، وخطر ببال عبد المطلب آمنة بنت وهب زوجة ابنه عبد الله، هل يُعقل أن تحمل بنبي؟ ولم لا؟ إنه ابن أحب أولاده إليه، وأنسب قریش.

رحل الرجال عائدين إلى قريش، وكل منهم يفكر بهذا الاسم الذي لم تكن قريش قد اتخذته اسماً معروفاً بينها، ولكنه اسم جميل ويحمل مديحاً وثناءً عظيمين، فنذروا إذا ما كان المولود ذكراً أسموه محمداً^(١).

وسط كل شؤون قريش في التجارة واللهو والمرح، ووسط سعادة عبد المطلب بحفيده وأولاده، ووسط سعادة بني زهرة بنسب الطفل القادم، كانت آمنة لا تستطيع أن تتجاهل رؤياها المتكرره في شأن هذا الطفل، ولكن من له أن يفسر لها تلك الرؤى؟ استشارت جاريتها بركة بنت ثعلبية^(٢)، فكرت بكهنة المعابد، ولكن آمنة لم تشعر بالارتياح لهم، وفكرتاً وبحثتاً عن عالم يساعدها فيما ترى، وأخيراً اقترحت بركة ورقة بن نوفل، فمال قلب آمنة لهذا الرأي، ورقة بن نوفل قد تنصّر، واتبع دين الإله الواحد.

اقترحت بركة أن تنادي أخت ورقة، حتى لا تعلم قريش بما

(١) ذكر من بين الأولاد الذين تسموا باسم محمد بعد هذه الرحلة مع محمد بن عبد المطلب رسول الله: محمد بن سفيان بن مجاشع (جد الفرزدق)، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح (أخو عبد المطلب لأمه)، ومحمد بن حمران بن ربيعة.
(٢) بركة هو اسم أم أيمن، جارية والدة النبي، اشتهرت بكينيتها أكثر، ولها دور في السيرة كاملة.

تفعل، فقبلت آمنة، واستدعت قتيلة بنت نوفل^(١) أن تحضر إلى آمنة، فليديها بعض من علم أخيها.

جلست قتيلة إلى آمنة وحدهما، وكانت آمنة حريصة ألا يسمع أحد ما تقول وما تفكر فيه، بدأت حديثها قائلة: إن أخاك ورقة بن نوفل يؤمن بالأنبياء، ولا يعبد الأصنام.

قالت قتيلة: يعبد الإله الواحد، ويؤمن أن الأنبياء هم أشرف الخلق، حاملوا رسالة الرب، ناصحوا البشر إلى ما فيه صلاحهم وهدايتهم.

قالت آمنة: ألم يكن جدنا إسماعيل نبياً؟

قالت قتيلة: يؤمن أخي بذلك.

سألت آمنة: ألا يوجد نبي بعده؟

قالت قتيلة: مر على البشر الكثير من الأنبياء، ولكن أحدهم لم يكن من أبناء إسماعيل.

شعرت آمنة بخيبة أمل، فنظرت قتيلة في عينيها وقالت:

اصدقيني القول يا آمنة، ما يقلقك؟

قالت: أشعر أنني أحمل مولوداً له شأن عظيم، إنني أكاد أرى

(١) قتيلة بنت نوفل هي أخت ورقة بن نوفل، ستذكر في هذا الموضع فقط.

الرؤى كل يوم، أطلقى عليه اسم محمد.

فكرتُ قتيلة: محمد.. محمد.. يالرب!

تفاجأت آمنة من ردة فعلها، فقالتُ قتيلة: إذا ما كان ذلك

صحيحاً، فإنها النبوءة يا آمنة.

قالتُ: ماذا تقصدين؟

قالتُ قتيلة: لقد أخبرني أخي نوفل بنبي آخر الزمان ذُكر في

الإنجيل، يأتي بعد عيسى، اسمه أحمد.

تعجبتُ آمنة: أحمد! أحقاً ما تقولين؟

قالتُ قتيلة: هذا يوم عظيم يا آمنة، إذا ما كان حقاً ما تقولين،

فإنه نبي آخر الزمان، بوركت يا آمنة.

شعرتُ آمنة بشيء من السعادة والقلق، إنها تعلم أنها تحمل

بمولود عظيم، ولكنها شعرتُ بمسؤولية أكبر إذا ما كانت فعلاً تحمل

نبي آخر الزمان، سألتُ: ماذا أفعل؟

قالتُ قتيلة: اعتني به جيداً يا آمنة، واتبعي الرؤيا.

خرجتُ قتيلة بنت نوفل من حجر آمنة بنت وهب، وما إن

ابتعدت حتى قدمت إليها بركة مع والد آمنة وهب بن عبد مناف،

وجبهه حزين ويحمل خبراً مفاجئاً.

ضمت آمنة يدها إلى صدرها، وشعرت بهول الخبر القادم،
سألته على الفور: ما الأمر يا أبي؟ هل من خبر عن عبد الله والقافلة؟
أمسك الأب كتف ابنته وأدخلها المنزل، وأجلسها، فقالت
بانفعال: ماذا جرى يا أبي؟

قال وهب بصوت حزين: لقد مرت القافلة بالشام، ثم عادت في
طريقها إلى يثرب، وهناك مرض عبد الله مرضاً شديداً، ومكث عند
أحوال عبد المطلب من بني النجار يعتنون به، وتابعت القافلة طريقها
بدونه.

قالت آمنة مضطربة: هل هو بخير يا أبي؟
سكت وهب قليلاً، يفكر كيف له أن يقول ما سيقول، ثم
استجمع قواه وقال: كان مرضه شديداً ولم يستطع أحد علاجه، وقد
مات ودفن في يثرب.

كان وقع الصدمة شديداً على آمنة، ما كانت الدموع لتصف حباها
وشوقها لزوجها، ورغبتها في مشاركته فرحته بابنه العظيم الشأن،
نهضت بصعوبة، ودخلت حجرتها الخاصة، وذرفت دموعها وحدها
حسرة على زوجها، وعزلت نفسها عن الناس لأسابيع.

كذلك كان وقع الخبر قاسياً على عبد المطلب وأولاده إخوان عبد الله، صرخ عبد المطلب حزناً على ولده وسط مكة، وبكى ولده لدى الأصنام، وطلب إليها مراراً وتكراراً أن تفديه بابنه ثانية، وأنه مستعد لفدائه بآلاف الإبل.

عم الحزن مكة، وظل أبناء عبد المطلب يبكون، وعانق أبو طالب أخويه الصغيرين العباس وحمزة يشعران بألم الأب والأخوة، ولا يتصوران أنهما لن يلعبا مع عبد الله ثانية.

أما آمنة، فقد وضعت يدها على بطنها الحامل، وقالت تخاطب جنينها: لقد فدته الآلهة بمئة إبل ليعيش إلى هذا اليوم، اليوم الذي تولد فيه أنت، لتولد أنت فقط.

في هذه الأثناء قدم ثلاثة أخوة من اليمن، أحدهم كان يدعى ياسر بن عامر^(١)، كانوا يبحثون عن أخ لهم قد ضاع، وقد جابوا البلاد بحثاً عنه دون جدوى، وكذلك سألوا عنه في قريش كثيراً، ولكن لا أحد يعرف عنه شيئاً.

(١) ياسر بن عامر، صحابي، هو والد الصحابي عمار بن ياسر، له دور في السيرة إلى بداية البعثة.

تعب الثلاثة من البحث، وحان وقد الرحيل، قال أحد الإخوة:
لم نجد له أثراً، أرجو ألا يكون قد أصابه مكروه.

قال الآخر: فلتحفظه الآلهة، علينا أن نعود إلى بلادنا، ما رأيك
يا ياسر؟

ولكن ياسراً كان ينظر حوله، ويحدق في الكعبة، فقال أخوه:
ياسر! ما رأيك؟ سوف نعود.

قال ياسر: لست أدري، ولكنني أشعر أنني أريد البقاء هنا.
ضحك أخواه وقال أحدهما: لنعد إلى بلادنا، نحن لا نملك شيئاً
هنا.

قال ياسر: أحببت هذا المكان، وهذا البيت، بيت الله.

قال الرجل: نحن نحج إليه كل عام، ليس عليك أن تظل هنا.

قال ياسر: عودا، سوف أظل هنا.

تعجب الأخوان وقالوا: نحن لا نملك شيئاً هنا يا ياسر! ماذا
ستفعل؟ سيؤذونك.

قال ياسر: أحالف أحدهم، لم ولن أكون عالة على أحد.

قال أحد الأخوان: هل ستخدم القرشيين؟

قال ياسر: أحالفهم وأساعدهم، وأظل قرب بيت الله.

قال الأخ الآخر: افعل ما تشاء، عندما تتعب ستعود إلى بلادنا،
أما أنا فأريد العودة اليوم قبل الغد.

قال الآخر: أنا أيضاً تعبت من الترحال، فلنعد يا ياسر.

قال ياسر: أنا جاد، عودا، سأكون بخير.

لم يستطع الأخوان إقناع ياسر بالعودة إلى الديار، فعادا وحدهما
بينما بحث ياسر عمن يحالف، فذهب إلى رجل من آل مخزوم^(١)،
وحالفه، وعمل عنده فأحبه المخزومي، وزوجه أمة عنده تدعى سمية
بنت خياط^(٢)، وما هي إلا أشهر حتى ولد لهما طفل أسموه عمار، فكان
عمار بن ياسر^(٣)، وبارك لهما المخزومي بإعتاق العائلة كاملة.



(١) أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي، سيذكر في هذا الموضع فقط.

(٢) سمية بنت خياط، صحابية، لها دور في السيرة إلى بدايات البعثة.

(٣) عمار بن ياسر، صحابي، له دور مهم في السيرة كاملة.

١ / ٥٣ هـ | ٢ / ٥٧١ م

عام الفيل

حكم أبرهة الأشرم^(١) اليمن، وكان حاكماً شديداً حازماً، أطلق عليه لقب الأشرم بعد مبارزة أدت إلى شرم حاجبه وأنفه وعينه وشفته، يدين بالنصرانية، يرقب جميع الأحداث من حوله، ويطمح في حكم مملكة طويلة وقوية يتحدث عنها التاريخ إلى آلاف السنين المقبلة.

استدعى أحد وزراءه يسأله: لماذا أرى الناس والتجار يتجهون إلى مكة؟ ما مقومات نجاحهم وتجارتهم؟
أجاب الوزير: إن في مكة موقعاً يزوره الحجيج من كل مكان، يطلقون عليه اسم الكعبة، يطوفون حولها، ويقدمون القرابين، ويدعون الآلهة، وهي مقدسة عندهم.

(١) أبرهة الأشرم، حاكم اليمن، سيذكر في هذا الموضع فقط.

سأل أبرهة: ما ماهية قداستها؟

أجاب: يقولون أن نبياً قد بناها مع ابنه بأمر من الآلهة.

قال أبرهة: الأنبياء لا يعبدون الآلهة، إنهم على ضلال، ابعث

لي بأفضل البنائين وأشهر المصممين، أريد أن أبني كنيسة يحج إليها جميع العرب، يتحدث عنها الرحال والمؤرخون فلا يستطيعون إعطاءها حقها في الوصف.

هكذا جمع أبرهة أفضل المصممين، والبنائين، والرسامين، والحرفيين، وبنى كنيسة عظيمة تسر الناظرين أطلق عليها اسم القليس، وكان أكيداً من خطته باستقطاب العرب إليها، ونسيان الكعبة الصغيرة البسيطة.

وبعث إلى سيده ملك الحبشة بكتاب يقول له: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قد كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

مرت أشهر دون أن تحظى الكنيسة بزوار أو حجيج، ولم يأبه أحد من العرب بها، بل وبعد أن باتت الكنيسة كئيبة لطول انتظارها زائراً يمسح على جدرانها، ويطرب أفناءها، بدأ الجميع يسخر منها،

ويسخر من فكرة أبرهة الأشرم في استقطاب الحجيج إليها، وانتهى الأمر بأن زارها أحد العرب وقضى حاجته في أفنائها.

غضب أبرهة غضباً شديداً، ونادى وزراه يسألهم عن سبب فشل الكنيسة العظيمة لاستقطاب الحجيج، فقال الوزراء: ما تزال الكعبة تسيطر على نفوسهم، ولا يحجون إلا إليها.

وقف أبرهة غاضباً وصاح: فلتسقط الكعبة إذن! وهل تستعصي علي الحجارة؟ اجمعوا لي الفيلة وأقوى المقاتلين، إنا لمعلموا العرب من هم الأحباش.

انطلق أبرهة بجيشه، تتقدمه الفيلة التي لم تشهدها العرب من قبل، هدفه هدم الكعبة، ومن ثم السيطرة على بلاد العرب وضمها إلى ملكه وسلطانه ومملكة الحبشة.

ساد الخوف القبائل، فلم يكن لهم قبل عراك مع الفيلة، واستسلمت معظم القبائل الواقعة في الطريق إلى مكة، والتي قاتلت قد أصابها أذى كبير، وخسرت جنودها ونقودها.

وبعض القبائل لم تكتف بالاستسلام، بل عرضت مساعدة أبرهة مقابل عدم العبث بالقبيلة وممتلكاتها، قائلين: أيها الملك، إنما نحن

عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا الذي تريد، إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه.

فبعثوا معه من يدلّه على الطريق إلى مكة، يخونون إخوانهم فيها.

وصل أبرهة أطراف مكة، بينما كان أهلها يعيشون بسلام، يتحادثون ويتاجرون، فهم أصحاب علاقات طيبة مع جميع القبائل، تسير أيامهم كسابقتهما، لا يعلمون ما ينتظرهم.

إلى أن نادى المنادي: يا أهل مكة! يا أهل مكة! إنه العدو! الجيش يحوط مكة!

ضجّت مكة، ومن ذا الذي يريدهم بسوء وفيهم الكعبة، مقر الحجيج؟

التف الجميع حول عبد المطلب بن هاشم، بينما انتظر بحكمة وصبر المنادي لينقل له الخبر اليقين.

جاء المنادي مسرعاً إلى عبد المطلب: يا شيخنا، إنهم الأحباش، قدموا بالفيلة، يريدون هدم الكعبة.



اضطرب الجميع ، ولكن عبد المطلب قال : فلتصعد النساء والأطفال إلى جبال مكة ، وليجتمع الرجال إليّ .
أسرع الجميع طائعين لحكيمهم ، واختبأت النساء والأطفال في الجبال ، معهم تركض آمنة بنت وهب وهي حامل ، تساعدوا بركة وقد بانث آثار الحمل على آمنة ، وأثقلها صعود الجبل ، ولكن الجميع عاونها ، وأخذوا معهم حمزة والعباس الصغيرين ، واجتمع وجهاء مكة عند عبد المطلب في دار الندوة^(١) ، إلى جانبه أولاده الشباب ، منهم أبو طالب .

قال أمية بن عبد شمس : ليس لنا خبرة في قتال القبيلة .
قال آخر : لقد هُزمت كثير من القبائل ، وقُتل كثير من المقاتلين الشجعان ، هذه ليست حرباً متكافئة .
وافق الجميع على ذلك ، فقال عبد المطلب : إنها الحرب والموت ، أو الاستسلام والخضوع ، فماذا تشيرون عليّ؟

صمت الجميع ، فقاطعهم فتى دخل عليهم مسرعاً ، وقد أصابه الإنهاك والضرب يقول : يا سيدي عبد المطلب ! يا سيدي ! الإبل ! لقد سرق الأحباش الإبل ، مثناً إبل التي أرهاها لك ، لم يتركوا إبلاً واحدة .

(١) دار الندوة ، مكان يجتمع فيه وجهاء قريش للبت في الأمور المهمة .

نهض عبد المطلب، وأمسك بالصبي وقال: المهم أنك عدت سالماً،
الحق أصحابك إلى الجبال، واحتم فيها إلى أن يصلك خبرنا.
ذهب الصبي، ودخل بعده رسول من أبرهة، يطلب مقابلة
رئيس القبيلة، فوقف له عبد المطلب وقال: ماذا عندك؟
فقال الرسول: يقول سيدي أبرهة الأشرم أنه قد جاء يريد هدم
الكعبة، وليس له بكم حاجة، فإما أن تخلّوا بينه وبين الكعبة، أو
القتال والموت للجميع، وهو يطلب مقابلة زعيمكم.
تحرك عبد المطلب يقول للرسول: خذني إليه.
خشي الجميع على عبد المطلب أن يذهب بنفسه إلى أبرهة دون
حراسة، وعرضوا عليه المرافقة ولكنه طلب إلى الجميع أن ينتظروا
أوامره حين يعود.

تبع عبد المطلب الرسول إلى حيث يجلس أبرهة الأشرم في خيمة
إلى جانبها تجلس الفيلة، إنه يراها لأول مرة، بأحجامها المهولة لن
تصمد مكة لحظة واحدة ضدها.
دخل عبد المطلب مجلس أبرهة، الذي كان يجلس في أبهة
ويشرب النبيذ ويضحك مع الحاشية، وعندما وقف عبد المطلب أمامه

رأى أبرهة فيه رجلاً ذا هيبة، وشيخاً عظيم القدر، فنهض يستقبله،
وجلس إلى فراش بسيط بجوار عبد المطلب، وبينهما المترجم، فقال
أبرهة لعبد المطلب: سل حاجتك.

قال عبد المطلب: حاجتي أن يرد علي الملك منّي بعير أصابها لي.
اندهش أبرهة لهذا السيد الذي يدع بيت الرب ويطالب
بالبعير! فقال: لقد أعجبتني حين دخلت، ولكن أتكلمني في منّي
بعير أخذتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه
ولا تكلمني فيه؟

رد عبد المطلب بصوتٍ واثق حكيم: إني أنا رب الإبل، وإن
للبيت رباً يحميه.

فقال أبرهة: ما كان هذا البيت ليصمد أمامي.

أجابه عبد المطلب: أنت وذاك.

وغادر المجلس، وأخذ معه إبله، ودخل مكة، وأمر رجالها أن
يصعدوا الجبال، ويحتموا فيها.

أطاع الجميع عبد المطلب، ووقفوا على الجبال يرقبون الحدث
الجلل، بيت ديانتهم، ومركز حجيجهم، ومصدر رزقهم، يقفون
عاجزين عن الدفاع عنه.

أمسك عبد المطلب حلقة باب الكعبة، ودعا الله كثيراً أن يحمي بيته، وأنشد:

لا هُمَّ^(١) أن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبين صليبهم ومحالهم^(٢) أبداً محالك
ثم صعد إلى الجبال مع القوم، ورفع يده ثانية داعياً الله أن يخلص بيته، بيت أنبيائه، فهو القوي القادر على ذلك، وهم ضعفاء.
ودعت مكة مع عبد المطلب، ودعت آمنة، وردد حمزة والعباس الصغيرين مع الجميع، يا الله، احم بيتك.

استعد جيش أبرهة، وصعد على الفيل، وصرخ بجنوده قائلاً:
هذه نهاية الكعبة! الحقوا بي.

وأمر فيله والجيش بالتقدم خلفه، ولكن أحداً لم يتحرك! ضرب أبرهة فيله ليتحرك صوب مكة، إلى حيث الكعبة، ولكن الفيل لم يطع، كرر ضربه وأوامره دون فائدة، أمره بالالتفاف ففعل الفيل، وسار معاكساً للكعبة.

دهش الجنود! أعاد أبرهة التفاف الفيل، وأمره أن يسير صوب الكعبة، ولكن الفيل جلس على الأرض رافضاً أن يطيع صاحبه، رافضاً

(١) لاهم تعني اللهم.

(٢) المحال تعني التدبير.

أن يسير ويهدم الكعبة، بل مطيعاً أمر من هو أعلى من الملك.

صرخ أبرهة بالجنود: تقدموا!

ضرب الجنود فيلهم وخيولهم للتوجه إلى الكعبة، ولكن جميع

الدواب جلست على الأرض.

ذهل العرب القادمين مع أبرهة، وعلموا أن أمراً عظيماً يحصل.

كانت آمنة تقف على الجبل تنظر إلى الكعبة، وتضع يدها على

بطنها، يا الله، قوتك يا الله.

عندها شعرت بطائر يطير إلى جانبها، يحمل في منقاره وساقيه

ثلاثة حجارة مشتعلة، تتجه إلى الكعبة، تبعها سرب عظيم من

الطيور، كلها تحمل الحجارة المشتعلة، تتجه نحو الكعبة، ثم إلى

جيش أبرهة، تشكل غمامة سوداء عظيمة.

راقب الجميع المعركة، إنها معركة طيور ضد الفيلة وأصحابها،

ترمي الطيور حجارة مشتعلة، تقتل بها الفيلة وأصحابها بإصابات

مباشرة، وتحرق خيامهم، وتثير الهرج والمرج بالجيش.

صرخ أبرهة: ما هذا؟ من أين جاءوا بهذه الطيور؟

فصرخ العرب: الرب! الله يدافع عن بيته!

وصاح عبد المطلب ومعه قريش من أعلى الجبل: يارب! أنت

القوي يا الله! الشكر لك يا الله!

أصيب الجيش بهزيمة فادحة، وقُتل منه الكثير، وأصيب
أبرهة إصابة شديدة، وهرب مع من بقي معه من مكة، وترك موقعة
حارقة، وأشلاء متفحمة، وحرباً لم يشهد مثلها أحد من قبل.

ركض العرب إلى مكة، ونزل عبد المطلب وأهله وقريش من
الجبال سعيدين معظمين للكعبة، طافوا جميعاً حولها سعيدين
شاكرين معظمين، وبارك لهم العرب قائلين: هذا البيت عظيم، وأهله
أشراف، هم أهل الرب، قاتل الله عنهم وكفاهم عدوهم.

وأمسكت آمنة بأسوار الكعبة، ووضعت يدها على بطنها قائلة
لطفلها: رأيتَ يا محمد، هذا هو رب الكعبة.

بينما وصل أبرهة الأشرم إلى اليمن وقد ساءت حالته كثيراً، قال
لأتباعه: لقد دافع رب الكعبة عنها، صدق الشيخ.

ومات مهزوماً.

وأنشدت العرب لأهل مكة:

تنكّلوا^(١) عن بطن مكة إنها كانت قديماً لا يُرام حريمها^(٢)
سائل أمير الجيش عنها ما أرى ولسوف ينبي^(٣) الجاهلين عليمها

(١) تنكّلوا تعني انصرفوا.

(٢) لا يرام حريمها تعني لا تُطلب أرضها الحرام.

(٣) ينبي تعني يدفع.

ستون ألفاً لم يؤوبوا^(١) أرضهم ولم يعيش بعد الإياب سقيمها^(٢)
كانت بها عاد وجرهم^(٣) قبلهم والله من فوق العباد يقيمها
وقف رجل من قبائل العرب يقول في قريش: أنتم والله أهل
حرمة، وولاة البيت.

ففخر أهل قريش بأنفسهم، فقال قائل منهم: نحن بنو إبراهيم
وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطان مكة وساكنوها، فليس لأحد من
العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا.

فوقف آخر وقال: صدقت، لنا ما ليس للعرب من حرمة،
فانظروا بم تميزون أنفسكم عن العرب.

قال آخر: نحن لن نقف بعرفة منذ اليوم، وعلى سائر العرب
أن تقف بعرفة.

قال أحدهم: ولكن هذا من أهم الشعائر!

فرد عليه: هذا لغيرنا، نحن أهل الحرم، لا نخرج من الحرم،
نحن الحمس، أهل الحرم.

فقال آخر: نحن الحمس، لن نأكل السمن ونحن حرم، ولن

(١) يؤوب تعني يرجع.

(٢) سقيمها تعني مريضها هو أبرهة الأشرم.

(٣) عاد وجرهم أسماء قبائل.

ندخل بيتاً من شعر.

فقال آخر: ولن نستظل إلا في بيوت الحجارة ما دمننا حُرماً.

فقال آخر: افرضوا على العرب خلاف أهل قريش.

قال آخر: لا يحل للعرب أن يأكلوا طعاماً جاؤوا به معهم إلى

الحرم في الحج أو العمرة، ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا

في ثياب من الحمس، فإن لم يشتروا ثياباً من أهل مكة طافوا عراة.

ففرضوا ذلك على العرب، والتزموا بما أقروه على أنفسهم.

كما ابتدعوا من قبل الإبل البحرية^(١) والسائبة^(٢) والوصيلة^(٣)

والحام^(٤) حسب ولادتها، واتبعتها سائر قبائل مكة.

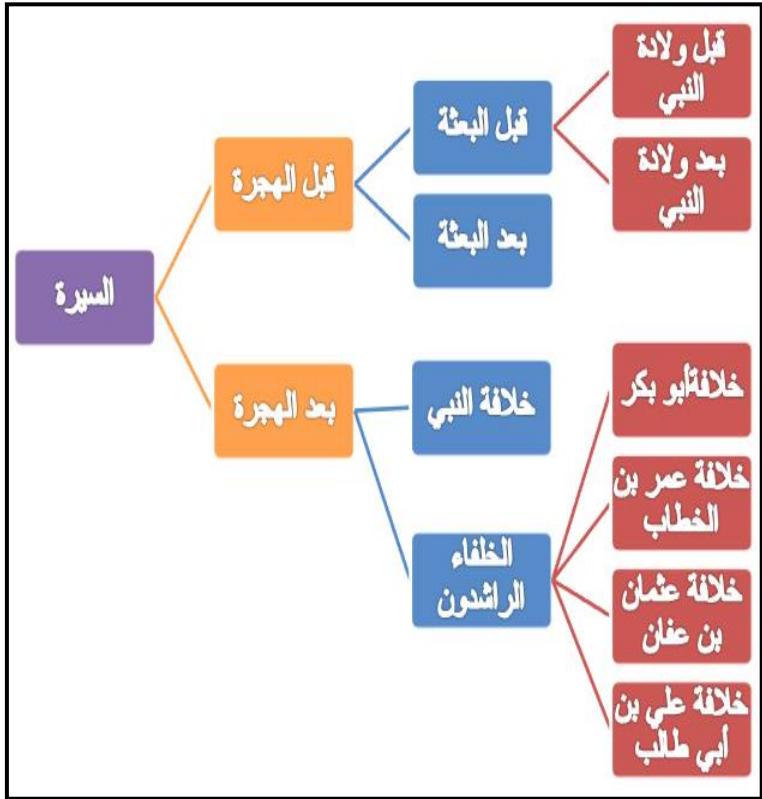


(١) البحرية هي الإبل ابنة السائبة الحادية عشرة، تشق أذننها وتترك.

(٢) السائبة هي الإبل التي ولدت عشر إناث ليس بينها ذكر، لا يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا لضيف.

(٣) الوصلة هي الشاة التي تلد عشر إناث متتابعات، فوليدها الحادي عشر يأكله الرجال ومحرم على النساء إلا إن كان ميتة.

(٤) الحام هو ذكر الإبل الذي أنتج من صلبه عشر إناث متتابعات، لا يركب ظهره ولم يجز وبره.



القسم الثاني...

قبل الهجرة

[١] قبل البعثة

[٢] بعد ولادة النبي ﷺ

١٢ / ٣ / - ٥٣ هـ | ٢٢ / ٤ / ٥٧١ م الإثنين

محمد بن عبد الله ﷺ

كانت آمنة بنت وهب تسير في أسواق مكة مع جاريتها بركة، وقد أوشكت أن تضع حملها، ما إن وصلت إلى منزلها حتى رأت قتيلة بنت نوفل تقف على الباب تبحث عنها، قالت آمنة: ما بك يا قتيلة؟ نظرت قتيلة إلى آمنة تسير دون آلام، وما يزال الطفل في بطنها لم يولد بعد، فقالت: إنها الليلة يا آمنة.

تعجبت آمنة، ولكنها أدخلتها إلى المنزل حتى لا يسمع أحدهم حديثهما، فسألتهما: ما بال الليلة يا قتيلة؟ قالت قتيلة: أخبرني أخي ورقة أن الليلة سيولد نبي آخر الزمان.

قالت بركة: يا قتيلة، سيدتي لا تشعر بأي آلام، وولادتها قد لا تزال مبكرة.

قالت قتيلة: إنه اليوم، اليوم وإما أنه ليس هو.
انزعجت آمنة وقالت: ربما أخطأ ورقة يا قتيلة، قد لا تصدق
التنبؤات دوماً.

قالت قتيلة: لقد وثقت بي في المرة الأولى، الأخرى أن تثقي بي
هذه المرة أيضاً، أخي لديه علم من الإله الأوحده.
نظرت آمنة إلى جاريتها بركة، هل يُعقل أن تلد اليوم؟ إنها
متشوقة جداً لرؤية طفلها العظيم.

غادرت قتيلة، وحل المساء، وبدأت آمنة تشعر بآلام الولادة،
استدعت بركة القابلات، ووقفن جميعاً حولها يساعدها ويساندها في
ولادتها.

نظرت آمنة إلى بركة وقالت: إنه اليوم يا بركة، اليوم.
ابتسمت بركة، ثم قالت: اصبري يا سيدتي، اليوم نستقبل
حبيبنا العظيم.

هذا كان أكبر دعم لآمنة في ولادتها، وسرعانما أشرقت لآمنة
الأنوار، وأبصرت الشام من جديد، وعم النور المنزل، أبصره كل من
كان هناك.

وُلدَ الطفل ورأسه يستقبل الكعبة، ناظراً إلى السماء، وجهه
النور، رافعاً سبابته، بين كتفيه قطعة صغيرة بارزة من اللحم، يبكي
بصوت ملائكي لطيف، كما كان مقطوع الحبل السري، مختوناً.
تعجب الجميع لأمر هذا الصبي، أبصرته آمنة وذرفت دموعها،
وناولنها إياه لتضمّه إلى صدرها بحنان، كم انتظرت لقاؤه بعد فراق
والده الحبيب.

خرجت بركة تحمل الصبي وتنادي بعبد المطلب: يا سيدي يا
سيدي، يا سيد قريش! إنه ابن عبد الله! أطلّ ابن عبد الله!
قدم عبد المطلب مسرعاً يركض خلفه أولاده، أعمام الطفل
الوليد، حمل عبد المطلب حفيده ابن ولده الحبيب، ورفعته في أرجاء
مكة، وطاف به حول الكعبة سعيداً به جداً، ودخل به داخل الكعبة
ودعا الله أن يحفظه ويرفع شأنه.

ثم عاد إلى آمنة، دخل عليها ووضع الطفل بين ذراعيها قائلاً:
لهذا الطفل شأن عظيم.

ابتسمت آمنة، إنه يشعر بجلال الطفل، فلا تخفى عليه
الفراسة، فوجهه مشرق كالبدر، ثم قال لها: أطلقني عليه اسم محمد.
ابتسمت آمنة فرحاً، إنها الرؤيا، فقالت: إنه محمد.

لم تكن العرب تسمي بهذا الاسم، فسأل أبو طالب أباه عبد
المطلب: لم ابتعدت عن أسماء آبائه يا أبي؟
فأجاب عبد المطلب: أردت أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده
الخلق في الأرض.

ابتهجت مكة بالملود، وكان الأسعد به بعد أمه وجده
وأعمامه، يتناقلونه فيما بينهم، ويقفز حمزة والعباس للطفل الصغير
سعيدين به جداً.

أما أبو لهب فقد ركضت إليه جاريتته^(١) تبشره قائلة: يا سيدي
يا سيدي، أبشر.

قال أبو لهب: ما بالك؟

قالت: ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

نهض أبو لهب سعيداً وقال: أحقاً ما تقولين؟

قالت: لقد طاف به عبد المطلب الكعبة، والجميع يحتفلون به.

قال أبو لهب: فأنت حرة ببشارتك هذه.

استبشرت الجارية وقالت: أحقاً يا سيدي؟ هل تعتقني

(١) جارية أبو لهب اسمها ثويبة، وهي من مرضعات النبي ﷺ.

ببشارتي بمحمد؟

قال أبو لهب: منذ هذه اللحظة أنت حرة، إنه ابن عبد الله.
لم تسع الجارية الفرحة، بينما حضرت زوجة أبي لهب، أم
جميل بنت حرب^(١) تنظر إليهما سعيدين، فقالت: أرى السعادة
تغمركما، ما هي البشرى؟
قالت الجارية: ولد محمد بن عبد الله، وأعتقني سيدي
بالبشارة.

قال أبو لهب: ولد هاشمي عظيم، أنا ذاهب لأراه.
ابتسمت أم جميل وقالت: كم كان عبد المطلب ينتظره، سأبارك
له فيما بعد، أما الجارية فأعطني على غيرها.
قال أبو لهب: لا عليك، لك جاريتين بدلاً منها.
وركض أبو لهب إلى حيث والده وإخوانه يشاركونهم الفرحة،
ويبارك بمحمد بن عبد الله ﷺ.

كان في مكة يهودي يتجر بها تلك الليلة، فقدم إلى مجلس
قريش وقال: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟

(١) أم جميل بنت حرب، زوجة أبي لهب، وأخت أبي سفيان بن حرب، لها دور في السيرة
قبل هجرة النبي ﷺ.

ولكن الجلوس لم يكونوا يعلمون بمولود، وقالوا: ما نعلم أحداً.
فقال اليهودي: الله أكبر، انظروا واحفظوا ما أقول لكم: ولد
هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات
متواترات، كأنهن عرف فرس، لا يرضع ليلتين.

فتفرق المجلس والناس متعجبون من قوله، وسألوا نساءهم
وأهلهم عن مولود ولد الليلة، فعلموا بأمر محمد بن عبد الله بن عبد
المطلب، فذهب أحدهم إلى اليهودي فأخبره عن محمد، فقال: خذوني
إليه أنظر في أمره.

فأخذته القوم إلى محمد ﷺ، وطلبوا من آمنة أن تخرجه
لليهودي، فأخرجته وكشفوا له عن ظهره، فرأى تلك الشامة، فوقع
اليهودي مغشياً عليه، فذهل الناس وأسرعوا إليه بالماء، فلما أفاق قالوا
له: مالك ويملك!

فابتلع ريقه من هول الصدمة، وقال: قد ذهبت والله النبوة من
بني إسرائيل، فرحتم بها يا معشر قريش.

وفي مكان آخر، في مدينة يثرب^(١) حيث تحالف اليهود مع

(١) يثرب هو اسم المدينة المنورة قبل هجرة النبي ﷺ إليها.

الأوس والخزرج ، اجتمع يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي المنتظر وما شاهدوه الليلة من طلوع الكوكب الأحمر ، وكان حسان بن ثابت^(١) ، الصبي الذي يبلغ الثمان سنوات ، يلعب مع الصبية في ساحات المدينة ، عندما سمع رجلاً من علماء اليهود يقف على صخرة عالية يقول: أيها العرب! أيها العرب! لقد ولد فيكم نبي الليلة ، ظهر اليوم نجم أحمد! هذه الليلة يولد فيها آخر الأنبياء ، ولا يرضع ثلاثة أيام! أبشروا ، هذا يوم عظيم!

تعجب الناس مما يسمعون ، ولكنها لم تكن المرة الأولى التي يذكر فيها اليهود نبي آخر الزمان ، فقد كانوا كلما نشب شجار بينهم وبين عرب يثرب -الأوس والخزرج- يتوعدون لهم بنبي آخر الزمان الذي اقترب أجله ، يقتل اليهود فيه العرب قتل عاد وإرم ، هل يعقل أن يكون قد أطل زمانه؟

في مكة كانت آمنة تحاول إرضاع طفلها محمد ﷺ ولكنها لم تُفلق ، انتابها القلق ، فحملته عنها بركة تقول: لا بأس عليك يا سيدتي ، أحياناً يصعب إرضاع الطفل الأول.

(١) حسان بن ثابت ، صحابي ، له دور في السيرة بعد الهجرة.

فقالت آمنة: يكاد نهار اليوم التالي يطلع علينا، وولدي لم يشرب شيئاً، أي أم سيئة أنا.

وضعت بركة يدها على ذراع آمنة تقول: لا تكوني قاسية على نفسك، أعرف نساء كثيراً واجهن نفس الصعوبات، فلنحاول ثانية.

ناولت بركة الطفل محمداً ﷺ إلى أمه آمنة لتحاول إرضاعه، ولكن نهار اليوم الثاني قد طلع دون جدوى، فعلم بذلك عبد المطلب، فطلب المرضعات، وحاولن مع الطفل الصغير، ولكن محمداً ﷺ لم يرضع من أي منهن، فبات الجميع قلقين على محمد ﷺ.

ثم حل الليل إلى نهار اليوم الثالث، فنهضت آمنة فزعة: إنه اليوم الثالث، سيموت ابني!

هدأت بركة من روع آمنة تقول: إنه بخير يا آمنة، سيشرب عما قريب.

قالت آمنة: إنك تقولين هذا منذ يومين، لم تفلح المرضعات معه أيضاً!

قالت بركة: لا بد أن يكون لهذا شأن ما، اصبري.

قالت آمنة: إذا صبرت أنا قد لا يصبر الطفل.

فنظرت بركة إلى الطفل محمد ﷺ يبدو هادئاً ووديعاً ثم قالت:

أظن أنه صابر.

مسحتُ أمانةَ دموعها، وضمتُ طفلها إلى صدرها تشعر بحنان
كبير وحب لا يساويه حب، وجلستُ إلى طفلها الليل كله تحاول
إرضاعه.

أشرقت شمس اليوم الرابع، وما زالت أمانة تحاول مع ابنها،
ثم شعرت به أخيراً يشرب الحليب، ابتهجت وأيقظت بركة: إنه
يشرب! محمد يشرب!

ابتسمت بركة وقالت: الشكر للآلهة، ألم أقل لك أن له شأنًا ما.
انهالت دموع الفرح من أمانة، وضمت طفلها بحنان يرضع للمرة
الأولى، وخرجت بركة تبشر عبد المطلب وآل هاشم بعافية الطفل
الصغير.

وبعد أسبوع قامت جارية أبي لهب بإرضاع الطفل محمد ﷺ،
وكانت قد أرضعت عمه حمزة بن عبد المطلب من قبل، فقال عبد المطلب
لابنه الصغير حمزة: أنت ومحمد الآن أخوان.

سأل حمزة الصغير أباه: أخوان! أليس محمد ابن أخي عبد الله؟
فقال له عبد المطلب: أجل، ولكنكما رضعتما من جارية أبي
لهب، بذلك تكونان أخوين في الرضاعة.

شعر حمزة بقرب من محمد ﷺ ، وبات يحبه أكثر من ذي قبل.

مرت أيام على ولادة محمد ﷺ ، وقدمت قافلة بني سعد إلى مكة ، فحمل عبد المطلب حفيده الحبيب محمداً ﷺ إلى أمه آمنة ، ثم جلس إليها يقول : لقد قدمت قافلة بني سعد بن بكر من هوازن ، التمسي إليه مرضعة تعتني به ، وتعلمه الفصاحة والبلاغة ، يقوى عوده في البادية.

قالت آمنة : إنه ليحزنني أن أفارق محمداً ، ولكن السمع والطاعة لسيد قريش.

قال عبد المطلب : جميع النساء يفعلن ذلك يا آمنة ، إن هذا لمصلحة محمد.

أطاعت آمنة ، وطلبت إلى بركة أن تلتمس مرضعة لولدها محمد ﷺ ، وذهبت به إلى حيث مرضعات بني سعد.

حضرت بعض المرضعات ، وكُنَّ يبيحثن عن الطفل الغني ليدفع أهله المال الوفير ، وكلما عرضت بركة الطفل محمداً ﷺ على مرضعة ، وعلمت أنه يتيم ، رفضت إرضاعه ، حيث ليس له معيل يدفع المال الوفير.

كانت هناك مرضعة من بني سعد تدعى حليلة^(١)، قدمت مع زوجها الحارث بن عبد العزى^(٢) وأولادها الشيماء وأنيسة وعبد الله وقد تأخروا عن باقي المرضعات، حيث كانت تتركب حماراً ضعيفاً بطيئاً، وكان ولدها عبد الله يبكي من قلة حليب والدته التي كانت هزيلة بسبب الفقر والضعف.

قال لها زوجها الحارث بن عبد العزى: هيا يا حليلة، لقد تأخرنا، وستأخذ المرضعات أولاد الأغنياء.

قالت حليلة: ها قد وصلنا، أرجو أن نحظى بولد نو عائلة كريمة، نحسن بها أحوالنا.

بدأت حليلة تبحث عن من ترضعه، ويدفع لها والده الأجر الجزيل، رأت حليلة محمداً بن عبد الله ﷺ، في وجهه الإشراق والجمال، اقتربت منه لتسأل عنه، فقالت بركة: إنه طفل مبارك، فيه الخير والنور، أجداده شيوخ قريش، يعتنون بالحجيج وأمور الكعبة.

قالت حليلة: ماذا عن والده؟

تنهدت بركة ثم قالت: توفي قبل ولادته.

(١) حليلة السعدية، مرضعة النبي ﷺ، حكايتها في السيرة في الفصلين القادمين فقط.

(٢) الحارث بن عبد العزى، زوج حليلة السعدية، له دور في السيرة إلى جانب حليلة فقط.

تراجعت حليلة عن الصبي، ففهمت بركة تردها في أخذ
الصبي، وذهبت تبحث عن مرضعة أخرى.
أمسكت الشيماء بيد أمها تقول: لقد كان صبياً جميلاً يا أمه،
لماذا لا تأخذه؟

ابتسمت حليلة لابنتها وقالت: جميع المرضعات يبحثن عن
المال، ولسنا بأقل منهنّ، سنحظى بطفل لأب ثري.

ولكن حليلة في قرارة نفسها تعرف أنها أضعف المرضعات، وأن
حليبها لا يكاد يكفي ابنها عبد الله، وحاجتهم شديدة إلى الغذاء والماء
والماشية القوية، ولكن من أين لها بكل هذا؟

اقتربت مرضعة من بني سعد إلى حليلة تحمل طفلاً من بني
مخزوم، تلفه بلحاف جميل باهظ الثمن، لا بد أنه ابن أب غني، قالت
لحليلة: ألم تجدي رضيعاً بعد؟

قالت حليلة: ما زلتُ أبحث.

فقالت: عليك أن تسرعني، ما بات هناك الكثير من الأطفال.
كان ذلك صحيحاً، فقد حصلت المرضعات على أطفال، وهي
وحدها ما تزال خالية اليمين.

عادت إلى زوجها دون أن تحظى بأي مولود تقول له: زوجي،

والله إنني لأكره أن أرجع ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم
فلاخذته.

نظر الحارث من بعيد إلى محمد ﷺ، ثم قال: افعلي.
عادت حليلة إلى بركة تطلب محمداً ﷺ، فابتهجت بركة،
رغم أنها ترى في حليلة أضعف المرضعات، ولكنها لم تكن تريد أن
تعود إلى آمنة تعلمها أن المرضعات لا يردن محمداً ﷺ.
حملت حليلة محمداً ﷺ، وعادت به إلى زوجها، فسألها: قد
أخذتيه؟

قالت: نعم والله، ذلك أني لم أجد غيره.
فقال: قد أصبت، فعسى الله أن يجعل فيه خيراً.
ابتهجت البنات بالطفل الجديد، فاحتضنته حليلة، وحاولت
إرضاعه وهي لا ترجو من الحليب إلا القليل، ولكنها تفاجأت، فإذا
بحليبها قد كثر، يشرب محمد ﷺ حتى يرتوي، ثم تحتضن ابنها
عبد الله فتسقيه من حليبها حتى يرتوي!

وضعت حليلة الطفلين الشبيين، ينامان نوماً هنيئاً، ثم قامت
إلى غنمتها الضعيفة، فحلبتها، فأخرجت حليباً كثيراً على غير
العادة، وشربت مع زوجها وبناتها حتى ارتوى الجميع!

نامت الطفلتان، فجلست حليلة إلى زوجها تقول: عجباً لهذا اليوم، ما كان حليبي يكفي عبد الله، وما كان حليب الغنمة يكفي أحدنا!

قال الحارث: اعلمي والله يا حليلة أنك أخذت نسمة مباركة.
فقالت: والله إنني لأرجو ذلك.

تجهزت القافلة لمغادرة مكة، وودعت آمنة وعبد المطلب محمداً ﷺ بقبلات حارة، تقول آمنة: فليحفظك الله يا ولدي.

قالت حليلة: طفل مبارك، سيصبح ذا شأن.

ابتسمت آمنة، لا بد أن حليلة قد لاحظت جلال طفلها.

غادرت القافلة إلى البادية، تحمل حليلة محمداً ﷺ بين ذراعيها، وتركب حمارها الضعيف، فما كان من الحمار إلا أن دبّت فيه القوة، وسار يسبق القطيع! فقال أحد المسافرين: ويحك يا امرأة، أبطنّي السير، أليس هذا حمارك نفسه الذي خرجت به من البادية؟ كيف له أن يسير هكذا؟

ابتسمت حليلة وقالت: نسمة مباركة.

فتبسم الحارث والبنات، ينظرون إلى محمد ﷺ ينام مطمئناً

بين يدي حلمية.

بعد رحلة طويلة وصلت القافلة ديارها في المساء، ودخلت حلمية مع زوجها وأولادها منزلهم البسيط، تحوطه حديقة أنهكها الجفاف. نام الجميع من عناء الرحلة إلى اليوم التالي، حيث استيقظت حلمية ترضع محمداً ﷺ وعبد الله إلى أن ارتويا، ثم تخرج إلى الحديقة، لتبدأ تقليم النبات الميت، لترى ما تعجب منه، نادى زوجها: يا زوجي! تعال انظر!

خرج الحارث يسأل: ما الأمر؟

أمسكت حلمية نبتة في الحديقة وقالت: انظر.

نظر الحارث فإذا بالزراع قد أزهر! نظر إلى شجرة أخرى قد اخضر ورقها، وقف إلى جانب حلمية يقول: لم نطلب إلى أحد سقاية الزرع لأنه كان قد ذبل قبل أن نخرج، لقد عمّ القحط الديار.

قالت حلمية: هذه معجزة! لم تكن هذه الزهور البارحة.

قال الحارث: اعتني بها، هذا رزق من عند الله.

قالت حلمية: سوف أقوم بإحضار الماء.

دخلت حلمية المنزل فإذا بها الشيماء تحمل محمداً ﷺ

وتداعبه وتغني له:

هذا أخ لم تلده أُمِّي

وليس من نسل أبي وعمي

فديته من خول معمي^(١)

فأنمه اللهم فيما تنمي

ابتسمت حليلة تقول: ألا تلاعبين عبد الله؟

قالت الشيماء: أحب تبسم محمد، إنه جميل جداً.

قالت حليلة: إنه أكثر من ذلك بكثير، اعتني به جيداً.

قامت حليلة بسقاية الحديقة، عندما عاد الحارث إلى المنزل

يقول لها: حليلة، زرعنا هو الوحيد المزهر في القبيلة، الجميع يعاني القحط الشديد.

قالت حليلة: زوجي، كلانا يعرف ما يجري.

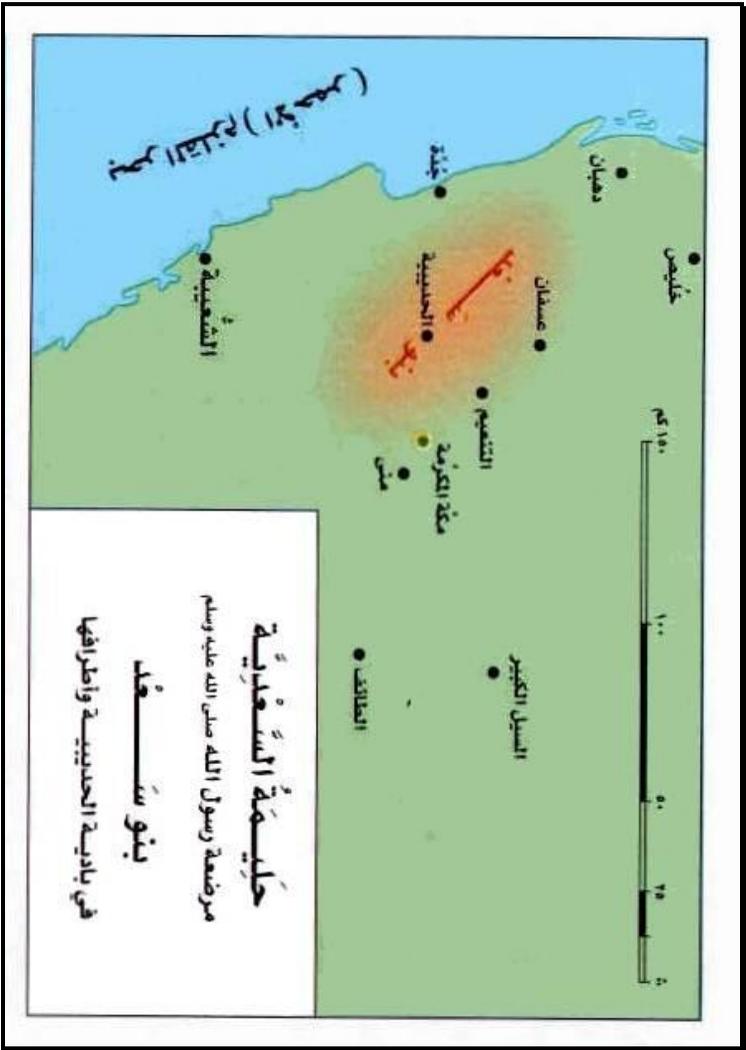
نظرا إلى محمد ﷺ يلعب مع الصغار، يذب الخير أينما حل.

وفي نفس العام وُلدت صفية بنت عبد المطلب^(٢)، وفرح عبد

المطلب بابنة وحفيد في نفس العام.

(١) خول معمي أي كريم الأخوال والأعمام.

(٢) صفية بنت عبد المطلب، عمّة النبي ﷺ وأم الزبير بن العوام، لها دور في السيرة كاملة.



٥١هـ | ٥٧٣م

شق الصدر

عبد الكعبة بن أبي قحافة رضي الله عنه (١)

وفد إلى سيف بن ذي يزن (٢)

بات عمر محمد رضي الله عنه عامين، كبير وشب بسرعة أكبر من أي صبي في مثل سنه، وكانت حياة حليلة وعائلتها في ازدهار وبركة طوال العامين.

كثرت الأغنام، والزرع، واللبن، وبات جميع من في القبيلة يضرب

(١) عبد الكعبة بن أبي قحافة هو اسم أبي بكر الصديق قبل الإسلام، وأسماه النبي عبد الله بعد الإسلام، هو أول من أسلم من الرجال، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أول الخلفاء الراشدين، له دور رئيسي في السيرة كاملة.

(٢) سيف بن ذي يزن، حكم اليمن وله قصص طويلة في التاريخ، سيذكر في الكتاب في هذا الموضع فقط.

المثل في بركة آل الحارث بن عبد العزى، وزوجته حليلة السعدية.
وكانوا يرون أغنامهما أكبر وأغزر لبناً من باقي أغنام القبيلة،
فيقول الرجال لصبيانهم: خذوا الأغنام إلى حيث تذهب أغنام حليلة.
فيذهب الصبيان بالأغنام ويعودون لا يحلبون منها شيئاً، بينما
تسمن أغنام حليلة، وتحلب اللبن الغزير.

وبينما كان محمد ﷺ يلعب مع الصبية، جلس الحارث إلى
زوجته حليلة يتناقشان، قال الحارث: لقد مرت السنان بسرعة.
قالت حليلة: علينا أن نحزم أمتعتنا ونعيد محمداً إلى أمه.
قال الحارث: أحب أن يظل الفتى معنا مدة أطول، فقد شهدنا
فيه الخير والبركة.

قالت حليلة: لست أحرص مني على ذلك، كما أنني تعلقت به
جداً، أحبه حبي لعبد الله، كيف لنا أن نقنع أمه أن تبقيه معنا؟
فكرا في عذر يقنع آمنة أن تبقي محمداً ﷺ في بني سعد،
الصحة، الفصاحة، الهواء النقي، الإخوان، ربما كل هذا معاً.
تجهزت القوافل ولم يعد هناك الكثير من الوقت، على حليلة
والحارث أن يعيدا محمداً ﷺ إلى مكة، بحثت حليلة عن محمد ﷺ
لينطلقوا، فوجدته يسير مع الشيماء في الحر، فسألتهما: أين كنتما؟

قالت الشيماء: كنا نلعب.

قالت حليلة: في هذا الحر! إنه صغير لا يتحمل الشمس الحارقة.

قالت الشيماء: يا أمي، ما وجد أخي حراً، رأيت غمامة تظلل عليه، إذا وقف ووقفت، وإذا سار سارت، حتى وصلنا إليكم.

نظرت حليلة إلى محمد ﷺ، لا بد أن تعيده معها، فقالت الشيماء: هل فعلاً ستعيدين أخي إلى مكة؟
قالت حليلة: إنه الأجل المتفق عليه.

حزنت الشيماء وأنيسة وعبد الله بفراق محمد ﷺ، ولكن حليلة أخبرتهم أنها ستحاول الإبقاء عليه بينهم فترة أطول، فكانوا يأملون ذلك كثيراً.

تجهزت القافلة وركب محمد ﷺ مع الحارث وحليلة متجهين إلى مكة، حيث كانت آمنة تنتظر ابنها الوحيد بفارغ الصبر، فكم طال الانتظار، ونفد الصبر.

وصلت القافلة مكة، وهرعت آمنة لاستقبال ابنها الذي كبر واشتد عوده، حضنته وقبّلته سعيدة به جداً، يبدو في صحة جيدة.

فرح محمد ﷺ برؤية أمه بخير وعافية، واتجه بصحبة بركة

إلى جده عبد المطلب وأعمامه ليلقي التحية عليهم، في هذه الأثناء
حضرت آمنة النقود لتدفعها إلى حليلة أجراءً على العناية بمحمد ﷺ،
ولكن حليلة قالت: كنا نرى أنا وزوجي أن من الخير لمحمد أن يعود
معنا إلى بني سعد، ليشتد عوده أكثر في الهواء النقي والبيئة الصالحة،
كثرت الأمراض في مكة، وشبابها يعتادون الحياة الرغيدة، لو أبقيته
معنا يتعلم ويكبر لكان خيراً له.

ابتسمت آمنة وقالت: لقد تعلقت به يا حليلة، لا ألومك، فهو
ولد مبارك، وله شأن.

قالت حليلة: أظن أنه من الخير له أن يبقى معنا بعض الوقت،
إذا لم يكن هناك ما يمنع.

قالت آمنة: ليس هناك ما يمنع، إلا أننا اشتقنا له جداً، ولديه
جد وأعمام يحبونه كثيراً.

قال الحارث: نحن عائلته أيضاً، لديه إخوان هنا، يلعب معهم
ويحبهم.

احتارت آمنة فيما تقول، ثم قالت: سأستشير جده عبد المطلب،
فهو كبير أهل مكة.

عرضت آمنة على عبد المطلب ما اقترحته حليلة، فقال: أرى أن

محمداً قد استفاد من البادية كثيراً، إنه بصحة جيدة، انظري إليه
كيف يشدد عوده هناك، ربما يفيدته أن يظل هناك مزيداً من الوقت.
قال حمزة والعباس: ولكننا اشتقنا له جداً، لماذا يفارقنا ثانية؟
قال عبد المطلب: هذا لصالحه.

هكذا أخذت آمنة ولدها إلى حليمة، التي كانت تنتظر أن تعيد
محمداً ﷺ معها بفاغ الصبر، ما إن وافقت آمنة على إعادة محمد ﷺ
إليها لعام آخر حتى كادت الدموع تنهمر من عينيها، وقفز الجميع
فرحاً بعودة أخيهم محمد ﷺ إليهم.
عانقت الشيماء محمداً ﷺ فرحة به جداً، وظلت إلى جانبه
طول رحلة العودة، بينما ودعت آمنة ابنها الحبيب بدموع الشوق
والحنين.

عادت المياه إلى مجاريها في منزل حليمة، وبعد شهرين من
عودتهم إلى المنزل، كان محمد ﷺ يلعب مع أخيه عبد الله خلف
البيوت، وبينما هما يمرحان إذ رأيا رجلين مهيبين يلبسان الثياب
البيضاء يقتربان منهما، أحدهما يحمل إناء من ذهب فيه ماء زمزم
وثلج.

كان الرجلان غريبان عن القرية، فتوقف محمد ﷺ وعبد الله عن اللعب، فقال عبد الله للرجلين: من الرجلان؟

ولكنهما لم يجيبا، بل اتجها نحو محمد ﷺ مباشرة، ووضعاه على الأرض، قال عبد الله قلقاً: ماذا تفعلان؟ من أنتما؟

عندها بدأ أحدهما بشق صدر محمد ﷺ دون أن يلتفت إلى عبد الله، فزع عبد الله لما رأى، وهرب إلى منزله ليطلب النجدة.

بينما تابع الرجلان شق قلب محمد ﷺ، واستخرجا منه علة سوداء، فطرحاها أرضاً، وقالوا: هذا حظ الشيطان منك.

ثم غسلا القلب بالماء المثلج حتى أنقياه، ولأما الجرح، فقال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته.

فوزنه بهم فكان محمد ﷺ أثقل منهم، فقال: زنه بمئة من أمته.

فوزنه فكان محمد ﷺ أوزن منهم، فقال: زنه بألف من أمته.

فوزنه فكان محمد ﷺ أوزن منهم، فقال: دعه عنك، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها.

وصل عبد الله إلى أبيه وأمه يلهث ويرتجف، قال: ذاك أخي القرشي! قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقا بطنه!

خافت حليلة على محمد ﷺ أشد الخوف، وركضت مع زوجها إلى حيث كان الولدان يلعبان، فلم يجدا الرجلين، ووجدوا محمداً ﷺ جالساً وجهه شديد البياض منتقع، فحضنته حليلة تقول: ما لك يا بني؟ قال محمد ﷺ: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو.

نظرت حليلة إلى زوجها الذي كان قلقاً هو الآخر، قالت حليلة لمحمد ﷺ: وهل أنت بخير الآن؟ هل تشعر بأي سوء؟ أشار محمد ﷺ أنه بخير، ولا يشعر بأذى، فحملاه إلى المنزل، واعتنوا به الليلة جيداً.

عندما نام محمد ﷺ جلس الحارث إلى زوجته حليلة يتحاوران، قال الحارث: يا حليلة، لقد أعذرتنا أمه لنعيده معنا، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب بسوء، فلنعدده إلى أهله قبل أن يظهر ذلك عليه.

قالت حليلة: هل تظن أنهما كانا من الشياطين؟ قال الحارث: من يدري؟ كل ما أعرفه أنه يبدو في أحسن حال الآن، إنها أفضل فرصة لنعيده إلى أمه قبل أن يحصل له مكروه.

لم تكن حليلة تحب الاستغناء عن محمد ﷺ، ولكنها هي الأخرى خشيت أن يحدث له مكروه وهو في منزلها، فأطاعت زوجها، وأخذوا محمداً ﷺ في صباح اليوم التالي ليعيدوه إلى أمه.

قالت الشيماء: لماذا تعيدونه؟ لم يمض على الوقت إلا شهران!

قالت حليلة: من الأفضل له أن يكون مع أمه.

ولم تناقش ابنتها أكثر، فقد علمت أن ما حدث البارحة كان

سبب تحول الآراء.

عاد محمد ﷺ مع حليلة والحارث إلى مكة، وعجبت آمنة من

عودتهما السريعة! فاستقبلتهما قائلة: ما أقدمك به يا حليلة وقد

كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟

قالت حليلة: لقد فكرت في الأمر ملياً، فقد قضيتُ الذي علي،

وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك كما تحبين.

نظرت آمنة إلى حليلة التي كانت قلقة بعض الشيء، فقالت: ما

هذا شأنك، فاصدقيني خبرك.

نظرت حليلة إلى زوجها ثم ابتسمت وقالت: هو ذاك.

قالت آمنة: ليس صحيحاً، اصدقيني القول.

بقيت آمنة مصرة على سماع الحقيقة، فقالت حليلة: قد كان

ابنك يلعب مع ولدي، وحضره رجلان قاما بشق صدره وقلبه، ولكنه عاد بصحة جيدة.

فكرت آمنة قليلاً ثم قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟

طأطأت حليلة رأسها وقالت: نعم.

ابتسمت آمنة وقالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن

لابني لشأناً، أفلا أخبرك خبره؟

قالت حليلة: بلى.

قالت آمنة: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي

قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف علي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لو وضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقى راشدة.

نظرت حليلة إلى زوجها الحارث الذي قال: إنه نسمة مباركة

بلا شك، وقد خشينا عليه المكروه، وقد رددناه إليك معافاً.

قالت حليلة: سنعود إلى البادية.

قبّلت حليلة محمداً ﷺ مودعة بدموع حارة، وعادت بعائلتها

حزينة إلى البادية.

عادت آمنة بولدها محمد ﷺ سعيدة إلى المنزل، وفي الطريق رأوا تجمع الناس، كان أبو قحافة يمشي بقلق أمام منزله، يقف إلى جانبه بعض الناس، كان يدعو الآلهة أن يسهل الولادة وأن ينجو المولود، حيث كانت زوجته تعاني آلام الولادة، وآلام فقدانها لعدة أولاد قبل الآن.

كان أبو قحافة يدعو ويرجو من كل قلبه أن ينجي الله ولده، وأن يكون له عوناً وسنداً كما في سائر العوائل، رفع يده ودعا: يا الله، إن نجا ولدي هذا فإنني أهبه لبيتك، يكون عابداً لك معيناً على طاعتك وخدمتك.

فسمع صوت بكاء الصبي، ونجا من الموت، فرح الجميع لأبي قحافة، الذي دخل على زوجته وقد كانت تحمل ابنها سعيدة به جداً، فقالت له: لقد أعتقه الله من الموت، إنه عتيق.

فقال: لقد وهبته للكعبة، هو عبد الكعبة.

فحمله سعيداً به وطاف به الكعبة، وأولم لقريش كلها فرحاً بولده عبد الكعبة.

دخلت آمنة بنت وهب بابنها محمد ﷺ على جده عبد المطلب،

حيث كان عبد المطلب يتجهز للسفر، ويجتمع حوله أبناؤه.

فرح عبد المطلب بحفيده كثيراً، وحمله وقبّله وودعه، حيث سيطول غيابيه، فسأله حفيده إلى أين سيسافر، فأجاب: أنا ذاهب مع وجهاء قريش إلى اليمن، هناك حاكم جديد فيها، يقال أنه قوي جداً، وأعانه الفرس على طرد الأحباش من بلده.

قال أبو طالب: سيقابل سيف بن ذي يزن يا محمد.

قال أبو لهب: لقد باركت له العرب جميعاً، على قريش ألا تتأخر، سيذهب مع أمية بن عبد شمس، وعبد الله بن جدعان^(١)، وخويلد بن أسد^(٢)، والعديد من الوجهاء محملين بالهدايا الثمينة.

قال عبد المطلب: علي أن أنطلق وإلا تأخرت، أنا سعيد أنني رأيت محمداً قبل أن أرحل، فهو دائماً يشعرني بالسعادة والفخر.

تبع الجميع أباهم عبد المطلب إلى القافلة التي غادرت متجهة إلى اليمن حيث سيف بن ذي يزن.

انطلق عبد المطلب مع وجهاء قريش إلى صنعاء، وهناك وصلوا قصره الكبير، ووجدوا تجمعات كبيرة من الناس، فقال أمية بن عبد

(١) عبد الله بن جدعان، أحد سادات قريش، له دور في السيرة قبل البعثة فقط، تتداخل حكايته مع الصحابي مصعب بن عمير.

(٢) والد السيدة خديجة بنت خويلد، زوجة النبي ﷺ من بعد.

شمس: ألم أخبركم أن تبكروا في الحضور، لقد حضرت العرب كلها قبلنا.

قال عبد المطلب: نحن سادة العرب، جئنا أولاً أم آخراً، اطلبوا الحارس ليعلمه بوصولنا.

دخل الحارس على سيف بن ذي يزن المتربع على عرش الملك والسلطة، قال له الحارس: لقد حضر وفد قريش، هؤلاء أشرف العرب، وإليهم يحج جميع العرب، لهم مكانة لا يستهان بها.
قال سيف بن ذي يزن: ائذن لهم بالدخول إذاً.

اصطحب الحارس وفد قريش، على رأسهم عبد المطلب بن هاشم، ووقفوا في حضرة الملك سيف بن ذي يزن، تقدم عبد المطلب ليتحدث باسم الوفد، فقال له سيف بن ذي يزن: إن كنت ممن يتكلم بين يد الملوك فقد أذنا لك.

فأجاب عبد المطلب بكل فصاحة: إن الله قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طيباً، ثبت أصله، ورفع فرعه في أكرم موطن وأطيب معدن. فأنت ملك العرب، ورأسها، وعمودها، وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. ونحن أيها الملك أهل حرم الله، وخدام بيته.

فسأله سيف بن ذي يزن: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

أجاب عبد المطلب: أنا عبد المطلب بن هاشم.

ابتسم الملك وقال: اقترب.

فاقترب عبد المطلب، فوقف الملك واقترب من القوم وقال:

مرحباً وأهلاً وسهلاً، قد سمع الملك قولكم، وعرف قرابتكم،

وسيكرمكم إكرام الملوك، فأنتم أهل العبادة في الليل والنهار.

ونادي الحارس قائلاً: أكرم ضيوفنا أفضل إكرام.

قال الحارس: سمعاً وطاعة يا سيدي الملك.

وذهب عبد المطلب مع قومه إلى دار الضيافة، حيث الطعام اللذيذ

والشراب الطيب، وسعدوا بالاستقبال الحافل.

ظل عبد المطلب ومن معه في الضيافة شهراً، لا يصلون إلى الملك

ولا يؤذن لهم فيغادروا، فتناجوا فيما بينهم، قال عبد الله بن جدعان:

يا قوم، ماذا نفعل هنا؟

قال أمية بن عبد شمس: يبدو أننا خدعنا، وهناك فخ ينصبونه

لنا.

قال خويلد بن أسد: ولكنهم لم يؤذوا أياً منا، وما لقينا منهم

غير الكرم والضيافة.

قال أمية بن عبد شمس منزعجاً: ألا ترى العيون تراقبنا؟

قال عبد الله بن جدعان: بدأت أشعر بالقلق.

قال عبد المطلب: سأحاول أن أطلب لقاء الملك مجدداً.

في هذه اللحظة اقترب الحارس من عبد المطلب وقال له: الملك يطلب لقاءك شخصياً، منفرداً.

قلق الجميع أكثر، ولكن عبد المطلب قال: سمعاً وطاعة للملك.

دخل عبد المطلب على الملك بثبات، وانفرد به الملك سيف بن ذي يزن، وأدناه في حديث لا يسمعه أحد غيرهما، فقال: يا عبد المطلب، سأخبرك سراً كبيراً من علمي، لو كان غيرك ما أخبرته به، ولكنني رأيت فيك علامات الحكمة، فلتكتمه عني إلى أن يأذن الله فيه.

قال عبد المطلب: أكتمه أيها الملك، فما هو؟

قال: إنني أجد في الكتاب المقدس خبيراً عظيماً، فيه شرف

الحياة، وفضيلة للناس عامة، ولقومك كافة، ولك خاصة.

تعجب عبد المطلب لما يسمع، فقال: أيها الملك الموقر، ما هو

ذاك؟

أجاب: إذا ولد لديكم غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت

له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

ابتهج عبد المطلب وقال: بشرتني بخير ما يبشر به بشر.

تابع سيف بن ذي يزن: هذا هو زمنه الذي يولد فيه، أو قد ولد، واسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، يكسر الأوثان، ويخمد النيران، يعبد الرحمن، ويدحر الشيطان، حكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

طمع عبد المطلب بالمزيد فقال: أيها الملك، دام ملكك وطال عمرك، هل تزيدني فيه بعض الإيضاح؟

قال الملك: أقسم يا عبد المطلب، أنك لجده.

فخر عبد المطلب ساجداً، فقال الملك: ارفع رأسك، هل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟

رفع عبد المطلب رأسه وقال في فخر وسعادة: أيها الملك، كان لي ابن كنت به معجباً، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سميته محمداً، فمات أبوه، وهو عند أمه، أعنتني به وكذلك أعمامه.

قال الملك: هو كما قلت لك، فاحتفظ بابنك، واحذر عليه اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واكتم ما ذكرت لك عن أصحابك الذين معك، فإني لست آمن أن يغاروا مما

اصطُفِيَتْ به، وينصبوا له المكائد، فهم فاعلون أو أبناؤهم. ولولا أنني أعلم أن الموت آتيني قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته، فإني أجد في الكتاب المقدس أن يثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره، ولولا أنني أخاف عليه لأعلنت على حداثة سنه أمره.

أُتْلِج الحديث صدر عبد المطلب كثيراً، وعلم أخيراً سبب تأخير الملك عنهم، لقد كان يراقب أمرهم ويدرس ما لديه في الكتاب المقدس. هل يكون حفيده محمد هو فعلاً الرسول المنتظر؟

قاطع الملك أفكار عبد المطلب عندما أمر الحاجب أن يدخل، وقال له: مر لكل رجل من وفد قريش بعشرة عبيد، وعشر إماء، وبمئة إبل، وثياب، وخمسة أرتال من الذهب، وعشرة أرتال من الفضة، وماء العنبر. أما عبد المطلب فاعطه عشرة أضعاف ما أمرت لكل منهم. أشرق وجه عبد المطلب، هل يسر بإكرام الملك له أم ببشارته أكثر؟

قال الحاجب: السمع والطاعة أيها الملك الموقر.

فوقف عبد المطلب ليغادر مع الحاجب، فقال له الملك: يا عبد المطلب، إذا مر العام فاتني.

قال عبد المطلب: بكل تأكيد، الشكر الجزيل للملك على البشارة والهدايا.

كان الوفد ينتظرون عبد المطلب بفارغ الصبر، بل كانوا قلقين أن يمسه مكروه، قال عبد الله بن جدعان: لقد تأخر صاحبكم.

قال أمية بن عبد شمس: ربما قتلوه.

قال خويلد بن أسد: اصبروا ولا تتسرعوا الأحكام.

عندها دخل عليهم، فاقربوا منه مسرعين ليعلموا ما جرى بينه وبين الملك من حديث، فكتّم عبد المطلب ما كان من أمر محمد، وقال لهم عن الهدايا، وأنهم مغادرون.

أحضر الخدم الهدايا، فتعجب الجميع لهذا الكرم العظيم، فلم يكرم الملك أحداً من العرب كما فعل معهم، ولاحظوا أن عبد المطلب قد حصل على عشرة أضعاف ما حصلوا عليه، فقال أمية بن عبد شمس لعبد المطلب: أرى أن الملك قد خصك بالعطاء علينا جميعاً.

ابتسم عبد المطلب وقال: يا معشر قريش، لا تحسدوني بجزيل عطاء الملك وإن كثّر، فإنه إلى نفاذ، ولكن لتحسدوني بما يبقى لي ولأولادي من بعدي، ذكره وفخره وشرفه.

قال عبد الله بن جدعان: ومتى ذلك؟

أجاب عبد المطلب: ستعلمون ولو بعد حين.

غادرت القافلة، ولكن الملك سيف بن ذي يزن توفي بعد أشهر قليلة من آخر لقاء له مع عبد المطلب.

* * *

أما في يثرب فقد وقف رجل من علماء اليهود وسط الناس، من يهود ووثنيين، يقول: القيامة قائمة، والبعث والحساب والميزان حق، والجنة والنار مصير الناس، فاعملوا لآخرتكم تفلحوا.

لم تكن هذه أول مرة ينصح بها اليهود الوثنيين بالعمل للدار الآخرة، وذكر نبي آخر الزمان، حتى اعتاد أهل يثرب عليهم، فقال رجل من الوثنيين ينكر البعث: ويحك! أوترى هذا كائناً؟ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ فقال اليهودي: نعم، والذي يُحلف به.

فقال الوثني: ويحك! فما آية ذلك؟

قال اليهودي: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد.

وأشار إلى مكة.

فقال الوثني: ومتى تراه؟

فنظر اليهودي إلى صبي رضيع، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام

عمره يدركه.

٤٧هـ | ٥٧٥م

وفاة آمنة بنت وهب

عثمان بن عفان رضي الله عنه (١)

كان محمد بن عبد الله ﷺ يتجهز للسفر مع أمه لزيارة أخواله في يثرب، وزيارة قبر والده، وقد بلغ سن السادسة، دخلت عليه أمه آمنة بنت وهب معها جاريتها بركة تقول: هل أنت جاهز يا محمد؟ القافلة ستنتقل عما قريب.

أشار محمد ﷺ بالإيجاب وحمل أمتعته مع والدته، وركبا الناقة المخصصة لهما، وانطلقا.

كانت رحلة طويلة، ولكن آمنة كانت تحدث محمداً ﷺ فيها

(١) عثمان بن عفان أحد العشرة المبشرين بالجنة، ثالث الخلفاء الراشدين، من الأوائل في الإسلام، له دور كبير في السيرة كاملة.

عن والده، تقول: كان سيداً في قريش، وأكثرها شرفاً وأحسنها نسباً، كان الولد المفضل لدى جدك عبد المطلب، فقد فداه الله بمئة من الإبل، وأطلقت عليه قريش لقب الذبيح ابن الذبيح إسماعيل نبي الله...

كما حدّث محمد ﷺ أمه عن بني سعد، وعن أمه مرضعه حليلة السعدية، وأخوته، كيف كان يشاركونهم ويلعب معهم ويتعلم منهم... وصلت القافلة يثرب، فنزل فيها محمد ﷺ مع أمه عند أخواله من بني النجار، فاستقبلوهم بحفاوة شديدة، وسعدوا بمحمد ﷺ جداً. مكث محمد ﷺ مع أمه شهراً في يثرب، لاحظ فيها محمد ﷺ الخلاف بين قبيلتي الأوس والخزرج، كما تعرف على اليهود، ولكنه لازم أمه معظم الوقت، وزار قبر والده، وسمع عن أخباره من أخواله بني النجار.

في يوم كان يسير فيه مع بركة، سمعا رجلاً يقول لآخر: هذا هو الصبي.

نظرت بركة إلى الرجلان، فإذا بهما من أحبار اليهود، كان يبدو على أحدهما أنه أصغر من الآخر وأقل علماً منه، قال للعالم: هذا هو الصبي الذي حدثتك عنه.

اقتربا من محمد ﷺ وبركة، فشعرت بركة بشيء من القلق
وأمسكت بمحمد ﷺ، حدّق الحبر العالم في محمد ﷺ ثم قال لبركة:
يا جارية، أخبرينا عن هذا الصبي.

قالت: وأي شيء تريدان؟

قال: ما اسمه؟

قالت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

قال الحبر: فأين أبوه؟

قالت: توفي.

قال: فمن أمه؟

قالت: آمنة بنت وهب.

قال: هل لنا أن ننظر إليه؟

قلقت بركة فقال: لن نؤذيه.

تركت بركة محمداً ﷺ، فنظروا إليه وقلّباه، فوجدوا كل
العلامات التي كانا يبحثان عنها، فقال العالم لصاحبه: هذا نبي هذه
الأمّة، وهذه دار هجرته، وسيكون بها من القتل والسبي أمر عظيم.

قلقت بركة مما سمعت، وسحبت محمداً ﷺ بعيداً عنهما،
وأسرعت به إلى أمه آمنة وأخبرتها الخبر، فقلقت عليه آمنة كثيراً،

وبدأت تبحث عن قافلة تعود بها إلى مكة في أسرع فرصة.

استعدت آمنة مع ولدها محمد ﷺ وجاريتها بركة للرحيل مع أول قافلة ترحل، وأخذت ابنها محمداً ﷺ مرة أخيرة لزيارة قبر والده، وقفت هناك تحدث زوجها: زوجي العزيز، هذا هو ابنك محمد، صبي مبارك وخلق، إنه كل ما تتمناه أم ويرجوه أب، كم تمنيت لو تراه كم أصبح قوياً وجميلاً.

ساد الهدوء المكان، فدمعت آمنة شوقاً لزوجها عبد الله، ثم نظرت إلى ابنها محمد ﷺ وقالت: هيا بنا، سنتأخر عن القافلة. وصلت آمنة وابنها محمد ﷺ القافلة حيث كانت تنتظرهما بركة وهي تقول: لقد تأخرتما! أقنعت القافلة بصعوبة أن ينتظروا قليلاً.

قالت آمنة: آسفة، هيا بنا.

وأركبت ابنها الدابة، وجلست إليه ليبدأ رحلة العودة إلى قريش مودعين أخوال محمد ﷺ في يثرب.

في الطريق بدأت آمنة تشعر بالإرهاق، وشعر محمد ﷺ بوالدته

تتعرق بشدة، قلقت عليها بركة وقالت لها: هل نستريح قليلاً؟ تبدين شاحبة.

قالت آمنة: أنا بخير، لا نستطيع أن نؤخر الركب.
قالت بركة: لا بأس، سننتظر قافلة قادمة، عليك أن تستريحي قليلاً.

قالت آمنة: سأكون بخير، لا تقلقي.
وقبضت على كتف ابنها حتى لا يقلق عليها.
تابعت القافلة طريقها، إلى أن هبت ريح عاصفة أتعبت الجميع، قلقت آمنة على ابنها محمد ﷺ أن تؤذيه الريح، فضمته إلى صدرها بشدة، وحمته بجسدها من العاصفة، شعر محمد ﷺ بجسد والدته الساخن، وعرقها المتصعب، ولكن آمنة أصرت أن تحميه وتفديه بنفسها، وحاولت بركة أن تقنع القافلة بالتوقف والاستراحة، ولكنهم أبوا عليها إلا المتابعة، وستزول العاصفة عما قريب.

توقفت العاصفة ولكن صحة آمنة كانت تزداد سوءاً، قلق عليها محمد ﷺ وبركة كثيراً، وأجبرتها بركة أخيراً أن تتوقف وتستريح قائلة: إنك شاحبة جداً، من الخطر أن نتابع هكذا.

هذه المرة لم تجادل آمنة، فقد كانت تشعر بالمرض بالفعل،

فنزلت عن الدابة، وجهزت لها بركة فراشاً استلقت عليه، وأشربتها الماء واللبن.

قلق محمد ﷺ على أمه كثيراً، بينما كانت تبتسم له قائلة:
سأكون بخير يا ولدي، المهم أنك بخير.

قالت بركة: كان عليك أن تعتني بنفسك أكثر، لقد خارت قواك، إنك شاحبة جداً.

توقفت القافلة من أجل آمنة، ونزلوا يطمئنون عليها، ولكن ما إن نظروا إليها حتى علموا أنها في مرض شديد، سأل شيخهم بركة:
منذ متى وهي على هذه الحال؟

قالت بركة: منذ بداية الطريق تقريباً، ولكنها أبت إبطاء القافلة، حتى هبت الريح فزاد الأمر سوءاً.

نظر إليها بقلق ثم طلب من فتيانه أن يحضروا له الأعشاب والدواء، ولكنه كان يعلم أن ما من شيء قد يفيد آمنة الآن.

قالت له آمنة: آسفة لما جرى، لقد أوقفت الجميع.

أشار الشيخ بالنفي وقال: لا تفكري في الأمر، استريحي فحسب.

ناول آمنة بعض الأعشاب، وكان ينظر إلى ابنها محمد ﷺ الذي

كان القلق واضحاً عليه، فليس له في الدنيا إلا أمه وقد توفي والده قبل أن يراه.

انتظرت القافلة بضع ساعات، ولكن حال آمنة كان يزداد سوءاً، وعلمت أنه الموت المؤكد.

نظرت إلى ابنها بحنان وحزن، ووضعت يدها على خده تلاطفه وتقول: محمد، إني أحبك، وجدك يحبك، وأعمامك يحبونك، كن رجلاً قوياً وشريفاً، إن لك شأنًا عظيمًا، علمتُ ذلك مذ حملت بك، إنك تنشأ أجمل وأنبل الصبيان، وليس في قريش من هو أفضل منك خُلُقاً وشرفاً ونسباً.

بدأت عينا محمد ﷺ تدمعان، فتابعت آمنة قائلة: لا أحب أن أرى الدموع في عينيك، ثق تماماً أن هناك من هو إلى جانبك.

بدأ محمد ﷺ يبكي، فنظرت آمنة إلى بركة التي كانت تبكي هي الأخرى وقالت: اعتني بمحمد...

أشارت بركة بالإيجاب حيث لم تستطع أن تنطق بأي كلمة، فنظرت آمنة إلى ابنها نظرة أخيرة وقالت: أنا سعيدة أنك بخير...

وأغمضت عينها إلى الأبد، فبكى محمد ﷺ أمه بحرارة، وضمته بركة إلى صدرها تبكي هي الأخرى، وقدم الشيخ ينظر إليهما

بحزن وشفقة، لقد توفيت آمنة، عانقها ابنها وبكى على صدرها
بحرارة، لقد بات وحيداً بلا أب أو أم، لقد فقد حنان أمه الكبير،
وسيعود وحيداً إلى مكة.

دفنت القافلة آمنة بنت وهب في الأبواء في الطريق، وظل
محمد ﷺ يبكيها إلى جانبه بركة تضمه وتربت على شعره بحنان،
ثم عادا إلى القافلة وتابعا الطريق إلى مكة.

وصل الخبر مكة، وفجع الجميع بوفاة آمنة، خاصة عبد
المطلب، الذي انتظر القافلة بفارغ الصبر حتى يحضن حفيده
محمدًا ﷺ ويضمه إلى صدره بحنان، ويعتني به بين أولاده.
ساند محمدًا ﷺ جميع أعمامه، ورحبوا به جداً بينهم،
وواسوه على فقده والدته، وقربوه منهم.

بينما كان بنو هاشم في عزائهم، كانت بنو أمية تحتفل بمولود
شريفها عفان بن أبي العاص، فقد أولم للجميع، واحتفى بابنه الذي
أطلق عليه اسم عثمان، فاستبشرت به بنو أمية خيراً، وأن سيكون له
شأن في بني أمية.

ذهب أبو قحافة مع ابنه عبد الكعبة بن أبي قحافة^(١) إلى وليمة

(١) أبو بكر الصديق من بعد.

بني أمية، وكان عبد الكعبة لم يجاوز الأربع سنوات، لاحظ أن أحداً من بني هاشم لم يحضر الوليمة، فسأل والده: أبي، لماذا لا أرى أحداً من بني هاشم في الوليمة؟

قال أبو قحافة: لقد توفيت زوجة عبد الله بن عبد المطلب، آمنة بنت وهب، وهم يعزون حفيدهم الحبيب محمداً على فقده.

قال عبد الكعبة: هل نستطيع أن نعزيهم؟

قال أبو قحافة: سنفعل بالتأكيد، تستطيع مواساة ابنهم محمد أيضاً.

ورغم حزن محمد ﷺ على فراق أمه، إلا أن جده عبد المطلب كان الأسعد بوجوده إلى جانبه دوماً، فقد كان يراه صبيلاً ذكياً نبيهاً مهذباً ومباركاً، وكل يوم يزداد حبه وتعلقه به.



٤٦هـ | ٥٧٦م

في كفالة جده عبد المطلب بن هاشم

اجتمع أولاد عبد المطلب حول الكعبة يجهزون فراشاً لأبيهم قبل أن يحضر، وكانت هذه عادتهم، فكانوا يفرشون الفراش ولا يجلسون عليه إجلالاً له.

وأثناء التجهيزات سأل العباس أخاه حمزة: هل ذهبت إلى

الصيد اليوم؟

قال حمزة: بكل تأكيد، أحب الصيد كثيراً.

ضحك أبو طالب وقال: ستكون فارساً قوياً في المستقبل.

قال حمزة: إنني فارس قوي منذ الآن.

قال أبو طالب: وهل تعلمت شيئاً من القراءة والكتابة اليوم؟

قال حمزة: نعم، يقول المعلم أنني أتعلم بسرعة.

قال أبو لهب موجهاً حديثه إلى ابن أخيه محمد ﷺ: شد

الفراش من الناحية الأخرى.

فكان محمد ﷺ يساعدهم، وجهزوا الفراش ووقفوا ينتظرون
قدوم أبيهم عبد المطلب، ولكن محمداً ﷺ دخل الفراش وجلس عليه،
فجفل أعمامه وهرعوا إليه، قال أبو لهب: قم يا محمد! هذا لجدك ولا
يجوز لك أن تجلس عليه!

وقال أبو طالب: يا محمد، إن جدك شريف قريش، ينبغي
علينا أن نصون هذا المقام، ونعظمه على سائر الأشراف.

عندها حضر عبد المطلب وقال: ماذا هناك؟

ترك أبو لهب وأبو طالب محمداً ﷺ يعتذرون إلى أبيهم عما
جرى، فقال أبو طالب: آسف يا أبي، محمد يجهل أهمية المجلس.
ضحك عبد المطلب وقال: بل دعوه، إن لحفيدي هذا شأناً.

ابتعد أبو لهب وأبو طالب، وجلس عبد المطلب إلى جانبه حفيده
العزيز محمد ﷺ، وربت على ظهره، ثم نظر إلى أولاده وقال:
أخبروني عن تجهيزات الحج القادم.

قال أبو لهب: يا أبتِ، لقد قمنا بحساب ما طلبت إلينا من
الطعام والزاد والمساعدات للحجيج، فكان سعرها كبيراً، سيثقل كاهل
آل هاشم جميعاً.

قال عبد المطلب: ومنذ متى كنت أبخل في أيام الحج يا أبا لهب؟
أكرموا الحجيج، فهذا شرفكم وشرف أجدادكم وأبنائكم من بعدكم.

قال أبو طالب: سيحضّر الوليد بن المغيرة^(١) وعبد الله بن جدعان
ولائم كبيرة، يجب ألا تكون ولائمنا أقل شأنًا منها.

أشار عبد المطلب بالإيجاب، ثم سأل عمن زارهم من الشعراء في
الفترة الأخيرة، واستمع إلى أبيات حفظها أولاده في السوق، ثم دخل
عليه الوليد بن المغيرة قائلاً: حفظتكم الآلهة يا آل هاشم، تحسنون
تعظيم وجهائكم.

قال عبد المطلب: تفضل يا شريف مخزوم، أنت مرحب بك في
أي وقت.

نظر الوليد بن المغيرة إلى محمد ﷺ يجلس إلى جانب جده
مكرماً في المجلس، فابتسم وقال: أي شرف يُجلس محمداً إلى جانبك
دون سائر أبنائك؟

ابتسم عبد المطلب ووضع يده على كتف محمد ﷺ وقال: له
شرف أعظم من ذلك.

ثم نظر إلى الوليد وقال: ما جاء بك أيها الوليد إلى مجلسنا؟

(١) الوليد بن المغيرة، والد خالد بن الوليد، شخصية مهمة في السيرة إلى بدايات الهجرة.

قال الوليد بن المغيرة مفاخراً: جنئت أطمئنكم أن ولائم الحج جاهزة وكاملة، لا تقلقوا بشأنها يا آل هاشم، فأنا وحدي سأحضرها جميعاً هذا العام.

انزعج أولاد عبد المطلب بمفاخرة الوليد، وعلموا أنه يعيرهم بفقرهم في مجلسهم، ولكن عبد المطلب قال باتزان حكيم: باركت لك السماء، كريم كما عهدناك، ولكننا لا ينقصنا الكرم والشرف لنكرم الحجاج، وما فقر آل هاشم إلا نتاج كرمهم.

قال الوليد: سيعلم الحجاج من يكرمهم أفضل الإكرام يومها، أكاد لا أصبر حتى أرى ذلك اليوم.

وضحك وغادر المجلس، فثار الإخوة معاً مما سمعوا، وقال العباس: أبي، يجب أن تكون ولائنا أفضل من ولائمه.

قال أبو لهب: لا نستطيع ذلك، فهو أغنى أغنياء قريش.

قال أبو طالب: لن ندخر جهداً ولا قرشاً في سبيل الحجاج.

أشار عبد المطلب بالإيجاب وقال: ابذلوا ما في وسعكم، وتجاهلوا ما قاله الوليد، إنه مفاخر وبخيل في آن واحد، يصرف على الأغنياء ويترك الفقراء، ومن للفقراء غير بني هاشم؟

انفض المجلس، وسار عبد المطلب مع ابنه أبي طالب وحفيده محمد ﷺ حول الكعبة، وكان هناك وفد من العرب يطوفون، فوقف أحدهم ينظر إلى محمد ﷺ، وكان من أهل الفراسة، واستوقف صديقه العربي ينظر إلى محمد ﷺ وتهامسا، فانتبه إليهما عبد المطلب وقال: هل رأيتما علامات النباهة على حفيدي؟

ابتسم العربي وقال: احتفظ به، فإننا لم نر قدماً أشبهه بالقدم الذي في المقام^(١) منه.

ابتهج عبد المطلب لما سمع، ونظر إلى ابنه أبي طالب وقال له: اسمع ما يقول هؤلاء.

عاد عبد المطلب مع حفيده محمد ﷺ إلى المنزل، هناك استقبلتهم بركة بكل سعادة، فقال لها عبد المطلب: يا بركة، لا تغفلي عن حفيدي، فإن له شأنًا.

ابتسمت بركة وتذكرت أمه آمنة، وكم كانت تؤمن بشأن ابنها العزيز محمد ﷺ، ثم قالت: يا سيدي، اجتمع الجميع في الداخل، سيعد الطعام بعد قليل.

(١) المقام هو مقام إبراهيم ﷺ.

دخل عبد المطلب المنزل وقد اجتمع أولاده من حوله، وبدأ العبيد بتوزيع الطعام أمام الجميع، وقبل أن يبدأ عبد المطلب تناول الطعام قال: عليّ بحفيدي.

فأحضرت بركة محمداً ﷺ، وأجلسته إلى جانب جده، ثم بدأ الجد بالأكل، وأكل الجميع.

ما إن أنهوا الطعام حتى دخل رجل مجلس عبد المطلب، وقال: يا سيدي، لقد ضاعت الإبل، لم نعثر عليها في أي مكان! قال عبد المطلب: هل بحثتم عنها حيث ترعى دائماً؟ قال الرجل: لم نترك مكاناً إلا بحثنا فيه.

نظر عبد المطلب إلى حفيده محمد ﷺ وقال له: انهض يا محمد، ابحث مع الرجال عن الإبل، فما أرسلتك في حاجة قط إلا أديتها لي أحسن أداء.

نهض محمد ﷺ ليبحث عن الإبل، وطال البحث، وتأخر محمد ﷺ عن جده الذي بدأ يقلق ويندم أنه قد بعث بحفيده الحبيب بعيداً. قال له حمزة: لا تقلق يا أبي، محمد على دراية جيدة بطرق مكة وما حولها، لا بد أن يعود مع الإبل.

قال عبد المطلب: لقد نسيت أمر الإبل، أريد أن أرى حفيدي.

ورفع يده ينشد:

رب رد إلي راكبي محمداً يا رب رده واصطنع عندي يدا
فما لبث إلا وقد جاء محمد ﷺ يجر خلفه الإبل، وقد وجدها
في الطريق حول مكة، ففرح الجميع، وكان عبد المطلب أكثرهم سعادة،
سار إلى حفيده يحتضنه ويقول: يا بني، لقد حزنت عليك حزناً
شديداً، لا تفارقني أبداً.



١٢ / ٤٦ هـ | ١ / ٥٧٦ م

الحج

حضر العرب من مختلف القبائل إلى مكة، لإقامة شعائر الحج وتعظيم البيت الحرام، كل منهم يحمل آمالاً أن تفرج الآلهة همومه، وأن تبارك لهم أموالهم وأولادهم وسائر صالح أمورهم. تسابق الفقير منهم قبل الغني، وتكلف عناء السفر ليقف أمام الكعبة التي تحيط بها الأصنام من كل صوب، ويذبح عندها الذبائح، ويدفع لها النقود، ويرجو منها الخير الكثير.

ولكن الحج لم يكتف على العبادة والشعائر، بل كانت قريش تتاجر في أكبر الأسواق وأهم الفرص للربح الوفير، فكانوا يتاجرون بالتمر والسمن والعسل والخمر والملابس والإبل، كما تعقد حلقات الشعر والخطب والمفاخرة بين القبائل.

وقف الوليد بن المغيرة، وقد كان في أواسط الأربعين من العمر،

في وسط السوق، يفاخر ويناشد، قال: أيها العرب! أشهدكم لهذا العام، وكما عهدتموني من قبل، أنني سأتكفل بكسوة الكعبة، وإطعام الحجيج، فلا توقد نار في منى غير ناري.

اجتمع الناس حول الرجل، وفخرت به قريش جداً، فسأل أحد الشباب زميله: من يكون هذا الرجل؟ يبدو عليه الغنى والفخار.

أجابه زميله: ألا تعرفه! هذا الوليد بن المغيرة، ريحانة قريش، أحد أشرفها وزعمائها وأغناها على الإطلاق، لديه من المال والأولاد الكثير، إنه يكسي الكعبة عاماً بماله وحده، وعاماً آخر تكسيها قريش كلها بمالها مجتمعة، فأطلقوا عليه لقب العدل، أي أنه يعدل قريشاً كلها.

قال الشاب: يكسو الكعبة ويطعم الحجيج وحده!

قال زميله: يفاخر بماله وأولاده دائماً، إنه تاجر كبير، ويقرض الناس بالربا دوماً، ولديه من العبيد الكثير الكثير.

قال الشاب: كم يتكلف لإطعام الحجيج يا ترى؟

قال زميله: ما لا يقل عن عشرين ألفاً بكل تأكيد.

استعظم الشاب الوليد بن المغيرة وقال: هذا رجل عظيم!

قال زميله: إنه لاشك كذلك، له أن يفاخر ويفاخر كما يشاء.

قال الشاب: هل يقرضني مالاً إذا ما طلبت منه؟

قال زميله: إن لم يقرضك الوليد بن المغيرة، فمن يفعل؟ الناس يحضرون إليه خصيصاً لطلب المال.

قال الوليد بن المغيرة في الناس: أيها العرب! من احتاج منكم مالاً فأنا له، أقسم وأقسم وأقسم أنه لن يجد من هو أكثر مني مالاً، وأصبر مني سداً.

قال رجل من العرب: بهذا أقسمت عليك يا ريحانة قريش أن تؤجل علي سداً، فقد ضاقت علي السنون، وأتعبني القحط، وليس لدي مال يكفي قوت عيالي.

ولكن الوليد بن المغيرة ضحك وقال: لم أكن أتوقع من رجل ضعيف مثلك غير ذلك، أمهلك للعام القادم بضعف المبلغ المقترض.
قال الرجل: ضعف المبلغ! كيف لي أن أجمع ضعفه وأنا لا أملك منه شيئاً؟

ضحك الوليد بن المغيرة وقال: كان عليك أن تفكر في ذلك قبل أن تقترض، لقد طلبت من سخي وقد أعطيناك، ولتعلم أنه مبلغ تافه سخيف بالنسبة لرجل مثلي، ولكن عليك السداد أو المضاعفة.

قال الرجل: ولكن...

عندها أشار الوليد لبعض عبيده أن يتولوا أمر الرجل ويبعدوه عن الحشد، ففعلوا، وتابع قائلاً: أيها العرب! موعدنا منى، أقسم وأقسم وأقسم لا تشعل نار تطعم الحجيج غير ناري، أنا الكريم الشريف، أنا أطعم الحجيج، أما اليوم فأنا أدعو نقباء القبائل إلى وليمة هذا المساء، لنتحدث ونتسامر ونتفاخر.

هكذا كان الوليد بن المغيرة، غنياً جماعاً للمال، كثير الولد، مفاخراً حلاقاً يهين الناس، لا يأبه بأحد ولا يبالي إلا بماله وولده وفخره.

في الثامن من ذي الحجة بات الناس في منى، ونادى فيهم الوليد بن المغيرة بكل فخر: ألا من أراد اللبن فليأت الوليد بن المغيرة. وهناك أطعم الوليد بن المغيرة الحجاج كلهم، لا يشاركه في إطعامهم أحد.

وانصاعت القبائل لقوانين قريش في الحج، فلم يطف بالبيت أحد يرتدي ثياباً من خارج مكة، بل من لم يجد المال الكافي لشراء الثياب كان عليه أن يطوف بالبيت عرياناً، فكانت المرأة الفقيرة تطوف بالبيت دون ثيابها، تغطي عورتها بيدها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله
كما أن قريشاً حرموا على أنفسهم ما حرموا على الحُمس، ولم
يخرجوا من الحرم، ولم يفيضوا من عرفة، اعتزازاً منهم أنهم أهل
الحرم.

واستغل تجار وأغنياء قريش حاجات الناس في الحج، كما كان
كثير منهم يبيعون الأصنام للحجيج حتى يأخذوها معهم في سفرهم
ويعبدها في الطريق، وأغروهم بدفع الكثير من النقود كي ترضى عنهم
الآلهة وتبارك لهم، وكل النقود كانت تعود إلى أغنياء قريش ممن
يستغلون الناس ويكذبون عليهم.

بذلك كانت عبادة الأصنام تجارة رابحة لكثير من أهل قريش،
يصنعونها من أغلى المعادن وأرخصها، يبيعونها للغني والفقير.
رجل واحد كان يقف أمام ضلالات قريش، هو زيد بن عمرو،
كان يطوف مع الناس، ويذهب إلى منى وعرفة دون قريش، وكان
العرب ينظرون إليه ويقولون: أليس هذا من الحُمس؟ أليس قرشياً من
أهل الحرم؟

قال آخر: بلى، إنه قرشي، ولكن لماذا يقف على عرفة؟

قال آخر: ألا تعلمان؟ إنه لا يعبد الأصنام، ويقول أن الله واحد

لا شريك له، وأنه على دين إبراهيم من دون قريش كلها، ويدّعي أن قريشاً أخطأت في إلغاء شعائر من الحج لأنفسهم، بل قد سمعت أنه لا يأكل مما ذبح عند الأصنام، ويكفل المؤودة^(١).

نظروا إليه فإذا بزید بن عمرو يلبي ويقول: لبيك لا شريك لك ولا ند لك، لبيك لا شريك لك ولا ند لك، لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً. ثم أفاضوا من عرفة ونزلوا إلى أن وصلوا الكعبة، وبدأ زيد بن عمرو يطوف بها ويلبي: لبيك لا شريك لك ولا ند لك...

وكانت الناس تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...

فيقول زيد بن عمرو للناس: توقفوا، فقط إلى هنا توقفوا! فيتابعون تلبية الشرك: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك... سمعه فتى من قريش وركض إلى الخطاب بن نفيل يقول: يا سيدي! يا سيدي! إنه زيد بن عمرو، يعيب الآلهة أمام العرب. غضب الخطاب بن نفيل وقال: ألا يكف زيد عن الأذى؟ كيف تركتموه يدخل مكة؟ ابعث إلى أصحابك فليخرجوه منها.

(١) المؤودة هي البنت التي يدفنها والدها على قيد الحياة خوفاً من العار.

أطاع الفتى، وتجمع شباب من قريش بأمر الخطاب، ودفعوا
زيداً بن عمر خارج مكة، فكان يقول: إنني أؤدي شعائر الحج، الحج
لله وحده وليس ملكاً لأحدكم.

ورآهم صديقه ورقة بن نوفل، فركض إليه ودفعهم عنه يقول:
أخرجون رجلاً من بيت الله أن يعبد إله إبراهيم! هو أحق بالبيت
منكم.

ولكن أحد الشباب السفهاء دفعه يقول: لقد آمنت بالمسيح، فما
لك ولبيت إبراهيم؟

ولكن ورقة بن نوفل قال: أو من بإبراهيم، وبرب إبراهيم، ولا
أشرك به الأصنام، تباً لأصنام لا تضر ولا تنفع.

ولكن السفهاء آذوهما حتى أبعدهما عن الكعبة، فقال زيد بن
عمرو:

أسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخراً ثقلاً
دحاها فلما رآها استوت	على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له المزن ^(١) تحمل عذباً زلالاً
إذا هي سيقت إلى بلدة	أطاعت فصبت عليها سجلاً

(١) المزن هي السحاب.

شكر زيد بن عمرو صديقه ورقة بن نوفل على وقوفه إلى جانبه،
ولكن لا فائدة، فقد أعمت الأصنام أعين الناس عن الحقيقة، وعاد زيد
بن عمرو إلى منزله خارج مكة، استقبلته زوجته بوجه عبس وقالت:
لقد وجدك الخطاب بن نفيل متسللاً بين الحجاج، أليس كذلك؟
قال زيد بن عمرو: الحج لله وليس للخطاب ولا سفهائه.
قالت: إذا ما بقيت تعيب عليهم أفعالهم وعباداتهم فلن نعيش.
قال زيد بن عمرو: الحياة والموت بيد الله، والرزق والصحة بيد
الله.

تهنئت زوجته وقالت: سأبعث بصبي يجلب لنا بعض اللبن،
لا فائدة من النقاش معك.

انتهى موسم الحج، وتجهز الناس للمغادرة إلى ديارهم، وكان
أشراف قريش يقيمون الولائم للناس، إكراماً لهم وللحج، وإظهاراً
لشأنهم بين الناس.

حضرت قافلة تحمل عبيداً للبيع، فاستوقفها عبد الله بن جدعان
وقال: أنزل إلي عشرة صبية يشرفون على الموائد الليلية.

قال التاجر: أفضل الصبيان لك يا سيدي عبد الله بن جدعان،

إنهم محظوظون بالكريم السخي.

قال عبد الله بن جدعان: وتعال إلى خيمتي تتناول الطعام
وتشرب الخمر واللبن وتستريح من سفرك.

قال التاجر: هذا عهدي بعبد الله بن جدعان، سيد قريش.

كان من بين الأدبات الشهيرة في قريش مأدبة عبد الله بن
جدعان، على خلاف الوليد بن المغيرة، فقد كان عبد الله بن جدعان
كريماً سخياً ودوداً ومحباً للخير، يكرم المسكين، ويساعد المسافرين.
كانت العرب تتزاحم في موائد عبد الله بن جدعان، وكان يكرمهم
ويكثر من الخمر لهم، فكان له سواقي للخمر يشرفون على تقديم ما لذ
وطاب للجميع.

حظي عبد الله بن جدعان بمكانة رفيعة في قريش وبين العرب،
فقد كان غنياً شريفاً كريماً خلوقاً، يلتف حوله المسكين والمظلوم
ليساعده وينصفه.

وكان محمد ﷺ قد حضر المأدبة مع أعمامه، وبينما الناس
تتدافع للطعام، تدافع عليه عمرو بن هشام^(١)، فدفعه محمد ﷺ فوق
عمرو على ركبته فأصيب، فبدأ يبكي، قدم إليه رجل من قبيلته يمسح

(١) عمرو بن هشام بن المغيرة، أبو جهل، له دور كبير في السيرة إلى غزوة بدر.

جرحه ويقول: إن الدم غزير، تعال نربطه لك في الخارج.
وحمله وربط له الجرح وقال: جرح كهذا قد يترك أثراً، لماذا
تتزاحم دوماً في مأدبة عبد الله بن جدعان، وعمك الوليد بن المغيرة يقدم
مأدبات كبيرة أخرى؟

أشاح عمرو بن هشام برأسه، الجميع يفضل مأدبة عبد الله بن
جدعان على مأدبة الوليد بن المغيرة.

خرج أحد أبناء الوليد بن المغيرة من مأدبة عبد الله بن جدعان
وقد أكثر من شرب الخمر، فرآه الوليد بن المغيرة فغضب وأمسكه بشدة
وقال: ألم أنهك عن شرب الخمر؟

ابتسم ابنه وقال: كل قريش تشرب الخمر يا أبي، انظر إليهم
كيف يفرحون ويمرحون.

ضربه الوليد بن المغيرة وقال: لقد ذهب عقلك كما ذهب عقلم،
انظر إلى نفسك كيف أصبحت!

حينها قدم أبو لهب بن عبد المطلب يسير متثاقلاً من الخمر
وقال للوليد بن المغيرة: ما بالك تقسى على ابنك؟ كل الفتيان سعداء
هنا، أولأنها وليمة عبد الله بن جدعان؟

غضب الوليد بن المغيرة لتهكم أبي لهب، فقال: لا شأن لك بما

أفعل، هذا ولدي، وأنا أمنع أولادي من الخمر، أما عن مآدبة عبد الله بن جدعان، فكفاني فخراً ما قدمت في منى، وكل قريش تتحدث عن ولائمي.

قال أبو لهب متثاقلاً: نعم نعم، الولايم، جزتك الآلهة خيراً،

هل تحضر معي نادي الشعراء؟

قال الوليد بن المغيرة: سأفعل، اسبقني وسأتبعك.

غادر أبو لهب، وتنهى الوليد بن المغيرة يقول في نفسه: هذا

عبد الله بن جدعان، وجد كنزاً وأصبح يتفاخر بالمال والجاه، لا وجه

للمقارنة بينه وبين مالي وجاهي.

وسحب ابنه يؤدبه في المنزل.



٤٥هـ | ٥٧٧م

وفاة عبد المطلب بن هاشم

بلغ محمد ﷺ الثامنة، وكان سعيداً في منزل جده، يقضي وقته مع أعمامه المقربين له في السن كحمزة والعباس، ويتعلم من أعمامه الأكبر سناً كأبي طالب.

وبينما كان محمد ﷺ في السوق مع عمه أبي طالب، قدم إليهم العباس مسرعاً يقول والقلق على وجهه: أخي! أخي! أبي مريض جداً، إنه يريد أن يراكم جميعاً.

قلق أبو طالب، وركض مع ابن أخيه محمد ﷺ إلى المنزل ليجدا عبد المطلب راقداً في الفراش، والإعياء باد عليه، وتتحلق حوله بناته.

اقترب أبو طالب من والده وقال: أبي، هل أنت بخير؟

قال عبد المطلب: أظنه الموت يا بني، الذي لا مفر منه ولا ملجأ.

قال أبو طالب: سأنادي لك من يطبك.

أشار إليه عبد المطلب بالنفي وقال: لقد غادر للتو، ليس هناك ما يفعله.

دمعت عينا أبي طالب وقال: أنت قوي، وقد تخطيت ما هو أصعب من هذا.

ابتسم عبد المطلب وقال: الموت أقوى منا جميعاً.
عندها دخل أبو لهب مسرعاً إلى جانبه حمزة يلهثان، اقتربا من أبيهما قلقين، فابتسم عبد المطلب وقال: أظن أنكم جميعاً هنا الآن.
قال حمزة: سأحضر لك الماء.

قال أبو لهب: ستتعافى، إنها وعكة صحية لا أكثر.
نظر عبد المطلب إلى أولاده وحفيده، فمد يده إلى محمد ﷺ،
فاقترب من جده، فأمسك عبد المطلب يده وقال له: إن لك شأنًا يا محمد، فلتحفظك السماء ولتبارك في نشأتك دائماً.

دمعت عينا محمد ﷺ، فنظر عبد المطلب إلى ابنه أبي طالب وقال له: أنت أرق إخوتك على ابن أخيك يا أبا طالب، عهدت إليك بحفيدي هذا، اعتن به جيداً، وأكرمه واحفظه، فإن له شأنًا.
بكى أبو طالب وقال: لا تقلق على محمد، إنه ابني وأعز من أبنائي.

ثم نظر عبد المطلب إلى العباس الذي بلغ الحادية عشرة، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فأشار إليه أن يقترب، وأمسك بيده وقال: يا بني، فليشهد جميع إخوتك أنني عهدت إليك بزمزم، إنها شرفي الأعظم، فلتسقي الحجيج ولا تبخل على أحد، فإن الله مبارك في زمزم. أشار العباس بالإيجاب، وأشار جميع أولاده بالموافقة على وصية أبيهم دون نقاش. ثم نظر عبد المطلب إلى بناته اللاتي كنَّ يبكين بحرارة، فقال لهنّ: ابكين علي حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت.

فقال صفة بنت عبد المطلب:

أرقت لصوت نائحة^(١) بليل على رجل بقارعة الصعيد^(٢)
ففاضت عند ذلكم دموعي على خدي كمنحدر الفريد^(٣)
على رجل كريم غير وغل^(٤) له الفضل المبين على العبيد
وقالت أخرى:

ألا يا عين جودي واستهلي وبكي ذا الندى والمكرمات
ألا يا عين ويحك أسعفيني بدمع من دموع هاطلات

(١) باكينة.

(٢) المكان الذي يمشي فيه الناس.

(٣) الجواهر.

(٤) لم يدع النسب (نسبه شريف).

وبكي خير من ركب المطايا^(١) أباك الخير تيار الفرات
طويل الباع^(٢) شيبه ذا المعالي كريم الخيم^(٣) محمود الهبات
فهز عبد المطلب رأسه بالإيجاب والقبول على ما سمع، ونظر
نظرة أخيرة إلى عائلته التي كانت غارقة في الحزن، والدموع في كل
العيون، وأغمض عينيه مفارقاً الحياة.



(١) الدواب.

(٢) طويل الجسم.

(٣) الأصل.

١١ / - ٤٣ هـ | ٩ / ٥٧٩ م

حرب الفجار

عبد عمرو بن عوف^(١)

بلغ محمد ﷺ العاشرة، وقد غادر منزل جده ليعيش مع عمه أبي طالب وأبنائه، وقد حزن حمزة والعباس بخروج ابن أخيهما من المنزل، ولكن أبا طالب كان سعيداً به جداً، وما كان يفارقه أبداً. شب حمزة والعباس، وتعلم حمزة القراءة والكتابة والفروسية والصيد، بينما اشتغل العباس في التجارة، أما محمد ﷺ فقد بدأ يعمل في رعاية الأغنام ليساعد عمه أبا طالب حيث كان فقيراً وذا أولاد. كان محمد ﷺ يخرج بالأغنام يرعاها خارج مكة، فكان ينظر

(١) عبد عمرو هو اسم عبد الرحمن بن عوف قبيل الإسلام، أحد العشرة المبشرين بالجنة، له دور أساسي في السيرة كاملة.

في الأرض الممتدة، والسماء الواسعة، والشمس الساطعة، وكل خلق حوله يلفته ويتفكر فيه بهدوء وروية. كما كان رحيماً بالأغنام حريصاً عليها، ما تأخر عليها في طعام أو شراب، يعود بها سالمة مرعية إلى أصحابها في مكة. وكان الجميع سعيدين بمحمد ﷺ وأخلاقه وتفانيه في عمله.

عاد محمد ﷺ إلى منزل عمه بعد أن أمّن الأغنام، وقد كانت امرأة أبي طالب فاطمة بنت أسد الهاشمية^(١) قد حضّرت الطعام بمساعدة بركة، ووضعت أمام الأولاد، فتدافعوا ليأكلوا، بينما ظل محمد ﷺ واقفاً بعيداً عنهم، ينظر إليهم كيف هم في حاجة، فيغادر دون أن يتدافع معهم، فتقلق عليه بركة.

عاد أبو طالب من أسواق مكة إلى منزله، فوجد أولاده يتدافعون على الطعام القليل، ولم يجد محمداً ﷺ بينهم، فسأل بركة: ألم يعد محمد بعد؟

قالت: بلى لقد عاد، فرأى الصغار يتدافعون على الطعام فذهب، اطلب إليه أن يأكل يا سيدي، أنا قلقة عليه.

أخذ أبو طالب طبقاً ووضع فيه طعاماً ذهب به إلى محمد ﷺ،

(١) فاطمة بنت أسد الهاشمية، أم جعفر وعلي ابنا أبي طالب.

ناوله الطبق يقول: أعلم أنك لا تريد التدافع مع الآخرين، ولا تريد أن تنافسهم طعامهم، ولكنني أكفلك، وعلي واجب إطعامك ورعايتك، عليك أن تأكل يا محمد، هذا لك.

فكان أبو طالب يضع لمحمد ﷺ طبقاً يكفيه من التدافع مع الآخرين، وكان يحبه ويفضله على أولاده، فيقربه في مجلسه، وينام إلى جانبه، فكان يستيقظ أولاده بشعر منكوش، وعيون متورمة، بينما يستيقظ محمد ﷺ بشعر مرتب مدهون وعيون كحيلة.

دائماً كانت موائد أبي طالب صغيرة، لا تكفي العائلة، ولكن أبا طالب كان يلاحظ أن الأيام التي يأكل فيها محمد ﷺ بينهم يشبع فيها الجميع ويفيض الطعام، وإذا لم يكن بينهم جاعوا، فيربت أبو طالب على ظهر محمد ﷺ يقول: أنت مبارك، ما إن أكلت معنا حتى زاد الطعام عن حاجتنا.

قالت بركة لمحمد ﷺ: لقد ولد لأخوالك بني زهرة صبي أسموه عبد عمرو بن عوف، سنذهب إلى مادبتهم لتهنأتهم.

فرح محمد ﷺ بالخبر، وسعد أبو طالب أيضاً وقال: سنذهب جميعاً للتهنئة.

عندها حضر رجل يركض إلى أبي طالب يقول: يا أبا طالب،

حدث عظيم! إنها الحرب!

نهض أبو طالب يقول: ماذا تقول يا هذا؟ ماذا حدث؟

قال الرجل: الجميع مجتمع في دار الندوة، تعال واسمع.

ذهب أبو طالب مسرعاً، لحقه أولاده وحفيده إلى دار الندوة، دخل أبو طالب فكان حرب بن أمية^(١) يقف إلى جانبه ابنه صخر بن حرب^(٢) الذي يبلغ العشرين من العمر، وإلى جانبهم الوليد بن المغيرة، وعبد الله بن جدعان، وعتبة بن ربيعة^(٣)، مع كبار رجالات القبائل الأخرى يتشاورون، قال أبو طالب: ماذا حدث؟

صرخ الوليد بن المغيرة: إنها الحرب يا بني هاشم!

قال أبو طالب: أي حرب في الأشهر الحرم^(٤)؟ هل نسيتم أننا لا

نقاتل ولا يقاتل أحد من العرب في الأشهر الحرم؟

(١) حرب بن أمية، ابن أمية بن عبد شمس ووالد أبي سفيان بن حرب، سيذكر في السيرة في حرب الفجار فقط.

(٢) صخر بن حرب، هو أبو سفيان بن حرب، شخصية أساسية في السيرة.

(٣) عتبة بن ربيعة، والد هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان من بعد، له دور في السيرة إلى غزوة بدر.

(٤) الأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب، لا يقاتل فيها أحد من العرب، ولا قتل فيها.

قال عتبة بن ربيعة: لقد قتل حليفنا رجلاً من هوازن، ما إن يصلهم الخبر حتى يهاجموا مكة.

قال حرب بن أمية: علينا أن نتجهز قبل أن يحضروا، وألا نسمح لهم بدخول الحرم، نقاتلهم في الخارج.

قال عبد الله بن جدعان: هذا الرأي، يجب أن نسبقهم في الخروج من الحرم حتى نقاتل.

قال عتبة بن ربيعة: فليتهز الجميع، حضروا العدة والخيول، سننطلق بأقصى سرعة.

انتشر الجميع، وبدأ تحضير الجيش، ركض حمزة والعباس ليحضروا نبأهم، وساعدهم محمد ﷺ، واشترى أغنياء قريش الخيول للقتال، وتجهزوا وجهزوا أولادهم للقتال إلى جانبهم.

قاد الجيش حرب بن أمية، إلى جانبه يقف ابنه صخر بن حرب يتعلم منه القيادة والسياسة، وشارك الجميع في المعركة.

خرج الجيش خارج الحرم، وهناك التقوا بجيش قبيلة هوازن وحلفائها، وبدأ قتال عنيف، يقاتلون في الصباح، ويعودون أدراجهم داخل الحرم في المساء ليرتاحوا.

كلما ظن الجميع أن المعركة اقتربت من الحسم، امتدت لأشهر

أكثر، بل لسنين كثيرة، كبر فيها الصغير، واشتد فيها عود الشباب،
وأصبحوا أكثر خبرة في القتال والسياسة، وكان محمد ﷺ يخرج فيها
أياماً يناول أعمامه النبال ويصدهم عنها.

هكذا امتدت حرب الفجار، التي فجر فيها القوم بالقتل في
الشهر الحرام، عشر سنين.



٤١هـ | ٥٨١م

أول رحلة تجارية

بلغ محمد ﷺ الثانية عشرة من العمر، وما يزال يساعد عمه أبا طالب برعاية أغنام القوم، وكان أميناً عليها، يرهاها بكل عناية، وكان القوم سعداء به جداً.

كما كان بعيداً عما يقوم به القوم من فواحش، كسفك الدماء ونهب الأموال وعبادة الأصنام وقتل البنات والأبناء خشية الفقر، ولم يكن مثلهم في شيء من اعتقاد الخرافات، وشرب الخمر، ولعب القمار، والتشاؤم.

وذات ليلة بينما كان محمد ﷺ يرعى الغنم مع غلام بأعلى مكة، سأله الغلام: هناك مادية كبيرة لعبد الله بن جدعان، ستغني فيها المغنيات، ويشربون ويسمرون، لقد أصبحت شاباً، ألا تجرب ذلك يوماً؟

فكر محمد ﷺ قليلاً ثم قال للغلام: أبصر إليّ غنمي حتى أسمر
هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان.

ابتهج الغلام وقال: بالطبع أفعل، لا تقلق، اذهب واستمتع.
فخرج محمد ﷺ حتى إذا كان عند أول دار بمكة سمع عزفاً،
فسأل ماراً: ما هذا؟
أجابه: إنه عرس.

فجلس يسمع، فضرب الله على أذنه فنام، فما أيقظه إلا حر
الشمس على وجنته، فنهض وعاد إلى الغلام، ابتهج الغلام بعودة
محمد ﷺ بعد هذه المدة الطويلة، لا بد أنه استمتع بالوقت كثيراً،
فسأله ما فعل، ولكن محمداً ﷺ أخبره أنه لم يحضر عرساً أو سمراً،
بل ما شعر بنفسه إلا أنه نعس ونام.

تعجب الغلام، ولكنه قال: لا بأس، هناك دائماً مآدبات
تستحق الحضور، في المرة القادمة ستقضي وقتاً جميلاً.

في ليلة أخرى، ركض الغلام إلى محمد ﷺ يقول: محمد! هناك
مأدبة للوليد بن المغيرة، سمعت الناس يضحكون ويمرحون سعيدين،
هلاً ذهبت لتستمتع مع الشباب، سأجلس مع الأغنام.

فعلاً ذهب محمد ﷺ إلى حيث مأدبة الوليد، اقترب من خيمة

السمر، فأحس بالنعاس فجأة، وجلس قرب جدار ونام، وما استيقظ إلا في صباح اليوم التالي على حرارة أشعة الشمس.

عاد إلى الغلام يخبره ما جرى، فقال الغلام: هذا لا يعقل! حاول مرة أخرى، ستسعد كثيراً مع الشباب.

ولكن محمداً ﷺ كان يشعر أن في الأمر سرّاً ما، وأنه لا يجب عليه أن يذهب إلى تلك الولايم والسهرات، فما عاد إليها أبداً.

في صباح اليوم التالي قال أبو طالب لمحمد ﷺ: يا محمد، الشباب يساعدون في البناء اليوم، اذهب مع عمك العباس لتساعد.

أطاع محمد ﷺ عمه وذهب مع عمه العباس ليحمل الحجارة الثقيلة مع الشباب، هناك تعرف محمد ﷺ على عمار بن ياسر، كان يقاربه العمر، أسمر طويل، أجعد الشعر، يحمل الحجارة بنشاط، تبادلاً أطراف الحديث، ونشأت بينهما صحبة طيبة.

طال العمل، وسطعت شمس الظهيرة، وبات العمل شاقاً والحجارة ثقيلة تؤذي الأكتاف، فقام الشباب بخلع ثيابهم ووضعوها على أكتافهم حتى لا تؤذيها الحجارة الثقيلة، وتابعوا العمل عرياناً، ولكن محمداً ﷺ لم يفعل مثلهم، فقال له عمار بن ياسر: إنك تؤذي

كتفك يا محمد، ضع ثوبك على كتفك.

ولكن محمداً ﷺ كان حياؤه يمنعه من أن يفعل كما يفعلون، إلى أن رآه عمه العباس يؤذي كتفه من الحجارة الثقيلة، فقال له: يا محمد، ضع ثيابك على كتفك كي لا تؤذي الحجارة الثقيلة.

أنزل محمد ﷺ الحجر من على كتفه، وما إن أمسك ثوبه لينزعه حتى سقط على الأرض مغشياً عليه.

فتح محمد ﷺ عينيه فإذا به قد نُقل إلى منزل عمه أبي طالب الذي كان قلقاً عليه، ولكن محمداً ﷺ طمأنه أنه لا يشعر بأي تعب، وهو على ما يرام.

اطمأن أبو طالب على ابن أخيه العزيز، وخرج ليتابع تجهيز قافلته التجارية إلى الشام.

ظل محمد ﷺ يراقب عمه أبا طالب يتجهز للسفر عدة أيام، يحضر تجارته وزاده وماشيته، فشعر برغبة شديدة في السفر، والخروج من مكة لأول مرة في حياته، ورؤية أمم أخرى وحضارات مختلفة.

اقترب موعد السفر، فطلب محمد ﷺ من عمه أن يصحبه معه

في سفره هذا، ولكن عمه قال: أحب جداً أن أصحابك يا محمد، ولكنك ما تزال صغيراً، والسفر مرهق جداً، في السنة القادمة أصحابك.

في اليوم التالي أعاد محمد ﷺ طلبه في السفر مع عمه، وحاول إقناعه أنه ليس صغيراً، وأنه لن يتعبه في السفر، ويستطيع الاعتناء بنفسه، ولكن عمه قال: أراك متحمساً للسفر يا محمد، ولكن السفر مرهق أكثر مما تظن، في السنة القادمة أصحابك معي.

حضر محمد ﷺ إلى عمه في اليوم الثالث وقد حضر عدته للسفر، وطلب إليه أن يذهب معه، فستنطلق القافلة في صباح الغد، وقال: يا عم، إلى من تكلني لا أب لي ولا أم؟

فكر أبو طالب ورق قلبه، ونظر إلى محمد ﷺ وإحاحه الشديد على السفر، ونادراً ما كان محمد ﷺ يلح عليه في شيء، فوضع يده على كتفه وقال: سأكون سعيداً بمرافقتك لي في سفري هذا، ولا تبتعد عني أبداً.

ابتهج محمد ﷺ وأكد على عمه أنه سيظل إلى جانبه ولن يقلق عليه أبداً.

انطلقت القافلة، وكان محمد ﷺ الأسعد فيها، لأول مرة

سيسافر إلى بلاد مختلفة، كان ينظر حوله ويتأمل الطريق والمسافات الطوال، الأنواع المختلفة من الأشجار والصخور والحيوانات، كيف يتشارك القوم في الطعام والمبيت والأحاديث، وكان أبو طالب يقرب محمداً ﷺ منه دائماً، يتحدثان عن الشام والعراق واليمن، وكل ما يجدُّ عليهم في السفر.

وصلت القافلة قرب بصرى من الشام، ونزلت لاستراحة قصيرة، كانت هناك في الجوار كنيسة قديمة، كان القوم يمرون عليها في كل سفر لهم إلى الشام، ولم يكونوا يرون أحداً من القساوسة يخرج منها أو ينظر إليهم، علماً أنهم يعلمون أنها غير مهجورة.

نزل محمد ﷺ من إبله، وجلس تحت شجرة قريبة وحده، فأملت الشجرة أغصانها لتظل محمداً ﷺ.

كان هناك راهب في الكنيسة يدعى بحيرى ينظر من الكنيسة إلى القافلة العربية، لمح شخصاً كانت تتبعه غيمة تظله من فوق إبله، ثم كان قد جلس تحت شجرة، وأن الشجرة قد مالت لتظله، فنزل عن الشرفة مسرعاً إلى الصالة يقول: فليُحضر لي أحدكم ركبان تلك القافلة. تعجب الرهبان، فقال أحدهم: العرب! ماذا تريد منهم؟ إنهم يمرون هنا في الصيف، لا تأبه بهم.

ولكن بحيرى قال: أرسلوا إليهم أننا سنطعمهم، وسنحضر لهم
وليمة كبيرة، ولا يتغيب أحدهم عنها أياً كان صغيراً أم كبيراً.
قال أحد الرهبان: غريب هو أمرك يا بحيرى، وليممة للعرب!
بم تفكر؟

قال بحيرى: أرجو أن يكون هو ما أفكر فيه، أرسلوا إليهم
حالاً.

كان محمد ﷺ يستظل بظل الشجرة الوارف، بينما كان باقي
القوم يحاولون الاستئصال بشجر قليل الأغصان، أتعبتهم حرارة
الشمس، ثم نادوا بالأقدار حتى يطهو الطعام، عندها اقترب منهم
صبي رسولاً من بحيرى الراهب يقول لهم: أيها القوم، يقول لكم
بحيرى الراهب أنه قد صنع لكم طعاماً، ويحب أن تحضروا كلكم،
صغيركم وكبيركم، عبدكم وحركم.

تعجب القوم! هذه أول مرة ينزل فيها أحدهم من تلك الكنيسة
ليتحدث إليهم بل ليعزمهم على مأدبة!
نظر بعضهم إلى بعض لا يدرون ما يقولون، ولم يكونوا قد
وضعوا القدور بعد، قال عتبة بن ربيعة: ابعث إلى الراهب بحيرى
بشكرنا، سنكون على الموعد.

ذهب الرسول، واقترب أبو طالب من عتبة بن ربيعة يقول له:
إنه يطلبنا لشأن، ما فعلها من قبل قط.

قال عتبة بن ربيعة: سننظر فيما يريد.

ثم قال للقافلة: أخدموا النيران، طعامكم اليوم في الكنيسة.
جمّع الرجال أمتعتهم ودوابهم ليذهبوا إلى الكنيسة، ولكن كان
على أحدهم أن يبقى قرب الأمتعة، فنظروا إلى أصغر من في القافلة،
إنه محمد ﷺ، فاقترب منه أبو طالب يقول: آسف يا محمد، لقد
استصغرك القوم، ولكنهم ائتمنوك على متاعهم، هلا حرسها لهم إلى
أن يعودوا؟

لم يمانع محمد ﷺ، وجلس إلى المتاع بينما ذهب الجميع إلى
داخل الكنيسة.

هناك استقبلهم الرهبان بالترحاب، وكانوا قد أعدوا وليمة
كبيرة وشهية، تفاجأ الجميع بها.

جلسوا على المائدة بينما قال بحيرى الراهب: أهلاً وسهلاً بكم
أيها المسافرين الكرام، نرجو الله أن يحفظكم ويرعاكم في سفركم، كلوا
واشربوا هنيئاً.

وقف عتبة بن ربيعة يقول لبحيرى الراهب: الشكر الجزيل

على الكرم أيها الراهب، ولكن هل لنا أن نسأل عن سبب المأدبة؟ فكم مررنا بهذا الطريق، ولم ينزل إلينا أحد من صومعتكم.

فقال أبو طالب: والله أيها الراهب إن لك لشأناً اليوم، فما كنت

تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟

ابتسم بحيرى الراهب وقال: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم

ضيوف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم.

فلما نظر بحيرى جيداً في القوم لم ير الصفة التي يبحث عنها،

فقال: يا معشر قريش، هل تخلف أحد منكم عن طعامي؟

نظر بعضهم إلى بعض ثم قال عتبة بن ربيعة: يا بحيرى، ما

تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام أحدثنا سناً، تخلف

يحرس أمتعتنا.

هز بحيرى الراهب رأسه في استياء وقال: لا تفعلوا، ادعوه

ليحضر هذا الطعام معكم.

فقال أبو طالب: واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن

عبد الله عن طعام من بيننا.

فبعث إليه رسولاً ليحضر ويترك رسول بحيرى يحرس الأمتعة

بدلاً منه.

دخل محمد ﷺ الكنيسة حيث يجلس قومه ويقف بحيرى
الراهب ينظر إليه، فاقرب بحيرى من محمد ﷺ فاحتضنه وأجلسه
مع القوم.

تعجب الجميع لاهتمام بحيرى الراهب بمحمد ﷺ، وتقريبه
منه، وجلوسه إلى جانبه، ومراقبته مراقبة شديدة في كل حركة
يتحركها، وكل لقمة يلتقمها.

أنهى الجميع تناول الطعام الشهي، ونهضوا للمغادرة، قال
عتبة بن ربيعة: شكراً جزيلاً لك أيها الراهب، لقد أكرمتنا أي إكرام،
ولكن علينا أن نغادر الآن حتى نصل في الوقت المحدد.

ولكن بحيرى لم يكن يستمع إلى عتبة مطلقاً، أشار إلى أحد
الرهبان أن يتولى أمرهم، فأوصل الراهبان القوم إلى باب الكنيسة
للمغادرة، بينما انفرد بحيرى بمحمد ﷺ وعمه أبي طالب، قال
بحيرى الراهب لمحمد ﷺ: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا
ما أخبرتني عما أسألك عنه.

لم يكن بحيرى يؤمن باللات والعزى، ولكنه سمع القرشيين
يحلِفون بهما، ولكن محمداً ﷺ قال: لا تسألني باللات والعزى،
فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما.

ابتسم بحيرى وقال: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه.

فقال محمد ﷺ: سلني عما بدا لك.

فجعل بحيرى يسأل محمداً ﷺ عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل محمد ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند الراهب من صفة نبي آخر الزمان في الكتاب المقدس، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

صمت بحيرى، ثم وقف يحدق بمحمد ﷺ، ثم نظر إلى أبي طالب ينتظر محمداً ﷺ بقلق، فاقترب منه وسأله: ما هذا الغلام منك؟

قال أبو طالب: ابني.

قال بحيرى: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً.

تعجب أبو طالب وقلق، ولكنه قال: فإنه ابن أخي.

قال بحيرى: فما فعل أبوه؟

قال أبو طالب: مات وأمه حبلى به.

قال بحيرى: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغته شراً، فإنه كائن

لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده.

قلق أبو طالب على محمد ﷺ كثيراً، كما كان ينظر حوله ويرى
عيون الرهبان الآخرين تحديقاً بمحمد ﷺ، فأمسك يده وخرج به
مسرعاً من الكنيسة دون أن يسأل أكثر عما يجري.

حاول ثلاثة من الرهبان أن يتبعوا محمداً ﷺ ولكن بحيرى
أوقفهم وقال: اذكروا الله، وما تجدون في كتابكم المقدس من صفة نبي
آخر الزمان، حتى وإن أجمعتم على أمر فلن تخلصوا إليه أبداً.

فخافوا على أنفسهم، وتركوا القافلة تغادر وتتابع سيرها إلى
النشام، وقد قرّب أبو طالب محمداً ﷺ منه أكثر، وعاد به سريعاً إلى
مكة.

في مكة كان أبو قحافة قد أخذ ابنه عبد الكعبة بن أبي قحافة^(١)
إلى الكعبة وما حولها من أصنام عظام، نظر أبو قحافة إلى ابنه الذي
بلغ العاشرة وقال له: يا بني، ألا ترى أقرانك يسجدون للآلهة كما
يفعل آباؤهم؟

نظر عبد الكعبة حوله، فكان يرى أبا لهب بن عبد المطلب

(١) عبد الكعبة بن أبي قحافة هو أبو بكر الصديق.

يمسح الغبار عن صنم، يتحسسه ويتيقن من تماسكه وصلابته قبل أن يخرج في رحلته إلى الصيد ليباركها له.

أشار عبد الكعبة بالإيجاب، فتابع أبو قحافة قائلاً: لقد كبرت، وعليك أن تتعلم كيف تقدر الآلهة.

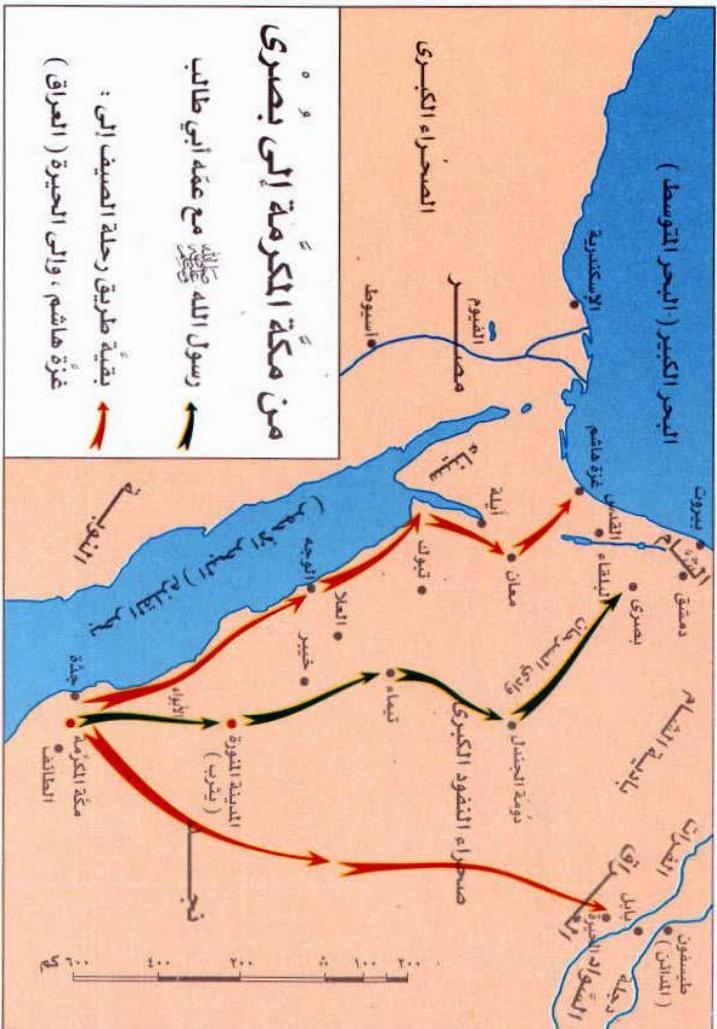
وأشار أبو قحافة إلى الأصنام الكبار وقال لابنه: هذه آلهتك، عظمها واسجد لها.

ظل عبد الكعبة واقفاً مكانه، فتركه والده ليأخذ وقته مع الآلهة يعظمها ويسجد لها.

ظل عبد الكعبة على وقفته أمام الأصنام وحده، ظل ينظر إليها، ثم قال: أنا جائع، أطعموني.

ولكن ما من صنم حرك ساكناً، فقال عبد الكعبة: أنا عطش، اسقوني.

ولكن الأصنام ظلت على حالها، فخلع إزاره وقال: اكسوني. فما من مجيب، فحمل حجراً فضرب صنماً بها، فسقط وكسر، فنظر إليه على الأرض لا يخيفه في شيء، فسار مبتعداً يقول لنفسه: لا تنفعون ولا تضرون، لستم آلهتي.



عندها وصل أبو طالب مكة، ومعه محمد ﷺ، يراه عبد الكعبة
ينزل من على إبله بعد سفر مرهق، ولكنه يبدو سعيداً.
ركض إليه عبد الكعبة يهنئه بالسلامة، ويحسده على رحلة
جميلة كهذه، ويسأله أن يحدثه عما رأى وسمع هناك، وكيف هي
الشام، فاستأذن محمد ﷺ من عمه أن يذهب مع عبد الكعبة يقضيان
اليوم معاً، يحدثه عن رحلته، فوافق.
قضى محمد ﷺ وقتاً جميلاً يحدث فيه عبد الكعبة عن
الرحلة، وكلما سمع عبد الكعبة من محمد ﷺ أكثر كان يغبطه أكثر
على رحلته، وينتظر اليوم الذي يصبح فيه تاجراً يسافر إلى الشام
واليمن، وربما أبعد.



٤٠هـ | ٥٨٢م

عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١)

توطدت علاقة محمد ﷺ بعبد الكعبة بن أبي قحافة، وباتا صديقين حميمين، وتعلم محمد ﷺ التجارة، وبات يتاجر في مكة، بينما كان عبد الكعبة يتاجر إلى اليمن والشام في أسواق مكة. واشتد عود حمزة بن عبد المطلب، وبات يخرج إلى الصيد وحده، وقد أتقن الرماية وإصابة الهدف، وقد ضاقت عليه مكة، وبات يخرج إلى الوديان الفسيحة وقمم الجبال العالية بحثاً عن صيد جديد، فإذا حان المغيب رجع إلى مكة، وطاف بالكعبة، وشارك قريشاً في تجمعاتها وسمرها في الليل.

ذات يوم عاد الحمزة بن عبد المطلب من صيده، وطاف بالكعبة

(١) عمر بن الخطاب، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وثاني الخلفاء الراشدين، له دور أساسي في السيرة كامة.

ثم سمع أن هناك مآدبة لبني عدي الليلة، فسأل إذا ما كان هناك ما هو جديد فيما يتعلق بحرب الفجار، التي كانت ما تزال قائمة، وكان بني عدي مسؤولين عن السفارة وحل المشكلات بين قريش والقبائل الأخرى، ولكن رجلاً أخبر حمزة أن الأمر مختلف تماماً، بل هم يحتفلون بمولود جديد.

وصل الخبر إلى محمد ﷺ وصديقه عبد الكعبة، فذهبا إلى المآدبة، وهناك وجدا الخطاب بن نفيل يستقبل الناس، ويطعم الطعام، إلى جانبه الوليد بن المغيرة، إلى جانبه ابن أخيه الصغير عمرو بن هشام^(١).

تعجب محمد ﷺ لوقوف الوليد بن المغيرة إلى جانب الخطاب يستقبل المهنئين، فهو من بني مخزوم، فأوضح عبد الكعبة الذي كان يحب معرفة الأنساب: زوجة الخطاب^(٢) من بني مخزوم، الوليد بن المغيرة هو عمها، وعمرو بن هشام يكون ابن عمها الآخر.

عندها أحضر الخطاب ابنه الجديد، ورفع بين الناس وقال: هو عمر، عمر بن الخطاب، فلتباركه السماء.

(١) عمرو بن هشام هو أبو جهل.

(٢) حننتة بنت هشام هي زوجة الخطاب بن نفيل، وأم عمر بن الخطاب، وابنة أخ الوليد بن المغيرة، وابنة عم أبي جهل.

وظاف به الكعبة، وأولم الناس، وكان الوليد بن المغيرة حريصاً
أن يعلم الجميع أنه قد ساهم بالقسم الأكبر من الوليمة.



٨ / - ٣٣ هـ | ٣ / ٥٨٩ م

نهاية حرب الفجار

بلغ عمر بن الخطاب السابعة، وكان والده الخطاب غليظاً شديداً عليه، بعثه ليعمل أشق الأعمال، تعلم المصارعة، وركوب الخيل والشعر، كما تعلم القراءة والكتابة، وكان الخطاب يضربه كلما أخفق، وبعثه ليرعى الإبل لخالاته.

فكان عمر بن الخطاب يخرج بالإبل إلى وديان مكة يرعاها إلى المساء، بينما كان معظم الصبيان يرعون الأغنام لأسيادهم.

حضر غلام إلى عمر بن الخطاب يقول له: يا عمر، يطلب منك والدك الخطاب أن ترسل إبلاً إلى خالتك لتنحرها عند جدار الكعبة، حيث رزقت بمولود ذكر الليلة.

قال عمر بن الخطاب: مبارك لها، سأبعث إليها بأسمن الإبل. اختار عمر أفضل الإبل وناول حبلها للغلام، الذي قال: هل

تروق لك رعاية الإبل؟ جميع الغلمان يرعون الأغنام.

قال عمر: لا فرق، كلاهما ليس بالعمل الذي أحلم به.

سأل الغلام: وماذا تريد أن تعمل يا عمر؟

قال عمر: التجارة، التجارة والسفر إلى الشام واليمن، ورؤية ما

هو جديد ومختلف، هذا ما أحبه وأفكر فيه.

ابتسم الغلام وقال: أظن أن التجارة تناسبك، ستكون تاجراً

غنياً يوماً ما.

سمع الجميع صوت العباس بن عبد المطلب يقف على تلة في مكة

يقول لراعي ماشيته: ابعت لنا بثلاثة أغنام نولم بها الليلة، واختر

السمينة منها!

ابتسم الغلمان، فبينما كان الجميع يبعث بالرسل كان للعباس

بن عبد المطلب صوتاً جهورياً يسمعه القاضي والداني، فقال الغلام

لعمر ضاحكاً: لو كنت ترعى أغنام العباس لما قطعت كل هذه المسافة.

قال عمر بن الخطاب: ليس العباس فقط من يملك صوتاً

جهورياً، هناك أخوه أبو لهب، ولكن أبا لهب يستخدم صوته لتعجب

الأصنام به، فيجهر بتعظيمها وتقديسها.

قال الغلام: لا أظن أن ذلك قد أحسن له كثيراً، فهو غارق في

الخمير والقمار، تذهب نقوده بسرعة.

قال عمر: ومن من قريش لا يغرق نفسه بالخمير والقمار؟

قال الغلام: أراك ترغب في مشاركة قريش سهرها وسمرها.

قال عمر: بعد عمل شاق كهذا، ما ضير السهر والسمر؟

أمسك الغلام الإبل وقال: هذا صحيح، أراك في المأدبة اليوم.

ثم سمعا صوت رسول يقول: عودوا بالأغنام، لقد هجمت هوازن

علينا!

أسرع جميع الرعاة بالأغنام إلى داخل مكة، فقد استمرت حرب

الفجار عشر سنوات إلى الآن، وكان هناك الكثير من القتلى من

الطرفين، وتعدت الأمور أكثر فأكثر.

اجتمع وجهاء قريش في دار الندوة، وقد كانوا قد تعبوا من

الحرب وتبعاتها، وكثر القتل بين الطرفين.

قال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش، أترضون بي حكماً؟

قال عبد الله بن جدعان: أنت سديد الرأي، وما منا من يعترض

على حكمك.

قال الوليد بن المغيرة: ما تقترح؟

قال عتبة بن ربيعة: سأطرح خيار المصالحة، هذه حرب لا فائز فيها ولا نهاية لها.

قال أبو طالب: صدقت، إنها حرب عقيم.

أشار حرب بن أمية بالإيجاب، فهو قائد جبهة قريش في الحرب، وقال: إنها حرب سجال وستستمر لعشرة أعوام أخرى.

نهض عتبة بن ربيعة وانتطى إبله وذهب إلى حيث يقف جيش هوازن وجيش قريش للمواجهة، كان في الجيش أبو سفيان بن حرب^(١) وحمزة بن عبد المطلب اللذين اشتد عودهما وباتا رجلين من أقوى رجال قريش، وقف بينهما وقال بصوت يسمعه الجميع: يا معشر العرب! على ما تقاتلون؟

فقال قائد هوازن: ما تدعو إليه؟

قال عتبة: الصلح.

قال قائد هوازن: كيف؟

قال عتبة: نفدي قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها، ونعفو عن ديانتنا.

قال قائد هوازن: ومن لنا بذلك؟

قال عتبة: أنا.

(١) أبو سفيان بن حرب هو صخر بن حرب، ذكر سابقاً وله دور أساسي في السيرة.

قال قائد هوازن: ومن أنت؟

قال عتبة: عتبة بن ربيعة.

سكت قائد هوازن، عتبة بن ربيعة من أشرف قريش، وهذه حرب جرت عليهم الهلاك والخسار، فوافق على الصلح، وبعثوا إليهم أربعين رجلاً رهناً، فلما رأوا الرهن في أيديهم عفوا عن ديانتهم، وانتهت حرب الفجار.

أما في يثرب، وفي بني قريظة بالتحديد، وهم أحد أكبر قبائل اليهود في يثرب، كان قد حل بينهم عالم كبير بالتوراة من الشام^(١)، حضر إلى يثرب واستقر بها، وكان يكثر من الصلاة والتقرب من الله، وأعجب به اليهود كثيراً، فكانوا يحتكمون إليه دوماً، ويعودون إليه في أهم الأمور.

وذات يوم حل القحط على المدينة، وخشي اليهود على محاصيلهم، فأرادوا استسقاء الماء من الله، فقالوا لبعضهم: عليكم بالعالم اليهودي من الشام، فما رأينا أعلم منه ولا أقرب منه إلى الله، فليستسق الله لنا.

(١) العالم اليهودي اسمه ابن الهيبان، سيذكر في هذا الموضع فقط.

فذهبوا إليه وطلبوا إليه أن يستسقي لهم، فقال: لا والله، حتى تقدموا بين يديكم صدقة.

فسأله: كم؟

قال: صاعاً^(١) من تمر، أو مقداراً من شعير.

ف فعلوا، ووزعوه على الفقراء، ثم خرج وخرج اليهود معه إلى أرض فلاء، ورفع يديه إلى الله بالدعاء، يدعو ويدعو، فما برح من مجلسه حتى مر السحاب وهطل المطر.

وكان قد فعل ذلك أكثر من مرة، وكان اليهود يعلمون قدره ومنزلته، إلى أن حضرته الوفاة وهو بينهم، ولما كان على فراش الموت قال لأخبار اليهود حوله: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من الشام أرض الخمر والخمير إلى أرض العرب أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم.

قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أترقب خروج نبي قد أظلم زمانه، وهذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلم زمانه، لا تُسبقنّ إليه يا معشر يهود، فإنه يُبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه.

(١) الصاع هو مكيال بقدر معين.

قال اليهود: لا يسبقنا إليه أحد، سنكون أول من يتبع.
وأسلمت روحه وقد أدى النصيحة.



١١ / - ٣٣ هـ | ٦ / ٥٨٩ م

حلف الفضول

في الصيف، خرجت القوافل التجارية من مكة إلى الشام، شارك في التجارة أبو بكر، وكان أبو سفيان في القافلة يرافقه صديق له من الطائف، يدعى أمية بن أبي الصلت^(١)، كان ابن أحد الوجهاء في الطائف. كما بعث الوليد بن المغيرة وعبد الله بن جدعان شباباً يتاجرون لهم.

تحدث أبو سفيان إلى أمية بن أبي الصلت حول الكثير، قريش والطائف، الأشعار حيث كان أمية بن أبي الصلت ضليعاً بها، التجارة، ثم قال أمية بن أبي الصلت: أتعلم يا أبا سفيان هدي في رحلتي هذه؟

قال أبو سفيان: أن تكسب أكثر مما جنيته في الرحلة الماضية إلى

اليمن؟

(١) أمية بن أبي الصلت، له دور في السيرة إلى بدايات الهجرة.

ابتسم أمية بن أبي الصلت وقال: أظن أنني سأفعل، ولكن هناك
أمراً آخر يشغل بالي، فهل كتمت عني ما أخبرك؟
تعجب أبو سفيان لهذا الأمر، فقال: وما هو؟
قال أمية: أنا ذاهب إلى الشام لأسمع من الأحبار والرهبان عن
الإله الخالق.

توقف أبو سفيان عن المسير، فنظر إليه أمية وقال: لا تقل لي يا
أبا سفيان أنك تؤمن أن هذه الأصنام تنفع وتضر.

قال أبو سفيان: ولماذا نعبدها ونتقرب إليها إذن؟ لقد دفعتُ
إليها المال الكثير قبل أن نخرج حتى تبارك تجارتي.

سكت أمية، كيف له أن يفهم ما يفكر فيه إذا ما كان على هذه
الحال؟ ولكن أبا سفيان قال: سأكتم عنك، تستطيع التحدث إلي.

قال أمية: هو ذاك، أنا لا أؤمن بالآلهة، وأريد أن أتعلم دين
إبراهيم، أليست الكعبة هي كعبة إبراهيم؟ إذن أنا أريد أن أعبد الله
كما عبده إبراهيم، الذي لم يكن يعبد الأصنام.

هز أبو سفيان رأسه وقال: تقع فيما وقع فيه زيد بن عمرو
وأصحابه، انظر كيف يعيش خارج مكة منبوذاً من الجميع.
قال أمية بن أبي الصلت: لذلك أخبرتك أن تكتم أمري.

قال أبو سفيان: أكتُم أمرِك، وأرجو من الآلهة أن تبصّرِك
الطريق الصحيح.

ضحك أمية وقال: أرجو من الله ذلك.

فعلاً تفرغ أمية بن أبي الصلت لدراسة التوراة والإنجيل في الشام
عند الروم، وأعلن أنه على دين إبراهيم كما فعل زيد بن عمرو، وأنه
ينتظر نبي آخر الزمان المذكور في الكتب المقدسة، وتمنى أن يكون هو
ذاته ذلك النبي.

عادت القافلة إلى مكة وقد ربحت تجارتهم، كما كان هناك
رجال من اليمن قدموا مكة للتجارة فيها.

اشترى العاص بن وائل^(١) بضاعة من تاجر قادم من اليمن،
ووعده أن يدفع له في الغد، فانتظر التاجر إلى الغد، ولكنه عندما لقي
العاص بن وائل قال له: سأدفع لاحقاً.

وهكذا لم يدفع العاص بن وائل للتاجر اليمني، وبقي التاجر
ينتظر في مكة يطالبه بالنقود إلى أن قال له العاص بن وائل منزعجاً:
أوه أما تزال هنا! ألم تفهم أنني لن أدفع، لن أدفع لك، عد إلى اليمن.

(١) العاص بن وائل هو والد عمرو بن العاص، له دور في السيرة قبل الهجرة.

قال اليميني: ولكنني يا سيدي لا أملك نقوداً للعودة إلى اليمن،
فإن لم تعطني حقي فلن أستطيع مغادرة مكة.

قال العاص بن وائل: ليس شأني، فلتفعل ما تشاء.

علق التاجر اليميني، فليس يملك نقوداً يعود فيها إلى اليمن، ولم
يستطع أن يحصل على حقه من العاص بن وائل، حاول الذهاب إلى
تجمعات مكة، ويخبر وجهائها بما حدث، ولكن أحداً لم يأبه به،
كل ما كانوا يقولونه له أن يصبر، وأن العاص سيدفع أخيراً.
لم يجد حلاً لأيام، وأخيراً صعد جبلاً في مكة ورفع صوته
يستغيث مسمعاً أسواق مكة:

يا آل فهر^(١) لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي^(٢) الدار والنفر
ومحرم أشعث^(٣) لم يقض عمرته يا للرجال، وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته لا حرام بثوب الفاجر الغدر
سمع أحد أبو طالب نداء المستغيث، فقال: لا يجب أن نترك
هذا.

واجتمع مع وجهاء قريش ودعا إلى إنصافه.

(١) فهر هو قريش.

(٢) نائي تعني بعيد.

(٣) الأشعث هو المغير الشعر.

ذهب إلى عبد الله بن جدعان الذي دعا اليميني إلى مجلسه، وسمع منه، وطلب اجتماعاً لقبائل قريش لإنصاف المظلوم، فقام تحالف في دار عبد الله بن جدعان يضم بني هاشم وعبد المطلب، معهم محمد ﷺ، وبني أسد وزهرة، وتيم معهم أبو بكر، فتحالفوا وتعاقدوا، وقال عبد الله بن جدعان: يا معشر قريش، نتحالف هنا ألا نجد بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا أقمنا معه وكنا على ظلمه، حتى ترد مظلّمته.

فأطلق على هذا الاجتماع حلف الفضول، وكان أول من ردوا إليه مظلّمته اليميني، فذهبوا إلى العاص بن وائل، وقال له عبد الله بن جدعان: أيها العاص، رد إلى هذا الرجل نقوده، وإلا قاطعت قريش تجارتها معك.

فأشار جميع من معه بالإيجاب، فاضطر العاص إلى دفع النقود، وفرح اليميني وهتف: هؤلاء أهل الحرم! أنصفتكم الآلهة. واستطاع السفر والعودة إلى عائلته. وهكذا قام حلف الفضول، وظل ينصف المظلومين.



- ٣١ هـ | ٥٩١ م

السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها (١)

كانت السيدة خديجة بنت خويلد تجلس إلى جانب زوجها أبي هالة (٢) وهو يحتضر في الفراش، أمسكت يده وبدأت تبكي، فنظر إليها وابتسم قائلاً: لقد كنتِ نعم الزوجة يا خديجة، لقد كنتِ محظوظاً بك جداً، زوجة جميلة وشريفة وكريمة معطاءة، ذات القلب الحنون، والروح الجميلة، الحكيمة الذكية، ما كان لرجل أن يحلم بأكثر مما قدّمتِ. نرفت خديجة دموعاً أكثر وقالت: أنت خير زوج، كم هي صعبة هذه اللحظات، خفف عنا يا الله.

قال أبو هالة: اعتني بابني هند (٣) من بعدي، واعتني بنفسك يا

خديجة.

(١) خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، من الشخصيات الأساسية قبل الهجرة.

(٢) أبو هالة، زوج السيدة خديجة، سيذكر في هذا الموضع فقط.

(٣) هند بن أبي هالة، ابن السيدة خديجة الرابع، له دور بسيط في السيرة قبل الهجرة.

وأغمض عينيه إلى الأبد، وارتفع صوت خديجة بالبكاء على زوجها، فدخل عليها ابنها هند يركض إلى حضنها يبكي معها، ودخل أولادها الثلاثة الآخرون يحاولون التخفيف عنهما.

دُفن أبو هالة، واجتمعت قريش لعزاء خديجة، وحاولت صديقاتها مواساتها والتخفيف عنها، فكانت صابرة هادئة، تبكي بين الحين والآخر كلما تذكرت أيامهما الجميلة، وتحضن هند حيناً آخر.

خرج المعزون وذهبوا إلى مجالسهم حول الكعبة، وكان حوارهم يدور حول خديجة، قال أحدهم لصاحبه: هل تظن أن خديجة تقبل بي زوجاً؟

ضحك صاحبه قائلاً: خديجة من أشرف النساء وأجملهن، وهي تملك مالاً كثيراً تتاجر به، وكل مكة تنعتها بالطاهرة صاحبة الخلق الرفيع، فمن أنت لتخطب خديجة؟

انزعج الرجل وقال: وهل كانت لترضى بك أنت خاطباً؟

رفع صاحبه يديه يقول: ليست لدي الجرأة حتى أن أقرع

الباب، ما لها إلا شريف غني من أهم الأشخاص في مكة.

قال الرجل: أبو هالة كان زوجها الثاني، مثل خديجة لن تظل

دون زواج.

فعلاً طرق باب خديجة الكثير من الخطاب، أشراف وأغنياء،
ولكنها رفضت، بات الشرفاء يتنافسون فيما بينهم من يخطب
خديجة، ولكن خديجة امتنعت عن الزواج، وشغلت نفسها في العناية
بابنها وتجارتهما، ووضعت أمر الزوج جانباً.

زارت خديجة إحدى صديقاتها، استقبلتها خديجة وجلستا
تتحدثان، قالت خديجة: أرجو أن يكون لديك ما هو مختلف عن الباقيات.
ضحكت صديقتها وقالت: ولم لا يا خديجة؟ أنت وحدك مع
هند، وقد زوجت أولادك الثلاثة الآخرين، وكل الأشراف يتمنون
خطبتك، فمن أعز وأشرف وأجمل منك؟

ابتسمت خديجة وقالت: ما زلت متأثرة بوفاة زوجي، ليست
لدي رغبة في الزواج.

قالت صديقتها: كلنا يفهم ذلك، ولكن عليك أن تفكري في الأمر
عاجلاً أم آجلاً، لا ترفضى الشرفاء.

هزت خديجة رأسها وقالت: هل لك أن تنصحيني بشباب أمناء
يصلحون للتجارة؟

تنهدت صديقتها وقالت: الشباب كثر، ولكن الأمناء قليلون،
سأسال لك زوجي، ولكن أرجو أن تفكري في أمر الزواج يا خديجة،

كما أنني هنا لأذكرك بالاحتفال اليوم، لنجتمع مع صديقاتنا ونقضي وقتاً لطيفاً.

قالت خديجة: سأنظر في الأمر.

هزت صديقتها رأسها تقول: بل عديني من الآن أن تأتي، يجب ألا تعزلي نفسك.

ابتسمت خديجة وقالت: حسناً سوف أحضر.

خرجت صديقتها، وحضر ابن عم السيدة خديجة ورقة بن نوفل^(١) يستأذن في الدخول، أذنت له وجلس يعزيها في زوجها، فشكرته وقالت: حدثني يا ورقة عن الإله الذي تعبد.

قال ورقة بن نوفل: لقد حدثتك عنه كثيراً.

قالت خديجة: الحديث عن الإله يواسيني، حدثني عنه أكثر.

قال ورقة بن نوفل: ما رأيك أن أحدثك عن نبي آخر الزمان؟

ابتسمت خديجة وقالت: أين نحن من آخر الزمان يا ورقة؟

قال ورقة بن نوفل: أقرب مما تظنين، إنه زمانه.

تعجبت خديجة وقالت: أتقول أننا في زمان يبعث فيه نبي

كموسى وعيسى؟

(١) ورقة بن نوفل سبق الحديث عنه عندما اعتنق النصرانية.

أشار ورقة بالإيجاب وقال: اسمعيني يا خديجة، لقد قرأت الكثير في الكتب المقدسة، نبي آخر الزمان قد حل زمانه، بل إنه قد وُلد منذ زمن، ويجب أن يبعث عما قريب.

ابتسمت خديجة وقالت: سيكون جميلاً أن نعيش إلى جانب نبي.

قال ورقة بن نوفل: إنه بيننا يا خديجة.

ابتسمت خديجة وقالت: نتحدث وكأنك قد قابلته يا ورقة.

قال ورقة بن نوفل: أعرفه أفضل من أولادي، إنه مذكور

بالتفصيل في الكتب السماوية، وهو من العرب، وهذه بلاده، ويشرب

مهجره، وإذا بعث فلا يسبقنك إليه أحد يا خديجة، فأنت حكيمة

وذكية، وترغبين في معرفة الإله، ولا تؤمنين بالأصنام.

صمتت خديجة، هل يُعقل أن نبياً يسير بينهم الآن؟ قالت:

حدثني عن صفاته التي تعرفها في الكتب المقدسة.

حدثها ورقة بن نوفل عن كل ما يعرف، وأطال في الوصف،

وشعرت خديجة بانسراح في صدرها، وكأن ورقة فعلاً يتحدث عن رجل

يجلس إلى جانبها، واضح المعالم، كريم الأخلاق، يشع النور من

وجهه، ينقذ البشرية من ضلالات الجهل والعبودية، ما أجمل ما يقول.

حل المساء، واجتمعت النساء للاحتفال، وحضرت السيدة خديجة بنت خويلد وجلست إليهن، ودار الكثير من الحديث، فرحت خديجة أن صديقاتها تجنبن الحديث عن الزواج، وفرحت خديجة بالجلسة الممتعة.

ووسط الاجتماع، إذا برجل يهودي يدخل عليهنّ، كان قد حضر إلى مكة منذ أيام، تعجبت النساء لدخوله، فقال: يا معشر نساء قريش! أهلّ زمان نبي آخر الزمان، فمن استطاعت منكن أن تتزوجه فلتفعل.

تعجبت النساء من مداخلته تلك، وأمسكن الحجارة ورمينه بها، إلا السيدة خديجة، ابتسمت ولم تشاركهن، بل إنها للمرة الأولى منذ وفاة زوجها تسمع عن الزواج ولا تشعر بانزعاج.



٣٠هـ | ٥٩٢م

صهيب الرومي^(١)

تجار قريش

في مدينة الأبلّة^(٢)، كان هناك صبي في السادسة من العمر يمرح في البساتين بين الأشجار المثمرة، والأنهار الجارية، يلبس أجمل الثياب الفارسية، ويطارد الطيور حوله. كان ذلك الصبي يدعى صهيب بن سنان، وكان سنان حاكم الأبلّة وعاملها عند كسرى الفرس. أرسلت أم صهيب خادمتها إليه تقول: سيدي، أمك تدعوك للعودة إلى القصر والتجهز للرحلة. فرح صهيب وقال: حالاً، أنا قادم.

(١) صهيب الرومي، صحابي له دور في السيرة كاملة.

(٢) الأبلّة مدينة في العراق قرب البصرة، كثيرة الشجر وتطل على نهر الفرات، وهي في ذلك الزمان ضمن حكم الفرس.

ركض صهيب إلى القصر، وعانق أمه قائلاً: هل أستطيع اصطياد الطيور يا أمي؟

ضحكت قائلة: سنتنزه قليلاً في الحقول الجميلة، ثم تستطيع أن تفعل ما تشاء.

خرج صهيب مع أمه يحيط بهما الخدم والحرس إلى الحقول، وكان صهيب سعيداً جداً، ينظر إلى الأشجار والأنهار، والحيوانات تركض هنا وهناك، ينتظر من أمه أن تسمح له في الصيد، لاحظت أمه شوقه لذلك فضحكت قائلة: أنت متحمس للصيد يا صهيب.

أشار صهيب بالإيجاب وعيونه تشرق شوقاً، فقالت: تستطيع أن تصطاد هنا، كن حذراً.

نزل صهيب عن جواده وركض مسرعاً وسط الحقول سعيداً، وبدأ يترقب حركة الحيوانات من حوله.

سكن المكان، وشعر لحظة بحركة غريبة، إنها ليست حيوانات، هناك شيء غريب مختلف عن كل مرة.

سمع فجأة أصوات أحصنة الحرس تضطرب، نظر خلفه فإذا بالأحصنة تسقط أرضاً ويقع الحرس واحداً تلو الآخر! حاول الحرس أن يهربوا بأمه، ولكنها كانت تصرخ: صهيب! ابني!

سار صهيب ليقترّب من أمه والحرس، ولكنه أحسّ بشخص
يمسك به، لقد قبض عليه بشدة! حاول صهيب المقاومة، ولكنه نظر
حواله فإذا برجال يرتدون ثياب الرومان يحيطون بالمكان، إنه كمين.
صرخ صهيب: أمي! أمي!

تفرق الجميع، ولم يعلم صهيب ما حدث لأمه، سحبه الرومان
إلى معسكرهم، وقيدوه وضعوه بين الأسرى، وبعد فترة حملوه إلى بلاد
الروم.

بكى صهيب، أين يأخذونه؟ وماذا حل بأمه؟ إنه يعلم أن الروم
هم ألد أعدائهم، ماذا سيكون مصيره؟ وماذا لو عرفوا أنه ابن حاكم
الأبلة؟

وصل صهيب بلاد الروم، ومن اللحظة الأولى شعر بالغرابة،
أناس مختلفون، لغة جديدة، ثياب غريبة، ماذا سيحل به؟
سحبه رجل من القافلة إلى السوق، وهناك وقف في الدور بين
العبيد ينتظر أن يُعرض على الناس ليشتريه أحدهم، لظالما حضر
صهيب مثل هذه الأسواق، ولكنه كان مع من يشتري، وليس من يُباع،
شعر بتغيير محوري في حياته، هل سيعود يوماً إلى القصر والملك؟ ما
الذي ينتظره هنا؟

وصل دور صهيب، لم يفهم ما كان يقوله الناس، فاللغة مختلفة تماماً، ولكنه شعر أن الناس كانوا يزاودون على سعره، وأخيراً أعلن البائع أن رجلاً قد عرض السعر الأعلى، وقد اشترى صهيباً.
نزل صهيب عن المنصة إلى الرجل، الذي بدأ يتحدث إلى صهيب بلغة الرومان، لم يجب صهيب، فقال له رجل بجوار المشتري باللغة الفارسية: ألا تجيد لغة الرومان؟

أشار صهيب بالنفي، فقال الرجل: تبدو من الأسياد، من أنت؟
قال صهيب: اسمي صهيب، ولست من الأسياد.
لم يخبر صهيب أحداً أنه ابن الحاكم، وسار مع سيده إلى منزله.

عمل صهيب خادماً مدة من الزمن، وتعلم لغة الروم وأتقنها، وتنقل بين سيد وآخر، ولم يسمع أخباراً عن أهله في الأبله.

حلّ الصيف، وبدأ تجار قريش يجهزون أمتعتهم ليتاجروا بها في الشام.

ساعد محمد ﷺ صديقه العزيز أبا بكر في تحضير الثياب والأقمشة ليتاجر بها في الشام، سأله أبو بكر: أئن تسافر هذه المرة

أيضاً معنا يا محمد؟

فبين له محمد ﷺ أنه مذ سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام، وهو يمنعه من الذهاب إلى هناك، ويخشى عليه، ولكنه واثق أنه سيتاجر إلى جانبهم يوماً ما.

حزن أبو بكر لفراق صديقه مدة طويلة من الزمن، فهما باتا دائماً معاً، تجد محمداً حيث تجد أبا بكر، وتجد أبا بكر حيث تجد محمداً.

بلغ محمد ﷺ الثالثة والعشرين، بات من أكثر شباب قريش وسامة وبهاء، كان متوسط الطول، ليس بال نحيف ولا بالسمين، مستوي الصدر والبطن، أبيض إلى الحمرة، واسع الجبين، أكحل العينين، واسعة وشديدة البياض والسواد، طويل الرموش، طويل ودقيق الحاجبين، رقيق الأنف، واسع الفم، كثير التبسم، غزير الشعر ليس بالأجعد ولا بالأملس، يصل شعر مقدمة رأسه إلى أذنيه، كثيف اللحية، واسع الخطوة، مهيباً، كثير التعطر.

إلى جانبه يسير صديقه أبو بكر، كان نحيفاً دقيق الساقين، متوسط الطول، جميل الوجه، أبيض، غائر العينين، بارز الجبين، مدبب الأنف، كثيف الشعر. بات لديه رأس ماله الخاص الذي يتاجر به.

كما كان في القافلة أبو سفيان وصديقه أمية بن أبي الصلت الذي ما يزال يتردد على من يقرأ الكتب المقدسة، وعثمان بن عفان مع والده، وعبد عمرو بن عوف مع والده.

كان عثمان بن عفان قد بلغ السابعة عشرة، وتعلم التجارة من والده وشاركه فيها، بينما بات عبد عمرو بن عوف في الثالثة عشرة، يتعلم التجارة من والده أيضاً، ويقف إلى جانب صديقه عثمان يساعده ويتحدث إليه.

كان أبو بكر يتاجر في الثياب والقماش، وقد اشتهر بالأمانة والصدق والبضاعة الجيدة وحسن التعامل مع الناس، ونمت تجارته أكثر كل عام، ولم يكن هناك في قريش من هو أحسن خلقاً منه إلا صديقه الحميم محمد ﷺ، بينما يتاجر أبو بكر في أموال كثيرة في الشام، كان محمد ﷺ يتاجر في رأس مال صغير في قريش، ويضارب للتجار في تجارتهم مقابل مبلغ من المال، وقد كان أميناً جداً عليها، ويحبه التجار في قريش كثيراً.

قدم صهيب إلى تجار لقريش ليشتري لسيده بضاعة طلبها منه، هناك سمع رجلين يتحدثان اللغة الفارسية، فنظر إليهما يستمع إلى ما يقولان، فلاحظه تاجر من قريش فسأله: يا غلام، هل تفهم ما يقولان؟

قال صهيب: أجل، أتقن الفارسية جيداً.

فكر التاجر القرشي، هذا صبي صغير يتحدث الفارسية والرومية، وهما من البلدان التي يتاجر فيها القرشيون، وفي عمر صغير كهذا سيسهل تعليمه العربية أيضاً، سيكون عبداً غالي الثمن في مكة، سأل صهيباً: من سيدك يا غلام؟

أخبره صهيب عن سيده، فذهب التاجر القرشي، وعرض مبلغاً جيداً يشتري به صهيباً، فقبل السيد وباعه.

عاد صهيب إلى سيده، ووجد عنده كاهناً يتحدث إليه في أمر مهم، كان يقول له: لقد أطل زمان يخرج فيه من مكة في جزيرة العرب نبي، يصدق رسالة عيسى بن مريم، ويخرج الناس من ظلمات الجهل إلى النور.

تعجب صهيب مما يسمع، هل يعقل أن يكون هناك نبي؟ عندها رآه سيده فأشار إليه بالاقتراب، اقترب صهيب يقول له: سيدي، لقد أحضرت لك ما طلبت من السوق.

فقال له سيده دون اكتراث: لقد بعتهك يا صهيب للعرب، سيدك الجديد ينتظرك عند قافلة قريش، احزم أمتعتك واذهب معه.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يُباع ويُشترى فيها صهيب، ولكنها

المرّة الأولى التي سيذهب فيها إلى العرب، وعليه أن يتعلم اللغة العربية أيضاً. أين يقوده القدر يا ترى؟ إنه يبتعد أكثر عن بلاد فارس.

* * *

تجهزت القافلة للرحيل، وتبع صهيب سيده الجديد الذي سيبيعه في قريش، وغادر الجميع عائدين إلى مكة.

وصلت القافلة مكة بعد رحلة طويلة، ربح فيها التجار الكثير، وقابل فيها أمية بن أبي الصلت الكثير من العلماء من أهل الكتاب، واتجه الجميع إلى الكعبة يطوفون حولها لتبارك لهم أموالهم.

كان زيد بن عمرو يجلس عند الكعبة، ينظر في ملكوت السماوات والأرض، يحاول التقرب من الإله الخالق، رب السماوات والأرض، ويدعو أن يهديه الله السبيل الصحيح لعبادته، وأن يخفف عنه أذى قومه ويهديهم ويبعدهم عن الأصنام، ويطهر الكعبة منها.

لقي أمية بن أبي الصلت زيدا بن عمر عند الكعبة، وكانا يعرفان أن كليهما قد اعتزل الأصنام، وبيحث عن دين إبراهيم، فقال أمية لزيد: كيف أصبحت يا باغي الخير؟

قال زيد: بخير.

قال أمية: هل وجدت ما تبحث عنه؟

أجاب زيد: لا، ولم أتوقف عن البحث.

وأُنشد:

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله في الحنيفية بور

فقال أمية بن أبي الصلت: أما إن هذا النبي الذي يُنتظر منا أهل

ثقيف في الطائف، أو منكم أهل قريش في مكة، أو من أهل فلسطين.

كان أبو بكر قريباً منهما، وقد سمع شيئاً مما دار بينهما،

نبي! إنها أول مرة يسمع فيها شيئاً من هذا القبيل.

تابع أبو بكر سيره مبتعداً، وقابل صديقه العزيز محمداً ﷺ في

السوق، جلسا معاً وتحادثا عن أمور التجارة وقريش والشام، ثم ودع

أبو بكر صديقه محمداً ﷺ ليذهب كل منهما إلى بيته ببضاعته

ونقوده.

كان أبو بكر قد تزوج، وامراته^(١) حامل، بينما محمد ﷺ لم

يتزوج بعد، وكان يذهب إلى منزل عمه أبي طالب يساعده في قوت

عياله.

في طريقه إلى منزله، توقف أبو بكر عن السير، بات يفكر، هل

يُعقل أن يكون هناك نبي؟ إنه لم يعتنق اليهودية أو النصرانية، ولم

(١) أول زوجة لأبي بكر الصديق، أم رومان، هي أم عبد الرحمن بن أبي بكر وعائشة بنت

أبي بكر ﷺ.

يعلن الحنيفية كما أعلنها زيد بن عمرو، ولكنه مع ذلك يفضل الإيمان
برسل من عند الله على عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ما باله لم
يستطع إلا أن يفكر بما سمعه من أمية وزيد عند الكعبة؟

سار إلى منزله بضع خطوات ولكنه توقف، من له أن يجيبه عن
أسئلته؟ زيد بن عمرو؟ أمية بن أبي الصلت؟ فكر قليلاً ثم تذكر ورقة
بن نوفل، إنه على اطلاع واسع في هذه الأمور.

اتجه من فوره إلى ورقة بن نوفل، لا يدري لماذا يشعر بدافع
كبير للتأكد مما يسمع، هل يُعقل أن أحدهم يبحث عن نبي؟ وهنا في
قريش الغارقة في عبادة الأصنام!

وجد أبو بكر ورقة بن نوفل جالساً أمام منزله مغمض العينين،
يهمهم في تركيز، وقف أمامه فنظر إليه ورقة، ابتسم وقال: أهلاً
بالتاجر الناجح، الإنسان الكريم ذو الخلق الرفيع أبي بكر، ما جاء
بك لزيارتنا فور عودتك من الشام؟

أجلس أبو بكر إبله التي كانت ما تزال تحمل بضاعته ونقوده،
وجلس إلى ورقة بن نوفل يقول: جئتك بسؤال، سمعت صديقك زيد بن
عمرو يتحدث إلى أمية بن أبي الصلت عن نبي يبعث، هل هناك فعلاً
ما هو مكتوب في الكتب التي تدرُس أن هناك نبياً سيبعث؟

ابتسم ورقة وقال: نعم، أبى أهل الكتب والعلماء إلا أن هذا النبي الذي يُنتظر من أوسط العرب نسباً، ولي علم بالنسب، وقومك أوسط العرب نسباً.

دهش أبو بكر لثقة ورقة بن نوفل، فسأل: وما يقول النبي؟
أجاب ورقة: يقول ما قيل له، ألا إنه لا ظلم ولا تظالم.
ابتهج أبو بكر لما سمع، فقال: هذا أجمل ما سمعت، بوركت.
ونهى بإبله ليعود إلى منزله بوجه غير الذي جاء به، لقد
ابتهج بهذا الخبر، وشعر أن الأمر سيكون كبيراً، وأعطى ورقة بن
نوفل بعض الثياب والنقود وقال: لا بد أنه يأتيك بعض المحتاجين،
أعطهم شيئاً من المال والثياب.

ابتسم ورقة وقال: كريم معطاء كعادتك، بارك الله لك في
تجارتك وأهلك ومالك.

عاد أبو بكر إلى منزله، هناك استقبلته جاريتته تقول: سيدي!
إن زوجتك تضع ولدها.
ابتهج أبو بكر، إنه ولده الأول، وضع رحاله ودخل إلى زوجته
وجلس إلى جانبها، سعدت بعودته كثيراً وقالت: إنه ولدنا الأول.

أمسك يدها وقال: حفظتكما السماء، سيكون طفلاً مباركاً لأُم
مباركة.

ابتسمت زوجة أبي بكر وقالت: ما أسعده بوالد مثلك.
هي ساعات وكان أبو بكر يحمل ولده الأول، طاف به حول
الكعبة وأسماه عبد الكعبة^(١)، وكان أول المباركين صديقه العزيز
محمد ﷺ، فرح له كثيراً، وشاركه مع بني هاشم في الوليمة، وعمت
الفرحة بني تيم بمولود شريف لوالد شريف.
كذلك أولم عبد الله بن جدعان لمكة، فرحاً بمولود من بني تيم،
وأثناء الولايم قدم تاجر إلى عبد الله بن جدعان يبارك له ويقول: يا
سيدي، هناك عبد لا يسبقنك إليه أحد، إنه غلام يتكلم الفارسية
والرومية، بدأ تعلم العربية وهو فطن وذكي، سيكون خادماً مميّزاً
لسيد مميّز.

قال عبد الله بن جدعان: وهل هو معك؟

قال التاجر: أجلبه لك على الفور.

أشار إليه أن يفعل، فأحضر التاجر صهيياً وقد ألبسه ثياباً
حسنة، وكانت ملامح النبل واضحة عليه، كان وجهه شديد الحمرة،

(١) عبد الكعبة بن أبي بكر، هو عبد الرحمن بن أبي بكر بعد الإسلام، من الشخصيات التي
لها دور في السيرة كاملة.

نو عينين واسعتين شديديتي البياض والسواد، غزير الشعر.

حدق به عبد الله بن جدعان وقال: إنك من أصل شريف، من أين

أنت؟

قال التاجر: اسمه صهيب، وقد اشتريناه من سيد رومي.

لم يطل عبد الله بن جدعان الحديث، فقال: اشتريته، يا

صهيب، اسق ضيوفنا الخمر.

قال صهيب: أمرك سيدي.

ومن اللحظة بات صهيب ساقى الخمر في ولائم عبد الله بن

جدعان التي لا تهدأ، وكان الجميع يحبونه ويفضلونه على باقي

العبيد، وكان رمزاً للسرور في قريش، وتعلم العربية وانسجم مع

عاداتهم وولائمهم، وعُرف بصهيب الرومي، وكان عبد الله بن جدعان

يحسن إلى صهيب، وكان صهيب سعيداً إلى جوار سيد كريم وشريف،

فقد كان أفضل سيد مر عليه مذ كان في الرقيق.

عاد أمية بن أبي الصلت إلى الطائف ببضاعته، وبكتب يدرسها

من أهل الكتاب، واستقبلته فتيات من ثقيف يستهزئن به: أما زلت

على ما أنت عليه من إنكار الآلهة يا أمية؟

قال أمية بن أبي الصلت: انتظرن حتى يظهر النبي المنتظر، فما
تستطعن أن تهزأن هكذا.

ضحكن وقلن: نبي! وماذا يفعل نبي بين العرب؟

قال أمية بن أبي الصلت: أظنه سيظهر من العرب، بل أظن أنني
سأكون هو.

وتركهن عائداً إلى بيته يدرس الكتب المقدسة بجد، ويظن أنه
ربما يكون هو نبي آخر الزمان.

تفرق عبد عمرو بن عوف وعثمان بن عفان بعد طوافهما
بالكعبة، كل عائد إلى منزله.

عثمان بن عفان كان معروفاً في قريش، كان ذو أخلاق رفيعة،
وحياء شديد، لا يكذب في تجارة أبداً، ويحبه الناس حباً شديداً،
فكان أحب قريش إلى قريش.

كان عثمان متوسط الطول، كثيف شعر الرأس واللحية، أجمل
الناس وجوهاً وفماً في مكة، رقيق البشرة، مائل إلى السمرة.

عرف عنه أنه لا يزني، ولا يشرب الخمر حتى لا يذهب عقله
ويقوم بأفعال مخلة بأخلاقه، كما أنه لم يقتنع يوماً بعبادة الأصنام ولم

يسجد لها قط.

مر عثمان بشباب من قرينش، فقالوا: عثمان! أي صنم تعبد
ليبارك لك في تجارتك؟

قال آخر: سمعنا أنك تربح في كل شيء تتاجر فيه، علمنا سر
نجاحك.

ابتسم عثمان وقال: بالتأكيد ليس للأصنام يد في ذلك، فهي لا
تكاد تعتنني بنفسها، وتحتاج إلى من يمسح عنها الغبار كل يوم.
تغير وجه الشبان خوفاً من غضب الآلهة، فقال أحدهم: لا بد
أنك ستخسر في تجارتك القادمة، لقد أغضبت الآلهة.

قال عثمان: فلتغضب، إذا ما كانت تشعر.

عندها قالت امرأة تحمل ابنها الصغير للشباب: دعوا عثمان
وشأنه، ليتكم تكونون نصف عثمان.

ابتعد الشباب، فابتسمت المرأة لعثمان وقالت لولدها: أحبك
والرحمن، حب قرينش لعثمان.

ابتسم عثمان للصبي الصغير، وسار عائداً إلى منزله.

هناك استبدل ثيابه بثياب ناعمة باهظة الثمن، وكانت أمه قد
حضرت أفضل الطعام، لحم طري وعجين من أجود الأنواع، وما كان

عثمان يأكل أو يلبس ما هو أقل من ذلك، فهو شريف ابن شريف غني من بني أمية.

جلس إلى والده على المائدة، فقال عثمان لوالده: لقد كانت التجارة رابحة، هل لي أن أتصرف بالمال بما أراه مناسباً؟
ابتسم عفان وقال لابنه: إنه مالك، ولك أن تفعل به ما تشاء.

سألت أمه^(١): وماذا تنوي أن تفعل يا عثمان؟

قال عثمان: هناك من يحتاج إلى المساعدة من أقاربنا، أفكر أن أوزع عليهم شيئاً من الطعام الذي أحضرناه من الشام، سيفرحون به كثيراً.

نظر عفان إلى زوجته ثم قال: إن بني أمية يحبونك دون أن تتودد إليهم يا عثمان.

قالت أمه: أنت بشوش الوجه جميل الثغر، حسن الخلق والكلام، زيارتك إليهم كافية.

أشار عثمان بالنفي وقال: لقد كسبنا ما يزيد عن حاجتنا، نلبس أفضل الثياب ونأكل أفضل الطعام، أحب أن يجرب أقاربنا رغد الحياة.
قال عفان: كما تشاء، المال مالك، وكل قريش تحبك.

(١) أم عثمان بن عفان هي أروى بنت كريب، لها دور بسيط في السيرة.

قالت أمه: الجميع ينتظر من ستتزوج يا عثمان.
ابتسم عثمان وقال: لقد بدأت أحسن التجارة حديثاً، أمهليني
يا أماه بعض الوقت.
قال عفان: أستطيع أن أزوجك أشرف البنات يا عثمان، فقط أشر
إلينا من ترغب أن تشاركك حياتك.
قال عثمان: أمهلاني بعض الوقت.

مرت الأيام وحل الشتاء، وتجهزت القوافل لتجارة اليمن،
واستعد عبد عمرو بن عوف وعثمان بن عفان للسفر مع والديهما عوف
بن عبد عوف وعفان بن أبي العاص.
سارت التجارة في اليمن على أفضل وجه، وربح عبد عمرو بن
عوف المال الوفير، ووعد والده أن يضع له رأس مال يتاجر فيه
بنفسه، بينما كان عثمان بن عفان يتاجر برأس ماله، وقد تضاعفت
أرباحه أكثر من أي يوم آخر.
كانا سعيدين جداً بصحبتهم ونجاح تجارتهما، قال عبد عمرو
لصديقه عثمان: لقد وعدني والدي أن يضع لي رأس مال خاص في
تجارتنا القادمة إلى الشام.

قال عثمان: ستكون على أحسن ما يرام، لقد أحبك الناس في اليمن والشام، تذكر دائماً أن الصدق هو ما يبحث عنه الناس.

قال عبد عمرو: والبضاعة الممتازة، كي لا تكذب عليك أن تبيع أفضل البضائع.

ثم سمعا صوتاً ينادي: قافلة قريش جاهزة للمغادرة.

قال عثمان: حان وقت العودة، هيا نسرع.

اقترب رجل يماني إلى قافلة قريش قبل أن تغادر، اجتمع مع عوف وعفان، قال لهما: أيها القرشيون، إن رجلاً من العرب قد مات في اليمن، ولديه مال لورثته نريد أن نبعث به إليه، هل لكما أن تأخذه وتوصلاه إلى أهله؟

قال عفان: نوصله إليه بكل تأكيد.

في طريق العودة، كان عبد عمرو وعثمان يتحدثان سعيدين، وفجأة استوقف القافلة رجل من العرب، قال: أيها القرشيون، هل تحملون مالاً من اليمن إلى ورثة رجل من قبيلتي؟

قال عوف: نحمل مالاً أمانة إلى الورثة.

قال الرجل: أعطوني المال، أنا أوصله إليهم، إنهم أقربائي.

نظر عوف إلى عفان ثم قال: هذا المال أمانة، يجب أن نوصله إلى

منزل الميت حيث أهله وورثته.

قال الرجل: إنه قريب لي، أنا أحمل المال إلى أهله.

قال عفان: آسف، ولكن الأمانة أن نوصلها إلى المنزل.

فرفع الرجل سيفه، وانقضَّ مع رجاله على القافلة، وطعن عوفاً

في صدره، بينما استطاع عفان الهرب، وسحب معه عبد عمرو وعثمان

مبتعدين، صرخ عبد عمرو: أبي! لا تتركوا أبي!

ولكن عفان تابع الجري هارباً بالولدين والأمتعة، وظل عبد

عمرو ينظر إلى والده كيف سقط صريعاً على الأرض وسط الرجال، ها

هو يفقد سنده في هذه الدنيا ليظل وحيداً من بعده.

بعد أن قطعوا مسافة كبيرة، أوقف عفان الرحال، ونزلوا

ليستريحوا.

جلس عثمان إلى جانب عبد عمرو الذي كان يبكي أباه بحرقة،

وضع يده على كتفه ليخفف عنه، ولكن الموقف كان صعباً، حيث كان

عبد عمرو يشهق بالنحيب، لقد فقد أباه في لمحة عين.

اقترب عفان منهما، ووضع يده على كتف عبد عمرو وقال: لقد

دافع عن الأمانة، لك أن تفخر به.

أشار عبد عمرو بالإيجاب، فنهض عفان وقال لابنه: لازمه،

الصديق الحقيقي هو من يساند صديقه في أصعب الظروف.
أشار عثمان بالإيجاب، ولازم صديقه عبد عمرو يخفف عنه.



٢٨هـ | ٥٩٣م

زواج محمد ﷺ من السيدة خديجة ﷺ

زيد بن حارثة^(١)

كانت هناك قافلة ترحل بين القبائل، تحمل صبياً صغيراً في السابعة من العمر، اسمه زيد بن حارثة، كان لطيف الوجه، أسمر، تمسكه أمه^(٢) وتدله وتلاعبه، تحمله ليزور أخواله. سأل زيد أمه: متى سنصل؟

ابتسمت أمه وقالت: لن يطول الأمر، نصف نهار على ما أظن.
قال زيد: في المرة القادمة اطلبي إلى أخوالي القدوم إلى قبيلتنا ليزورونا.

(١) زيد بن حارثة، صحابي، له دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٢) سعدة بنت ثعلبة، ستذكر في هذا الموضع فقط.

ضحكت أم زيد وقالت: عليك أن تزورهم أيضاً يا زيد، إنهم يحبونك كثيراً.

قال زيد: وأنا أحبهم، ولكن الطريق طويلة.

قالت أمه: ليست كذلك، سنصل وستنسى عناء السفر عندما يستقبلونك ويهدونك أجمل الثياب.

قال زيد: في المرة القادمة سيحضر أبي معنا.

توقفت القافلة فجأة، فنظرت أم زيد حولها فإذا برجال يقتربون من القافلة، خشيت على زيد وضمتته إلى صدرها، ولكن سهماً سريعاً اتجه إلى الإبل التي تحملهما، فسقطت الإبل وسقط زيد وأمه على الأرض، وما إن رفعت أم زيد رأسها حتى رأت زيداً بيد رجل يختطفه ويبتعد عنها، صرخت وركضت خلف الرجل، ولكنه كان ابتعد بفرسه مع الرجال الذين أغاروا معه على بعض الأسرى والبضاعة والأموال.

ركضت أم زيد وراء الأحصنة تصرخ: ابني! ابني! أعيدو لي ابني!

ولكن رجلاً من القافلة تبعها وأمسك بها لتعود قبل أن تضل

الطريق، ظلت تصرخ وتبكي: زيد! ابني! أعيدو لي ابني!

وجثت على الأرض تبكيه وتندب حظها، لقد فقدت ولدها المدلل، استدارت فرأت القافلة قد فجعت بقتلى وجرحى من الرجال والنساء، لقد كانوا قطاع طرق.

عادت أم زيد مع القافلة إلى زوجها تبكي، قلق حارثة^(١) من شدة وجلها، وسألها: ماذا حدث؟ أين زيد؟

قالت وقد اعتصر قلبها بفراق ولدها المدلل: لقد سرقه قطاع الطرق، فقدنا ابننا الحبيب.

فجع حارثة مما سمع، ودون أن يزيد كلمة واحدة ركب فرسه من فوره ليبحث عن زيد.

ضاع أثر زيد بن حارثة، فقد باعه قطاع الطرق عبداً، وبيع بعدها أيضاً عدة مرات، ولم يستطع حارثة أن يقتفي أثر ابنه بعد، لقد ضاع ابنه الغالي.

في مكة نهبَت السيدة خديجة بنت خويلد لزيارة ابن أخيها^(٢)، طرقت الباب ففتح لها وابتهج بقدمها إليه، قال: يا أهلاً بعمتي خديجة، تفضلي، كم أسعدتني زيارتك.

(١) حارثة بن شراويل، والد الصحابي زيد بن حارثة، سيذكر في قصة زيد فقط.

(٢) اسمه حكيم بن حزام بن خويلد، سيذكر في هذا الموضع فقط.

دخلت السيدة خديجة، كانت قد بلغت الأربعين، وما تزال جميلة ورقيقة، جلست وقالت: أحببت أن أطمئن عليك، فلم تزرنا منذ زمن.

قال: اعذريني يا عمتي، لقد انشغلت كثيراً، تفضلي.
قدم لها طعاماً، وتبادلا أطراف الحديث، ثم نهضت السيدة خديجة لتغادر، فقال لها: أتعلمين يا عمتي، لقد اشتريت اليوم في السوق غلماناً حسناً، هل لك بسلام؟
فكرت السيدة خديجة قليلاً، ولكن ابن أخيها لم ينتظر أكثر، وطلب أن يحضر الغلمان، حضر أربعة غلمان ما بين السادسة والعاشر من العمر، قال: لقد اشتريتهم البارحة، اختاري غلاماً يكون ذا عون لك.

نظرت خديجة في الغلمان، إنهم لطيفون، ولكنها استلطفت زيد بن حارثة أكثر، فأشارت إليه فقال ابن أخيها: إنه لك، هدية مني، اذهب يا زيد إلى سيدتك خديجة، وأحسن إليها، إنها سيادة كريمة وشريفة، ستكون سعيداً إلى جوارها.

نظرت السيدة خديجة إلى الغلام وقالت: اسمك زيد؟

قال زيد بن حارثة: نعم.

قالت السيدة خديجة: تعال معي، سأعرفك على ابني هند.
شعر زيد بن حارثة فوراً أن السيدة خديجة امرأة لطيفة، إنها
جميلة ورقيقة، تبدو ذكية وحكيمة أيضاً، إنه يرجو أن تعامله معاملة
حسنة، ذهب معها وأطاعها في كل أمر، ولم تكن تثقل عليه في شيء،
وتعرّف إلى هند الذي كان لطيفاً معه أيضاً، ولكن زياداً كان ما يزال
يريد العودة إلى أمه وأبيه، إلى السعادة والحب والدلال.

كان محمد ﷺ قد بلغ الخامسة والعشرين، يعيش مع عمه أبي
طالب، يساعده في أعماله وقوت يومه، ولكن الحال كانت ما تزال
ضيقة على أبي طالب وعياله، فجلس إلى ابن أخيه محمد ﷺ يوماً
يقول له: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا،
وألحت علينا سنون صعبة، وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير
قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً
من قومك في بضاعتها، فيتجرون لها في مالها، ويصيّبون منافع لهم،
فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، وفضلتك على غيرك،
لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك، وإن كنت أكره أن تذهب إلى
الشام، وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بدأ.

فكر محمد ﷺ بحاجة عمه إلى المال، ورغبته الشديدة في مساعدته، ولكنه أيضاً يمنعه حياؤه وعزة نفسه أن يعرض نفسه لعمل لم يُطلب منه، وغلب عليه حياءه من الموافقة، فقال لعمه أبي طالب: فلعلها ترسل إلي في ذلك.

لم يكرر أبو طالب طلبه من محمد ﷺ، فهو يعلم يقيناً رغبته في مساعدته، وحياؤه الشديد، وأخلاقه الرفيعة المختلفة عن شباب قريش الآخرين، ولكنه قال: إني أخاف أن تولي غيرك.

خرج محمد ﷺ من عند عمه ولم يتناقشا في ذلك أكثر، ولكن أحد أولاد عمه كان قد سمع ما دار بين والده ومحمد ﷺ، فذهب إلى خادم خديجة ميسرة^(١)، الذي كان يشرف على جميع الشباب الذين يتاجرون في بضاعة خديجة، وينتقيهم بعناية، ويساومهم في النقود، ذهب إليه يقول: يا ميسرة، من سيخرج في تجارة سيدتك الطاهرة؟

قال ميسرة: بعض الشباب ممن استعملنا من قبل، لماذا تسأل؟ قال: فما رأيك أن تستأجر محمداً، إنه الصادق الأمين، وكل قريش تعرف أخلاقه، لن تجد أفضل ولا أأمن منه على بضاعة سيدتك. أشار ميسرة بالإيجاب وقال: وهل يريد أن يخرج إلى الشام؟

(١) ميسرة خادم السيدة خديجة المخلص، والمسؤول عن تجارتها، سيذكر في شؤون تجارة السيدة خديجة.

قال: لم لا؟ أظن أنه يرغب في ذلك.

ذهب ميسرة إلى سيدته خديجة بنت خويلد، واستأذن في الدخول، وجلس إليها يسألها: يا سيدتي، أرى أن نطلب من محمد بن عبد الله أن يخرج في بضاعتك لهذا العام، ونضارب له بسعر جيد.

قالت خديجة: وهل يرغب في الخروج إلى الشام؟

قال ميسرة: وصلني الخبر أن لديه رغبة في ذلك.

قالت خديجة: إنه الصادق الأمين، وأنا أتق بمن تعرضهم علي

يا ميسرة، ابعث به إلي.

بعث ميسرة إلى محمد ﷺ أن السيدة خديجة تطلبك، فذهب إليها واستأذن في الدخول، وجلس إليها فقالت: إنه دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أبعثك بتجارة إلى الشام، وأعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك.

ابتهج محمد ﷺ بطلب خديجة، فقد كان يفكر بعمه وحاجته إلى النقود، ورغبته في مساعدته، فوافق على الفور، وعاد إلى عمه يخبره بما جرى بينه وبين خديجة، ففرح عمه أبو طالب وقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك، اذهب يا ابن أخي، واحذر حذراً شديداً، وأنه ليحزنني فراقك جداً.

تجهز محمد ﷺ للخروج، وبعثت خديجة بنت خويلد بميسرة ليرافق محمداً ﷺ في رحلته، ويبلغها ما فعل محمد ﷺ من سفر وتجارة وأخلاق، وقالت له: لا تعص له أمراً، ولا تخالف له رأياً، وعد إلي بما فعل وما كسب.

انطلقت القافلة، حمل محمد ﷺ بضاعة خديجة، وسار مع ميسرة.

كان ميسرة سعيداً جداً برفقة محمد ﷺ، فقد تيقن أن أخلاق محمد ﷺ هي كما وصفه الجميع بل أفضل، وشعر أنه يثق به منذ بداية الرحلة.

أثناء السير شعر ميسرة أن أشعة الشمس لا تؤذيها، فنظر فوقه فإذا بغمامة تظلمهم، فرح بها وتمنى لو تظل الغمامة الطريق كاملة.

مر وقت وهما يسييران، نظر إلى الرجال في القافلة يتصببون عرقاً، ونظر إلى محمد ﷺ يسير بهدوء من غير تعب، وهو أيضاً لا يتصيب عرقاً كالباقيين، نظر فوقه فإذا بالغمامة ما تزال تظلمهم طول الطريق!

تعجب ميسرة، ثم سمع رجلاً يقول: فلنسترح قليلاً ونحضر شيئاً نأكله.

توقفت القافلة، ونزل الرجال يستريحون، وأنزل محمد ﷺ وميسرة البضاعة لتستريح الدواب قليلاً، وجلس محمد ﷺ تحت شجرة ليستريح، ذهب ميسرة ليجلب بعض الطعام لهما، ولما عاد كان محمد ﷺ قد نام، فنظر إلى الشجرة تميل بأغصانها لتظله.

تعجب ميسرة! بدأ يشعر أن محمداً ﷺ أكثر مما يصف أهل مكة بكثير، إن له شأنًا ما، تركه وذهب يطعم الدواب.

بينما كان ميسرة يطعم الدواب، اقترب منه حبر من أحبار اليهود كان ماراً بالقرب من القافلة، قال: أنتم عرب؟

قال ميسرة: نعم، من مكة.

قال اليهودي: من هذا الرجل؟

وأشار إلى محمد ﷺ ينام تحت الشجرة، فقال ميسرة: هذا محمد بن عبد الله، فتى من فتیان الحرم.

قال اليهودي: هذا الفتى نبي، لا يجلس ولم يجلس تحت هذه الشجرة إلا نبي.

تعجب ميسرة! وقبل أن يسأل أكثر كان اليهودي قد تابع

مسيره مغادراً.

ونادى الرجال للمسير، فذهب ميسرة وأيقظ محمداً ﷺ لينطلقا، وما إن ركبا الدواب حتى لاحظ ميسرة الغمامة تعود لتظلهما. أراد ميسرة أن يختبر الأمر، فقال لمحمد ﷺ: هل تسابقني؟ وافق محمد ﷺ، وركضا، فكانت الغمامة تتابع محمداً ﷺ وتبتعد عن ميسرة، توقف ميسرة وقد تأكد أن لمحمد ﷺ أمر عجيب، وحكاية يجب أن يتقفى أثرها.

وصلت القافلة أسواق الشام، وأنزل الجميع البضاعة، وبدأ المارة يشترون ويساومون، وقد أبلى محمد ﷺ بلاء حسناً في التجارة، وأحبه الناس جميعاً لأمانته وأخلاقه، وفضلوا البضاعة التي يبيعها على أقرانه من قريش.

هذا وقد كان ميسرة ما يزال يرى الغمامة تظل محمداً ﷺ أثناء عمله، بينما يتصعب الرجال عرقاً.

ثم جاء رجل من اليهود إلى محمد ﷺ يسأله في البضاعة: بكم هذه؟ أجابه محمد ﷺ، فساومه اليهودي وقال: أتقسم باللات والعزى؟ فاحمر وجه محمد ﷺ وقال: والله ما سجدت لهما حتى أحلف بهما.

فابتسم اليهودي وقال: نعم، أشتري منك بمثل ما قلت.
فاشتري ثم نظر إلى ميسرة، وأشار إليه أن يتبعه، فتبعه ميسرة
فقال له اليهودي: إلزم هذا الرجل، هذا الرجل نبي آخر الزمان.
لقد سافر ميسرة كثيراً، وتاجر كثيراً، وتعامل مع الرجال
ومعادنهم، ولكن لم تمر عليه رحلة أعجب من هذه، لقد رأى الكثير
وسمع ما لم يسمع من قبل، كان في شوق للعودة إلى مكة ليقص على
السيدة خديجة ما رأى وسمع، فمن يصدق ما حدث؟
أنهى الجميع تجارتهم، وحزموا أمتعتهم وأموالهم، ولكن
محمداً ﷺ كان قد اشترى بالأموال التي اكتسبها في التجارة بضاعة
من الشام، حملها معه ليتاجر بها في مكة.

عادت القافلة إلى مكة، وأسرع ميسرة إلى سيدته خديجة بنت
خويلد ليقص عليها القصة العجيب، بينما اتجه محمد ﷺ من فوره
إلى السوق، وباع بضاعته من الشام، فكسب ضعف المبلغ الذي يكسبه
الشباب الذين تستأجرهم خديجة.

دخل ميسرة على سيدته خديجة يدق قلبه بشدة، ابتسمت
خديجة وقالت: أرجو أنك تحمل أخباراً سارة، تبدو مرتبكاً.

قال ميسرة: سيدتي الطاهرة، لن تصدقي ما حدث، إنه العجب، محمد بن عبد الله أعجب من رأيت، إن له شأنًا بكل تأكيد. حبست خديجة أنفاسها شوقاً لتسمع ما رأى ميسرة من محمد ﷺ، فهي لا تسمع عنه إلا أفضل الأخبار وأحسن الصفات. قص عليها ميسرة ما كان من أمر الغيمة، وما كان من أمر الحبران اليهوديان، وما أخبراه من خبر نبي آخر الزمان، وعن أخلاق محمد ﷺ وثقة الناس به، وصدقه وأمانته وحسن معاملته، وهو واثق أنه سيعود إليها بخير وفير.

لم تبال السيدة خديجة بالحديث عن التجارة بعد ما سمعت، لقد تذكرت حديث ابن عمها ورقة بن نوفل عن نبي آخر الزمان، وقد نسيت أمره منذ زمن، هل يُعقل أن يكون محمد ﷺ هو النبي المنتظر؟ نهضت خديجة دون أن تقول شيئاً، وسارت خارجة من المنزل متجهة من فورها إلى منزل ابن عمها ورقة بن نوفل، تفكر في الطريق، محمد بن عبد الله أشرف قريش، وهو الصادق الأمين الحسن الخلق، المحبوب من قبل الجميع، أليست تلك صفات الأنبياء؟ وصلت منزل ورقة بن نوفل، استأذنت بالدخول، فنظر إليها ورقة يقول: هناك أمر هام جئت به يا بنت العم.

قالت: لا أهم مما جئت من أجله.

وجلست إلى ورقة تقول: ما تقول في محمد بن عبد الله؟

قال ورقة بن نوفل: أقول فيه ما تقول كل قريش، الصادق

الأمين، الشريف الهاشمي، الحسن الخلق والسيرة، الوضوء الوجه

الجميل الثغر.

قالت خديجة: لقد استأجرته في تجارة لي.

قال ورقة: حسناً فعلت، فمن أفضل من الأمين للتجارة؟

قالت خديجة: وقد بعثت معه خادمي ميسرة ليتتبع أثره وعمله،

فعاد بخبر أكبر من الصدق والأمانة، لقد قص علي أخباراً عجيبة.

قصت خديجة على ورقة ما أخبرها به ميسرة، فابتهج ورقة

وقال: لئن كان هذا حقاً يا خديجة، إن محمداً لنبي هذه الأمة، قد

عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر، هذا زمانه، ولكنني انتظرت

طويلاً، واستبطأت الأمر وقلت إلى متى؟

وأنشد يقول:

لججت^(١) وكنت في الذكرى لجوجاً لهم طالما بعث النشيجا^(٢)

ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجا

(١) لَجَّ: أَلَجَّ.

(٢) النشيج: البكاء.

ببطن المَكْتين^(١) على رجائي
 بما خبرتنا من قول قس
 بأن محمداً سيسود قوماً
 ويظهر في البلاد ضياء نور
 فيلقى من يحاربه خساراً
 فيا ليتني إذا ما كان ذاكم
 فرحت السيدة خديجة بذلك كثيراً، واستبشرت خيراً، وبدأ
 اهتمامها بيزداد بمحمد ﷺ.

عادت إلى منزلها، وهناك كان محمد ﷺ ينتظرها حاملاً
 البضاعة والنقود، دخلت واستقبلته ليتحدث إليها عن أمور التجارة،
 والأموال التي عاد بها إليها، وكم ستكون حصته من النقود.
 أخبرها محمد ﷺ بما فعل في الشام ومكة، ووضع إليها النقود
 كاملة بكل أمانة، ولم تأبه خديجة حتى بالتأكد من أمانته في الأموال،

(١) المَكْتين: مكة المكرمة والمدينة المنورة (يثرب).

(٢) خصم: غلب بالحجة.

(٣) تموج: تضطرب.

(٤) الفلوج: الفوز.

(٥) الولوج: الدخول.

بل قالت: لقد عدتَ إلي بأموال تفوق ضعف ما كان يعود به
المستأجرون، لذلك أعطيك ضعف ما أعطيتهم، وأحب أن تخرج في كل
تجارة لي.

شكرها محمد ﷺ على ثقته، عندها دخلت صديقة لخديجة،
فوجدت محمداً ﷺ فقالت: أخاطباً يا محمد؟

جفت السيدة خديجة ورف قلبها، ولكن محمداً ﷺ قال: كلا.
شعرت السيدة خديجة بشيء من الحزن لرد محمد ﷺ، ولكن
صديقتها قالت: ولم لا؟ فوالله ما في قريش امرأة إلا تراك كفوًّا لها.
وقعت تلك الكلمات في قلب خديجة، وأراحت صدرها، نعم إنه
كفوٌّ للزواج بشريفة جميلة، وكل فتيات قريش يعلمن ذلك، وما يمنعه
من الزواج إلا قلة المال، وحال عمه أبي طالب الصعبة.

استأذن محمد ﷺ في الخروج، وظلت السيدة خديجة تفكر في
أمره، بل صار مركز اهتمامها، وظلت تسأل عنه وتستفسر عن أخلاقه
وأفعاله وأصدقائه وأفكاره، وكل يوم تزداد إعجاباً به، واعتقاداً أنه
ربما يكون فعلاً النبي المنتظر.

شغل محمد ﷺ بالها وتفكيرها، ولكنه لم يطلب الزواج منها،

كما لم يطلب الزواج من أي امرأة في قريش، هل تستطيع أن تكسر حاجز الفقر ليفكر في الزواج منها؟ إنها ليست بحاجة إلى المال. أخيراً فكرت خديجة أن تستشير أقرب الناس إليها، فدعت أختها^(١) وأعز صديقة إليها^(٢)، وخلت بهما تسألهما.

شعرت صديقتها على الفور بعلامات الاهتمام والأرق في وجه خديجة، فقالت: ما شأنك يا خديجة؟

فأجابت خديجة: لقد جمعكما لأمر أنتما الوحيدتان اللتان أثق بكما في حفظه، أمر محمد بن عبد الله، لم أر مثله من الرجال، حليم كريم، شهيم حسيب نسيب، صادق أمين، وفوق ذلك له شأن.

ابتهجت صديقة خديجة وقالت: أخيراً هو الزواج يا خديجة.

قالت خديجة: فكرت كثيراً في الأمر، ولكن كيف لي أن أخبره

برغبتي في الزواج؟

قالت أخت خديجة: إنني لأرجو أن يكون لك زوجاً، فهو فوق

الوصف الذي تصفين، وسنرى طريقة نسأله فيها عن الزواج.

قالت صديقتها: هل تأذنين لنا أن ندبر الأمر؟

قالت خديجة: افعلنا.

(١) هالة بنت خويلد، ستذكر في هذا الموضع فقط.

(٢) نفيسة بنت منية، ستذكر في هذا الموضع فقط.

خرجت أخت وصديقة السيدة خديجة من عندها كل منهما يدبر
أمراً، أما أختها فقد انتظرت إلى أن رأت محمداً ﷺ يسير في الطريق
مع صديقه عمار بن ياسر، فاستغلت الفرصة ونادت عماراً، توقف
محمد ﷺ ينتظر عماراً أن ينظر في شأنها، اقترب عمار من أخت
خديجة، فأسرت له قائلة: أما لصاحبك هذا من حاجة في تزوج
خديجة؟

قال عمار: لا أدري، أسأله لك.

قالت: افعل.

وتركته وغادرت، فعاد عمار إلى محمد ﷺ يقول: هذه أخت
السيدة خديجة الطاهرة، سألتني إذا ما كان لك من حاجة في تزوج
خديجة.

فأجابه محمد ﷺ: بلى لعمرى.

ولكن ما يزال حاجز المال يمنعه من الزواج، وعاد إلى منزل عمه
أبي طالب، هناك قال له عمه: هناك امرأة تنتظرك في شأن تحدثك
فيه.

تعجب محمد ﷺ، فدخل فإذا بها صديقة خديجة المقربة،

رحب بها وجلس إليها فقالت: يا محمد، ما يمنحك أن تتزوج؟

فقال: ما بيدي ما أتزوج به.

قالت: فإن كُفيت ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف

والكفاءة، ألا تجيب؟

قال: فمن هي؟

قالت: خديجة بنت خويلد، الطاهرة.

قال: وكيف لي بذلك؟

قالت: عليّ.

قال: فأنا أفعل.

ابتهجت صديقة خديجة، ولم تصبر حتى تخبر صديقتها العزيزة بالخبر، فخرجت من فورها من عند محمد ﷺ متجهة إلى خديجة، أخبرتها بما دار بينها وبينه، وأن لديه الرغبة في ذلك، فتشجعت خديجة وسألتها: فماذا أفعل الآن؟

قالت صديقتها: ادعيه إليك، وتحديثي إليه.

تشجعت خديجة، وأرسلت إلى محمد ﷺ، فحضر وجلس إليها، فقالت: يا ابن عم، إنني قد رغبت فيك لقربتك ووسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، وقد كُفيت المال، فما تقول؟ بين لها محمد ﷺ رغبته في الزواج، فهي الطاهرة الشريفة،

وأخبرها أنه سيجتمع مع أعمامه وأقاربه من بني هاشم ليحضرُوا إلى أقاربها من بني أسد.

عاد محمد ﷺ إلى عمه وأخبره برغبته في الزواج من السيدة خديجة بنت خويلد، فرح أبو طالب وقال: إنها الشريفة الطاهرة، وقد تزوج أترابك العباس وحمزة، حتى صديقك أبو بكر ينتظر مولوده الثاني، وأنت أشرف قريش وأفضلهم خُلُقاً وخُلُقاً، نذهب الليلة لنخطبها لك، ويعيننا آل هاشم على المهر.

في المساء ذهب أبو طالب مع عشرة من قومه منهم عمه حمزة بن عبد المطلب مع محمد ﷺ لخطبة خديجة من عمها^(١).

جلس الجميع فبدأ أبو طالب قائلاً: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، ومعدن معد، وأصل مضر، وجعلنا حضنة بيته وسؤاس حرمة، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجع به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل. وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة،

(١) عم السيدة خديجة اسمه عمرو بن أسد، سيذكر في هذا الموضع فقط.

وقد بذل لها من المهر عاجله وآجله خمسمئة درهم.

فقال عم خديجة: هو الفحل الذي لا يُقَدَعُ أنفه^(١).

* * *

وتم الزواج المبارك، وفرحت قريش كلها بالشريفيين الكريمين الطاهرين، وفرح أبو بكر لصديقه العزيز كثيراً، وأهداه أجمل الهدايا، كما فعل أعمامه حمزة والعباس.

ولم يعد محمد ﷺ يسافر في تجارة، بل بات ينظم أمور تجارة خديجة في مكة مع ميسرة، الذي أهدته السيدة خديجة لزوجها، فكانا يوظفان الرجال الأمناء ويتابعون أعمالهم.

لم تكتفِ السيدة خديجة بإهداء ميسرة إلى زوجها الحبيب، بل أحبت أن تهديه غلاماً يلزمه ويخدمه، وقد كانت تملك العديد من الغلمان، فعرضتهم عليه وقالت: انظر إلى هؤلاء الغلمان، اختر منهم من تشاء.

فنظر محمد ﷺ إلى الغلمان، واختار زيداً بن حارثة من بينهم جميعاً، وصار خادمه المقرب.

(١) هو الفحل الذي لا يُقَدَعُ أنفه: حرفياً تعني هو الذكر القوي من الحيوانات التي لا يرمى شيء على أنفه فيرتد، ومعنى المثل أنه الكريم الذي لا يُرد.

وفِعلاً كان زيد بن حارثة خير غلام، وأعجب به محمد ﷺ جداً، كما أن زيدا قد أعجب بمحمد ﷺ أيضاً، وعلم أنه مختلف عن باقي الرجال، وباتا قريبين كالأب وابنه في فترة وجيزة، ورباه محمد ﷺ على مكارم الأخلاق، وحسن الصفات، وظل في جواره طول الوقت.

أما بركة، فقد انتقلت لتعيش في منزل السيدة خديجة مع محمد ﷺ، فجلس إليها محمد ﷺ يخبرها أنه يريد أن يعتقها، وتصبح حرة وتتزوج حراً، ولكنها قالت: أنت مني مثل ابني، لا أطيق فراقك.

فقال لها محمد ﷺ: أنت أُمي بعد أُمي.

وبين لها أنه يريد لها أن تتزوج وتعيش حياة سعيدة، وسيظل يصلها ويزورها.

تزوجت بركة^(١)، وعاشت حرة يزورها محمد ﷺ ولا يقطعها أبداً، وحملت وأنجبت أيمن، وبات الجميع يعرفونها باسم أم أيمن.

في قرية بعيدة كان والد زيد بن حارثة ما يزال يبحث عن ابنه،

(١) تزوجت بركة عبيد بن زيد، سيذكر في هذا الموضع فقط.

ولكن أحداً لا يعرف مكانه، جلس إلى تلة في المساء ينظر إلى القمر،
وقال:

بكييت على زيد ولم أدر ما فعل أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل؟
فوالله ما أدري وإنِّي لسائل أغالك^(١) بعدي السهل أم غالك الجبل
فياليت شعري هل لك الدهر رجعة فحسبي من الدنيا رجوعك لي بَجَل^(٢)
تُذَكِّرُنِيه الشمس عند طلوعها وتعرض ذكراه إذا غربها أفل^(٣)
وإن هبت الأرواح هيحن ذكره فيا طول ما حزني عليه وما وجل
سأعمل نص العيس^(٤) في الأرض جاهداً ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي علي منيتي فكل امرئ فان وإن غره الأمل
وبكى ابنه العزيز.

أما في بني هاشم، فقد كانت صفيّة بنت عبد المطلب تضع
مولودها، وكان زوجها العوام بن خويلد^(٥) ينتظر بفارغ الصبر.

(١) غالك: يعني أهلكك.

(٢) بجل: يعني حسب.

(٣) أفل: يعني غاب.

(٤) نص العيس: حرفياً يعني حث الدابة بشدة، ويعني سأعمل كل جهدي.

(٥) العوام بن خويلد، هو والد الزبير بن العوام، وزوج صفيّة بنت عبد المطلب، وأخو السيدة خديجة بنت خويلد، سيذكر في هذا الموضع فقط.

قدمت السيدة خديجة بنت خويلد لمساعدة زوجة أخيها في
الولادة، وحضر نساء من بني هاشم وبني أسد، وتجمع الرجال
ينتظرون المولود الشريف، من بينهم إخوة صفية العباس وحمزة وأبو
طالب وأبو لهب، وابن أخيها محمد ﷺ.

بعد ساعات خرجت السيدة خديجة تحمل طفلاً جميلاً، ابتهج
به العوأم كثيراً، أعطته لأخيها يقبله ويحمله إلى أعمامه وأخواله.
اطمأن الجميع على صفية، وعمت الفرحة قريشاً بالمولود
الشريف، وأطلق عليه العوأم اسم الزبير، فكان الزبير بن العوأم^(١).
ولكن ما هي إلا أيام حتى قُتل العوأم بن خويلد، وعم الحزن
العائلتين، وبات الزبير بن العوأم يتيماً، تعنتني به أمه صفية، وفي
كفالة عمه نوفل بن خويلد.



(١) الزبير بن العوام، أحد العشرة المبشرين بالجنة، له دور كبير في السيرة كاملة.

٢٥هـ | ٥٩٧م تقريباً

زيد بن محمد

قس بن ساعدة^(١)

هند بنت عتبة^(٢)

مضت بضعة أعوام على زواج محمد ﷺ بالسيدة خديجة بنت خويلد ﷺ، ولم تشهد قريش زوجان أسعد منهما، فقد كانا متفاهمين ومتحابين إلى أبعد الحدود.

أصبحت السيدة خديجة حاملاً بابن محمد ﷺ الأول، وكان ابنها هند يسكن معهما، يقوم محمد ﷺ على تربيته وتعليمه، وكان هند شديد الحب لمحمد ﷺ، فقد عوضه عن حنان الأب بشكل كبير،

(١) قس بن ساعدة، أحد الأحناف، سيذكر في هذا الموضع فقط.

(٢) هند بنت عتبة بن ربيعة، لها دور كبير في السيرة كاملة.

كما كان محمد ﷺ يقرب زيدا بن حارثة ويعلمه ويربيه أيضاً، وكان زيد معجباً بسيدته محمد ﷺ أيما إعجاب، فلم ير في حياته رجلاً أطف وأحلم وأرقى منه، وبات قدوته يسير معه يخدمه ويراقب كل تصرفاته وأخلاقه.

كما كانت السيدة خديجة نعم الزوجة، ومحمد ﷺ نعم الزوج، وكانا كثيراً الصلة للأقارب من الطرفين، فقد كان محمد ﷺ يزور عمه أبا طالب يومياً، حيث حزن أبو طالب لابنته العزيز عنه حزناً شديداً، فقد كان يقربه ويحبه جداً، كما كانت السيدة خديجة حريصة على العناية بابن أخيها الزبير بن العوام، واستقبلته بحفاوة، كما كان محمد ﷺ يحبه ويقربه.

ازدهرت تجارة السيدة خديجة، وشاركت زوجها أموالها وخدمتها، وكان يشرف على تجارتها وينميها، كما كانا حريصين على إطعام الفقراء، ومساعدة المحتاجين من القريب والبعيد، وإعانة أي مظلوم، وإكرام الضيوف.

كان حب السيدة خديجة لزوجها يزداد يوماً بعد يوم، وإعجابها بأخلاقه يفوق كل تصور، بل وباتت تشعر بصدق حدسها في كونه نبي آخر الزمان، فكانت إذا دخل عليها تخرج إلى الباب وتأخذ

بيده وتضمه إلى صدرها ثم تقول: بأبي وأمي، والله ما أفعل هذا لشيء،
ولكنني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سببعت، فإن تكن هو فاعرف
حقي ومنزلتي، وادع الإله الذي يبعثك لي.

فيقول لها زوجها محمد ﷺ: والله لئن كنت أنا هو، قد
اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً، وإن يكن غيري فإن الإله الذي
تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً.

في يوم تمر تجارة من بلاد زيد بن حارثة إلى مكة، ويرى
التجار زيدا يسير إلى جانب محمد ﷺ، فيقول أحدهم: أليس هذا
زيد بن حارثة الذي يبحث عنه والده ويبيكه كل يوم؟
قال آخر: أظن أنه هو، فلنبعث إلى أبيه، سيحضر على الفور،
لقد جاب البلاد كلها بحثاً عنه.

فبعثوا إلى الحارثة يخبرونه أن ابنه في قريش، عند رجل يدعى
محمد بن عبد الله، وما إن وصله الخبر حتى استبشر وخرج مسرعاً مع
أخيه إلى مكة، ليلتقيا زيدا، ويطلباه من محمد ﷺ.

كان الحارثة قد جمع الأموال ليفدي به ولده العزيز، وكان على
استعداد أن يدفع أي مبلغ يطلبه محمد ﷺ مقابل ولده، بل كان على

استعداد لفعل المستحيل ليعود بابنه العزيز زيد إلى بلاده.

لم يكن حارثة يصدق أنه سيشاهد ولده ثانية بعد طول غياب،
كيف أصبح؟ هل أحسنوا إليه؟ هل يعذبونه؟ هل يأكل جيداً أم يجوع؟
هل يلبس جيداً أم يبرد؟ أي الرجال يكون محمد بن عبد الله؟ ما إن
وصل مكة حتى سأل عن منزل محمد بن عبد الله من فوره، فدلوه عليه.
طرق حارثة باب المنزل بيد ترجف، فتح لهم غلام الباب،
وسألهما: من الرجلان؟

قال حارثة: نحن مسافران، هل لنا أن نتحدث إلى سيدك محمد
بن عبد الله؟

أدخلهما الغلام وأعلم سيده محمداً ﷺ أن هناك مسافران
يرغبان في لقائه، فاستقبلهم محمد ﷺ، وأجلسهم وأطعمهم
وأكرمهم، لا يعرف مرادهم بعد.

كان من الواضح أن حارثة مرتبك بعض الشيء، ولكنه وجد
استقبالاً كريماً، فظن الخير في محمد ﷺ، قال: يا ابن عبد المطلب،
أنتم جيران الله في البيت الحرام، تطعمون الجائع، وتسقون العطش،
وتغيثون الملهوف.

كان من الواضح في كلامهما أنهما في طلب يحتاج إلى رقة قلب،

تابع قائلاً: وإن ابننا عندك، وقد جنناك بما نملك من أموال، نرجو منك أن تفديه لنا.

فقال محمد ﷺ: ومن ابنكما؟

قال حارثة: غلامك زيد بن حارثة.

قال محمد ﷺ: فهل لكم في شيء خير من المال والفداء؟

قال حارثة: وما ذاك؟

قال محمد ﷺ: أناديه لكم، وأخيره، فإن اختاركم فهو لكم،

وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحد.

تعجب الأب والعم من هذا العرض! سيختار الولد الحرية مع والده بكل تأكيد، ولن يدفعوا المال، فقال حارثة: بالغت في الإنصاف.

فنادى محمد ﷺ زيدا بن حارثة فجاء، نظر إلى والده وعمه

الذين لم يرهما منذ وقت طويل، وكان مشتاقاً لهما، وبرقت عيناه

الحارثة برؤية ابنه في أحسن حال، فسأله محمد ﷺ: أتعرف هذين؟

فقال زيد بن حارثة: نعم، هذا أبي وهذا عمي.

قال محمد ﷺ لزيد: يا زيد، فإنهم أتيا لفدائك، وإني أرى أن

أخيرك بين أن تذهب معهما أو تبقى معي، فأنا من علمت ورأيت

صحبتني لك، فاخترني أو اخترهما.

لم يتردد زيد لحظة، وقال: بل أبقى معك، وما أنا بالذي
يختار عليك أحداً أبداً.

تعجب حارثة مما يسمع! أختار العبودية على الحرية بين
أهله وبلده؟ ولكن زيدا تابع يقول لسيده محمد ﷺ: أنت لي بمنزلة
الأب والعم.

فقال حارثة لابنه زيد: ويحك يا زيد! أختار العبودية على
الأهل؟ أختار الغريب على أبيك وأمك وعمك؟

فقال زيد لأبيه: يا أباي، لقد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً لم أراه
من إنسان قط، ووالله أريد أن أبقى معه لا أفارقه أبداً.

فابتسم محمد ﷺ وأخذ بيد زيد وخرج به إلى الطريق ثم سار
معه إلى الكعبة، وتبعه حارثة وأخوه، فرجع محمد ﷺ يد زيد أمام
كل الناس وأمام حارثة وأخيه يقول: يا معشر قريش! اشهدوا! من
اليوم زيد ابني، يرثني وأرثه، اشهدوا على ذلك يا معشر قريش.

فابتسم حارثة، وشعر ببرودة أثلجت صدره، لقد كان ابنه
بخير، وسيكون بخير، فاقترب من ابنه وقبّل جبينه، وحمل نقوده
وأمتعته مع أخيه، وقال لابنه: لا بد أنه سيد مختلف، وهو والدك
الآن، الزمه وكن مثله.

عانق زيد والده وعمه وودعهما يقول: أخبرا أمي أنني أحبها
وأشفاق إليها، وليطمئن قلبها، فأنا سعيد هنا.

وتركوه في قريش، يناديه الجميع زيد بن محمد.

عاد محمد ﷺ مع زيد إلى المنزل، فقفز زيد إلى سيدته خديجة

يقول لها: سيدتي، هل تعلمين ما حدث اليوم؟

ابتسمت السيدة خديجة لسعادة زيد وسألت: ماذا جرى؟

قال: لقد بت من اليوم زيدا بن محمد.

تعجبت السيدة خديجة ونظرت إلى زوجها محمد ﷺ لتتأكد،

فأخبرها بما جرى، وكيف فضله زيد على أبيه وأهله، فابتسمت

خديجة لزيد وقالت: فأنا من اليوم أمك يا زيد، وأنا فخورة بابن

مهذب مثلك.

فرح زيد جداً، فاقترب منه محمد ﷺ وقال له: يا زيد، أنت

مولاي وحبيبي، ومني والي، وأحب الناس إلى قلبي.

دمعت عيون زيد، كان الأسعد، ولم يندم لحظة على فراق

والده، فهو إلى جانب خير البشر، فكانت سعادته أن يكون إلى جوار

محمد ﷺ في كل لحظة، وبات حبا محمد ﷺ.

قالت السيدة خديجة: الغداء جاهز، هيا يا زيد تناول الطعام

مع هند والزبير.

قال زيد: الزبير هنا! هذا رائع، سنلعب بعد الغداء.

وقفز إلى مائدة الطعام.

كانت البركة تعم المنزل، وكان محمد ﷺ يعلم الأولاد ألا يتدافعوا على الطعام، وأن يحمدوا الله على النعم، ويأكلوا معاً لتعم البركة.

أنهى الجميع الطعام، وخرج زيد والزبير إلى الخارج يلعبان، وجلس هند يتحدث إلى محمد ﷺ، وحضرت صفية بنت عبد المطلب أم الزبير، فرأت الزبير يلعب على عتبة المنزل مع زيد، فنظرت إليه منزعة فتوقف الزبير عن اللعب، ودخلت إلى السيدة خديجة.

رحبت السيدة خديجة بأم الزبير زوجة أخيها المتوفي، ولكن صفية قالت منزعة: لم أحضر الزبير إلى هنا ليلعب، أنت تفسدينه. قالت السيدة خديجة بلطف: إنه في الثالثة من العمر يا صفية، إنه عمر اللعب.

قالت صفية: ليس الزبير، حياته ليس فيها لهو ولعب، إنه يتيم وعليه أن يعرف أن الحياة قاسية.

ابتسمت السيدة خديجة تقول: يا صفية، إن له عشيرة تنصره

وتعيينه، بنو أسد وبنو هاشم لن يتركوه في الشدة.

هزت صفية رأسها نافية وقالت: عليه أن يكون صلباً شديداً.

وخرجت إلى الزبير تقول له: اللعب لا يناسبك، هيا بنا.

وسارت وسار خلفها مطيعاً.

خرج محمد ﷺ مع صديقه أبي بكر إلى سوق عكاظ، كان هناك جمع كبير، الجميع منشغل بالبيع والتجارة، وهناك حشود تتجمع حول الشعراء، والكثير من الجدل والنقاش حول الأشعار الجديدة والقديمة، والتغني بالمعلقات، وكان من أشهر الشعراء المفاجرين في قريش سهيل بن عمرو^(١)، كان جمع كبير يجتمع حوله ليستمعوا إليه يلقي أفضل الشعر.

وسط الجموع حضر شيخ يدعى قس بن ساعدة، اشتهر باعتزاله عبادة الأصنام، واتباعه دين إبراهيم، يركب جملة الرمادي اللون، كان الوقار والشرف بادياً عليه، سار على جملة بين الجموع يقول: أيها الناس! اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض

(١) سهيل بن عمرو، له دور في السيرة كاملة.

لعبراً، مهاد موضوع وسقف مرفوع، ونجوم تمور^(١) وبحار لا تغور^(٢)،
ليل داج^(٣) ونهار ساج^(٤)، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج^(٥)،
وبحار ذات أمواج، يقسم قس بالله قسماً لا ريب فيه أن الله ديناً هو
أرضى من دينكم هذا. مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا
بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا؟ تباً لأرباب الغافلة والأمم الخالية
والقرون الماضية. يا معشر إياد^(٦)، أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض
والعواد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ أين من بنى وشيّد وزخرف ونجّد؟ أين
من بغى وطغى وجمع فأوعى^(٧) وقال أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر
منكم أموالاً وأطول منكم آجالاً؟ طحنهم الثرى بكلّله^(٨)، ومزقهم
الدهر بتطاوله، فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خاوية، عمرتها الذئاب
العاوية. كلا بل هو الله الواحد المعبود، ليس بوالد ولا مولود.

ثم أنشد يقول:

(١) تمور: تضطرب.

(٢) لا تغور: لا تذهب في داخل الأرض.

(٣) داج: مظلم.

(٤) ساج: هادئ.

(٥) فجاج: الطرق الواسعة.

(٦) إياد: قبيلة قس بن ساعدة.

(٧) أوعى: احتفظ بالمال وبخل.

(٨) كلّله: ثقّله.

في الـذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر^١
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر^٢
أيقنت أنني لا محالة حيث صار القوم صائر
ابتعد عنه الناس، بينما اقترب منه زيد بن عمرو، نزل إليه
يتحدثان.

ابتسم أبو بكر وقال: إنه رجل حكيم ذو عقل رشيد.
وكان رأي الصديقان محمد ﷺ وأبا بكر متشابهاً في الابتعاد عن
الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، والتفكر في خالق السماء والأرض.

زار عتبة بن ربيعة ابنته هند بنت عتبة في منزلها، وكان
زوجها^(٣) يفتح داراً للضيافة لفتيان قريش، يدخلون ويخرجون كما
يحلون لهم ومتى يشاؤون، جلس عتبة إلى ابنته يطمئن على أحوالها
وأحوال زوجها.

(١) مصادر: أسباب.

(٢) غابر: باقي.

(٣) زوج هند بنت عتبة هو الفاكهة بن المغيرة المخزومي، سيذكر في هذا الموضوع فقط.

قال لها: كيف زوجك يا هند؟

قالت: زوجي ما يزال يستقبل فتيان قريش كل يوم، ويلهو إلى آخر الليل.

قال عتبة: إن قريشاً تحبه وتحضر مجلسه كل يوم.

دخل زوج هند عليهما، ورحب بحماه عتبة، وأكرمه وقدم له أطيب الطعام، وجلس إليهما إلى أن حل المساء، استأذن عتبة وغادر، فجلست هند إلى زوجها في دار الضيافة، واستلقيا يستريحان، نامت هند بينما نهض زوجها وخرج من دار الضيافة لبعض حاجته.

في هذه الأثناء جاء فتى من قريش ممن كان يرتاد دار الضيافة عادة، دخل على هند فرآها نائمة، فولّى هارباً، فلمحه زوج هند يخرج مسرعاً.

أسرع زوج هند إليها غاضباً وضربها برجله يوقظها قائلاً: من هذا الذي كان عندك؟

تعجبت هند وقالت: ما رأيت أحداً، ولا انتبهت حتى أنبهتني.

قال غاضباً: إلحقي بأبيك.

قالت: ما حصل شيء، أقسم باللات والعزى لقد كنت نائمة،

وما رأيت أحداً!

صرخ قائلاً: إلحقي بأبيك!

غادرت هند بيت زوجها متجهة إلى بيت أبيها، أخبرته ما حدث وهي غاضبة ومستاءة من ردة فعل زوجها، ولكن عتبة كان خائفاً أن ينتشر خبر هند، وتؤذيها السنة قريش.

وهو ما حدث، بدأ الناس يتحدثون عن هند بنت عتبة، الشريفة بنت الأشراف تخون زوجها، ويرسلها إلى بيت أبيها. تعب عتبة من القيل والقال، وبات خبر ابنته على كل لسان، فدخل على هند وعلامات التعب بادية عليه، قالت: ما يزال الناس يعيبونني؟

قال عتبة: يا بنية، إن الناس قد أكثروا فيك، فأخبريني خبرك، فإن يكن الرجل عليك صادقاً دسست إليه من يقتله، فينقطع عنك حديث الناس، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. نهضت هند بكل ثقة وصرامة قائلة: أقسم بالللات والعزى، وبأغلظ الأقسام، إنه لكاذب، وما حصل شيء، وما رأيت أحداً، وإنني شريفة ولا تزني الحرة.

حدق عتبة وقال: أعلم أنك صادقة، سأتكفل بالأمر. ذهب عتبة إلى زوج ابنته في السوق، وقال له أمام الملاء: يا هذا،

إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم، فحاكمني إلى بعض كهان اليمن.
قال زوج هند: موافق، اجلب معك شهوداً نرتحل معهم إلى
اليمن، وحدد الميعاد كما تشاء.

باتت الحادثة حديث مكة كلها، واجتمع الشهود من
القبيلتين، وجاء عتبة وهند وزوجها، وجلبوا معهم جماعة من نسوة
قريش، وخرجوا متجهين إلى اليمن، وعندما اقتربوا وبات بينهم
وبين الكاهن مسيرة ليلة واحدة تغير وجه هند، فقلق عتبة أنها كذبت
عليه وقال لها: إنه قد أرى ما بك من تنكر الحال، وما ذاك عندك إلا
لمكروه، فألا كان هذا قبل أن يشتهر للناس مسيرنا؟

ولكن هند أشاحت برأسها وقالت: والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه،
ولكنني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب، ولا آمنه أن يتهمني
فأبيت حديث العرب طول العمر ظلاماً.

فكر عتبة ثم قال: إنني سوف أختبره قبل أن ينظر في أمرك.
فذهب إلى مهره، ووضع حبة بر صغيرة في مجرى بول المهر،
وخبأها هناك ليسأل الكاهن عنها، ووصلت القافلة إلى الكاهن،
فأكرمهم ونحر لهم، فلما قعدوا أمامه قال له عتبة: إنا قد جئناك في
أمر، وإنني قد خبأت لك خبأً أختبرك به، فانظر ما هو.

قال الكاهن: حبة من بر في مجرى بول مهر.

اطمأن عتبة للكاهن وقال: صدقت، فانظر في أمر هؤلاء النسوة.
وعرضوا على الكاهن نساء من قريش، وهند بنت عتبة بينهن،
فجعل الكاهن يدنو من إحداهن فيضرب كتفها ويقول: انهضي. حتى
دنا من هند بنت عتبة، فضرب كتفها وقال: انهضي لست زانية،
ولتلدن ملكاً يقال له معاوية.

فوثب زوج هند إليها سعيداً مستبشراً بالولد، فأخذ بيدها
ولكنها أبعدتها عنه وقالت: إليك عني، فوالله لأحرصنّ على أن يكون
ذاك الولد من غيرك.

فنهض عتبة سعيداً ببراءة ابنته، وبشارة الكاهن، وأخذ ابنته
وقال لزوجها: إنها لا ترغب فيك زوجاً بعد الآن، وسأزوجها أشرف
فتيان مكة.

عادت هند بريئة شريفة، وتحدثت مكة ببراءتها وببشارة
ابنها، وتركت زوجها وعادت إلى بيت أبيها تستقبل خطاباً الواحد
تلو الآخر.



١٣ / ٧ - ٢٣ هـ | ٢١ / ١٠ / ٥٩٨ م

علي بن أبي طالب عليه السلام ^(١)

كان زيد بن محمد يلعب مع القاسم بن محمد عليه السلام ^(٢) يعلمه المشي، حيث بلغ القاسم سنته الأولى، وبات أماً لطيفاً لزيد، وكان زيد يحبه ويلعب معه دائماً.

جاء جعفر بن أبي طالب ^(٣) راكضاً إلى زيد، كان جعفر وزيد متقاربا العمر، في العاشرة تقريباً، كان جعفر فتاً جميلاً، أبيض مائلاً إلى الحمرة، مدور الوجه، واسع العينين، طويل الحواجب والرموش، غزير الشعر بين الأجدد والأملس، يشبه ابن عمه محمداً بن عبد الله عليه السلام.

(١) علي بن أبي طالب عليه السلام، صحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، رابع الخلفاء الراشدين، له دور أساسي في السيرة كاملة.

(٢) القاسم بن محمد عليه السلام، أول أولاد النبي من السيدة خديجة، له دور قصير في السيرة قبل البعثة.

(٣) جعفر بن أبي طالب، صحابي، له دور رئيسي في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

قال جعفر لزيد: زيد! أين ابن عمي محمد؟

قال زيد: إنه مع صديقه سيدي أبي بكر عند الكعبة، ماذا

جرى؟

خرجت السيدة خديجة من المنزل عندما سمعت جعفرًا، وقد

كانت حاملاً، قالت: هل ولدت أمك^(١) يا جعفر؟

قال جعفر: نعم، لقد وضعت ولدًا منذ لحظات، أنتم أول من

علم.

حمل زيد أخاه القاسم وقال له: لقد بات لك ابن عم تلعب معه

أيها القاسم، هيا نراه.

قالت السيدة خديجة لزيد: اذهب إلى الكعبة وأخبر أباك الخبر

السعيد، سأذهب إلى منزل أبي طالب.

ركض جعفر وزيد حاملاً القاسم إلى الكعبة، يخبران محمداً ﷺ

بولادة ابن أبي طالب.

اجتمع العديد من بني هاشم في منزل أبي طالب، ينظرون في

الصبي الصغير، كان النور بادياً في وجهه، حمله محمد ﷺ سعيداً

به، وقربه من زيد والقاسم، قال زيد: كم هو جميل.

(١) أم جعفر وعلي ابنا أبي طالب هي فاطمة بنت أسد الهاشمية.

ابتسم جعفر وقال: سيلعب مع القاسم كثيراً.

سأل زيد: ماذا أسميته يا عمي أبا طالب؟

قال أبو طالب: لقد اختار له ابن أخي محمد اسم علي.

قال أبو لهب: علي بن أبي طالب، يبدو أن ابن أخي هذا سيكون

له شأن.

فرح أبو طالب، فقد كان فعلاً يرى فيه بشارة كبيرة، ثم دخلت

صفية بنت عبد المطلب تبارك لأخيها بابنه الجديد، يسير الزبير إلى

جانبها، وقد كانت هناك بعض الكدمات على وجهه وذراعيه.

نظر الزبير إلى الطفل الصغير علي، اقترب منه يربت على رأسه

بلطف، قال له جعفر: أليس أخي جميلاً؟

قال الزبير: جميل جداً.

ثم نظر إلى خاله أبي طالب وقال: هل لي أن أحمله يا خالي؟

قال أبو طالب: بكل تأكيد، إن اسمه علي.

حمله الزبير سعيداً به جداً، فقالت صفية للزبير: علينا أن

نذهب الآن يا زبير.

أعطى الزبير علياً إلى خاله، فقالت خديجة لصفية: إلى أين يا

صفية؟ يحب الزبير أن يلاعب ابن خاله قليلاً.

قالت صفية: هناك من ينتظرنا ليعلمه القتال.

ابتسمت خديجة في رفق وقالت: إنه في الخامسة، لديه كل

الوقت لتعلم القتال، دعيه يلعب ابن خاله.

ولكن الزبير وقف إلى جانب أمه يطيعها في كل ما تأمر، فقالت

صفية: مبارك لك يا أخي، إن علياً لطيف وجميل، سيكون شرفاً لبني

هاشم.

خرجت صفية، فقالت السيدة خديجة لزوجها محمد ﷺ

هامسة: إنها تقسو على الزبير، وتضربه بشدة.

كان الزبير كثير التردد على منزل ابن خاله محمد ﷺ وعمته

خديجة، حيث كانا حنونان عليه كثيراً، ولكن أمه صفية لم تكن تحب

أن يذهب حيث الدلال.

ذهبت صفية بالزبير إلى عمه ووليه^(١)، حيث استأجر له من

يعلمه القتال، ما إن خرج من منزله يستقبل ابن أخيه حتى رأى

الكدمات عليه، فقال لصفية: ما هكذا يُضرب الولد، إنك لتضربينه

ضرب كارهة.

(١) عمه نوفل بن خويلد.

قالت صفية: من قال أني أكرهه فقد كذب، إنما أضربه لكي يقوى، ويهزم الجيش، ويكون الفارس البطل القوي.

كان الجميع بلا حيلة أمام إصرار وقسوة صفية، فلم تكن تستمع إلى أحد، وكانت ترى في شدتها مصلحة ابنها على عكس ما يرى الآخرون.

تعلم الزبير القتال، وبينما كان عائداً إلى المنزل ذات يوم استوقفه صببية أكبر منه سنًا، سخرُوا منه ومن الكدمات على وجهه، قالوا: ها قد أتى الهر الضعيف، ابن أمه، انظروا إليه كيف يعاني. غضب الزبير، وانقض عليهم رغم صغر سنه، وكسر يد أحدهم، فهربوا بسرعة، وتوعدوا له: سنقول لأماك ما تفعل، ستضربك كما تفعل دائماً.

لم يأبه الزبير بهم، فقد هربوا، ولكنهم فعلاً ذهبوا إلى صفية بنت عبد المطلب، يقولون لها: ابنك الزبير، تعرض لنا ونحن لم نضع له شيئاً، وقد كسر يد صديقنا، سيغضب والده عليكم.

ابتسمت صفية وقالت: فكيف وجدتموه؟ أهراً يموء أم أسداً يزار؟ جفل الأولاد، وغادروا المكان لا يتعرضون للزبير.

بعد بضعة أشهر ولدت السيدة خديجة بنتاً جميلة، أطلق عليها والدها محمد ﷺ اسم زينب، فكانت زينب بنت محمد ﷺ^(١)، أخت زيد والقاسم الأولى.

ازدادت السعادة في البيت السعيد، وعمت المحبة والرأفة الجميع، زوجان يُضرب بهما المثل، وأولاد أصحاب مباركين.

تقدم لخطبة هند بنت عتبة الكثير من فتيان قريش، ولكنها كانت تقول لأبيها عتبة بن ربيعة: إنك قد زوجتني ولم تشاورني، فإذا أردت شيئاً فشاورني.

فقال عتبة: لك ذلك.

فخطبها أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو، فقال لها عتبة: خطبك سهيل بن عمرو، وهو سيد قومه، وخطبك أبو سفيان بن حرب، وهو من تعلمين.

قالت هند: صفهما.

قال عتبة: أما سهيل بن عمرو ففي الشرف الصميم والحسب الكريم، حسن الصحبة، إن تابعته تابعك، وإن ملت كان معك،

(١) زينب بنت محمد ﷺ، لها دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

تملكين أهله وماله، وتكتفين برأيك في ضعفه، وأما أبو سفيان ففي الحسب الحسيب، والرأي الأريب، عز عشيرته، يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إن اتبعوه رأف بهم، وإن عصوه شدد عليهم، شرس، لا تتكلمين إلا نهاك، ولا تخالفينه إلا ضربك.

قالت هند: زوجني من أبي سفيان، فإن أتى منه ولد يكون سيداً، وأما سهيل فإن كان منه ولد فليس يكون إلا أحمق. فتزوجت أبا سفيان بن حرب، وأولم لها ثلاثة أيام سعيداً بها، وهند مستبشرة بولد شريف من زوج شريف.

وذهب سهيل بن عمرو إلى منزل أخيه السكران بن عمرو^(١) يشكو رد هند لخطبته، ففتحت زوجته سودة بنت زمعة^(٢) الباب، واستقبلته بحفاوة وأدخلته المنزل.

كانت سودة خفيفة الظل قوية البنية، بلغت الستين من العمر، ولها أطفال كثير.

جلس سهيل بن عمرو إلى أخيه السكران بن عمرو، فقال

سهيل: لقد ردت هند خطبتي، أتصدق؟

(١) السكران بن عمرو، صحابي، زوج السيدة سودة بنت زمعة، له دور صغير في السيرة إلى ما قبل الهجرة.

(٢) سودة بنت زمعة، أم المؤمنين، لها دور في السيرة كاملة.

قال السكران: رأيت ولائم أبي سفيان، يُقال أنها اختارته
بنفسها.

دخلت سودة تضحك وتقول: عجباً لهند، أتختار الشديد على
اللين الهين؟

قال سهيل: عجباً لكنّ، ما استطاع رجل أن يفهمكّن قط.
قال السكران: لا عليك، الشريقات كثر، اطلب من تشاء
وستكون لك.

سكت سهيل فابتسمت سودة وقالت مازحة: العشاء عندنا
الليلة، أم أنك ستتعشى في ولائم أبي سفيان؟
نهض سهيل يقول: خفيفة الظل كعادتك، لا هنا ولا في ولائم
ذاك، سأظل في المنزل أنظم الشعر.
وغادر إلى منزله.



٢٢هـ | ٦٠٠م

وفاة القاسم بن محمد

دخل ابن عتبة بن ربيعة على والده يتأفف، سأله والده: هل

خسرت في المقامرة؟

قال الابن: كلا، شكاني عبد أنني بخست حقه في البضاعة.

قال عتبة: وبعد؟

قال الابن: طُلب إلي أن أحضر شهوداً، فشهد أخي.

قال عتبة: جيد، فهل لقنت العبد درساً لن ينساه؟

جلس الابن متأففاً يقول: بل ردوا شهادة أخي بشاهد العبد.

تعجب عتبة وقال: أوترد شهادة أخوك؟ من شهد ضده؟

قال الابن: محمد بن عبد الله.

صمت عتبة بن ربيعة، فلاحظ ابنه تغير ملامح أبيه، فقال: لا

تقل لي أنك ترد شهادة ابنك أيضاً!

ابتسم عتبة وقال: إنه الصادق الأمين، الذي لا ترد شهادته،
اطو الأمر وكأن شيئاً لم يكن، فأنا ذاهب إلى محمد لأضع وديعتي عنده
قبل أن أسافر، هل تعلم أين تركته؟
قال الابن: إنه مع أبي بكر عند الكعبة، حيث ما يكون محمد
يكون أبو بكر، وحيث ما يكون أبو بكر يكون محمد.

عند الكعبة كان محمد ﷺ يجلس إلى أبي بكر يتحدثان، يمر
عليهما بعض الأصحاب بين الحين والآخر كعثمان بن عفان، وعبد
عمرو بن عوف، وعمار بن ياسر، وأعمامه حمزة والعباس وأبو لهب.
وفجأة ركض إليهما زيد ينادي: أبي! أبي! أخي القاسم متعب
جداً.

نهض محمد ﷺ وأسرع إلى المنزل، حيث كانت السيدة خديجة
قد بعثت بهند ليستدعي الطبيب.

كان القاسم على الفراش، يتعرق بشدة ويتنفس بصعوبة، جلس
إليه محمد ﷺ ليخفف عنه إلى أن جاء الطبيب، وصف له بعض
الأعشاب، ولكن مرت الساعات دون أن يتحسن.

تركت السيدة خديجة ابنتها الصغيرة زينب في عناية أخويها

هند وزيد، بينما جلست مع زوجها محمد ﷺ إلى جانب ابنهما القاسم، ومر أبو بكر وأبو طالب وباقي أعمام محمد ﷺ أكثر من مرة ليطمئنوا على القاسم، ولكن حاله ما كانت تتحسن.

وفي منتصف الليل، بدأ تنفس القاسم يصعب أكثر فأكثر، حبست السيدة خديجة أنفاسها، وبدأت الدموع تنهمر من عيونها، أمسكت زوجها الذي بدأ يبكي على ابنه الذي يفارق الحياة أمامهما. تذكره كيف بدأ يرضع، ثم يمشي ويتعثر، ثم يتحدث ويضحك، يستيقظ كل صباح بابتسامة تشرق لهما يومهما. أين ذهب النور؟ وأين ذهب الابتسامة؟

مات القاسم وما كان قد بلغ الثانية من العمر، بكى عليه الجميع، وعم حزن شديد المنزل السعيد، ودعوا الله أن يصبرهم على فقده.



٢٠- هـ | ٦٠٢ م

رقية بنت محمد ﷺ (١)

عبد الله بن أبي بكر ﷺ (٢)

رملة بنت أبي سفيان (٣)

شبَّ صهيب الرومي، وما يزال يعمل عند سيده الكريم عبد الله بن جدعان، يسقي الخمر في الولائم، ويخرج للتجارة إلى الشام واليمن. تعلم صهيب التجارة، وأعطاه عبد الله بن جدعان نسبة جيدة جعلت له رأس ماله الخاص يتاجر به، وكان صهيب سعيداً جداً عند سيده، فقد كان الأكرم والألطف.

(١) رقية بنت محمد ﷺ، لها دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٢) عبد الله بن أبي بكر، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

(٣) رملة بنت أبي سفيان، هي أم حبيبة، أم المؤمنين، لها دور في السيرة كاملة.

في إحدى ولائم عبد الله بن جدعان، كان صهيب يسقي الخمر للضيوف، وكانوا ينادونه سعيدين به ليسقيهم.

كان عمر بن الخطاب دائم التردد على الولائم، نادى صهيباً: يا صهيب، اسقنا!

اقترب صهيب من عمر وسكب له الخمر، وقال له: سيدي عمر بن الخطاب، كيف كانت تجارتك إلى الشام؟

قال عمر: جيدة، سمعت أنك كسبت الكثير من المال يا صهيب. ابتسم صهيب وقال: لقد عشتُ فترة في الشام، أنا أعرف ما يريده الناس هناك، هذا كل ما في الأمر.

قال عمر: إن سيدك سعيد بك جداً، أنت محظوظ.

قال صهيب: هل لك أن تُسمع ضيوفنا شيئاً من الشعر؟

التفت عمر إلى أصدقائه الذين شجعوه، ولكن قبل أن يقف عمر

كان عبد الله بن جدعان قد وقف يقول: أيها الضيوف، استمعوا إلي.

التفت الجميع إلى عبد الله بن جدعان، الذي أشار إلى صهيب أن

يقترب منه، وقف صهيب إلى جانب سيده الذي وضع يده على كتفه

يقول: اليوم أعلن أمام الجميع، أن عبدي صهيب هذا حر.

تفاجأ صهيب! نظر إلى سيده الذي التفت إليه يقول: وهو من اليوم

حليفي في التجارة، وليس عبداً لي، له أن يتصرف في أمواله كيفما شاء.

ابتسم عمر وقال: مرحى للعبد المحفوظ.

قال صهيب لسيدة: أحقاً يا سيدي؟

قال عبد الله بن جدعان: تستحق ذلك يا صهيب، أنت جدير بالحرية.

قال عمر: فمن يسقينا الخمر الآن؟

ضحك صهيب وقال: سأظل أسقيكها وأنا سعيد بذلك.

أشار عمر بالنفي وقال: بل شاركنا بها وفي رحلاتنا التجارية،

أيها الحر.

كان صهيب شاكراً جداً لسيدة، إنه يصدق عليه بكرمه، وكان

صهيب وقيماً لسيدة دائماً.

خرج عمر بن الخطاب من وليمة عبد الله بن جدعان تعباً، كان

عمر ضخم الجسد، طويلاً مفتول العضلات، حسن الوجه أبيض إلى

الحمرة، أصلع، سريع المشي جهوري الصوت، مشهوراً بالمصارعة

والشعر، يفاخر بشعره في الأسواق، ذو مكانة ومال في قريش.

اتجه عمر إلى الكعبة، ووقف أمام الأصنام يتلمسها ويقول:

كانت تجارة الشام أفضل في العام الماضي، لقد أغدقتُ عليكم العطايا

فلماذا فعلتم بي ذلك؟

ولكن الأصنام لم تحرك ساكناً، فقال عمر: أرجو أن تباركوا لي
الرحلة القادمة.

لم يطل عمر المكوث أمام الصنم حيث كان تعباً، فعاد إلى منزله،
هناك شعر أنه لم يتعبد كفاية، وأن الأصنام قد لا تستجيب له، فوجد
في منزله تمراً، فشكله على شكل رأس ليتخذه إلهاً يعبده الليلة،
وخرم عينيه من بذرة التمر، وظل يعبده.

بعد فترة من التعبد والتقرب، شعر عمر بالجوع، فاكتفى
بالتعبد، وأخذ التمر الذي شكّله وبدأ يأكله ويسد جوعه.
استلقى عمر، ثم فكّر: ماذا فعلت؟ كيف أكلت إلهي؟ كيف
سيبارك لي تجارتي هكذا؟

خاف عمر، وأخذ تمراً آخر وشكّله من جديد، ووضعه أمامه
وقال: اعذرني يا إلهي، بارك لي تجارتي، أنا بحاجة إليك.
وبعد فترة من التعبد، تعب عمر وجاع، نظر إلى التمر أمامه ينظر
إليه إليه، فقال: اعذرني يا إلهي، أنا جائع، أرجو أن تبارك لي تجارتي.
وأخذ التمر وأكله.

رجع زيد بن عمرو من تجارة الشام، ونزل عند الكعبة،
واستقبلها فسجد سجدتين ثم قال: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا
أعبد حجراً ولا أصلي له، ولا آكل ما دُبح له ولا أستقسم بالأزلام^(١)،
وأنا أصلي لهذا البيت حتى أموت.

ثم رأى رجلاً يذبح الشاة أمام الأصنام، فوقف إليه وقال: الشاة
خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض الكلاً، ثم
تذبحونها على غير اسم الله!

كان الخطاب بن نفيل يسير مع ابنه عمر بن الخطاب حول
الكعبة، فرأى الخطاب بن نفيل ابن أخيه زيد بن عمرو عند الكعبة
يعيب على الناس أفعالهم، فذهب إليه وقال: ألا تنتهي عما تفعل؟
لقد أفسدت علينا ديننا.

قال زيد بن عمرو لعمه: يا عمي، والذي نفس زيد بن عمرو
بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، اللهم لو أني أعلم
أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه.

وسجد ثانية، فقال الخطاب غاضباً: سأبعث إليك سفهاءنا
ليبعدوك عن الكعبة إذا لم تنته!

(١) الاستقسام بالأزلام: إخراج سهم من بين سهام كتب عليها خيارات متعددة.

قال زيد بن عمرو: افعل ما تشاء.

قال عمر بن الخطاب لأبيه: لماذا تسمح له بدخول مكة؟ ألا

يسكن بعيداً؟

قال الخطاب منزعجاً: لقد تزوج امرأة تشاركه رأيه، ولا

تخبرنا بدخوله إلى مكة كزوجته السابقة، دعك منه، لا يأبه أحد به.

تركه عمه الخطاب، ثم لقيه محمد بن عبد الله ﷺ وابنه زيد

معه، فسأله محمد ﷺ: يا ابن عمرو، مالي أرى قومك قد شنفوك^(١)؟

فقال زيد بن عمرو: أما والله إن ذلك ليس لسوء كان مني فيهم،

لكن أراهم على ضلال، فخرجت أبتغي هذا الدين، فأتيت إلى أحبار

يثرب فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي

أبتغي، فخرجت حتى آتى أحبار خيبر، فوجدتهم يعبدون الله

ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فقال لي حبر من

أحبار الشام: إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحداً يعبد الله به إلا شيخ

بالجزيرة، فخرجت فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له، فقال:

إن كل من رأيت في ضلالة، فمن أنت؟ قلت: أنا من أهل بيت الله، ومن

أهل الشوك والحر، فقال: إنه قد خرج في بلدك نبي أو خارج، قد

(١) شنفوك: كرهوك.

خرج نجمه، فارجع صدقه واتبعه وآمن به، فرجعت فلم أحس شيئاً بعد.

فطلب محمد ﷺ من ابنه زيد أن يحضر السفارة، وقدمها إلى زيد بن عمرو، فقال: إني لست آكل مما تذبحون على أصنامكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.

ترك زيد بن عمرو محمداً ﷺ وابنه، فذهب محمد ﷺ يطوف بالكعبة مع ابنه زيد، وكان هناك صنمان من النحاس يقال لهما إساف ونائلة عند الكعبة يتمسح بهما الناس إذا طافوا، فقال محمد ﷺ لابنه: لا تمسهما ولا تمسح بهما.

فلم يفعل زيد، ولكن في الدورة الثانية قال في نفسه: لأمسهما حتى أنظر ما يقول أبي.

فلمسهما، فقال له محمد ﷺ: ألم تُنْهه؟

فعلم أن أباه جاد في ذلك، ولم يلمسهما زيد بعد من ذلك اليوم.

ذهب زيد بن عمرو إلى رجل ينوي دفن ابنته حية، فأوقفه وقال: لا تقتلها! أنا أكفيك مؤونتها وأربيها، وعندما تكبر تختار أن تعود إليك أو أربيها عنك أيضاً.

فوافق الرجل ، وعاد زيد بن عمرو إلى منزله ببنت جديدة.
هناك استقبلته زوجته^(١) وابنه سعيد بن زيد^(٢) الذي كان في
التاسعة ، وابنته عاتكة بنت زيد^(٣) الجميلة ، نظرت زوجته إلى البنت
بين يديه وقالت : موؤودة أخرى؟

قال زيد بن عمرو : أرجوك اعطني بها جيداً.
عانق سعيد وعاتكة أباهما وقالت عاتكة : سعيدة بعودتك سالماً
يا أبي ، هل جلبت لنا الهدايا؟

ابتسم زيد بن عمرو لابنته وقال : كل الهدايا لأحبائي الصغار ،
ولكن هل لكما بما هو أجمل من الهدايا؟
قال سعيد لأبيه : وما هو يا أبي؟

جلس زيد بن عمرو إلى أولاده وقال : يا أبنائي الأحباء ، أنا
أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من بني عبد المطلب ، ولا أراني
أدركه ، فقد كبرت في العمر ، وأنا أؤمن به وأصدقه ، وأشهد أنه نبي ،
فإن طالبت بكما مدة فرأيتماه فاقراءه مني السلام ، وسأخبركما وصفه
الذي علمته في رحلتي هذه حتى لا يخفى عليكما.

(١) زوجة زيد بن عمرو الثانية: فاطمة بنت نعجة ، وأم سعيد بن زيد.

(٢) سعيد بن زيد ، صحابي ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، له دور في السيرة كاملة.

(٣) عاتكة بنت زيد ، صحابية ، لها دور بسيط في السيرة كاملة.

قال سعيد بن زيد: كيف هو يا أبي؟

قال زيد بن عمرو: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرج قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب، فيظهر أمره، فإياكما أن تُخدعا عنه، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم، فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعته لكما، ويقولون لم يبق نبي غيره.

قالت عاتكة: سيكون جميلاً إن رأيناه، الأنبياء تجلب الخير على البشر.

ربت زيد بن عمرو شعر ابنته وقال: إنه الفخر كل الفخر، والعز في الدنيا وما بعدها.

ثم أنشد يقول:

عجبت وفي الليالي معجبات
بأن الله قد أفنى رجالاً
وأبقى آخرين ببر قوم
وفي الأيام يعرفها البصير
كثيراً كان شأنهم الفجور
فيربل^(١) منهم الطفل الصغير

(١) يربل: كثر لحمه.

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبوروا^(١)
تري الأبرار دارهم جنان وللكفار حامية سعير^(٢)
وخزي في الحياة وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور

عاد محمد ﷺ إلى المنزل مع زيد، هناك كانت أم أيمن^(٣) تعتني
بالسيدة خديجة، فقد كانت تشعر بألم الولادة.
سأل محمد ﷺ عن أحوال زوجته الحبيبة، فقالت أم أيمن:
يبدو أنها ستلد اليوم.

ثم نظرت إلى الطفلة زينب وقالت لها: حبيبتي زينب، العبي
مع إخوانك ريثما نعتني بأمك العزيزة.
قالت زينب بكل براءة: هل ستكون أمي بخير.

قال زيد: ستكون بخير بعون السماء يا أختي، قد تلد لك اليوم
أخاً جميلاً أو أختاً جميلة.
قالت زينب: حقاً!

(١) لا تبوروا يعني لا تهلكوا.

(٢) حامية سعير تعني النار شديدة الحرارة.

(٣) أم أيمن هي بركة التي أعتقها النبي، ستذكر بلقبها الأكثر شهرة في السيرة من بعد.

ابتسم زيد وأخذ أخته يلاعبها، وجلس محمد ﷺ إلى جانب زوجته التي قالت: أظن أننا سنرزق الليلة بمولود يا زوجي الحبيب، أدعو الله أن يكون نوراً وسعادة في منزلنا السعيد.

ظل محمد ﷺ إلى جانب زوجته، إلى أن رزقا بنتاً جميلة، أطلقوا عليها اسم رقية، وكانت سعادة تضاف إلى سعادتهما، وكانت زينب الأسعد بأختها اللطيفة رقية.

وفي نفس العام رزق أبو بكر ﷺ بولد، أسماه عبد الله، فاجتمعت عائلتا الصديقان الحميمان في وليمة كبيرة لقريش، تعمها الفرحة والسعادة.

خطب رملة بنت أبي سفيان عبيد الله بن جحش^(١)، فدخل عليها أبو سفيان يقول: يا ابنتي، أنت صاحبة حسب وشرف، وعقل وعلم، وجمال ومال، الهينة اللينة، وقد خطبك عبيد الله بن جحش، وهو من تعرفين حسبه وخُلقه، وما أنا بقاض أمراً حتى يكون لك الخيار فيه، فما رأيك؟

(١) عبيد الله بن جحش، كان مع زيد بن عمرو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، اعتزل عبادة الأصنام، ولكنه لم يدخل في المسيحية أو اليهودية.

قالت رملة: خير الأب أنت، وخير الزوج عبيد الله، أرجو أن يكون مباركاً لي ولأولادنا.

ابتسم أبو سفيان وقال: أنت تعلمين أنه لا يحب الأصنام ولا يعبدها، وأنا أعلم أنك تعتزلين الأصنام وعبادتها، أظن أنه كما ترغبين.

سكتت رملة، فهي تعلم أن أبها يعظم الأصنام ويعبدها ليل نهار، ويرجو منها الخير الوفير، ولم تكن تحب أن يعلم أبها أنها تخالفه الرأي، ولكن أبو سفيان قال: لا تحاربا قريشاً على عبادتها، وافعلا ما تشاءان.

هكذا بارك لهما أبو سفيان زواجهما، فكانت رملة نعم الزوجة الخلوقة الكريمة الشريفة، وما كانت تحب عبادة الأصنام التي يعكف عليها والدها ومن معه في قريش، فكانت سعيدة باعتزال زوجها الأصنام، وعاشا معاً حياة سعيدة.



١٩هـ | ٦٠٣م

أم كلثوم بنت محمد ﷺ^(١)

تُجَار قريش

حضر أبو بكر ﷺ لزيارة صديقه العزيز محمد ﷺ، معه أولاده عبد الرحمن الذي بلغ الحادية عشرة، وأسماء^(٢) التي بلغت الثامنة، ويحمل على ذراعه ابنه عبد الله وقد بلغ سنته الأولى ليلعبوا مع أصدقائهم زينب ورقية بنات محمد ﷺ، وعلي بن أبي طالب الذي كان يتردد على منزل ابن عمه محمد ﷺ كثيراً.

ركض الأولاد يلعبون، ترتفع أصوات ضحكاتهم معاً، بينما جلس محمد ﷺ إلى صديقه أبي بكر ﷺ يتحدثان، وأثناء الجلسة

(١) أم كلثوم بنت محمد ﷺ، لها دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٢) أسماء بنت أبي بكر، صاحبة، لها دور في السيرة كاملة.

نادت السيدة خديجة زوجها محمداً ﷺ تخبره أنها بدأت تشعر بآلام الولادة، فبعث محمد ﷺ زيدا لينادي أم أيمن، بينما بعث أبو بكر ﷺ ابنه عبد الرحمن لينادي زوجته^(١) ليساعدن السيدة خديجة.

هي ساعات وسمع الجميع صوت بكاء طفلة جميلة تزيّن المنزل، وتزيده سعادة على سعادة، حملها محمد ﷺ سعيداً بها، وناولها إلى صديقه أبي بكر ﷺ الذي بارك له فرحاً، وتحلق الأولاد حول الطفلة الصغيرة، تهتف كل من زينب ورقية فرحات بأخت ثالثة تلعب معهما. حضر أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، وجماعة من آل هاشم، وسعدوا بالصغيرة الجميلة، التي أسماها محمد ﷺ أم كلثوم.

انشغل التجار في التحضير لتجارة اليمن، جهز محمد ﷺ تجارة زوجته مع شباب من قريش، وتعاقد معهم على نسب البيع، بينما خرج أبو بكر ﷺ بنفسه للتجارة بالثياب والقماش.

كما تجهز للتجارة كل من عثمان بن عفان، وعبد عمرو بن عوف، وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد^(٢)، وأبو سفيان بن حرب،

(١) كان أبو بكر ﷺ تزوج أم رومان، وهي أم عبد الرحمن، كما تزوج قتيلة وهي أم عبد الله وأسماء.

(٢) خالد بن الوليد، صحابي، شخصية أساسية في السيرة كاملة.

وأمية بن خلف^(١)، وغيرهم.

خالد بن الوليد كان أحد أولاد الوليد بن المغيرة المتميزين، كان على حداثة عمره مصارعاً قوياً، وفارساً لا يستهان به، كان ضخماً طويلاً، وسيماً، حنطي البشرة، غزير الشعر، وقد جهزه والده ليتعلم التجارة في نقود والده ليكتسب لنفسه ويبني تجارته الخاصة.

أما أمية بن خلف، فقد كان يقارب عبد عمرو العمر، كان تركيزه الدائم على المال، وكان يتاجر في الأصنام، ويستغل العبادة والحج وحاجات الناس في الحصول على المال، وقد جنى منه الكثير، كما كان كثير الأولاد.

كان أمية بن خلف يجهز تجارته، ويأمر عبيده بنقل الأمتعة وحملها على الدواب. كان قاسياً ولئيماً على عبيده، يأمر بضربهم إذا ما تعبوا، ويسيء إليهم بكل الطرق، وكان من بين عبيده شاب حبشي، يدعى بلالاً بن رباح^(٢).

كان بلال أسود البشرة، نحيفاً وقصيراً، كث الشعر، وكان يملك صوتاً جميلاً يطلب إليه الغناء في الولائم.

(١) أمية بن خلف، له دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٢) بلال بن رباح، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

كان بلال يحمل الأصنام ويضعها على الدواب عندما حضر عبد عمرو بن عوف للقاء أمية بن خلف، قال عبد عمرو: إنها ثقيلة، ألا تتاجر في غيرها؟

ابتسم أمية وقال: لا أشعر بثقلها، بل أشعر بثقل نقودها القادم، هل جهزت تجارتك؟

قال عبد عمرو: كل شيء معد، الإبل تنتظر خارج مكة.

قال أمية: عليك أن تتاجر بالأصنام، إنها تدر أموالاً كثيرة. هز عبد عمرو كتفه وقال: تجارتي تدر علي أموالاً كثيرة، باركت لي السماء بها، لست بحاجة إلى الأصنام.

نظر أمية إلى عبد عمرو وسأله: أتعني أنك لا تؤمن بالآلهة؟ ضحك عبد عمرو وقال: لا تقلق، لن تخسر إذا لم أشتري منك صنماً، فالكثير من العرب يؤمنون بها.

ابتسم أمية وقال: وهل تظنني أسجد لها؟ أنا أعلم أنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تجلب الكثير من المال، المال يضر وينفع.

عندها حضر غلام يخبر سيده أمية أن القافلة قاربت على الانطلاق، فصرخ أمية لبلال: أيها الكسول الضعيف، لقد سبقنا الجميع، سنأخر بسبب إهمالك.

طأطأ بلال رأسه يشعر بألم وتورم في ذراعيه وقدميه من ثقل
الأصنام التي يحملها ثم قال: آسف يا سيدي أمية، لم يتبق إلا آخر
كيس، سأحضره فوراً.
قال أمية متأففاً: لا داعي، سأبيعه في مكة، فلتنطلق الإبل على
الفور.

اتجه عبد عمرو بن عوف مع أمية بن خلف إلى حيث تجمع
القوافل، فوجدا التجار متحلقين حول متصارعين، فتوقفا ينظران.
سأل عبد عمرو بن عوف أحد الرجال: من المتصارعان؟
قال الرجل: إنه عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، كنا ننتظر
اكتمال القافلة، فأردنا الاستمتاع ببعض النزال، وما أجمله من نزال.
نظر عبد عمرو وأميه إلى النزال، كان عمر وخالد متقاربان في
العمر والجسد، كلاهما شديد قوي، وكان الكثير من الرجال قد
تجمعوا ليستمتعوا بمشاهدة قتال قد يكون الأقوى منذ سنين.
وكذلك كان، كان الاثنان لا يستهان بهما، واشتدت الحماسة
بين الرجال، وعلا الهتاف، كل من عمر وخالد يهجم ويضرب بقوة،
ويصارع بكل جدية، وبات النزال أقوى وأقوى.

ازداد هتاف الرجال وحماستهم، وكان الوليد بن المغيرة والد خالد يقف بينهم، يحدق بابنه القوي، يرجو أن يفوز فيفاخر به قريشاً جميعاً.

وكان له ذلك، فقد انتهى النزال بضربة شديدة من خالد، كسر بها ذراع عمر معلناً نهاية الصراع.

علا الهتاف أكثر فأكثر، والتصفيق لخالد دوى في الأرجاء، هتف الوليد بن المغيرة مفاخراً: إنه ابني، فارس مخزومي لا يستهان به، سيكون فارس قريش.

نظر خالد إلى أبيه وابتسم له، ها قد كان عند حسن ظنه وظن آل مخزوم جميعاً.

أخيراً تفرق الرجال، وتجهزت القوافل، وبعث عمر بن الخطاب رجلاً عنه في تجارته، وانطلق الباقون.

في الطريق إلى اليمن قدم رجل إلى أبي بكر يسأله: يا أبا بكر، هل تسجد للات والعزى أن يبارك لك تجارتك، فتزدهر أموالك كل مرة؟
قال أبو بكر: وما اللات والعزى؟
قال الرجل: بنات الله.

قال أبو بكر : فمن أمهّن؟

سكت الرجل ، وتابع أبو بكر سيره متجاهلاً الحديث عن الأصنام .
في اليمن سارت التجارة على أكمل وجه ، وكسب تجار قريش
الكثير ، وبينما هم في السوق لاحظ أبو بكر ﷺ الناس تتحلق حول
شيخ كبير ، يبدو عليه الوقار والهيبة ، فاستوقف رجلاً من اليمن
وسأله : من يكون الرجل؟

فأجابه : إنه عالم كبير في الكتب المقدسة ، وعلم من العلماء قبله
علماً كثيراً ، ويجيئه الناس من كل مكان يسألونه ويطلبون العون
والدعاء منه .

نظر أبو بكر إلى الرجل ، يبدو فعلاً أن لديه علماً واسعاً ، وما
زال أبو بكر يفكر في أمر النبي الذي أخبره عنه ورقة بن نوفل ، ربما
يكون لدى هذا العالم علماً أعمق مما يعرفه ورقة .

انتظر أبو بكر انفضاض الناس عن الشيخ حتى اقترب منه
ليتحدث إليه ، وما إن اقترب حتى لاحظ أن الشيخ يرمقه بنظرة حادة ،
كمن يتفحص شيئاً مهماً .

وقف أبو بكر أمام الشيخ ، وقبل أن يتحدث قال الشيخ : أحسبك

من الحرم .

أجاب أبو بكر: نعم أنا من أهل الحرم.

قال الشيخ: وأحسبك قرشياً.

أجاب أبو بكر: نعم أنا من قریش.

قال الشيخ: وأحسبك تيمياً.

تعجب أبو بكر، فهو نفسه على علم كبير بالأنساب، ولكنه لم

يتحدث إلى الشيخ من قبل! قال: نعم، أنا من قبيلة تيم.

قال الشيخ: بقيت لي منك واحدة.

قال أبو بكر: وما هي؟

قال الشيخ: تكشف لي عن بطنك.

تعجب أبو بكر وقال: ولم ذلك؟

قال الشيخ: أجد في العلم الصحيح الزكي الصادق أن نبياً يبعث

في الحرم، يعاونه على أمره فتى وكهل، فأما الفتى فخواض غمرات

ودفاع معضلات، وأما الكهل فأبيض نحيف، على بطنه شامة وعلى

فخذه اليسرى علامة، وما عليك أن تريني ما سألتك، فقد تكاملت لي

فيك الصفة إلا ما خفي علي.

فكشف أبو بكر له عن بطنه، فرأى شامة سوداء فوق سرته، فتهلل

وجه الشيخ وقال: أنت هو ورب الكعبة! وإني أخبرك بأمر فاحذره.

قال أبو بكر : وما هو؟

قال الشيخ : إياك والميل عن الهدى ، وتمسك بالطريقة الوسطى ،
وخف الله فيما حولك وأعطاك .

حفظ أبو بكر ما قال الشيخ ، وقد حدثه بأكثر مما كان يرجو أن
يسمع ، وعندما حزم أمتعته ليغادر إلى مكة أتاه الشيخ ليودعه ، فقال
أبو بكر : مثلك أيها الشيخ نحضر إليه ، لا تحضر إلينا .

فقال الشيخ : أحامل أنت مني أبياتاً قلتها في ذلك النبي؟

قال أبو بكر : نعم .

قال الشيخ :

وأنت ورب البيت تلقى محمداً
فحي رسول الله عني فإنني
فيا ليتني أدركته في شيبتي
بعامك هذا قد أقام البراهنا
على دينه أحيا وإن كنت واكنا^(١)
فكنت له عبداً أو إلا العجاهنا^(٢)

في الطريق إلى مكة ، كانت حليلة السعدية^(٣) وزوجها الحارث
بن عبد العزى قادمين على بعير ضعيف متعبين ، نظر الحارث إلى

(١) واكنا يعني جالساً .

(٢) العجاهن يعني الطباخ .

(٣) حليلة السعدية مرضعة الرسول ﷺ .

جبال مكة بدأت تظهر أمامهما فقال: آه يا مكة، مر زمن ولم نزرک.
قالت حلیمة: کبرنا وشق علينا الترحال، ترى كيف هي أحوال
ابننا محمد؟

ابتسم الحارث وقال: لا بد أنه في أفضل حاله، إنه نسمة
مباركة، أينما حل تحل البركة.

وصلا إلى مكة، وسألا عن ابنهما محمد ﷺ، فوجداه في أفضل
حال مع زوجة كريمة شريفة، وأطفال رائعين، وما إن رأى
محمد ﷺ أمه حتى فرش لها رداءه لتجلس عليه، وأحسن استقبال
والديه وأكرمهما، كما كانت السيدة خديجة سعيدة جداً بالتعرف
إليهما، وقدمتا لهما الطعام والمأوى فرحين بهما، وسألا عن أحوال
إخوانه الثلاثة.

ثم قصت حلیمة على ابنها ما يعانون من الجذب والقحط وسوء
الحال، فقالت: يا بني، ما عشنا يوماً كالذي كنا نحتضنك فيه، فقد
كنا في أحسن حال، وما إن غادرت المنزل حتى ساءت الأحوال، وجفت
المياه، وذبلت الأشجار، وجاعت المواشي.

استمع محمد ﷺ إلى شكواهما، ورق لحالهما كثيراً، وما إن
ناما حتى تحدث إلى السيدة خديجة في حالهما، فعرضت عليه أن

يقدم لهما أربعين من المواشي، فسر محمد ﷺ باقتراحها، وقدم
المواشي لوالديه اللذين فرحا جداً بكرم استضافته ومساندته.
كان عليهما أن يعودا إلى قبيلتهما، وحانت لحظة الوداع، ووعدا
بالزيارة كلما استطاعا لذلك سبيلاً.



١٨هـ | ٦٠٤م

وفاة زيد بن عمرو

فاطمة بنت محمد ﷺ^(١)

معاوية بن أبي سفيان^(٢)

حفصة بنت عمر بن الخطاب^(٣)

تجهزت القوافل لرحلة الصيف إلى الشام، بعث محمد ﷺ، الذي كان قد بلغ الخامسة والثلاثين، الشباب الأمينين في تجارة زوجته السيدة خديجة، كما ودع صديقه العزيز أبا بكر ﷺ، وأكد له

(١) فاطمة بنت محمد ﷺ، الزهراء، لها دور في السيرة كاملة.

(٢) معاوية بن أبي سفيان، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب، أم المؤمنين من بعد، لها دور في السيرة كاملة.

أنه سيعتني بأهله وعباله ريثما يعود.

وخرج في التجارة عثمان بن عفان، الذي بات من أغنى أغنياء قريش وأفضلهم في التجارة، إلى جانبه يخرج صديقه التاجر الفذ عبد عمرو بن عوف.

كما خرج كل من عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وأبو سفيان بن حرب إلى جانبه صديقه أمية بن أبي الصلت، وسهيل بن عمرو، وأمية بن خلف وغيرهم من تجار قريش.

حزم زيد بن عمرو أمتعته، فوقف إلى جانبه ابنه الصغير سعيد بن زيد يقول: ادعو الله أن تعود سالمًا يا أبي، كن حذرًا أن يؤذيك أحدهم.

قال له زيد: ادعو الله أن يكتب لي الهداية والخير أينما كان، ولا آبه بالسفهاء.

ثم نظر إلى ابنه ووضع يده على جبينه وقال: إنني أظن فيك الخير يا بني، أنت ذكي وحليم، سيوصلك عقلك إلى خير.

ابتسم سعيد لأبيه، ولكن شيئاً كان يقلقه في سفر والده هذا.

انتظى زيد دابته وقال لابنه: اعتنِ بأمك وأختك يا سعيد، واستعن بالله على ذلك.

قال له سعيد: اتجه من الجهة الغربية، حيث لا يقف أحدهم
في طريقك للحاق بالقافلة.

غادر زيد بن عمرو مودعاً أهله، يسير مع القوافل إلى الشام،
هدفه البحث عن الحقيقة قبل التجارة.

حل المساء على القافلة، فأرخت أحمالها وجلسوا ليستريحوا
ويناموا، فتحلقوا في حلقات، وبدؤوا يتسامرون وينشدون الشعر
ويشربون الخمر.

عرض رجل على أبي بكر الخمر، فاعتذر له ولم يشرب، فقال
له الرجل: لماذا لا تشرب يا أبا بكر؟ الرحلة طويلة، خذ كأساً يخفف
عنك عناء السفر.

قال أبو بكر: أنا لا أشرب الخمر لأصون مروأتي وأحفظ عرضي،
فقد رأيت شاباً يسير في الطريق يشرب الخمر، ويتناول أوساخ الدواب
من الأرض ويأكلها، فأقسمت ألا أذل نفسي هذه المذلة.

فتركه الرجل وذهب إلى عثمان بن عفان ليسقيه الخمر، ولكن
عثمان أيضاً لم يتناول كأساً، فقال الرجل: ما بال شرفاء قريش،
يأنفون من الخمر؟

قال عثمان بن عفان: لا أهين نفسي، وأستحي مما يصنعه
شاربوا الخمر أن أصنع مثلهم.

تأفف الرجل وتركه ليوزع الخمر على رجال القافلة الآخرين،
فجلس عثمان بن عفان وعبد عمرو بن عوف إلى أبي بكر لا يشربون
الخمر، ويتحدثون إلى بعضهم في أمور التجارة.

أنشد عمر بن الخطاب مفاخرًا، وأنشد سهيل بن عمرو، ثم أنشد
أمية بن أبي الصلت شعراً حنيفياً فقال:

جزى الله الأجل المرء نوحاً جزاء البر ليس له كذاب
بما حملت سفينته وأنجت غداة أتاهم الموت القلاب^(١)
وفيهما من أرومته^(٢) عيال لديه لا الظماء ولا السَّغاب^(٣)

فقال له صديقه أبو سفيان: واللات والعزى إن لشعرك هو
الأفضل، ألا تكف عن الإله الواحد وتنشد لنا شيئاً يثلج صدورنا
جميعاً؟

قال أمية بن أبي الصلت: أنشد ما يثلج صدري، ويغزو
تفكيري، ويؤرق نومي، تسافرون للتجارة وأسافر لما هو أعظم.

(١) القلاب هو مرض يصيب القلب.

(٢) أرومته أي نسبه.

(٣) الظماء أي العطشان، والسَّغاب أي الجائع.

ابتسم أبو سفيان وقال: حذاري أن تصبح كزيد بن عمرو، لقد طرده أهله من مكة لأنه يعيب الآلهة.

قال أمية بن أبي الصلت: تفوزون في الدنيا ويفوز في الآخرة.
لم يشأ أبو سفيان أن يدخل في مشاحنة مع صديقه، فقد كان من ثقيف ولا تهتم قريش بما يؤمن به طالما لا يؤثر في تجارتهم وأموالهم، وتابع الجلسة الشعرية، بينما نهض أمية بن أبي الصلت يقول لأبي سفيان: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله؟

قال أبو سفيان: لا إرب لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به، ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه.
فتركه أمية، وذهب إلى كنيسة قريبة يسمع إلى عالمها إلى أن انتصف الليل، عاد إلى القافلة يستبدل ثيابه وينام معهم.

بعد رحلة طويلة وصلت القافلة الشام، بينما انشغل الجميع في امتعتهم وتجارتهن، ذهب زيد بن عمرو يبحث عن الرهبان والأخبار ليسألهم عن الدين الحق، كما غادر أمية بن أبي الصلت أيضاً ليسأل عن نبي آخر الزمان الذي كان يظن أنه هو.

لقي زيد بن عمرو عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم فقال: إنني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني عنه.

قال له اليهودي: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله.

قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنى أستطيعه، فهل تدلني على غيره؟
قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفياً.

قال: وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يبعد إلا الله.
فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فقال له: إنني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني.

قال النصراني: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله.

قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟
قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفياً.

قال: وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.
فلما رأى زيد بن عمرو قولهم في إبراهيم ﷺ خرج ورفع يده
فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم.

ولم يستسلم، وظاف البلاد يسأل العلماء، إلى أن وصل راهباً
عالماً، قال له مثلما يقول للعلماء: إني أبحث عن الدين الحق، وأريد أن
أعبد الله، فعلمني دينك.

فقال له الراهب: إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه،
ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك التي خرجت منها، يبعث
بدين الحنيفية، فالحق به، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه.

هزت هذه الكلمات زيدا بن عمرو، وركب دابته وأسرع في
العودة إلى مكة، كله شوق للقاء النبي الحنيفي، وترك التجارة وقوافل
قريش في الشام.

ركض بدابته وأسرع وأسرع، يقول في نفسه: أنا مع هذا النبي يا
الله، اجعلني من أنصار هذا النبي يا الله.

وفي وسط الطريق، أحس بتحركات مريبة، فنظر حوله فإذا
بقطاع الطرق ينقضون عليه بسرعة وخفة، حاول أن يدافع عن نفسه
ولكنه كان وحيداً، فسرقوا بضاعته فلما حاول ردهم طعنوه طعنة

قاتلة، سقط عن إثرها أرضاً ينزف دماً غزيراً، فنظر يحدق في السماء يقول: اللهم... إني أشهدك أنني بذلت وسعي في البحث عن الحق، وأنا على دين إبراهيم لا أعبد حجراً أو صنماً، اللهم... إني أتوق لرؤية نبيك، وأسرعت إليه، وغدروا بي، اللهم... إن كنتَ حرمتني من هذا الخير فلا تحرم منه ابني سعيداً...

وأسلم روحه وحيداً في الصحراء، مخلصاً لله وحده، بينما كان سعيد بن زيد جالساً إلى أخته عاتكة ينظران إلى السماء، قالت عاتكة: أرجو أن يكون أبي بخير.

سكت سعيد، فقد كان يشعر أن رحلة والده هذه مختلفة عن سابقتها.

كانت قوافل قريش ما تزال تتاجر في الشام، وقد اكتسبوا الخير الكثير.

وفي الليل، حلم أبو بكر رضي الله عنه حلماً غريباً، رأى قمراً قد غادر من مكانه في السماء، ونزل على مكة حيث تجزأ إلى قطع وأجزاء، تفرقت في جميع منازل مكة وبيوتها، ثم عادت إلى ما كانت عليه وعاد القمر إلى شكله الأول، واستقر في حجر أبي بكر.

استيقظ أبو بكر، يتساءل في نفسه: ما هذه الرؤيا الغريبة؟
في الصباح ظل يفكر في أمر الرؤيا، وأراد أن يبحث عن تأويلها،
فالتقى راهباً عالمًا، فآتمنه على رؤياه، وقصها عليه، فحدق فيه
الراهب وقد تهلل وجهه سعادة وسأله: من أين أنت؟

قال أبو بكر: من مكة.

قال: من أيها؟

قال: من قريش.

قال: فأي شيء أنت؟

قال: تاجر.

قال: إن صدق الله رؤياك، فإنه يُبعث بنبي من قومك، تكون
وزيره في حياته، وخليفته بعد موته، وقد أطل زمانه.
سكت أبو بكر، وأسر ذلك في نفسه، وتأمل كل الخير.

أخيراً حزمت القافلة أمتعتها لتغادر الشام، وقد كسب التجار
الكثير، وعاد أمية بن أبي الصلت معه كتب من بعض العلماء ليقراها
حين يعود إلى الطائف.

وفي طريق العودة قدم راكب من خلف القافلة يخبرهم بعثورهم

على زيد بن عمرو مقتولاً ومسروقاً في الطريق.

حزن الجميع على فقدهم، وكان أكثرهم حزناً أبا بكر ومن ينبذ الأصنام معه، وكان عليهم إخبار أهله بالخبر الجلل.

وصلت القافلة مكة، كان الاستقبال حافلاً، وجميع الأهالي ينتظرون غائبهم حاملاً الأموال والهدايا، وكان سعيد بن زيد يقف بين الناس يبحث عن أبيه، كان يسأل القافلة رجلاً رجلاً: هل تأخر والدي عنكم؟ أهو في الطريق؟

كان الرجال بين من يشيح بوجهه وبين من يخبره أنه لا يدري ولم ير أباه، إلى أن سأل رجلاً: أين هو والدي زيد بن عمرو؟ هل تأخر عنكم؟ فوضع الرجل يده على كتف سعيد بن زيد الذي جرت في جسده رعشة، قال الرجل: يا بني، والدك قد تعرض له قطاع الطرق بينما كان يسير وحده.

قال سعيد: هل أسروه؟ هل سرقوه؟

سكت الرجل قليلاً ثم قال: لقد وجده الرجال مقتولاً، أنا آسف. لم تستطع قدما سعيد أن تحمله، فهوى على الأرض، لقد كان ما يخشاه، لقد مات والده، مات لأنه يسير وحيداً، مات لأن قريشاً تنبذته ولا تؤمن بما يؤمن.

بدأ سعيد يبكي وسط القافلة، حزن الجميع على الصبي اليتيم،
اقترب منه أبو بكر وعثمان بن عفان، جلسا إلى جانبه يشاركانه
حزنه، قال عثمان: يا سعيد، فلنعد إلى المنزل.

قال أبو بكر: سنسير معك، إذا احتجت أي شيء فلا تتردد في
القدوم إلينا.

ساعداه على النهوض، وسارا معه قليلاً فاستوقفهما عمر بن
الخطاب وقال: سأصطحبه بنفسى إلى المنزل، إنه ابن عمى^(١).

تعجب سعيد بن زيد، حيث كان عمر بن الخطاب وأباه من أشد
المعادين لوالده، ولكنه اصطحبه فعلاً إلى المنزل، وأخبر أمه وأخته
الخبر بهدوء وعزاء، ووضع الخلاف وراءه وقال: سعيد من أشرف
بني عدي، لن نترككم في حاجة أبداً.

عانقت أم سعيد طفليها تبكي زوجها، وخانتها كل الكلمات،
فالتفت عمر ليغادر، فقالت له: شكراً لك، ومبارك مولودك الأول.

نظر عمر إليها وقال: هل ولدت زوجتي؟

قالت: طفلة جميلة.

اتجه عمر بن الخطاب إلى منزله مسرعاً، دخل على زوجته^(٢)

(١) زيد بن عمرو ابن عم عمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد هو ابن ابن عم عمر.

(٢) زينب بنت مضعون، صحابية، زوجة عمر بن الخطاب وأم حفصة بنت عمر.

ينادي سعيداً: أين ابنتي؟

حملت زوجته ابنته تستقبله، فرح عمر بها وقال: هذه حفصة، حفصة بنت عمر بن الخطاب.

اتجه أبو بكر إلى منزل صديقه العزيز محمد ﷺ ليسمع عن أخباره وأخبار مكة في غيابه، فخرج إليه محمد ﷺ سعيداً به جداً، ويحمل بين يديه ابنته الرضيعة، بارك له أبو بكر الطفلة الجميلة، وأخبره محمد ﷺ أنه أسماها فاطمة، فقال أبو بكر: إنها أكثر بناتك شبهاً بك.

عندها قفزت زينب ورقية وأم كلثوم يتحلقن حول أبي بكر وأختهم الصغيرة، قالت زينب: كيف كانت الرحلة يا عمي أبا بكر؟ ابتسم أبو بكر سعيداً بهن وقال: كانت جيدة، وقد أحضرت لكن الكثير من الهدايا.

قفزت رقية تقول: هل هناك ثياب؟

اتجه أبو بكر إلى دابته وقال: أفضل الثياب لكن.

وبدا بإخراج الثياب والهدايا للجميع، ثم دخل في زيارة قصيرة ليتبادلا الأخبار، ورحبت به السيدة خديجة، وقدمت له الحساء

والطعام ليستريح من عناء السفر. أخبر أبو بكر محمداً ﷺ عن وفاة زيد بن عمرو، فحزن عليه كثيراً، وكما أخبر محمد ﷺ أبا بكر أن هذا العام كان صعباً على أهل مكة، وقد عم القحط مكة وما حولها، والجميع ينتظر القوافل التجارية. ثم استأذن أبو بكر ليعود إلى منزله.

كان حزن سعيد بن زيد كبيراً على والده، وشعر بوحدة كبيرة، فقد كان والده قد اعتزل القبيلة والجميع من أجل الإله الواحد. وفي الليل تذكر صديق والده العزيز، ورقة بن نوفل، هو الوحيد الذي يملك العزاء الحقيقي لمصابه.

خرج مسرعاً إلى صومعة ورقة بن نوفل، الذي بات شيخاً كبيراً قد ضعف بصره، استأذنه في الدخول، فخرج ورقة والحزن باد عليه ينظر في سعيد ويقول: من أنت أيها الصبي؟

قال: أنا سعيد بن زيد، ابن زيد بن عمرو.

فرفع ورقة بن نوفل رأسه إلى السماء، وبدأت الدموع تسيل من عيون الضريبة، وقال: رحم الله أباك، لقد كان مخلصاً للإله الواحد.

ثم نظر إلى سعيد وقال: تعال يا بني، ادخل.

دخل سعيد وقد شعر بالعزاء في دموع ورقة الصادقة، قال

سعيد: يا عمي، لقد جئت إلى هنا لأعزي نفسي في والدي، فقد نبذته
قريش، وليس له صديق حقيقي غيرك.

فقال ورقة بن نوفل:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما
تجنبت تنوراً من النار حامياً
بدينك رباً ليس رب كمثلته
وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته
ولم تك عن توحيد ربك ساهياً
فأصبحت في دار كريم مقامها
تلاقي خليل الله فيها ولم تكن
من الناس جباراً إلى النار هاوياً
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه
ولو كان تحت الأرض سبعين وادياً
أتلج الشعر صدر سعيد، كم هو جميل أن يؤمن أن أباه سعيد
وآمن عند الإله الذي عبده وضحي من أجله.

في اليوم التالي، التقى محمد ﷺ عمه أبا طالب، وقد لاحظ عليه
ضيق الحال، وهو يحاول الاقتراض ليطعم عياله الكثير، فذهب
محمد ﷺ إلى عمه العباس، وكان من أيسر بني هاشم، فقال له: يا
عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من
هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه

رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه.

فقال العباس: نعم نفعل.

فذهب محمد ﷺ مع عمه العباس بن عبد المطلب إلى أبي طالب،
دخلا عليه فقال له محمد ﷺ: لقد بت كثير العيال، وأنا نريد أن
نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، آخذ أحداً
من أولادك أربيه، والعباس يأخذ ولداً يربيه.

فقال أبو طالب: إذا تركتما عقيلاً فاصنعا ما شئتما.

فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب، وقد كان جعفر يقارب
السادسة عشرة، أما محمد ﷺ فقد اختار علياً بن أبي طالب، وقد كان
يبلغ الخمس سنوات.

فبذلك تربي علي بن أبي طالب في منزل محمد ﷺ الذي كان قد
تربي في منزل أبيه أبي طالب، وقامت السيدة خديجة بالعناية بعلي
وتربيته وضمه إلى أبنائها.

كما كانت تقوم على العناية ببنتها الأربعة، وابنها هند،
والزبير بن العوام، وزيد الذي تبنيه.

كان علي بن أبي طالب الأسعد بصحبة ابن عمه محمد ﷺ،

فكان محمد ﷺ يقربه ويخصه، ويضعه في حجره، ويضمه إلى صدره، ويضمه في فراشه، وكان محمد ﷺ يمضغ الطعام ثم يلقمه علياً.

وكان علي يتبعه أينما ذهب، ويراقبه في كل أفعاله وأقواله يتعلم منه، ويعجب به، فأخذ من أخلاق محمد ﷺ الذي كان يأمره بالافتداء به، وعلم منه أن الأصنام لا تضر ولا تنفع، وأن معبوده هو خالقه، فلم يسجد علي لصنم قط.

حتى أنه كان يلاحظ أن محمداً ﷺ يقف على عرفة في الحج، بينما حرّم القرشيون الوقوف على عرفة لأنفسهم، ولم يبق إلا القليل ممن تمسك بشعائر النبي إبراهيم ﷺ.

في وقت المغيب، كان أبو بكر يرتب أمتعته ليغادر السوق، فاقترب منه ابن أخيه طلحة بن عبيد الله^(١) الذي كان في الحادية عشرة من العمر يقول: عمي أبا بكر، هل ستعود إلى المنزل؟

أجاب أبو بكر: سأمر على صديق لي أولاً، هل تحب أن تأتي معي؟

أشار طلحة بالإيجاب، فقد كان يحب عمه أبا بكر كثيراً،

(١) طلحة بن عبيد الله، صحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، له دور في السيرة كاملة.

ويحب حديثه والسير معه، كما كان يلعب كثيراً مع أولاده.

اصطحب أبو بكر ابن أخيه طلحة معه إلى صديقه، ولكن طلحة لاحظ أنهما ذاهبان إلى حيث يدفنون الموتى، فقال: عمي، إلى أين نذهب؟

ابتسم أبو بكر وقال: إلى صديق عزيز.

قال طلحة: لا يسكن هنا إلا أبو عبيدة بن الجراح^(١)، أسمع معوله يحفر قبراً.

قال أبو بكر: هل يخيفك هذا؟

قال طلحة: لا أخشى أبا عبيدة، فهو لطيف وبشوش دائماً، ولكنني لا أحب حديث الموتى.

أما أبا عبيدة بن الجراح، فقد كان منشغلاً بالحفر بذراعيه القويتين، كان طويلاً ونحيفاً وخفيف اللحية، يبلغ الخامسة والعشرين من العمر، سمع صوت خطوات خفيفة تقترب، فنظر فإذا به سعيد بن زيد يقترب بهدوء، توقف أبو عبيدة عن الحفر وقال: ألسنت ابن زيد بن عمرو؟

أشار سعيد بالإيجاب، كان وجهه هادئاً وحزيناً، تعجب أبو

(١) أبو عبيدة بن الجراح، صحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، له دور في السيرة كاملة.

عبيدة لقدمه إلى هنا، فقد مات أبوه خارج مكة، ولم يدفنه هنا، قال

أبو عبيدة: تفضل يا صغيري، هل لك حاجة؟

قال سعيد: تمنيت لو دفن والدي هنا، بين أهله وفي بلاده.

ابتسم أبو عبيدة، وسكب ماء ناوله إلى سعيد ليشرّب ويجلس،

قال: ألم يكن والدك يؤمن بالإله الواحد مالك كل شيء؟

قال سعيد: بلى، آمن به بكل جوارحه، وعاش حياته من

أجله.

قال أبو عبيدة: ألم يؤمن والدك أن هناك جنة يذهب إليها بعد

الموت؟

نظر سعيد إلى أبي عبيدة وقال: هل تؤمن بذلك؟

نظر أبو عبيدة إلى القبور من حوله ثم قال: يا صغيري، ألا ترى

هذه القبور؟ إنني أحفرها منذ زمن، هل تظن أن هذه هي نهاية

الإنسان؟ تلده أمه، ويكبر ويشتد ساعده، ويتعلم ويقاقل، ويفكر

ويتأمل، يبني ويهدم، يعدل ويظلم، ثم يموت، ثم يذهب هباء.

سأله سعيد: هل تؤمن بالجنة والنار يا أبا عبيدة؟

قال أبو عبيدة: لا أظن أن المرء يذهب هباء، أما أبوك فقد آمن

بالجنة، وسيجد نتيجة ما آمن به.

قال سعيد: هل تظن أنه في الجنة؟

قال أبو عبيدة: ما أظنه أنه ليس مهماً إذا ما دفن هنا أو في أي مكان آخر، فلا تحزن، كان أبوك صاحب خلق وعلم، وسيكون بخير.

قال سعيد: هل تعلم أن والدي كان على موعد مع نبي آخر

الزمان، كان ينتظره ويؤمن به؟

سكت أبو عبيدة برهة ثم قال: هل جلس إلى نبي؟

أشار سعيد بالنفي وقال: أحزن عندما أذكر كم كان يحبه وينتظره، ويؤمن به ويتحدث عنه، ولكنه لم يجده بعد، ولن يجده أبداً.

عندها لمح أبو عبيدة صديقه أبا بكر مع صبي صغير يقتربان، قال أبو عبيدة: أهلاً بالتاجر الكبير أبا بكر، وأهلاً بمن يصطحب.

قال أبو بكر: أعانك الله على عملك يا أبا عبيدة، لمن تحفر الآن؟

قال أبو عبيدة: شخص لا تعزي قريش بوفاته، إنها أمة تعمل

لدى الوليد بن المغيرة، بخل عليها حتى أن يدفع ثمن قبرها.

قال أبو بكر: تحفره لها بالمجان؟

قال أبو عبيدة: إن لم أفعل فستأكلها الذئاب.

عندها رأى أبو بكر سعيداً، فقال: أهلاً بك يا سعيد، هل أنت

بخير؟ هل أمك وأختك بخير؟

أشار سعيد بالإيجاب، فقال طلحة: آسف يا سعيد لما جرى،
تستطيع القدوم إلينا متى تشاء.

شكر سعيد أبا بكر وطلحة، واستأذن في العودة إلى المنزل، فقال
أبو بكر: أنت تعلم يا سعيد أننا لن نبخل عليك في ما تشاء، لقد كان
أبوك مقرباً منا جمعياً.

شكر سعيد أبا بكر ثانية، لقد كان هو وأبو عبيدة وحتى عمر
بن الخطاب كريمين معه، كذلك محمد ﷺ وعثمان بن عفان، وعبد
عمرو بن عوف، لم يبخل أحدهم في المساعدة، ولكنه ما يزال يشعر
بعظيم فقدته، وخيبة الأمل أن مات والده وحيداً دون أن يلتقي النبي
الذي ينتظر.

ولدت هند بنت عتبة لأبي سفيان صبيهاً أسمياه معاوية، فكان
معاوية بن أبي سفيان، حملته هند تلاعبه يوماً أمام منزلها، فمر
عليها أعرابي ذو فراسه، فحدق في الطفل وقال: إنني لأرى طفلاً إن
عاش ليسودن قومه.

ابتسمت هند وقالت: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله.

١٨هـ | ٦٠٤م

إعادة بناء الكعبة

كان عمار بن ياسر جالساً إلى والديه ينظر من النافذة إلى السماء
الممطرة، قال لأبيه: المطر يهطل بغزارة!

قال ياسر بن عامر: لا بد أنها ستهدأ بعد حين.

كذلك كان عثمان بن عفان يجلس إلى صديقه عبد عمرو بن عوف
ينظران إلى السماء الممطرة، قال عثمان: لم أشهد أمطاراً بهذه الغزارة
من قبل!

ابتسم عبد عمرو يقول: إذا ما ظلت الأمطار تهطل هكذا،
ستصبح في مكة غابات كغابات الشام.

نظرت السيدة خديجة من النافذة تقول لزوجها: بت أشعر
بالقلق، إذا ما استمرت الأمطار هكذا فستهدم منازل الفقراء.

عندها رأت رجالاً يحملون أمتعتهم ينقلونها مسرعين، خرج

زيد بن محمد يسألهم: إلى أين تذهبون؟

قال الرجل: ستتشكل السيول، اصعدوا إلى الجبال.

حمل الجميع ما يستطيعون حمله من أمتعتهم وحليهم ونقودهم إلى الجبال، وراقبوا الأمطار الغزيرة تشكل سيولاً تضرب الحجارة وتهدم المنازل.

تحلقت الأنظار نحو الكعبة، حيث كانت السيول تضربها بشدة، وبدأت تتشقق وتتصدع.

انتظر الجميع إلى أن هدأت الأمطار، فنزلوا الجبال وبدأ كل منهم يقيّم خسارته في منزله ومتاعه، فقد تهدمت بعض البيوت عن آخرها، وأصيبت جدران الكعبة بالتلف.

عادت السيدة خديجة مع بناتها الأربعة ينظرن إلى ما حل بالبيت، واتجه محمد ﷺ إلى الكعبة، والتقى بوجهاء قريش القلقين على حالها.

صرخ عمرو بن هشام: لقد سُرقت الكعبة! الغزال الذهبي قد اختفى، والجواهر، لقد استغل اللصوص السيول.

قال أبو سفيان بن حرب: لم يعد وضع الكعبة جيداً، وأبوابها قد تصدعت جميعاً.

قال أبو طالب: انظروا إلى هذا الجدار، إنه متصدع بالكامل،
سيسقط في أية لحظة.

قال الوليد بن المغيرة: علينا أن نفعل شيئاً، لقد تأذت الكعبة
من السيول بشكل كبير.

قال سهيل بن عمرو: علينا أن نعيد ترميم الجزء المتضرر من
السيول.

قال أبو لهب: الترميم صعب، الجزء المتضرر كبير، ولن تصمد
الجدران المتبقية أيضاً.

قال عتبة بن ربيعة: هل تقصد أن علينا إعادة البناء؟

سكت الجميع، من يجرؤ على هدم الكعبة؟

قال الوليد بن المغيرة: لنعقد اجتماعاً في دار الندوة، علينا أن
نقرر ما سنفعل.

اجتمع الوجهاء من كل قبيلة في دار الندوة، وتحاوروا وتشاوروا
في الأمر، كان من الواضح أن الترميم ليس خياراً، كان عليهم أن يعيدوا
البناء.

قال الوليد بن المغيرة: إذن لقد اتفقنا على إعادة البناء، ولكن من

منا يجيد البناء الحجري؟

سكت الجميع ، فقال عتبة بن ربيعة: البناء بالحجر والخشب هو تخصص أهل الشام، هلا سأل أحدكم صهيباً الرومي إذا ما كان يجيد البناء؟

استدعوا صهيباً يسألونه، ولكنه قال: نعم، البناء بالحجر والخشب معروف في الروم، ولكنني لم أكن أساعد في البناء، وليست لدي خبرة فيه، ولكنني سمعت عن رجل حضر من الروم، أظنه يتقن البناء.

سأل أبو طالب صهيباً: لماذا تغيب عبد الله بن جدعان عن الاجتماع المهم؟

قال صهيب: إنه في حالة صحية سيئة، وسأعلمه بقراراتكم، كما سيشارك في أي أموال تخص بناء الكعبة.

قال عمرو بن هشام: فلنستدع الرومي ونسأله، كما أننا بحاجة إلى الخشب.

قال أبو سفيان: لقد سمعت عن سفينة رومية تحطمت على الميناء منذ بضعة أيام، قد يفيدنا خشبها.

قال الوليد بن المغيرة: سأذهب بنفسي مع بعض الرجال ننظر في

أمر الخشب، لعلنا نجد بنائين ماهرين أيضاً.

حزم الوليد بن المغيرة رحاله ورجاله، واتجه نحو الشاطئ حيث تحطمت السفينة الرومية، وفعلاً وجد هناك الكثير من الخشب، وبعض الرجال من الروم، ساومهم على الأخشاب والبناء إلى أن وصلوا إلى اتفاق، وحمل الأخشاب وبعض الرجال عائداً بهم إلى مكة.

اجتمع البنائون الروم مع وجهاء قريش يشرحون لهم طريقة البناء بالخشب والحجر، وكم حجراً سيحتاجون، وكم من الخشب سينقلون، وأوضحوا لهم أن الخشب الذي حصلوا عليه قد لا يكفي لإعادة بناء الكعبة في حجمها الكبير، قد يضطرون لبنائها بحجم أصغر.

كان هذا ما حصلوا عليه من الخشب، وليس لديهم خيار آخر، فقال أبو لهب: فلنبن ما نستطيع بناءه، الكعبة في حالة سيئة جداً. قال عتبة بن ربيعة: اتفقنا، اجمعوا الرجال لنقل الحجارة والأخشاب، بينما نقوم...

سكت عتبة بن ربيعة، وصمت الجميع، نعم عليهم هدم الكعبة، ولكن من يجرؤ على ذلك؟

خرج الرجال من دار الندوة ووقفوا أمام الكعبة المتصدعة، لا يستطيعون تركها على هذه الحال، كلما نظروا إليها أيقنوا أن لا بد من الهدم وإعادة البناء.

دب الخوف في نفوس الرجال، قد لا يرضى الله عما يفعلون، قد ينالهم غضب وسخط من الرب، فماذا يفعلون؟

قال أبو طالب: لا نستطيع هدم الكعبة، الرب الذي حماها من أبرهة الأشرم سيرسل علينا سخطه بكل تأكيد.

قال سهيل بن عمرو: ولكننا لا ننوي هدمها، إننا ننوي إعادة بنائها، انظر إليها كيف تصدعت.

سكت الجميع، وأخيراً تقدم الوليد بن المغيرة بقدم ثابتة، وأمسك الفأس ووقف أمام الجميع وقال: الله يعلم ما ننوي فعله، أنا أبدأكم.

ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك تعلم أننا لا ننوي إلا الخير.

ورفع فأسه وضرب جدار الكعبة من إحدى زواياها المتصدعة، جفل الجميع وعم التوتر، توقف الوليد بن المغيرة لحظة، لم يحدث شيء، إنه بخير والحجر على الأرض، فكرر ضرب الجدار إلى أن أسقط

جزءاً كبيراً منه وسط زهول ورهبة الجميع ، وتوقف ينظر إلى الحجارة على الأرض ، وهو بخير ولا يشعر بشيء ، فنظر إلى الرجال وقال : لقد علم الله ما نعمل ، وأظنه قد رضي .

فقال عمرو بن هشام : لربما حل السخط بعد حين .

سكت الوليد بن المغيرة ، فقال عتبة بن ربيعة : ننظر الليلة ، إن لم يحل علينا السخط والغضب فقد رضي الرب عما نفعل ، ونتابع في الغد .

اتفق الرجال على ذلك ، وغادروا إلى منازلهم ينتظرون الغد ، ويراقبون الوليد بن المغيرة وما سيحل به وبالكعبة .

عاد الوليد إلى منزله ، فركض إليه ابنه خالد بن الوليد يقول :

أصحيح يا أبي ما سمعنا؟ هل ضربت جدار الكعبة؟

قال الوليد : بل أعيد بناءها ، والآلهة تعلم ما أفعل ذلك إلا

لخير .

قال الوليد بن الوليد^(١) : ألا تستطيعون ترميمها بدلاً من هدمها

يا والدي؟

(١) الوليد بن الوليد بن المغيرة ، أخو خالد بن الوليد ، له دور صغير في السيرة .

قال الوليد: كلنا على اتفاق أن الترميم لن يصلح.
قال عمارة بن الوليد^(١): سمعت أنكم أحضرتم خشباً من الشام.
قال الوليد: بل هي سفينة رومية متحطمة، حملنا ما استطعنا
من أخشابها إلى مكة.

قال الوليد بن الوليد: ومن سيقوم بالبناء؟
قال خالد بن الوليد: كلنا سنعمل على البناء، إنه الشرف وكل
الشرف.

قال الوليد لأبنائه: عليكم أن تعملوا جميعاً لإعادة البناء، ولكن
دعوني الآن آخذ قسطاً من الراحة.

كانت ليلة طويلة تحبس الأنفاس، ولكنها كانت هادئة، وحل
الصباح وخرج الوليد بن المغيرة متجهاً إلى الكعبة، حاملاً فأسه يقول:
يا أهل قريش، رضي الله عما نفعل!
فرح الرجال، وحملوا فؤوسهم، وساعدوا الوليد بن المغيرة في
الهدم.

هدموا حجارة الكعبة المتصدعة إلى أن وصلوا الأساسات التي بنى

(١) عمارة بن الوليد بن المغيرة، أخو خالد بن الوليد، له دور صغير في السيرة.

عليها إبراهيم ﷺ. كانت الأساسات حجارة خضراء، وضع رجل عتلة حديدية ليقلع بها الحجر الأخضر، وما إن حركها حتى اهتزت مكة بأسرها، ولع برق ساطع تحت الحجر، ففزع الجميع، وأوقفوا الهدم إلى هذا الحد.

وأثناء الهدم، وجد الرجال في الركن كتاباً بالسريانية، فلم يعرفوا ما هو، فبعثوه إلى رجل من اليهود يتقن اللغة ويعلم من العلم الكثير، فقال لهم: مكتوب هنا أنا الله ذو مكة، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة ملائكة حنفاء، لا تزول حتى يزول جبالها، مبارك لأهلها في الماء واللبن. أنا الله ذو مكة، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته. أنا الله ذو مكة، خلقت الخير والشر وقدرته، فطوبى لمن أجريت الخير على يديه وويل لمن أجريت الشر على يديه.

ابتهج القرشيون بالكتاب، واحتفظوا به، ثم استعد الرجال للبناء، فقام رجل بحمل حجر ينقله ليضعه على أساسات الكعبة، فوثب الحجر من يده وعاد إلى مكانه، جفل الرجال، فقام الوليد بن المغيرة يقول: يا معشر قريش! لا تتشاجروا ولا تتحاسدوا في بناء الكعبة، وقسموها أرباعاً، لكل قبيلة أو أكثر جدار، ولا تدخلوا في

بنائها مالا حراماً، لا تدخلوا في بنائها إلا طيباً، ولا تدخلوا فيه مهر
بغي، ولا زنا، ولا مظلمة أحد.

فعلاً اتفقت القبائل على تقسيم البناء حتى لا يتشاجروا فيما
بينهم في شرف بناء الكعبة، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة،
وكان ما بين ركن الحجر الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل
من قريش انضموا إليهم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار وبني أسد
وبني عدي، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم.

وبدأت القبائل تجمع الحجارة، كل على حدة، وشارك الجميع
في العمل، وكان الرجال يحملون الحجارة اثنين اثنين، وكانت النساء
يحملن ما يطفى به الحجر.

كانت هند بنت عتبة تشرف على جمع الطلاء، وتحث النساء
على المشاركة في شرف بناء الكعبة، وشارك محمد ﷺ وعمه العباس
بن عبد المطلب في نقل الحجارة، وكعادة الشباب في قريش، كانوا إذا
آذت الحجارة أكتافهم، خلعوا ملابسهم ووضعوها على أكتافهم لتقيها
من أذى الحجارة.

خلع العباس ثيابه وحمل الحجارة، وخلع محمد ﷺ ثيابه
ليحمل الحجر، ولكنه لحظتها خرّ على الأرض، ألقى العباس حجره

وركض مسرعاً إلى ابن أخيه يطمئن عليه، فرآه ينظر إلى السماء فوقه،
فقال العباس: ما شأنك؟ ماذا حدث؟

فقام محمد ﷺ، فأخذ ثيابه وقال: نُهيتُ أن أمشي عرياناً.
وتابعا العمل، يرتدي محمد ﷺ ثيابه، وكنتم العباس ما جرى
ولم يخبر أحداً به مخافة أن يُتهم بالجنون.

أنهت القبائل بناء الجدران، وقصرت عليهم الأخشاب والنفقة
في بنائها على أساسها الأول، فبنيت أصغر من السابق، وجعلوا للكعبة
باباً واحداً من الناحية الشرقية، وجعلوه مرتفعاً ليصعب الدخول
إليها.

ثم وقفوا أمام الحجر الأسود، كل القبائل تعلم أن الشرف الكبير
سيكون في وضع الحجر الأسود، حتى وإن تقاسمت القبائل بناء جدران
الكعبة، فإن الحجر الأسود كان أعظم الشرف.

قال الوليد بن المغيرة: بما أن بني مخزوم قاموا بدفع المبلغ
الأكبر في بناء الكعبة، فأرى أن من حقنا أن نضع الحجر الأسود.
قال عتبة بن ربيعة: ليس كل شيء يقاس بالمال، شرف الحجر
الأسود هو شرف لقريش كلها.

قال أبو لهب: تعلمون أن بني هاشم هم خدام البيت، وإليهم تعود أمور الحج والسقاية، أرى أننا أحق من يضع الحجر الأسود. قال أبو سفيان: لا شيء يبرر شرف وضع الحجر الأسود، هذا شرف لا يجب أن يخرج من بني أمية.

وكذلك اختلفت جميع القبائل وتشاحنوا، واحتد الجدال، حتى كادت تندلع نيران الحرب بين القبائل، وتحالفت قبائل على الدم، وبقي الخلاف أربع ليال، لم يستطع أحدهم ترجيح قبيلة على أخرى.

كانت هند بنت عتبة جالسة إلى زوجها أبي سفيان يتحدثان في أمر الحجر الأسود، سألت: هل من جديد بشأن الحجر الأسود؟ قال أبو سفيان: ليس من جديد، نقاش وجدال وشجار، ونار الحرب تلوح في الأفق.

قالت هند: لا يجب أن يضيع مثل هذا الشرف عن بني أمية، والدي لن يتنازل مهما حصل.

قال أبو سفيان: لا أريد ذلك أيضاً، كما لا أحب أن أرى الأقرباء يتقاتلون.

قالت هند: لا تضعف ولا تفوت الشرف العظيم.

قال أبو سفيان: لستُ ضعيفاً يا هند، إنما هم إخوة وأولاد عمومة، إذا اندلعت الحرب فسيكون وقعها صعباً على الجميع. كذلك رجع أبو سلمة^(١) إلى زوجته أم سلمة^(٢)، فاستقبلته بابتسامة رقيقة، وساعدته على استبدال ثيابه وسألته: كيف كان البناء اليوم؟

قال: ما يزال الرجال مختلفين.

قالت: هذا خلاف يصعب حله، ماذا قال بنو مخزوم؟

قال: طبعاً لن يتنازل أحد منهم عن هذا الشرف العظيم.

سكتت أم سلمة قليلاً، فقال لها زوجها: إنك صاحبة رأي

حكيم وعقل سليم، ماذا ترين؟

هزت أم سلمة رأسها وقالت: عليهم برأي ليس منهم، شخص

حكيم محايد إلى حد كبير، يثقون به ويأتمرون بأمره ولا يردون

قراره، وإلا فهي الحرب يا زوجي وغضب الله علينا جميعاً.

أشار أبو سلمة بالإيجاب وقال: ولكن من لقريش برأي حكيم لا يُرد؟

(١) عبد الله بن عبد أسد، أبو سلمة، صحابي، أخو النبي في الرضاعة، ابن عمه النبي برّة، له دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٢) هند بنت أبي أمية، أم سلمة، أم المؤمنين، لها دور أساسي في السيرة كاملة.

في اليوم الخامس اجتمع رؤساء القبائل عند الكعبة، وما يزالون مختلفين متشاحنين، فوقف أكبر أهل قريش سناً^(١) ليحل الخلاف وقال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه.

نظر بعضهم إلى بعض، سيحكم بينهم رجل لا يعلمون من سيكون، وإلى أي قبيلة ينتمي، ولكن الخلاف كان شديداً حيث يرجو الجميع أن لا تندلع الحرب، قال عتبة بن ربيعة: نعم نفعل.

قال الوليد بن المغيرة: نوافق.

قال أبو طالب: نعم، لا نريد حرباً بيننا.

هكذا وافقت القبائل، وجلسوا ينظرون إلى المدخل، من سيكون أول الحاضرين.

حُبست الأنفاس، وكل قبيلة تتمنى أن يحضر رجل منها يحكم لصالحها، وكانت دقائق طوال إلى أن لمح الرجال شخصاً يسير مقرباً، إنه يدخل، إنه محمد بن عبد الله ﷺ.

قفز عتبة بن ربيعة وقال: هذا الأمين! رضيينا.

قال الوليد بن المغيرة: محمد بن عبد الله، رضيينا به محكماً.

(١) هو أبو أمية بن المغيرة، أخو الوليد بن المغيرة، سيذكر في هذا الموضع فقط.

قال أبو طالب: هو أفضل من يحكم.

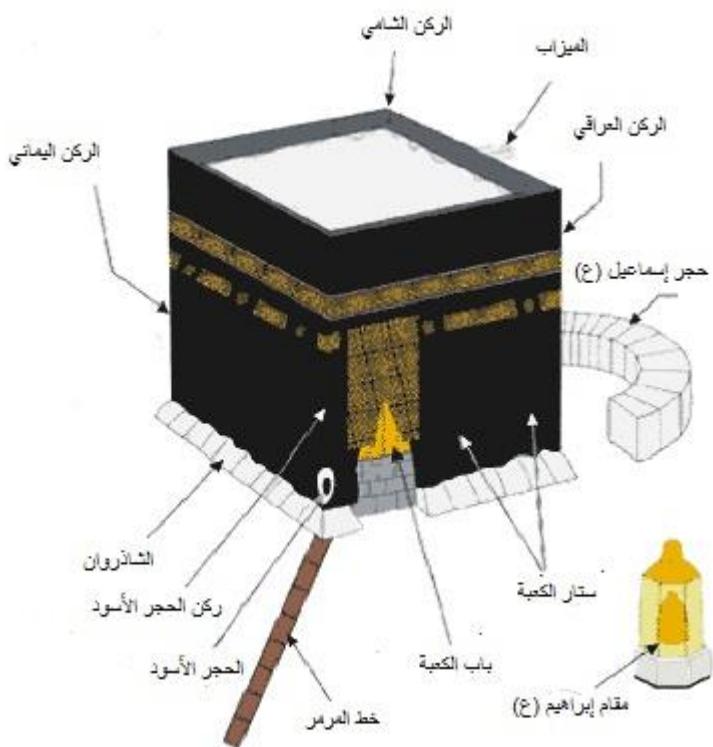
واقترب الرجال من محمد ﷺ، وشرحوا له خصومتهم في الحجر الأسود، وبيّنت كل قبيلة أحقيتها في وضعه والحصول على الشرف الكبير.

كان محمد ﷺ هادئاً، استمع إلى الجميع، وتركهم يتحدثون في رغبتهم الشديدة في الحصول على هذا الشرف إلى آخر رجل منهم، بعدها قال بهدوء: هلموا إليّ ثوباً.

فأحضروا له ثوباً، فأخذ الحجر بيديه ووضعه في الثوب، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعه جميعاً. ففعلوا، ورفع من كل قبيلة رجل، حتى بلغوا موضعه، فحمله محمد ﷺ بيديه ووضعه في مكانه، وبني عليه.

هكذا رضي الجميع، وكان شرف الحجر الأسود موزعاً بالتساوي بين جميع القبائل، وحقنت الدماء وهذا الجميع. بذلك أتمت قريش إعادة بناء الكعبة، فكانت ثمانية عشر ذراعاً، وقاموا بكسوتها، وأعادوا لها هيبتها بين العرب.





١٦هـ | ٦٠٦م

غار حراء

سعد بن أبي وقاص^(١)

وفاة عبد الله بن جدعان

جلس محمد ﷺ إلى زوجته السيدة خديجة يخبرها عن شيء غريب بات يحدث معه، فقد بات يرى في المنام رؤى تتحقق كما رآها تماماً، وقد تكرر هذا بشكل ملفت، فابتسمت وقالت: أبشر، والله إنه لخير أريد بك.

ثم تحدث إليها عن ضلالات قريش، وعبادة الأصنام، والظلم العام، والاستعباد، فكانت توافقه على كل ما يقول، وتناقشه أن قومها

(١) سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة المبشرين بالجنة، له دور أساسي في السيرة كاملة.

قد غيروا دين إبراهيم وإسماعيل، وتركوا بعض شعائر الحج.
أخبرها محمد ﷺ برغبته في اعتزال ما يفعل قريش، والذهاب
بعيداً في غار يفكر في الخالق، ويتقرب إلى الله، فقالت: أرجو أن
يهديك الله إلى خير، ونصبر على فراقك.

وقامت السيدة خديجة بتحضير الطعام والشراب الكافي لزوجها
حتى يقضي وقته في تعبد الخالق، فحضرت فاطمة ذات السنين تراقب
أمها وهي تحضر كمية من الطعام فسألت: من سيسافر يا أمي؟
قالت السيدة خديجة: والدك يريد أن يتعبد وحده.

سألت فاطمة: هل سيغيب طويلاً؟
قالت السيدة خديجة: ربما ما يقارب الشهر، لعله يجد ضالته.
قالت فاطمة: وماذا أضع؟

ابتسمت السيدة خديجة وربتت على شعر فاطمة تقول: لم يُضع
شيئاً يا حبيبتي، إنه يبحث عن هداية من ربه، ولن يضيعه ربه.
قالت فاطمة: هل أساعدك؟

شاركت فاطمة في وضع الطعام والماء، وحمل محمد ﷺ زاده،
وودع أهله، واتجه إلى جبال مكة وحده بعد أن أخبر صديقه أبا بكر
أنه سيغيب فترة من الزمن للتعبد، وأوصاه بالعناية بعائلته.

سار محمد ﷺ ما يقارب الأربعة كيلومترات إلى أن وصل جبلاً،
تسلقه ودخل غار حراء، وهو غار صغير يتسع لبضعة رجال، يصعب
الوصول إليه، له باب وفتحة صغيرة تطل على الكعبة، فكان يذهب
إليه أياماً يقضيها يتعبد الله وحده، يطلق نظره في السماء والأرض،
وفي كمال الخلق واتزانه، يعظم الخالق ويدعوه في كل هدوء وخشوع.

في مكة كان الرجال مجتمعين حول فرس هائج، يلقي بكل من
يحاول ترويضه، كان الجميع يضحك مستمتعين، وبدؤوا يرمون النقود
يقامرون على الحصان، إلى أن قال الوليد بن المغيرة: أراهن أن ابني
خالداً يستطيع ترويض الفرس.

اشتدت الإثارة أكثر، واقترب خالد من الفرس الجامح، وبعد
مراوغات قصيرة استطاع انتطاء ظهره، وتشبث به والحصان يركل هنا
وهناك، حتى ابتعد الناس ينظرون من بعيد، وخالد ما يزال متنشئاً.
بعد فترة بدأ الحصان يتعب ويهدأ، وبدأ خالد يسيره كما
يشاء، واستطاع التحكم في الحصان، فقال الوليد: ربحت الرهان، هذا
فارس بني مخزوم خالد بن الوليد.

وجمع الوليد نقوداً كثيرة، بينما انطلق خالد بالفرس يرمي من

على ظهره السهام والرماح يصيب بها كل هدف ثابت ومتحرك.
كانت قريش سعيدة بفتى مثل خالد بينها، وكانت بنو مخزوم
تفخر به جداً، اقترب عمرو بن هشام إلى الوليد يقول: ابنك فارس لا
يستهان به، سيكون له شأن.

قال الوليد: لا أشك بذلك يا أبا الحكم^(١)، إنه زكي وقوي، قل
لي... ما حصل بعبد الله بن جدعان؟

قال عمرو بن هشام: أظنه يلفظ آخر أنفاسه.

قال الوليد: فمن سيكون سيد تيم من بعده؟

قال عمرو بن هشام: أظنه أبو قحافة^(٢)، فهو أشرفهم وأقربهم
للجميع، كما أنه يملك المال.

في دار عبد الله بن جدعان كان صهيب الرومي يجلس إلى فراش
سيده يعتني به ويسكب له الماء، ولكن عبد الله بن جدعان كان تعباً،
قال: لا بأس، لا أريد ماء.

بدأ صهيب يبكي، فقال عبد الله بن جدعان: لقد كنت نعم المولى
يا صهيب، والجميع يحبك، لست قلقاً عليك من بعدي.

(١) أبو الحكم هو لقب عمرو بن هشام، كما سيسميه النبي أبو جهل من بعد.

(٢) أبو قحافة هو والد أبي بكر الصديق، له دور صغير في السيرة.

قال صهيب: لا تَمُتْ يا سيدي، أنت أفضل سيد عملت معه، لا تتركني.

ابتسم عبد الله بن جدعان وقال: اصدقني القول يا صهيب، أنت لست عبداً، لقد كنتَ شريفاً في بلادك أليس كذلك؟

قال صهيب: بلى، لقد كنت ابن عامل كسرى، وقد أغار الروم علينا.

قال عبد الله بن جدعان: ولم لم تعد إلى بلادك عندما أعتقتك؟

قال صهيب: أحببت البقاء إلى جوارك، فأنت كريم وشريف

وحكيم، كما أحببت مكة والكعبة، لن أغار هذا المكان.

قال عبد الله بن جدعان: احمل عني رسالة إلى سيد بني تيم من

بعدي أيأ كان، أنني أوصي بك خيراً.

بكى صهيب، فقال عبد الله بن جدعان: أنا لم أكن غنياً، ولم

يكن أحد يحبني في شبابي، ولكن تقلب الزمان وتغيرت الأحوال، أما

أنت فتملك المال والمحبة، لا تخش شيئاً، ستكون بخير.

بدأ عبد الله بن جدعان يضعف أكثر، فدخل عليه أبو بكر يعوده،

فنظر إلى حاله يلفظ أنفاسه الأخيرة، فقال أبو بكر لصهيب: هل أوصى؟

قال صهيب: فقط أوصى بي خيراً لسيد تيم من بعده.

جلس أبو بكر إلى جانب صهيب بهدوء، إلى أن لفظ عبد الله بن

جدعان آخر أنفاسه، فبكى صهيب كثيراً، وعانقه أبو بكر ثم قال:
الجميع ينتظرون في الخارج، كن قوياً يا صهيب.

خرج أبو بكر إلى الناس مجتمعة من بني تيم خارج المنزل،
وقال بهدوء: لقد قضى عبد الله بن جدعان سيد تيم، لقد كان كريماً
وشريفاً ومحوباً، وسيدكره الجميع بالخير.

بكت النساء، وحزن الرجال على مصابهم، واقترب أبو قحافة
يقول: نجتمع في المساء للدفن.

تفرق الجميع، ودخل أهل عبد الله بن جدعان منزلهم يجلسون
إلى جانبه، وقال أبو قحافة لأبي بكر: أخبر صديقك أبا عبيدة أن
يجهز قبراً لشريف بني تيم.

في المساء دُفن عبد الله بن جدعان، واجتمع بنو تيم ينصبون أبا
قحافة زعيماً عليهم، واقترب أبو بكر من صهيب وقال في الحاضرين:
صهيب الرومي من اليوم حليفي من بعد عبد الله بن جدعان، وهو حر
في أمواله وحياته، وقد أوصى به عبد الله بن جدعان خيراً، فليحسن
الجميع إليه.

سعد صهيب بما سمع، وقال لأبي بكر: أشرك يا سيدي أبا
بكر، أنت نعم الحليف.

قال أبو بكر: منزلي هو منزلك من اليوم يا صهيب، أنت من أهل البيت.

سعد صهيب أن السيادة باتت في آل أبي بكر، فقد كانوا كريمين وشريفيين وأصحاب خُلُق رفيع، وأكرمه أبو بكر وأحسن إليه.

دخل الزبير بن العوام على أمه صفية بنت عبد المطلب، فسألته: كيف كان العمل؟

قال الزبير: النجارة لا تروق لي.

قالت صفية: هذا متجر أبيك، ماذا تنوي أن تفعل؟

قال الزبير: سأبيع اللحوم، هذا يروق لي أكثر من النجارة.

ابتسمت صفية وقالت: هذا يروق لي أكثر من النجارة أيضاً،

فهي عمل لطيف لرجل مثلك.

شبَّ الزبير قوياً صلباً، كان طويلاً مائلاً إلى السمرة، كثير

الشعر، خفيف اللحية، لا يحب ما هو سهل ولطيف ورقيق، بل تعلم

الخشونة من بداية حياته، وركز على القتال والفروسية، وعمل في

الجزارة يبيع اللحوم.

بينما كان هناك صبي في الثانية عشرة يتعلم صناعة القوس والرمح، ويدرب نفسه على الرماية، ويشغل نفسه بها، يُدعى سعد بن أبي وقاص، استيقظ في الصباح الباكر، اتجه إلى حيث تجلس والدته^(١) تمسح أصنامها لتتعبد إليها يقول: صباح الخير يا أمي، هل كانت ليلتك جيدة؟

قالت: صباح الخير يا ولدي العزيز، لقد حلمت حلماً مزعجاً أرجو أن تجيرني الآلهة العظيمة منه.

تنهد سعد من تعلق والدته الشديد بالأصنام، ولكنه قال: هل تحتاجين إلى شيء؟ أنا خارج إلى السوق أصنع بعض السهام.

قالت: لقد طلبتُ إلى أخيك عامر^(٢) ما أحতاجه، لقد سبقك اليوم. حزن سعد، إنه وأخوه دائماً التسابق إلى الوفاء بالوالدة وطاعتها، فقال: سأمر في الظهيرة لأسألك إذا ما كنت بحاجة إلى شيء آخر، لا ترهقي نفسك.

قَبَل جبينها، وغادر وهي سعيدة وراضية عنه وعن أخيه البار. اتجه سعد بن أبي وقاص إلى السوق، وذهب إلى حيث يتعلم

(١) أم سعد بن أبي وقاص هي حمنة بنت سفيان بن أمية، لها دور صغير في السيرة.

(٢) عامر بن أبي وقاص، صحابي، أخو سعد بن أبي وقاص، له دور صغير في السيرة.

صناعة القوس والرمح، فوجد أبا بكر يشتري بعض الرماح، فركض إليه يقول: أهلاً بالتاجر الكبير أبي بكر.

ابتسم أبو بكر لسعد وقال: أهلاً بسعد، هل صنعتَ رمحاً جيداً
أشتريه منك؟

قال سعد: ليس أقل من الأفضل لك، لقد صنعتُ واحداً منذ ثلاثة أيام، تستطيع تجربيه.

أمسك أبو بكر الرمح وتأمله قائلاً: أنت تتقن الصنعة جيداً يا سعد، أظنك تفوقت على معلمك.

قال سعد: هل ستجلس إلى محمد اليوم؟ أريد أن أستمع منكما عن الخالق.

ابتسم أبو بكر وقال: لقد ترددت إلى لقاءتنا أكثر من مرة، أظنك لا تحب الأصنام يا سعد.

قال سعد: إن أمي تكثر التقرب إليها، ولا أجد لها نفعاً، أنا أحب أمي كثيراً، ولكنني لا أحب ما تفعل.

قال أبو بكر: كن كريماً مع أمك، إياك أن تغضبها، الشريف الكريم يكرم أمه ويعزها.

قال سعد: بكل تأكيد، كيف وجدتَ الرمح؟

قال أبو بكر: سأشتريه بأي ثمن تعرض، إنه متقن فعلاً، أما
عن محمد فقد خرج إلى الجبال يتعبد الخالق وحده.

قال سعد: يختلي بخالقه ليهديه؟

قال أبو بكر: نعم.

قال سعد: هذا جميل، أرجو أن يهديه الله إلى خير.

رَبَّتْ أبو بكر على كتف سعد وقال: إنه على خُلق عظيم،
وسيهديه الله إلى خير.

اشترى أبو بكر الرمح، وعاد سعد إلى عمله بين صناعة الرماح
والقوس، وبين تعلم الرماية واحترافها، وبين العناية بأمه والتنافس
مع أخيه على إرضائها.

بعد فترة عاد محمد ﷺ إلى مكة، وطاف حول الكعبة، ثم
اتجه إلى منزله، استقبلته السيدة خديجة بكل شوق، وكانت سعيدة
أنها ترى زوجها وقد حصل على السكينة التي يرجوها، وعاد سعيداً
مشتاقاً إليها وإلى أولاده.

لم تكن تلك المرة الأخيرة التي يعتزل فيها محمد ﷺ قومه
وأعمالهم الجاهلة، بل كرر عزلته في غار حراء، كما ساندته زوجته

السيدة خديجة في خلوته، تجهز له ما يكفيه من طعام وشراب،
وتعتني بالمنزل والأولاد في غيابه دون شكوى، وكانت إذا ما قلقت
عليه إذا تأخر في الغار تبعث إليه أحد الصبيان يطمئن عليه ويعود
على الفور.



١٤هـ | ٦٠٧م

مقدمات البعثة

كان الرجال جالسين يتسامرون في إحدى الليالي في ثقيف، فنظروا في السماء يقرأون النجوم، ولكن الليلة كانت مختلفة، فقد لاحظ غير واحد منهم أن هناك نجومًا تتقاذف في السماء، فحل الفزع بين الرجال، وبدؤوا يقولون: لا بد أن عظيمًا قد مات.

ويقول آخر: بل إن عظيمًا قد ولد.

وقال آخر: بل هو هلاك الدنيا.

وبدأ الناس ينحرون أنعامهم أو يسيبونها، ويعتقون عبيدهم خوفًا من هلاك الدنيا، إلى أن قال أحدهم: فلنذهب إلى سيد ثقيف يفتينا في أمر النجوم.

فذهبوا إلى رجل منهم كان أدهى العرب وأفضلها رأيًا، فقالوا

له: ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم؟

قال: بلى.

قالوا: فما تأولها؟

قال: انظروا، فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر، وتعرف بها الصيف والشتاء لما يصلح الناس في معاشهم، هي التي يُرمى بها، فوالله طي الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها، وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها، فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق، فانظروا ما هو، وأمسكوا عن أموالكم.

فكانت نجوم الهدى ثابتة، فتوقفوا وترقبوا.

في موسم الحج، خرجت قافلة من قبائل العرب متجهة إلى مكة، كان فيها رجل يدعى عمرو بن مرة الجهني^(١)، يبحث عن الخالق، ولكنه يعبد الأصنام مع قومه، فلما وصلوا مكة بات القوم على أطرافها، فرأى عمرو رؤيا في منامه، رأى نوراً ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب وأطراف قبيلته، وسمع صوتاً بين النور يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام!

استيقظ عمرو من نومه فزعاً، فسأله قومه عن حلمه، فقال لهم:

(١) عمرو بن مرة الجهني، سيذكر في مواضع قليلة متفرقة.

والله ليحدثنّ لهذا الحي من قريش حدث.

وأخبرهم الرؤيا، ولكنهم لم يروا شيئاً غير مألوف لهم في مكة،
أنهوا الحج وعادوا إلى قومهم.

في مكة كانت زينب بنت خزيمة^(١) جالسة إلى زوجها عبيدة بن
الحارث^(٢) ينظران في السماء حيث حركة النجوم الغربية، فسمعا طرق
الباب، فتحت زينب الباب فإذا به ولد يتيم يقول: يا سيدتي أم
المساكين، هل لي ببعض الطعام؟

قالت زينب على الفور: هل أنت وحدك؟

قال: اثنان من إخواني أيضاً ينامون دون عشاء، وأمي تحاول
إسكاتهم.

قالت: انتظر.

أسرعت زينب وأخذت طعاماً ونقوداً ولبناً مما وجدته عندها،
كما أسرعت إلى بعض الثياب التي كانت قد أنهت خياطتها البارحة
وأعطت كل ذلك للولد المسكين ليأكل ويطعم إخوانه، فشكرها الولد

(١) زينب بنت خزيمة، أم المؤمنين من بعد، أم المساكين، لها دور في السيرة إلى ما بعد
الهجرة.

(٢) عبيدة بن الحارث، صحابي، له دور بسيط في السيرة إلى غزوة بدر.

قائلاً: باركتك الآلهة يا أم المساكين.

وذهب سعيداً إلى أمه وإخوانه، بينما نظرت زينب إلى السماء
ثانية وقالت لزوجها: ها هو نجم آخر يتحرك في السماء.

قال زوجها عبيدة بن الحارث مبتسماً: يبدو أنه رآك تطعمين
المساكين، فتحرك لينزل إلى جوارك.

ابتسمت زينب وقالت: من للمساكين يا زوجي؟ إن قريشاً تقسو
على الأرامل واليتامى.

قال سعيداً بها: باركت لنا السماء ما تفعلين.

ولكن زينب فعلاً كانت قلقة من حركة النجوم الغريبة، هناك
حدث جمل بلا شك، قال لها عبيدة: هل زرت أخواتك اليوم؟

أجابت: سأزورهن في الغد، فميمونة^(١) ستطهو لنا طعاماً شهياً.

ابتسم عبيدة وقال: إنها فعلاً تجيد الطهو، لبيتك تحضرين لنا
طبقاً مما ستعد في الغد.

قالت: لن تبخل أختي علينا، فهي طيبة وكريمة.

في اليوم التالي، ذهب زينب بنت خزيمة إلى منزل أمها^(٢)

(١) ميمونة بنت الحارث، أم المؤمنين، لها دول في السيرة كاملة.

(٢) هند بنت عوف، تزوجت ثلاث مرات، أم لستة فتيات:

• من الحارث أنجبت لبابة الكبرى، ولبابة الصغرى، وميمونة.

لتلتقي بأخواتها، كانت لبابة الكبرى^(١) في انتظارها تقول: الجميع هنا، نحن في انتظارك.

ابتسمت زينب تقول: تقصدين في انتظار الطعام.

قالت ميمونة: الطعام جاهز، هيا يا بنات.

قفزت أسماء^(٢) وسلمى^(٣) إلى المائدة، بينما قالت لهن لبابة

الصغرى^(٤): ما بالكن؟ لا تتصرفن كالفقيرات، أنتن كريمات بنات كريمات.

قالت أسماء: هو الجوع يا أختاه، أليس كذلك يا سلمى؟

أشارت سلمى الصغيرة برأسها، فقالت ميمونة: هناك طعام

للجميع، هيا تفضلن.

جلست الأخوات يأكلن الطعام ويتبادلن الحديث، سألت ميمونة

أختها لبابة الصغرى: كيف هو زوجك الوليد بن المغيرة؟ هل تسير

تجارته جيداً؟

• من خزيمة أنجبت زينب.

• من عميس أنجبت أسماء وسلمى.

(١) لبابة الكبرى، صاحبة، أم الفضل، زوجة العباس بن عبد المطلب، لها دور في السيرة كاملة.

(٢) أسماء بنت عميس، صاحبة، لها دور في السيرة كاملة.

(٣) سلمى بنت عميس، صاحبة، لها دور بسيط في السيرة.

(٤) لبابة الصغرى، زوجة الوليد بن المغيرة، وأم خالد بن الوليد، ستذكر في هذا الموضع فقط.

قالت لبابة الصغرى: تجارته ممتازة، وبات ولدي خالد أيضاً
يجمع ثروة هو الآخر.

قالت زينب: لا خوف على آل مخزوم، كيف هو زوجك يا ميمونة؟
قالت ميمونة: بخير...

قالت سلمى ضاحكة: على الأقل يضمن طعاماً شهياً.

ضحكت الفتيات وتابعن التسامر وتناول الطعام، ثم قالت لبابة
الكبرى لأسماء: أظن أنك ستتزوجين عما قريب، احرصي على اختيار
شريف ابن شريف.

قالت أسماء: أفضل أن أتزوج من بني هاشم كما تزوجتي العباس
بن عبد المطلب، على أن أتزوج من بني مخزوم كما تزوجت لبابة
الصغرى الوليد بن المغيرة.

قالت لبابة الصغرى منزعجة: ما بال الوليد؟ إنه أغنى أغنياء
قريش، والجميع يعرفه.

قالت زينب مغيرة تجاه الحديث: جربي هذا الطبق يا لبابة،
إنه شهى جداً.

قالت سلمى: أريد المزيد.

قالت ميمونة: حضرت طعاماً يكفي الجميع، كما أنني جهزت
طعاماً لأزواجكن.

ابتهجت الأخوات وقضين وقتاً طيباً معاً.

ذهب سعيد بن زيد إلى منزل الخطاب بن نفيل يخطب ابنته فاطمة بنت الخطاب^(١)، فرحب به الخطاب وقبل نسبه وشرفه، فهو من عائلته عدي، حتى وإن كان على خلاف مع أبيه زيد بن عمرو حول التوحيد، ولكن والده قد واره التراب، ووضع الخلاف جانباً، وما كانت شخصية سعيد تشبه شخصية أبيه في المواجهة والتحدي، فقد كان سعيد لا يعبد الأصنام كما أوصاه والده، ولكنه لم يكن يواجه بها أحداً من قريش، وكان لطيفاً ومحبوياً من قبل الجميع.

سعد عمر بن الخطاب بخطبة أخته من سعيد، فقد كان يحبه، وفي الحفل اقترب منهما، ووضع يديه على كتفهما وقال: باركت لكما الآلهة، زواج شريف في بني عدي سيذكره الجميع.

ونظر إلى سعيد وقال: فاطمة صاحبة خلق رفيع، اعتن بها.

أشار سعيد بالإيجاب وقال: أعانني الله على إكرامها، وأعانها الله على إسعادي.

ونظر عمر إلى أخته فاطمة وقال: ثقي أن سعيداً رجل صالح، له

(١) فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر بن الخطاب، زوجة سعيد بن زيد، صحابية لها دور في السيرة.

عقل لا يهديه إلا إلى خير، وهو هادئ ومسال، يحب أهله ويحبونه،
كوني له خير معين.

أشارت بالإيجاب وقالت: شكراً لك يا أخي.

جلست السيدة خديجة بنت خويلد إلى زوجها محمد ﷺ
يتحدثان، كانت السيدة خديجة بلغت الرابعة والخمسين، بينما بلغ
محمد ﷺ التاسعة والثلاثين. قالت: يا عزيزي، إن ابن أختي^(١) أبو
العاص بن الربيع^(٢) من الرجال المعدودين في مكة مالاً وأمانة، ولديه
رغبة في الزواج من ابنتنا زينب، وأرى فيه رجلاً مناسباً، فما ترى؟
وكان محمد ﷺ لا يخالف رأي زوجته الحكيمة خديجة،
فوافق على الزواج، وهكذا عقدت وليمة في مكة بزواج أبي العاص بن
الربيع من زينب بنت محمد ﷺ، وكانت خديجة سعيدة به جداً،
وتعده بمنزلة ولد لها.

كما قام أولاد أبو لهب عتية وعتيبة بخطبة بنات محمد ﷺ
رقية وأم كلثوم، على أن يتحدد موعد الزفاف في وقت لاحق.

(١) أخت السيدة خديجة هي هالة بنت خويلد، أم أبي العاص بن الربيع.

(٢) أبو العاص بن الربيع، ابن هالة بنت خويلد، له دور صغير في السيرة.

تجهز محمد ﷺ للذهاب إلى غار حراء للتعبد، وقد بات حريصاً أكثر على الذهاب إلى هناك، ويشعر بالسعادة والهدوء، فجهزت له السيدة خديجة طعاماً وشراباً، رآها علي بن أبي طالب الذي بلغ التاسعة، تجهز الطعام، فسألها: أين يغيب ابن عمي؟ قالت: يعبد الله.

قال علي: هل يجب عليه أن يعبد وحيداً في الغار؟

قالت: يشعر بالسكينة والهدوء، ويبتعد عما تفعل قريش.

قال علي: لقد علمنا ابن عمي ألا نعبد الأصنام كما تفعل قريش،

فهل عليه أن يعتزلهم؟

قالت خديجة: يصعب علي بعده كثيراً، ولكنه يجد الراحة

والطمأنينة هناك، ادعو الله أن يهديه إلى الخير.

ثم ذهبت إلى زوجها محمد ﷺ وقالت: هل لي أن أشاركك في

تعبدك هذه المرة؟

وافق محمد ﷺ، واصطحب زوجته معه إلى غار حراء، فكانت

تشاركه شيئاً من التعب ثم تعود إلى المنزل للعناية بالأولاد، ويتابع

محمد ﷺ تعبده منعزلاً عن الجميع أياماً قد تصل إلى شهر كامل،

وكان يطعم المساكين إذا ما مروا عليه، وكان أحياناً في طريقه يسمع

همساً يقول: السلام عليك.

فكان يلتفت حوله فلا يرى سوى الحجارة والرمال وبعض الأشجار! فيتابع طريقه.

وعندما يعود إلى مكة يطوف حول الكعبة، ثم يعود إلى المنزل بعد طول غياب، فتستقبله زوجته السيدة خديجة بكل شوق ومحبة، فيجلس إليها ويخبرها عن أيامه في الغار، ثم يقول لها عن الأصوات التي كان يسمع أحياناً في الطريق، فتبتسم وتقول: استبشر خيراً، لن يضيعك ربك.

ولكنه قال لها: يا خديجة، إنني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً.

قالت: إن الله لا يفعل ذلك بك، إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم.

فكانت مطمئنه وكان يعود بعد فترة إلى الغار شوقاً للاعتزال والتعبد، وكلما تأخر على زوجته تبعث بالغلman يطمئنونها عليه.

وفي مرة كان محمد ﷺ متجهاً إلى غار حراء للتعبد والاعتكاف وحده، وبينما هو يسير سمع صوتاً يقول: يا محمد، أنا جبريل.

توقف محمد ﷺ ونظر، لا أحد حوله، ولكنه أكيد أنه سمع

الصوت! فأسرع إلى الغار.

غاب محمد ﷺ الليالي يتعبد بعيداً عن أهل مكة، وكانت زوجته السيدة خديجة تبعث إليه الطعام كلما تأخر، وتطمئن عليه. نزل محمد ﷺ الجبل عائداً إلى أهله في مكة، وفي الطريق سمع صوتاً يقول: السلام عليك.

التفت محمد ﷺ من حوله ولكن لا أحد هناك! ما من شيء غير الحجر والشجر! فأسرع داخلاً مكة.

وصل مكة، طاف بالكعبة ثم عاد إلى زوجته التي رحبت به سعيدةً بعودته، وتحلقت بناته حوله سعيدات بعودته، وأجلسته خديجة إلى جانبها تحادثه، وجلست ابنته فاطمة في أحضانه وقد بلغت الخامسة، وتعلقت بوالدها كثيراً، سألته خديجة عن رحلته فأخبرها أنه قد سمع منادياً يقول له أنه جبريل، وقال: والله خشيت أن يكون هذا أمراً.

فابتسمت وقالت بكل هدوء: معاذ الله، ما كان الله ليفعل سوءاً بك، إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فقال لها أنه يسمع من يقول له السلام عليك، فقالت: أبشر فإن السلام خير.

استراح محمد ﷺ ونام في منزله بهدوء بعد أن طمأنته زوجته وخفت عنه.

في هذه الأثناء حضر أبو بكر إلى منزل صديقه العزيز حيث سمع أنه قد عاد من خلوته، رحبت به السيدة خديجة وبناتها، ثم طلبت إليه أن يسمع حديثها وقالت: إن محمداً كلما اختلى بنفسه سمع صوتاً أو رأى ضوءاً، وإني لأظنه خيراً، اصطحبه إلى ابن عمي ورقة، فهو عالم بالكتب السماوية.

قال أبو بكر: وهل خشي على نفسه الجن؟

قالت: إنه قلق بهذا الشأن، ولكنني أطمئنه في كل مرة.

قال أبو بكر: الله لا يضيعه أبداً، سنزور ورقة اليوم.

أيقظت السيدة خديجة زوجها محمداً ﷺ يستقبل صديقه، وجلسا يتحدثان عن أمور مكة، والخلوة في الغار، فسأله أبو بكر عما إذا ما كانت هناك أمور تحدث هناك، فأطرق محمد ﷺ قليلاً ثم قال لصديقه: إنني إذا خلوت وحدي أرى ضوءاً وأسمع نداء.

قال أبو بكر: أرى أن هذا الأمر مقلق.

قال محمد ﷺ: والله خشيت أن يكون هذا أمراً.

نهض أبو بكر وقال: هلم بنا إلى من هو أعلم منا بهذه الأمور،

ورقة بن نوفل.

ذهب محمد ﷺ مع صديقه أبي بكر إلى منزل ورقة بن نوفل،
ودخلا عليه حيث كان جالساً يتحسس الكتب حوله وقد ضعف بصره
وملاً الشيب رأسه.

جلس أبو بكر أمامه وقال: عمت خيراً أيها الراهب الجليل.
ابتسم ورقة وقال: التاجر الخلق الكريم الشريف أبي بكر،
تفضل بالجلوس.

قال أبو بكر: أصطحب معي صديقي محمداً لزيارتك، إذا
سمحت لنا أن نتحدث إليك في أمر خاص.
مد ورقة يده ليجلسا وقال: الصادق الأمين، أنسب قریش
وأحبها إليها، تفضلاً بالجلوس.

جلسا أمام ورقة بن نوفل، فقال أبو بكر: نحن هنا لنستفسر عن
أمر حل لمحمد.

نظر أبو بكر إلى محمد ﷺ ليخبر ورقة بما يرى ويسمع، فقال
محمد ﷺ: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد أنا
جبريل. فأنتلق هارباً.

تفاجأ ورقة لما سمع، وقال: سبوح سبوح! وما لجبريل يُذكر في

هذه الأرض التي تُعبد فيها الأوثان؟ جبريل أمين الله تعالى على وحيه
بينه وبين رسله.

اقترب ورقة من محمد ﷺ وقال له: إذا سمعته فلا تهرب،
اثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني.

اطمأن محمد ﷺ إلى كلام ورقة، وعاد إلى المنزل يحدث زوجته
بما جرى، فطمأنته هي الأخرى، وقضى بضع ليال في المنزل وبين أهل
مكة، أما أبو بكر فكان يشعر باقتراب أمر عظيم سيغير حياته وحياة
صديقه إلى الأبد.

كان أبو طالب قد شعر أن اللحظات التي تجمععه بابن أخيه
محمد ﷺ قد باتت قليلة، وأنها تزداد بعداً بتوالي الأيام، وهو لا
يطيق فراقه أو البعد عنه لفترة طويلة، وكان يسأل عنه فلا يجده في
شعاب مكة، وإذا طلبه في منزله أخبرته خديجة أنه منقطع عنهم
ليومين أو ثلاثة.

كان أبو بكر قد بلغ السابعة والثلاثين، يشغل نفسه في التجارة
عندما يذهب صديقه إلى الغار، وكان دائماً ما يفكر فيما يفعل، ويفكر
في التعبد للخالق، ولكنه كان يشارك في الرحلات الطويلة إلى الشام

واليمن، يعيل أولاده.

عثمان بن عفان كان قد بلغ الثالثة والثلاثين، يشغل نفسه أيضاً في التجارة، وقد بات صاحب ثروة كبيرة، ولم يتزوج بعد، وكان ذا حياء شديد يمنعه من كل الرذائل، وكان أهل مكة يحبونه حباً شديداً يزداد يوماً بعد يوم، فقد كان يصل أقاربه ويعطيهم المال، وكان يساعد الضعفاء والفقراء.

استعد عثمان لتجارة الشام، وصحبه أصدقاؤه من كبار التجار، أبو بكر، عبد عمرو بن عوف، عمر بن الخطاب معه سعيد بن زيد الذي أتقن التجارة، وطلحة بن عبيد الله الذي باتت له تجارته الخاصة التي تزدهر يوماً بعد يوم، كما كان معهم أبو سفيان وصديقه من ثقيف أمية بن أبي الصلت، وأممية بن خلف، وغيرهم.

قضوا وقتاً طويلاً في أسواق الشام، وفي ليلة من الليالي جلس عثمان بن عفان لينام ويستريح من عمل يوم طويل، غفى فإذا به يسمع منادٍ ينادي: يا نيام استيقظوا! هذا أحمد قد خرج بمكة!

استيقظ عثمان من نومه، نظر حوله فلم يجد منادياً، هل كانت رؤيا أم ماذا؟ هل حدث شيء في مكة أثناء غيابه؟

في الصباح التقى عثمان بصديقه عبد عمرو بن عوف الذي بلغ

التاسعة والعشرين من العمر، سأله: هل سمعت شيئاً البارحة؟

قال عبد عمرو: لا، هل حدث شيء؟

تردد عثمان قليلاً ثم قال: سمعت منادياً يقول شيئاً قد حدث في

مكة.

قال عبد عمرو: لم أسمع شيئاً، عسى أن يكون خيراً.

سأل عثمان: هل سمعت عن رجل يدعى أحمد؟

سكت عبد عمرو ثم قال: سمعت من الرهبان أنه نبي آخر

الزمان، لماذا تسأل؟

قال عثمان: كان المنادي يقول أن أحمد قد خرج بمكة.

سكت عبد عمرو ثم قال: سنتحرى الأمر عندما نعود، لدينا

عمل طويل اليوم.

في جهة أخرى كان طلحة بن عبيد الله الذي بلغ الخامسة عشرة

من العمر، يجتهد في تجارته، وقد انزوى قليلاً عن تجار قريش، إذ

رأى راهباً يقف وسط التجار يقول بأعلى صوته: يا معشر التجار!

أفيكم أحد من أهل الحرم؟

تعجب طلحة، ونظر حوله فلم يكن حوله قرشي، قال الراهب

ثانية: يا معشر التجار! أفيكم أحد من أهل الحرم؟

اقترب طلحة يريد أن يعرف ما بال الراهب، فقال له: أنا من

أهل الحرم.

فنظر الراهب إليه، إنه فقط في الخامسة عشر! فقال: أنت من

أهل الحرم؟

قال طلحة: نعم.

قال الراهب: أظهر فيكم أحمد؟

قال طلحة: وما أحمد؟ لا أعرفه.

قال الراهب: هذا شهره الذي يظهر به، نبي آخر الزمان، وإنه

سيظهر من بينكم أنتم أهل الحرم.

تعجب طلحة، ولكن الراهب أخذ بيده وقال له: يا بني، لا

يسبقك إليه أحد، إياك أن تُسبق إليه، لشرف الدنيا أن تُسبق إليه.

ترك الراهب يده وغادر المكان، ظل طلحة واقفاً مكانه، ماذا

عساه أن يفعل؟ عاد بخطوات متثاقلة إلى تجارته، كيف له أن يتابع

العمل؟ ما أحمد؟ وكيف لقريش أن يكون لها نبي؟

جلس عند بضاعته يفكر، نبي آخر الزمان! هل يُعقل أن يكون

في مكة نبي؟ من أحمد؟

انشغل طلحة عن تجارته، ولم تعد لديه أي رغبة في المتابعة،
حزم أمتعته وقرر العودة إلى مكة، إذا ما كان أحمد في مكة فعليه أن
يجده هناك ويتحقق بنفسه مما قال الراهب.

أما أمية بن أبي الصلت، فقد كان جالساً إلى جانب أبي سفيان بن
حرب الذي بلغ التاسعة والأربعين، يبيع ويشترى، وقبل المغيب قال
لأبي سفيان: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصراني إليه
يتناهى علم الكتاب تسأله؟

قال أبو سفيان: لا إرب لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا
أثق به، ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه.

فتركه أمية، وذهب إلى كنيسة قريبة يسمع إلى عالمها، أما أبو
سفيان فقد كان قد طال به السفر، واشترى جارية يقضي معها وقته،
وفي إحدى الليالي لاحظ تغيب صديقه إلى منتصف الليل، فخرج أمام
الكنيسة، وقف ينتظر أمية بن أبي الصلت أن يعود، فمر عليه شيخ من
النصارى، فسأله: هل تريد أن تدخل؟

قال أبو سفيان: كلا، أنتظر صديقي.

قال الشيخ: ما يمنعك أن تدخل وتسمع لمن فيها؟

قال أبو سفيان: لست على دينه.

قال الشيخ: وإن، فإنك تسمع منه عجباً وتراه، أثنفتي أنت؟

قال أبو سفيان: لا، ولكن قرشي.

قال الشيخ: فما يمنعك من العالم؟ فوالله إنه ليحبكم ويوصي

بكم.

لم يكثر أبو سفيان، وظل ينتظر أمية إلى أن خرج يرتدي ثياب الرهبان، اعتذر لأبي سفيان عن انتظاره وقلقه، ونام كئيباً حزيناً لا يتحدث إلى أحد.

في مكة كانت هند بنت عتبة تجلس إلى ابنها معاوية بن أبي سفيان تنظر في السماء تقول: طال بك الغياب يا أبا معاوية، وازداد الشوق.

سمعتها رجل كان قد مر بالشام، فابتسم وقال: أنت هنا في شوق له وهو يلهو مع جارية جميلة.

نهضت هند منزعة وقالت: ماذا تقول يا هذا؟

قال: ما سمعت، لقد طال به الغياب فاشترى لنفسه جارية.

غضبت هند، ودخلت منزلها بسرعة، وكتبت لأبي سفيان

رسالة أرسلتها مع أول رسول متجه إلى الشام، وصلت أبا سفيان
الرسالة من هند، فتحتها فإذا به يقرأ فيها:

يا قليل الوفاء ما كان فيما كان منا إليك ما ترعانا
كيف يبقى لك الجديد من النا س إذا كنت تطرح الخلقانا^(١)
ابتسم أبو سفيان، وضحك قائلاً: لم تلد نساء قريش مثل هند
بنت عتبة.

وباع الجارية.

حزمت قريش أمتعتها لتعود إلى مكة بعد تجارة كانت الأفضل،
وبينما كان أبو سفيان يحسب أرباحه بدقة، ويحزم أمتعته بعناية،
اقترب منه أمية بن أبي الصلت وقد كان شاحباً بعض الشيء، سأله أبو
سفيان: أين كنت؟ لقد فاتك الكثير، كل التجار قد ربحوا أرباحاً
طائلة.

قال له أمية: ألا ترحل؟

قال أبو سفيان: وهل تريد أن ترحل قبلهم؟

قال: نعم.

(١) الخلقان يعني القديم.

سارا قبل القوافل، لا يتحدث أمية بن أبي الصلت عن شيء،
والكآبة بادية على وجهه، وبعد ليلتين على هذه الحالة قال أمية في
الليلة الثالثة: لا تحدث ما أحدثك به يا أبا سفيان.

قال أبو سفيان: وهل بك من حديث؟ والله ما رأيت مثل الذي
رجعت به من عند صاحبك.

قال أمية: أما إن ذلك لشيء لست فيه، إنما ذلك لشيء وجلتُ
منه من منقلبي.

قال أبو سفيان: وهل لك من منقلب؟

قال: أي والله، لأموتن ثم لأحيين.

ابتسم أبو سفيان وقال: هل أنت قابل أمانتي؟

قال أمية: على ماذا؟

قال أبو سفيان: على أنك لا تبعث ولا تحاسب.

فضحك أمية ثم قال: بلى والله يا أبا سفيان، لنبعثن ثم

لنحاسبن، وليدخلن فريق الجنة وفريق النار.

قال أبو سفيان: ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك؟

قال أمية: لا علم لصاحبي بذلك، لا في ولا في نفسه.

ظل الحديث على هذا المنوال ليلتين، يعجب أمية من إنكار أبي

سفيان للبعث، ويضحك أبو سفيان من أفكار أمية، إلى أن قدموا قرية من قرى النصارى في دمشق، فوضعوا متاعهم يسبقون القافلة، وكان الناس يعرفون فيها أمية، فلما رأوه جاؤوه وأهدوا له، واستبدل ثيابه، وذهب معهم إلى الكنيسة، فما عاد إلا بعد منتصف الليل، فطرح ثوبه ورمى بنفسه على فراشه، فما نام، وأصبح حزينا كئيباً لا يكلم أحداً ولا يكلمه أحد، ثم قال لأبي سفيان: ألا ترحل ونسبِق القافلة.

قال أبو سفيان: بلى إن شئت.

فسبقا القافلة، وكان أمية حزينا كئيباً، بعد ساعة قال: يا أبا سفيان.

قال أبو سفيان: ما تشاء؟

قال أمية: حدثني عن عتبة بن ربيعة، أيجتنب المظالم والمجارم؟

قال أبو سفيان: إي والله.

قال أمية: ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟

قال أبو سفيان: إي والله.

قال أمية: وكريم الطرفين وسط في العشيرة؟

قال أبو سفيان : نعم.

قال أمية : فهل تعلم قريباً أشرف منه؟

قال أبو سفيان : لا والله لا أعلم.

قال أمية : أفقير هو؟

قال أبو سفيان : لا بل هو ذو مال كثير.

قال أمية : وكم أتى عليه من السن؟

قال أبو سفيان : قد زاد على المائة.

قال أمية : فالشرف والسن والمال أزرين به؟

قال أبو سفيان : ولم ذلك يزري به؟ لا والله بل يزيد خيراً.

قال أمية : هو ذاك ، هل لك في المبيت؟

قال أبو سفيان : لي فيه.

فاستراحا وانتظرا القوافل ، ثم تابعا المسير مع الجموع.

في مساء اليوم التالي ، توقفت القافلة للاستراحة ، ولكن أمية بن

أبي الصلت قال لأبي سفيان : يا أبا سفيان.

قال أبو سفيان : ما تشاء؟

قال أمية : هل لك في مثل البارحة؟

قال أبو سفيان : هل لك فيه؟

قال أمية: نعم.

فسارا على ناقتين حتى ابتعدا عن القافلة، فقال أمية: يا أبا سفيان، أخبرني عن عتبة بن ربيعة.

قال أبو سفيان: ما تسأل عنه؟

قال أمية: أيجتنب المجارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟

قال أبو سفيان: إي والله إنه ليفعل.

قال أمية: وذو مال؟

قال أبو سفيان: وذو مال.

قال أمية: أتعلم قرشياً أشرف منه؟

قال أبو سفيان: لا والله ما أعلم.

قال أمية: كم أتى له من السن؟

قال أبو سفيان: قد زاد على المائة.

قال أمية: فإن السن والشرف والمال أرزين به.

قال أبو سفيان وقد ضاق صدره من أسئلة صديقه: كلا والله ما

أزرى به ذلك، وأنت قائل شيئاً فقله.

قال أمية: لا تذكر حديثي يأتي منه ما هو آت، فإن الذي رأيت

أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء، ثم قلت: أخبرني عن هذا النبي الذي يُنتظر. قال: هو رجل من العرب. قلت: قد علمتُ أنه من العرب، فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجه العرب. قلت: وفينا بيت تحجه العرب. قال: ومن إخوانكم من قريش. فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط، وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون إياه، قلتُ: فإذا كان ما كان فصفه لي. قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة، يجتنب المظالم والمحارم، ويصل الرحم ويأمر بصلتها، وهو كريم الطريفيين، متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة. قلت: وما آية ذلك؟ قال: قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم ﷺ ثمانين رجفة، كلها فيها مصيبة، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب.

قال أبو سفيان: هذا والله الباطل، لئن بعث الله رسولاً لا يأخذه إلا مسناً شريفاً.

قال أمية: والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان، تقول إن قول النصراني حق، هل لك في المبيت؟
قال أبو سفيان: نعم لي فيه.

فباتا حتى أيقظتهما القافلة للرحيل، فمشت القافلة حتى كان

بينها وبين مكة ليلتين ، قدم راكب من خلفهم من الشام ، فسألوه ماذا جرى؟ فقال: أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلاً وأصابتهم فيها مصائب عظيمة!

فأقبل أمية بن أبي الصلت إلى أبي سفيان فقال: كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان؟

قال أبو سفيان مندهشاً: أرى وأظن والله إن ما حدثك به صاحبك حق.

قال أمية: هنا مفترق طريقنا.

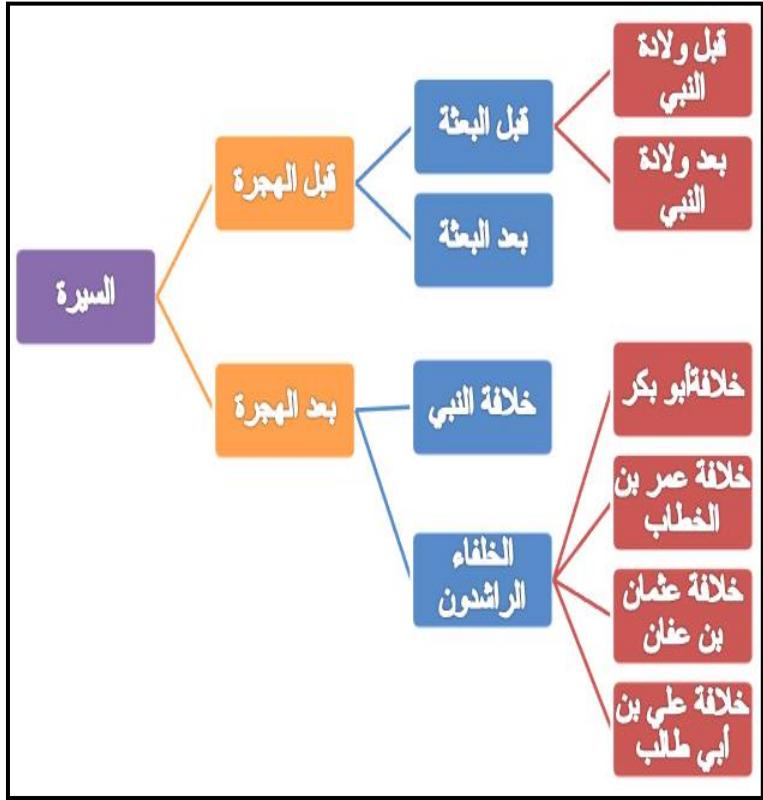
قال أبو سفيان: ألن تدخل مكة؟

قال أمية: ليس هذه المرة، سأرتحل وأرتحل، وأعرف الحقيقة. غادر أمية بن أبي الصلت في حسرته، فقد علم يقيناً أن الخير والفخر لن يكون من نصيبه، بينما تابعت القافلة طريقها إلى مكة.

وفي مكة كان محمد ﷺ يكثر من التعبد في غار حراء أكثر من أي وقت آخر، وبات يسمع أصواتاً أكثر تُلقِي عليه التحية، فيلتمت فلا يرى سوى الحجر والشجر، وبات يرى رؤى في منامه فتتحقق تماماً كما شاهدها، وتكرر ذلك مراراً، وكان كل مرة يخبر السيدة خديجة

بما يجري له ، فتقول بكل اتزان : أبشر ، والله إنه لخير أريد بك ،
فأنت تعين المحتاج ، وتصل الرحم ، وتكرم الضيف ، ولن يضيعك ربك
أبدأً .





القسم الثالث...

قبل الهجرة
[ب] بعد البعثة

١٣هـ | ٦٠٩م

البعثة

في مكان آخر وعالم خفي، كانت الجن تصعد إلى السماء لتسمع خبرها وتنقل منه إلى عالم الإنس كما اعتادت، ولكن هذه الأيام اختلف الأمر عليهم، فها هم يهتمون إلى مقاعد السماء المعتادة فيرمى بالنجوم تمنعهم مقاعدهم.

تعجب الجن من هذا الأمر! ونظروا إلى بعضهم لا يدرون ما جرى، ولا يستطيعون الاطلاع على أخبار السماء هكذا، فتشاوروا بينهم، فقال أحدهم: هذه النجوم قد سُلّطت علينا، هناك أمر قد حدث.

قال آخر: فلنسأل كبيرنا إبليس، علّه يعرف دلالة ذلك.

انطلقت الجن إلى إبليس، الذي كان يجلس على العرش في البحر تحوطه الأفاعي، وقف الجن أمامه فقالوا: عظيمنا إبليس، جئناك

بأمر لم نعتد عليه.

نظر إليهم إبليس بعيون مخيفة يقول: ما فعلتم بالإنس؟

نظر الجن إلى بعضهم وقالوا: اعدرنا يا عظيمنا، ما جننا بأخبار

عن الإنس، إنما حدث أمر في السماء ما اعتدنا عليه من قبل.

قال إبليس: وما حدث في السماء؟

قال الجن: ذهبنا نقعد مقاعدنا من السماء، نستمع إلى ما يجري

هناك كعادتنا لننقله إلى بعض الإنس، ولكننا قُذفنا بالشهب والنجوم!

ما استطاع أحدنا الفلات منها.

نظر إبليس إلى جماعته من الجن فأشاروا بالإيجاب، فقال: هذا

لأمر قد حدث في الأرض، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، واتوني

بالخبر.

قال الجن: سمعاً وطاعة عظيمنا إبليس.

وانطلقوا يبحثون عن الخبر.



الفصل الثاني والثلاثون

الإثنين ٢٧ / ٩ / ١٣هـ | ٤ / ٩ / ٦٠٩ م

ليلة القدر

كان محمد ﷺ قد أحب الخلوة، وكلما عاد إلى المنزل لا يلبث أن يطلب إلى زوجته أن تعد له الزاد ليحمله إلى غار حراء ثانية، فأعدت له طعاماً وذهبت معه إلى الغار مصطحبة ابنتهما فاطمة، وجلستا إليه بضع ساعات تتعبدان معه، ثم ودعتاه ليتركاه يتعبد وحده.

مرت الأيام ومحمد ﷺ يختلي بنفسه في غار حراء، يتقرب إلى خالقه بعيداً عن ضلالات قريش، وحل المساء، فاستلقى لينام بعد تعبد طويل.

فجأة شعر محمد ﷺ بنور في الغار، فتح عينيه فإذا به يرى رجلاً من أجمل الرجال، يشع نوراً، يقف بالقرب منه، يحمل بين يديه إناء من حرير فيه كتاب.

نهض محمد ﷺ خائفاً، فاقترب منه الرجل فخافه محمد ﷺ

مخافة شديدة، فوضع الرجل يده على صدر محمد ﷺ وقال: اللهم احطط وزره، واشرح صدره، وطهر قلبه، يا محمد... أبشر، فإنك نبي هذه الأمة.

رفع الرجل يده ثم قال: اقرأ.

تعجب محمد ﷺ وقال: ما أنا بقارئ^(١).

فاقترب الرجل منه وغثه بقوة إلى صدره أثقلت على محمد ﷺ

وأجهدته، ثم أرسله وقال ثانية: اقرأ.

قال محمد ﷺ ثانية: ما أنا بقارئ.

فأخذه فغثه ثانية أتعبت محمداً ﷺ أكثر من الأولى حتى ظن

أنه سيموت، ثم أرسله وقال: اقرأ.

حاول محمد ﷺ أن يتخلص من الموقف فقال: ماذا أقرأ؟

أمسك الرجل بيد محمد ﷺ وأجلسه على بساط من اللؤلؤ

والياقوت، ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ

يَعْلَمُ ⑤﴾^(٢).

(١) يعني لا أجيد القراءة.

(٢) سورة العلق، الآيات ١-٥.

شعر محمد ﷺ بالكلمات وكأنها كتبت في قلبه مباشرة، فقال
الرجل: لا تخف يا محمد، إنك رسول الله.

أخيراً تركه ونهض وغادر، وظل محمد ﷺ مكانه مصدوماً مما
جرى، وغاب النور عن الغار، وعاد الليل الحالك، ظل واقفاً مكانه إلى
أن طاوعته قدماه في المسير، فنهض وخرج من الغار خائفاً.
وبينما هو ينزل الجبل مسرعاً، سمع صوتاً من السماء يقول: يا
محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل.

فرفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء، فرأى الرجل ذاته صاف
قدميه في أفق السماء يجلس على عرش، وله ٦٠٠ جناح يملأ ما بين
المشرق والمغرب، أينما نظر يراه قد ملأ السماء كلها! فكان أمراً عظيماً
ظل ينظر إليه لا يتقدم ولا يتأخر، فقال الملك جبريل: أنا جبريل
رسول الله إلى أنبيائه ورسله، فأيقن بكرامة الله فإنك رسول الله.

شعرت السيدة خديجة أن أمراً قد حل بزوجها، فاستدعت
غلمانها وأرسلتهم إلى الجبل يطمئنونها عليه، ووقفت تنظر في السماء
تشعر بالقلق، وتدعو في سرها: يا خالق هذا الكون، رده إلي سالماً.

ظل النبي ﷺ واقفاً ينظر في الأفق حيث الملك، ولم يتحرك إلى أن
غادر الملك، فحرك قدميه قدر المستطاع وأسرع إلى الطريق المؤدية إلى مكة.

في الطريق كان كلما مر على شجر أو حجر رآه ساجداً، وسمعه
يسلم ويهنئه بالنبوة: السلام عليك يا رسول الله.

لما سمع النبي ﷺ الحجارة والأشجار تسلم عليه بتحية رسول الله،
عرف كرامة الله إياه، ودخل ذلك في قلبه، ولكنه كان ما يزال يرتجف من
الخوف، أسرع إلى منزله، وكانت السيدة خديجة في استقباله.

ما إن رآته السيدة خديجة لاحظت تغير لون وجهه وجزعه
الشديد، ففزعت وركضت إليه، وبدأت تمسح وجهه وتقول: لعلك
جزعت لبعض ما كنت ترى وتسمع قبل اليوم.

فقال النبي ﷺ يرتجف: زملوني زملوني^(١).

أدخلته السيدة خديجة المنزل، وطلبت إلى ابنتها فاطمة أن
تحضر غطاءً لأبيها، ففزعت فاطمة الصغيرة تجلب غطاءً تغطي به
والدها، وأجلسته السيدة خديجة قربها تحيطه بعنايتها وحنانها،
وانتظرت حتى هدأ قليلاً، ثم قالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد
بعثتُ رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إلي.

قال النبي ﷺ: لقد خشيتُ على نفسي.

فعدت تقول بكل ثقة وحزم: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك

(١) زملوني أي لّفوني بغطاء.

لتصل الرحم وتساعد العاجز، وتعطي المحروم، وتكرم الضيف،
وتعين الناس، وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة.

فقال لها: يا خديجة، رأيت الذي كنت أرى في المنام والصوت
الذي كنت أسمع في اليقظة وأهال منه، فإنه جبريل قد استعلن لي
وكلمني، وأقراني كلاماً فزعت منه، ثم عاد إلي فأخبرني أني نبي هذه
الأمّة، فأقبلتُ راجعاً، فأقبلتُ على شجر وحجارة فقلن السلام عليك
يا رسول الله.

ابتهجت السيدة خديجة وقالت بكل سعادة: أبشر يا ابن عم
واثبت، فوالله لقد كنتُ أعلم أن الله لن يفعل بك إلا خيراً، وإني لأرجو
أن تكون نبي هذه الأمّة.

بقيت السيدة خديجة تهدأ من روعه، وحضرت له طعاماً
وشراباً، وبقيت إلى جانبه إلى أن أكل وشرب وهداً ونام.

طلبت السيدة خديجة من بناتها أن يعتنين بأبيهن، واستبدلت
ثيابها وخرجت.

اتجهت أولاً إلى راهب قريب من مكة، فلما اقتربت منه عرفها
وقال: مالك يا سيدة نساء قريش؟

فقالت له : أقبلتُ إليك لتخبرني عن جبريل .

تعجب الراهب وقال : سبحان الله ربنا القدّوس ! ما بال جبريل يُذكر في هذه البلاد التي يعبُد أهلها الأوثان ، جبريل أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله ، وهو صاحب موسى وعيسى .

ما إن سمعت السيدة خديجة هذا الكلام من الراهب حتى أيقنت أن الله قد خص زوجها بكرامة عظيمة ، فتركت الراهب وغادرت ، ولكنها اتجهت إلى عبد نصراني تعلم أنه يقرأ الكتاب ، فسألته عن جبريل ، فقال لها : جبريل هو أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله ، كان مع موسى حين أغرق الله فرعون وقومه ، وكان معه حين كلمه الله على الطور ، وهو صاحب عيسى بن مريم الذي أيده الله به .

ابتهجت خديجة وغادرت متجهة أخيراً إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، استقبلها ورقة بكل حفاوة ، وأجلسها ليستمع إليها ، فقالت : يا ابن العم ، أخبرني عن جبريل .

فقال لها : جبريل هو أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ، لماذا تسألين عنه؟ ماذا حدث؟

فقالت له : أستحلفك بالله أن تبقي الأمر سراً بيننا ، وأن تكتم ما سأقول .

قال: أحلف، إنني لن أخبر أحداً.

قالت: إن ابن عبد الله ذكر لي، وهو صادق أحلف بالله ما كذب ولا كذب، أنه نزل عليه جبريل بحراء، وأنه أخبره أنه نبي هذه الأمة، وأقرأه آيات أرسل بها.

ذعر ورقة لما سمع، وقال: قدّوس قدّوس! لئن كان جبريل قد استقرت قدماه على الأرض، لقد نزل على خير أهل الأرض، وما نزل إلا على نبي، وهو صاحب الأنبياء والرسل يرسله الله إليهم، وقد صدقتك عنه فأرسلي إلي ابن عبد الله أسأله وأسمع من قوله وأحدثه، فإني أخاف أن يكون غير جبريل، فإن بعض الشياطين يتشبه به ليضل به بعض بني آدم ويفسدهم حتى يصير الرجل بعد العقل الرضي مجنوناً.

فقامت السيدة خديجة من عنده وهي واثقة بالله أنه لن يفعل بزوجها إلا خيراً، فرجعت إلى زوجها، وقد كان قد هدأت نفسه، وجلس إلى بناته مع زيد وعلي، دخلت عليهم وطلبت إليهم أن يلعبوا في الخارج، وجلست إلى زوجها النبي ﷺ وحدهما.

سألته كيف يشعر، فأخبرها أنه قد هدأ، فقالت: يا ابن العم، لقد سألت ورقة بن نوفل عن جبريل، فقال أنه رسول الله إلى أنبيائه،

ولكنه يحب أن يلتقيك ليتأكد أن ما تراه ليس بالجان يتصور إليك
ليفسد عليك عقلك.

فشعر النبي ﷺ بثقل على صدره، وطنين في أذنيه، وأوحى إليه
الله الآيات: ﴿نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾^(١).
فقال لها: كلا والله إنه لجبريل.

فقالت: أحب أن تأتيه فتخبره، لعل الله أن يهديه.

وافق النبي ﷺ، وذهب مع زوجته إلى ورقة بن نوفل، فأدخلته
وجلس إلى ورقة، فقالت لورقة: لقد أخبرته بما أشرت علي، وها هو
قد جاءك، فتحقق من الأمر.

جلس ورقة إلى النبي ﷺ، وبدأ يسأله: يا ابن عبد الله، هذا
الذي جاءك، أجاءك في نور أو ظلمة؟

فوصف له النبي ﷺ ظهور جبريل في الغار، وما كان له من
نور، والكتاب الذي معه، وكيف رآه في أفق السماء بأجنحة تملأ
المشرق والمغرب، وما أوحى إليه من آيات.

جفل ورقة، ثم قال: أشهد أن هذا جبريل، وأن هذا كلام الله،

(١) سورة القلم، الآيات ١-٤.

فقد أمرك بشيء تبلغه قومك، وإنه لأمر نبوة، فإن أدرك زمانك أتبعك.

نظر النبي ﷺ إلى خديجة التي كانت البهجة واضحة عليها، فقال لهما ورقة: أبشر يا ابن عبد الله بما بشرك الله، يا ليتني كنت شاباً، فأكون حياً إن يُخرجك قومك.

سأل النبي ﷺ: أومخرجي هم؟

فقال ورقة: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك لأنصرك نصراً مؤزراً.

نظر النبي ﷺ إلى زوجته التي كان وجهها قد تغير، الآن تبدأ رحلة عصابة، رحلة الحق ضد الباطل، رحلة يعاديهما فيها الأهل والأقارب.

رغم كل ذلك ظلت السيدة خديجة تصبر زوجها، وتشجعه وتفخر به، وكانت له خير عون على ما يلاقي وسيلاقى.

عاد النبي ﷺ إلى غار حراء، يختلي بنفسه، ويعد نفسه للقاء جبريل، وما سيلقي عليه من آيات وأوامر إلهية، ويتفكر في الله وخلقه، وكيفية عبادته والتقرب إليه.

وبينما كان النبي ﷺ نائماً في الغار، إذ جاءه جبريل في هيئة رجل كريم، فأيقظه، وأوحى إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ۝ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نَصَفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَاذْكُرِ أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾^(١).

وأوحى إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبُّكَ فَكْبِيرٌ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْبِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾^(٢).

فتساءل النبي ﷺ عن كيفية القيام والظهور والعبادة لله، فخرج به جبريل ﷺ إلى ناحية الوادي، وضرب بقدمه فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل ﷺ فغسل كفيه وفمه وأنفه ووجهه، وغسل ذراعيه ومسح على رأسه وأذنيه، ثم غسل قدميه، والنبي ﷺ ينظر إليه يتعلم منه، ثم اغتسل كما علمه جبريل ﷺ، ثم وقف جبريل ﷺ فقال للنبي ﷺ: يا محمد، قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

(١) سورة المزمل، الآيات ١-٩.

(٢) سورة المدثر، الآيات ١-٧.

فقال النبي ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

ثم صلى جبريل ﷺ برسول الله ركعتين متجهماً إلى بيت المقدس في الشام، قرأ له فيها الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾^(١).

وعلمه الصلاة بركوعها وسجودها، ونبي الله يتبعه في كل ما يفعل، إلى أن انتهى جبريل ﷺ، فسلم وغادر.

شعر النبي ﷺ براحة كبيرة، وبسعادة غامرة، إنه الآن يعلم كيف يعبد الله، وبات قريباً إلى رسوله جبريل ﷺ، ولم يعد يخشى لقاءه، بل على العكس، بات يترقب لقاءه القادم.

نزل النبي ﷺ إلى منزله، مسرعاً ليخبر زوجته الحبيبة بما أوحى إليه ربه، ويشاركها الصلاة التي علمها الله إياها عن طريق رسوله جبريل.

ابتهجت السيدة خديجة بسعادة زوجها، وبالنور الذي أشرق في وجهه، فأخذ يدها، وذهب بها إلى نبع الماء، وعلمها الوضوء،

(١) سورة الفاتحة، الآيات ١-٧.

وصلى معها ركعتين كما علمه جبريل ﷺ، فكانت سعيدة جداً بها،
وواظبا على الصلاة سرّاً في منزلهما ليلاً معاً.



الخميس ٣٠ / ٩ / ١٣هـ | ٧ / ٩ / ٦٠٩ م

بدايات الدعوة

واظب النبي ﷺ وزوجته السيدة خديجة على قيام الليل معاً في المنزل، وفي إحدى الليالي دخل عليهما علي بن أبي طالب وهما يصليان، وقد كان قد بلغ العاشرة من العمر، فتعجب مما يفعلان، وانتظرهما حتى انتهيا، فنظر إلى ابن عمه وقال: ما هذا يا ابن عمي؟ جلس إليه النبي ﷺ وقربه منه وقال: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، وإلى عبادته، والكفر باللات والعزى، فاشهد يا علي، فإني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله.

تعجب علي لما سمع، فقال: هذا أمر لم أعهده من قبل! فأنظرنني حتى أحدث أبي أبا طالب في ذلك.

كره النبي ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال

له : يا علي ، إذا لم تسلم فاكتم.

فكر علي قليلاً ثم قال : فأنظرني حتى أفكر.

عاد علي إلى غرفته ، وبات الليلة يفكر فيما رأى وسمع ، الله...
رسول الله... ابن عمه أفضل الناس وأكرمهم ، وهو الصادق الأمين ،
وعلمه من قبل ألا يسجد للأصنام...

بات علي الليلة كاملة يفكر ، إلى أن أوقع الله في قلبه الإسلام ،
فلما حل الصباح دخل على النبي ﷺ وقال له : أعد علي مقاتلك
بالأمس.

فقال له النبي ﷺ : تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وتكفر باللات والعزى.

فقال علي بكل ثقة وثبات : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول
الله ، وأكتم عنك.

وبات علي بن أبي طالب ، الصبي ذو العشر سنوات ، يصلي مع
ابن عمه وزوجته السيدة خديجة ، ويكتم إسلامه عن أبيه وأهله ،
ودخل الإسلام وحُب الإسلام في قلبه.

كان النبي ﷺ والسيدة خديجة وعلي بن أبي طالب يخرجون

في المساء إلى شعاب مكة، مستخفين عن أعين الناس، يصلون لله الواحد
ما شاء الله لهم أن يصلوا، ثم يعودون إلى المنزل دون أن يراهم أحد.
وفي يوم لم يستطع أبو طالب فيه النوم، وأصابه الأرق، فنهض
وحده وقادته قدماه إلى الكعبة ليطوف حولها، ثم غادر وسار في شعاب
مكة، فسمع صوتاً هناك، فاقترب ليرى ابن أخيه محمداً ﷺ يصلي،
إلى جانبه ابنه علي يقلده في حركاته.

تعجب أبو طالب لما يفعلان من ركوع وسجود! وعلم أنه دين
جديد، فانتظرهما حتى انتهيا، ثم اقترب من ابن أخيه وسأله: يا ابن
أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟

أجابه رسول الله ﷺ: أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته،
ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد،
وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق
من أجابني إليه وأعانني عليه.

قال أبو طالب: أي ابن أخي، إنني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي
وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت.
ثم نظر إلى ابنه علي وقال له: أي بني، وما هذا الدين الذي أنت
عليه؟

فأجابه علي بكل ثقة: يا أبت، آمنتُ بالله وبرسول الله،
وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته.

ابتسم أبو طالب وقال: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه.
التفت أبو طالب ليغادر، ولكن علياً تبعه وقال له: يا أبت، إنني
أدعوك لهذا الدين.

نظر إليه أبو طالب وابتسم وقال: يا بني، أما ما تفعله أنت
فأطع محمداً، والزمه، فإنه لن يقودك إلا إلى خير، وأما أنا فلا أستطيع
أن أفارق دين آبائي.
وتركهما وكنتم عنهما.

كما عرض الرسول ﷺ ما أوحى إليه على ابنه زيد، اندهش
زيد لما سمع! ففكر قليلاً ثم قال: والله لقد علمت أن لك شأنًا، وما
شهدتُ عليك كذباً قط، ولن تكذب علي الله أبداً، أشهد أنك صادق، وأن
الله أرسلك يا أبي.

كما عرض الرسول ﷺ أمر الوحي على بناته، وقص عليهم ما
جرى، فأسلمت زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وعرضت زينب الأمر
على زوجها أبي العاص بن الربيع، فقال: أما أنا فلا أفارق دين آبائي،

أما أنت فلك اختيار ما تشائين.

طُرق الباب، فكانت أم أيمن تزور النبي ﷺ، وقد حدثتها السيدة خديجة عن بعض ما جرى، فدخلت على النبي ﷺ وسألت: أصحيح ما سمعنا؟ هل بعثك الله رسولاً لتنذر من عذاب النار؟ أجلست السيدة خديجة أم أيمن إلى النبي ﷺ، فدعاها إلى الله، وتلى عليها القرآن، فقالت: والله إنني أعلم الناس بك منذ الصغر، وإن لك لشأناً، وقد كانت أمك ترى فيك الكرامات العديدة، أو من أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

آمنت أم أيمن مع عائلة النبي ﷺ، وظلوا يصلون معاً بعيداً عن ضلالات قريش.



١٣هـ | ٦٠٩م

الأوائل

كان سعد بن أبي وقاص نائماً في منزله، وإذا به يحلم بنور كالقمر يطل منه كل من أبي بكر وعلي بن أبي طالب وزيد بن محمد، تعجب سعد لرؤيتهم، وقال: ما بال هذا النور؟
مد أبو بكر يده وقال: تعال يا سعد، انضم إلينا.
تعجب سعد، بم ينضم إليهم؟ ومدّ علي وزيد يديهما يقولان:
أسرع!

استيقظ سعد من نومه، ما أعجب هذه الرؤيا!

عادت القافلة من الشام محملة بالنقود والخير الكثير لأهل مكة، كان الاستقبال حافلاً والجميع سعداء.
نزل أبو بكر، الذي بلغ الثامنة والثلاثين، من على دابته وبدأ

يطوف حول الكعبة كعادته بعد كل رحلة، ثم اتجه إلى منزل صديقه
العزیز محمد ﷺ محملاً بالهدايا والقصص الجميلة.

فتح رسول الله ﷺ الباب لصديقه العزیز، وكان سعيداً جداً
بلقاءه، أدخله وحضّر له الطعام، ولم يلبث إلا وحدثه بما جرى له من
أمر الوحي، فقال: يا أبا بكر، إني رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ
رسالته وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى
الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالة على طاعته.

فأجابه أبو بكر على الفور: والله ما جربت عليك كذباً، وإنك
لخليق بالرسالة لعظم أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك، مد يدك
فإني أبايعك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

فرح الرسول ﷺ كثيراً بتصديق صديقه له على الفور، فلم يسأل
ولم يشكك ولم يتردد، وتلى عليه القرآن، وتوضأ وصلى، وباركت له
السيدة خديجة ولزوجها، وكانت السعادة تملأ المنزل.

ذهب سعد بن أبي وقاص، الذي بلغ الخامسة عشرة من العمر،
إلى عمله بعد أن سلّم على والدته، وتأكد من أحوالها وحاجاتها، وبدأ
يصنع الرماح وهو شارذ الذهن، يفكر في ما رأى في المنام.

في منتصف اليوم مرّ أبو بكر في السوق، فما إن رآه سعد حتى نهض بسرعة سعيداً برويته، مستبشراً خيراً في ما رأى في منامه، وفعلاً جلس أبو بكر إلى سعد يبادلّه الحديث.

سأل أبو بكر سعداً عن العمل، وبعد حديث قصير قال سعد: الحقيقة، لقد استبشرت لرؤيتك اليوم أكثر من أي يوم مضى.

ابتسم أبو بكر وقال: لماذا؟

قال سعد: رأيت رؤيا جميلة، فيها النور والخير الكثير، وقد كنت هناك.

فكر أبو بكر قليلاً، ثم قال: يا سعد، ما بال الأصنام التي تعبدها قريش؟ ألا يرون أنها لا تضر ولا تنفع؟

قال سعد: آسف لحالهم، والدتي من أشد المؤمنين بها، تعكف على عبادتها وتنظيفها وتقديم القرابين لها.

قال أبو بكر: ولكنك لا تشاركها ذلك.

ضحك سعد وقال: هي حجارة لا تضر ولا تنفع، تتكسر كل يوم وتحتاج إلى من يصلحها.

قال أبو بكر: أتحب أن تعرف طريقة تعبد بها الخالق الواحد؟ نظر سعد إلى أبي بكر وقال: نحن نطوف حول الكعبة كما كان

يفعل إبراهيم، هذا ما نعرفه عن الإله الواحد.

قال أبو بكر: بل بعث الله أنبياء بعد إبراهيم، وأنزل كتباً

سماوية.

قال سعد: هل اعتنقت المسيحية أم اليهودية؟

قال أبو بكر: بل هناك دين جديد، وكتاب جديد، ورسول جديد.

تعجب سعد مما سمع، فقال: أهو في الشام؟

أجاب أبو بكر: بل هو هنا، يدعو إلى عبادة الله الواحد، وترك

عبادة الأصنام، ويدعو إلى الجنة ويحذر من النار.

قال سعد: رسول في مكة! من يكون؟

ابتسم أبو بكر وقال: هو الصادق الأمين، محمد بن عبد الله.

سكت سعد قليلاً ثم قال: ومن تبعه؟

أجاب أبو بكر: أنا وعلي وزيد.

جفل سعد، هذا بالتأكيد تأويل رؤياه، فقال لأبي بكر: ما كنتُ

أظن أن الرؤيا التي رأيتها لها هذا التأويل العظيم، خذني إلى محمد.

اصطحب أبو بكر سعداً إلى منزل الرسول ﷺ، رحّب به

الرسول ﷺ وأجلسه إلى جانبه، فسأله سعد: يا محمد، أخبرني عن

هذا الدين الجديد الذي جاءك.

فشرح له الرسول ﷺ ما سمعه من جبريل ﷺ، وتلى عليه القرآن، فكان له الأثر الكبير في نفس سعد، وقال: هذا أجمل ما سمعت في حياتي، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فرح جميع من في المنزل بإسلام سعد، وعانق سعد علياً وزيداً سعيداً بتأويل رؤياه.

ثم أسلم خالد بن سعيد بن العاص^(١).

(١) خالد بن سعيد بن العاص، من بني أمية، من الأوائل، سيذكر في هذا الموضع فقط، قصة إسلامه:

خرج أبو بكر من منزل الرسول ﷺ عائداً إلى السوق، فإذا بخالد بن سعيد بن العاص يسير متجهاً إلى منزل الرسول ﷺ، توقف يسلم على أبي بكر، فسأله أبو بكر عن وجهته، فقال خالد: رؤيا رأيتها وأبحث عن تأويلها. سأل أبو بكر: خيراً إن شاء الله، ما رأيت؟

قال خالد: رأيت أنني أقف على حافة نار هائلة، لا يرى بدايتها من نهايتها، وكان أبي يدفعني لأقع في النار، وأرى محمداً بن عبد الله لا يقع فيها، ففزعت مما رأيت، وأردت أن أبحث عن تأويل رؤيائي.

ابتسم أبو بكر وقال: أريد بك خيراً، هذا رسول الله فاتبعه، فإنك ستتبعه في الإسلام الذي يحجزك من أن تقع في النار، وأبوك واقع فيها.

قال خالد: أهو رسول من الله؟

قال أبو بكر: استمع إليه، فإنه لا يدعو إلا إلى خير.

تابع خالد بن سعيد بن العاص طريقه إلى منزل الرسول ﷺ، ودخل عليه فاستقبله، وأجلسه، فسأل خالد: يا محمد، إلى من تدعو؟

فقال الرسول ﷺ: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لم يعبده.

رجع عثمان بن عفان، الذي بلغ الرابعة والثلاثين، من تجارته إلى منزله، ولكن كان ما سمعه في الشام من نداء يشغل تفكيره، فذهب إلى خالته^(١) وقد كانت كاهنة، دخل عليها فقالت: أهلاً وسهلاً بابن أختي، عثمان الشريف الكريم اللطيف الحبي، تسعدني رؤيتك دوماً. شكرها عثمان على التحية وقال: شكراً لك يا خالتي، الحقيقة جئتكم بما أقلقني، وإني لأحبك وأعلم عقلك.

قالت: وما ذاك؟

قال: كنت في الشام فسمعتُ منادياً ينادي بكل وضوح: يا نيام استيقظوا! هذا أحمد قد خرج بمكة! فهل حدث أمر في مكة في غيابنا؟ جلست خالة عثمان وبدأت تهمهم وتقول:

لك الجمال ولك اللسان هذا نبي معه البرهان
أرسله بحقه الديان وجاءه التنزيل والفرقان
فاتبعه لا تغتالك الأوثان

وتلى عليه القرآن، فقال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. سعد الرسول ﷺ بإيمان خالد، وبارك له كل من في المنزل، وخرج بروح مبتهجة، واطمأنت نفسه لتأويل رؤياه. ثم بعد فترة من إسلامه أعلنت زوجته أميمة بنت خلف الإسلام أيضاً، وقد تعرض للعذاب بعد إسلامه وصبر.

(١) خالة عثمان بن عفان هي سعدى بنت كريب، ستذكر في هذا الموضع فقط.

فقال عثمان: يا خالة، إنك لتذكرين شيئاً ما وقع ذكره ببلدنا
من قبل، فأوضحه لي.

فقالت:

محمد بن عبد الله رسول من عند الله
جاء بتنزيل الله يدعو به إلى الله
جفل عثمان، محمد بن عبد الله! الصادق الأمين، رسول يدعو إلى
الله!

خرج عثمان من عند خالته بغير الوجه الذي دخل، شيء في
نفسه قد استبشر، وآخر قلق، كيف له أن يتحقق من صحة ذلك؟ هذا
أمر عظيم ودين جديد.

أخيراً قرر أن يسأل أعلم الناس بمحمد ﷺ، صديقه أبو بكر،
لديه عقل رشيد وصيت كبير، ما رأيه يا ترى؟

بحث عثمان بن عفان عن أبي بكر إلى أن وجده متجهاً إلى
منزله، رحب به أبو بكر، فطلب منه عثمان أن يتحدثا منفردين.

جلسا بعيداً عن أهل مكة، فسأل عثمان أبا بكر: يا أبا بكر، هل
سمعت شيئاً استحدثه صديقك محمد؟

فهم أبو بكر على الفور أن عثمان يسأله عن الرسالة والدين

الجديد بكل حذر، فقال أبو بكر: وما سمعتَ يا عثمان؟

قال عثمان: سمعتُ منادياً في الشام يقول أن أحمد قد خرج بمكة، وسألتُ خالتي فقالت أن محمداً بن عبد الله رسول من عند الله يدعو إلى الله وترك الأصنام، فهل حقاً تقول؟

قال أبو بكر: صدقتِ خالتك، أتعلم يا عثمان، أراك والله رجلاً حياً^(١)، وأرى أن هذه الصفة لا تقودك إلا إلى الإسلام، فأرى أن تذهب وتسمع من رسول الله، وأنا أعلم أنك ستُهدى إلى الحق لأنك رجل حياً.

سأل عثمان: وهل اتبعته أنت؟

قال أبو بكر: ويحك يا عثمان، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؟

قال عثمان: بلى والله إنها لكذلك.

قال أبو بكر: فقد صدقتِ خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه فتسمع منه؟ قال عثمان: بلى أفعل.

(١) حياً من الحياء.

اصطحب أبو بكر عثمان بن عفان إلى منزل الرسول ﷺ، فدخلا عليه وقد كان جالساً إلى علي بن أبي طالب، اقترب أبو بكر من الرسول ﷺ وقال له: إن عثمان يريد أن يستمع إلى ما أرسلك الله به. أجلس الرسول ﷺ عثمان إليه وقال له: يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني أراك صاحب عقل، وإني رسول الله إليك، وإلى الناس كافة.

وقرأ عليه شيئاً من القرآن، فما احتمل عثمان الانتظار، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله.

فرح الجميع بإسلام عثمان، الذي انطلق عائداً إلى خالته، أخبرها بأمر رسول الله، وأنه قد صدقه، فابتهجت وقالت:

هدى الله عثماناً بقولي إلى الهدى وأرشدته، والله يهدي إلى الحق فتابع بالرأي السديد محمداً وكان برأي لا يصد عن الصدق

أما أبو بكر، فما إن أسلم عثمان بن عفان حتى خطر بباله صديقه المقرب عبد عمرو بن عوف، إذا ما كان عقل عثمان الرشيد قد أرشده إلى الصواب، فلا بد من عقل عبد عمرو أن يهديه أيضاً. ذهب أبو بكر إلى السوق، حيث كان عبد عمرو، الذي بلغ

الثلاثين من العمر، يوزع حصص النقود على التجار المشاركين في تجارته، والجميع سعيدون بعودته غانماً أكثر من أي تاجر آخر.

ما إن رأى عبد عمرو أبا بكر يقترب، حتى أسرع في توزيع النقود ليستقبل أبا بكر.

انصرف الناس واستقبل عبد عمرو أبا بكر قائلاً: مرحباً بالتاجر الكبير أبي بكر، هل لك من حاجة عندنا؟

ابتسم أبو بكر وقال: بارك الله في تجارتك، إلا أن لي حاجة غير التجارة.

قال عبد عمرو: لك منا ما ترضى وتشتهي، تفضل.

جلس أبو بكر عند عبد عمرو وحدهما، فقال له أبو بكر بتأن: يا عبد عمرو، إن لك عقلاً رشيداً لن يهديك إلا إلى خير، فما هذه الأصنام التي تعبد قريش، ألا يرون أنها لا تضر ولا تنفع؟

قال عبد عمرو: لقد عبدها آباؤهم، وهم يفعلون كما فعلوا.

قال أبو بكر: وماذا عن دين إبراهيم؟ ألم يكونوا على دين إبراهيم قبل عبادة الأصنام؟

قال عبد عمرو: إلى ما ترمي يا أبا بكر؟

قال أبو بكر: دين جديد، على دين إبراهيم.

سأل عبد عمرو: أهي اليهودية، أم المسيحية؟
قال أبو بكر: بل دين جديد، جاء بعد إبراهيم وموسى وعيسى.
صمت عبد عمرو قليلاً، فقال أبو بكر: هناك رسول بُعث في
مكة.

تعجب عبد عمرو: في مكة! رسول هنا بيننا! من يكون؟
قال أبو بكر: هو شريف صادق أمين، جمع كامل الأخلاق
والصفات، تحبه قريش ويحبهم.

ابتسم عبد عمرو لا يعرف ما يقول، رسول في مكة! سأل عبد
عمرو: من يكون؟

قال أبو بكر: محمد بن عبد الله.
صمت عبد عمرو، ما عرف أحدهم على محمد كذباً قط، وقد
جمع كامل الأخلاق والصفات، فسأل عبد عمرو: هل قال محمد فعلاً
أنه رسول مبعوث من عند الله؟

قال أبو بكر: نعم، وقد نزل عليه الوحي بكتاب، هل لك أن
تسمع؟

قال عبد عمرو: بكل تأكيد، ولكن هل صدّقه أحد؟
قال أبو بكر: صدّقته، كما صدّقه عثمان بن عفان.

هنا سكن قلب عبد عمرو، أبو بكر وعثمان هما صديقان قريبان
منه، ولهما عقل راجح لن يهديهما إلا إلى خير، قال: وأين هو محمد
الآن؟

قال أبو بكر: في منزله، أستطيع أن أصطحبك إليه.

أجل عبد عمرو شؤون تجارته، وذهب على الفور مع أبي بكر
إلى منزل الرسول ﷺ، ودخلا عليه، فأخبر أبو بكر الرسول ﷺ أن
عبد عمرو بن عوف يريد أن يستمع إلى القرآن.

رحب الرسول ﷺ بعبد عمرو كثيراً، وأجلسه إليه، وأخبره
بأمر الوحي وتلى عليه القرآن، فانشرح صدر عبد عمرو بن عوف إلى
الإسلام، وقال: هذا أمر له شأن، وإن الأصنام لا تضر ولا تنفع، أشهد
أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله.

ابتهج الجميع بإسلام عبد عمرو، فقال له الرسول ﷺ: أنت
عبد الرحمن.

فرح عبد الرحمن باسمه الجديد، وانطلق إلى صديقه عثمان بن
عفان يبشره بإسلامه، كما استبدل الرسول ﷺ اسم أبي بكر من عبد
الكعبة إلى عبد الله.

كان الزبير بن العوام، الذي بلغ الخامسة عشر، في رحلة صيد حول مكة، جمع فيها شيئاً من اللحوم ليبيعهها في متجره، عاد إلى المنزل فاستقبلته أمه صفية بنت عبد المطلب، رحب بها فقالت له: كيف كان صيدك؟

قال: صيد وافر ورزق كريم.

قالت: هذا ظني بك.

قال: هل لك من حاجة؟ سأذهب إلى المتجر.

قالت: لا تنس صلة أقاربك، عندما تفرغ من العمل زر خالك أبا طالب.

قال: أفعل.

حمل الزبير ما اصطاد واتجه إلى متجره، وبدأ يقطع اللحوم ويبيع للناس. قدم إليه رجل ليبْتَاع اللحوم، قال له الزبير: إنك لم تدفع لي أجر ما اشتريت في المرة الماضية.

قال الرجل: أدفع لك هذا الإله مقابل ما اشتريته وما سأشتريه. رفع الرجل صنماً مصنوعاً من الخشب ليقدمه للزبير، فغضب

الزبير وقال: أتسخر مني!

ارتبك الرجل وقال: هذا الإله يساوي أكثر مما تطلب!

صرخ الزبير في الرجل وقال: هذه أخشاب رأيتُ صانعها يدقها
ويشكلها، لم تكلفه ربع ما تشتريه مني!
قال الرجل: ولكنها الآن آلهة، تستطيع تحقيق رغباتك إذا
دعوتها.

رمى الزبير سكينه جانباً وقال: هذه لن تحقق شيئاً، إنها لا
تضر ولا تنفع، إما أن تأتيني بنقود أو أن تغادر.

غادر الرجل وهو يقول: سيكلفك ما تقول غالباً.

كان أبو بكر قد مر قرب الدكان، وسمع جزءاً مما دار بين
الرجل والزبير، فلما اقترب ورآه الزبير قال: أهلاً بالتاجر الكبير أبي
بكر، أعتذر عما جرى، لقد أفقدني هذا الرجل صوابي.

فكر أبو بكر قليلاً ثم قال: يا زبير، هل لك في الخير الكثير؟

تعجب الزبير لما يقوله أبو بكر، فقال: وما هو؟

اقترب أبو بكر من الزبير وقال له: خير الدنيا والآخرة.

صمت الزبير، أحس أن أبا بكر يحدثه في أمر كبير، أقفل

الزبير دكانه وجلس إلى أبي بكر وحدهما وسأله: ما الأمر؟

قال أبو بكر: إنه دين جديد، وقد أوحى الله إلى ابن خالك محمد

بكتاب ورسالة، ودعوة الناس من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد.

تعجب الزبير وقال: أوحى إليه! أهي اليهودية؟

أشار أبو بكر بالنفي وقال: بل دين جديد، بشّر به علماء اليهود والنصارى ممن خبرناهم في الشام.

سأل الزبير: ومن تبعه؟

قال أبو بكر: تبعته أنا، كما تبعه سعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن محمد، وخديجة وبنات ابن خالك.

قال الزبير: خيار الناس، وأين ابن خالي الآن؟

قال أبو بكر: في منزله، هل ترغب في الاستماع إليه؟

قال الزبير: بكل تأكيد.

ذهب أبو بكر مع الزبير بن العوام إلى منزل الرسول ﷺ، فرحّب الجميع بالزبير، فهو منهم، وكان دائم الحضور والجلوس بينهم.

جلس إلى ابن خاله وعمته، وسمع ما حدث، وتلى عليه الرسول ﷺ ما نزل عليه من القرآن، فوقع في قلبه على الفور، وقال الزبير: هذا والله حق، وإنك لخليق بالرسالة، أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله.

فرح الجميع بإسلام الزبير، وبات هناك شعور بالإقبال العام
على الإسلام.

كان طلحة بن عبيد الله، الذي بلغ الخامسة عشر، قد وصل
منزله قبل الجميع بعد عودته من الشام، وما يزال يفكر فيما أخبره
به الراهب، ولكنه لم يشعر بتغيير في مكة.

حمل بضاعته واتجه إلى السوق لعله يسمع شيئاً هناك، ولكن
الأوضاع كانت هادئة، إلى أن مرَّ عمّه أبو بكر عليه، تحدثا عن
التجارة، وسأله عن السبب الذي جعله يغادر مبكراً، فأخبره طلحة
عن الراهب، فتبسم أبو بكر وقال: صدق والله، لقد ظهر النبي.

جفل طلحة، وقال: هل هناك نبي في مكة فعلاً؟

قال أبو بكر: إنه محمد بن عبد الله، أوحى إليه، وهو والله حق.
فقال طلحة من فوره: محمد وأبو بكر، تالله لا يجتمع الاثنان
على ضلالة أبداً، ولقد بلغ محمد الأربعين من عمره، وما عهدنا عليه
خلال هذا العمر كذبة واحدة، أفيكذب اليوم على الله ويقول إنه
أرسلني وأرسل إلي وحيّاً؟ فهذا هو الذي يصعب تصديقه.

ابتهج أبو بكر لرجاحة عقل ابن أخيه، فربت على كتفه وقال

له : علمتُ أن لك عقلاً راجحاً لن يهديك إلا إلى خير.

قال طلحة: اعرض علي أمر محمد ابن عبد الله.

فأخبره أبو بكر بما كان من أمر الوحي، والقرآن، والتوحيد، فتهلل وجه طلحة، وعلم أن هذا حق، فقال: خذني يا عمي إلى محمد، أشهد له أنه صادق.

فذهب أبو بكر بطلحة إلى الرسول ﷺ، ودخلا عليه وقد كان طلحة متلألئ الوجه مستبشراً، ففرح الرسول ﷺ به كثيراً، وأقرأه القرآن، فقال طلحة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع.

فرح الجميع بإسلام طلحة بن عبيد الله، وسعد الرسول ﷺ بصديقه أبي بكر وبمساندته منذ أول يوم لإسلامه.

وفي المساء، حضرت فاطمة بنت أسد^(١) وحدها إلى منزل الرسول ﷺ والسيدة خديجة، طرقت الباب واستقبلها ابنها علي بن أبي طالب سعيداً، جلست إلى العائلة حيث كانوا يصلون معاً، فتعجبت لما يفعلون، فأخبرها الرسول ﷺ أنه قد أوحى إليه، وأن هذا

(١) فاطمة بنت أسد، زوجة أبي طالب، وأم علي وجعفر ابنا أبي طالب.

دين الله الواحد، فقالت: والله إنني أعلم الناس بكم، وبفضلكم علي غيركم، وبكرمكم وحسن أخلاقكم، وإنك يا محمد ولدي تربيت في بيتي، وكنتَ مختلفاً عن الجميع.

استبشر علي بن أبي طالب وقال: فإنه والله الحق يا أمي، فأمني بالله وحده واتركي أصناماً لا تضر ولا تنفع.

قالت: هي أصنام لا تضر ولا تنفع، وإنني أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك يا محمد رسول الله.

كانت فرحة علي بن أبي طالب غامرة، وبارك جميع من في المنزل إسلام فاطمة، وكانت أمّاً حقيقية للرسول ﷺ، تحنو عليه وتتفقد أحواله على الدوام.

ثم حضرت أم الفضل^(١) زوجة العباس بن عبد المطلب وحدها، تطرق الباب وتساءل عن أحوال محمد ﷺ والسيدة خديجة، فحدثها الرسول ﷺ عن الإسلام كما فعل مع فاطمة، حيث وجدت فاطمة هناك، فاستبشرت وسمعت القرآن وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

(١) أم الفضل، هي لبابة الكبرى، زوجة العباس بن عبد المطلب، أخت لبابة الصغرى، وميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة، وأسماء بنت عميس، وسلمى بنت عميس.

أخيراً غابت الشمس، ونام الناس، بينما سهر المسلمون الأوائل يصلون في الليل كما علمهم الرسول ﷺ، سعيدين بصلتهم بخالقهم، وهدايتهم إلى الحق.

ثم أشرق صباح اليوم التالي، ولم يكلّ أبو بكر ولم يملّ في الدعوة إلى الدين الجديد، فكان زكي الانتقاء، خبيراً بالناس، علم من سيشرح الله صدره إلى الإسلام ممن سيصعب عليه هدايته، فما كان منه إلا أن توجه إلى صديقه أبي عبيدة بن الجراح.

كان أبو عبيدة يقلّم الحشائش حول القبور عندما أقبل عليه أبو بكر في الصباح الباكر قائلاً: عمت صباحاً يا أبا عبيدة. ابتهج أبو عبيدة بإقبال أبي بكر عليه وقال: عمت صباحاً، نشيط كعادتك، تفضل.

جلس أبو بكر إلى أبي عبيدة، وقدم أبو عبيدة له اللبن الطازج، فقال أبو بكر: هل من أخبار جديدة في غيابي؟ قال أبو عبيدة: لا أظن أن أحداً يفضل حديث الموتى في الصباح الباكر.

سأل أبو بكر: هل من حادثة؟

تنهد أبو عبيدة وقال: رضية مسكينة، تخلص منها والدها في

الليل، وجدها قرب المقبرة، فقامت بدفنها.

حزن أبو بكر لما سمع، فقال أبو عبيدة: أرجو ألا أكون قد أفسدت عليك نهارك.

قال أبو بكر: في الحقيقة لقد جننتك في أمر يخص ضلالات قريش الكثيرة.

شرب أبو عبيدة اللبن وقال: إنهم بحاجة إلى قائد يوضح لهم عواقب أفعالهم، شخص شريف حكيم، يرشدهم إلى الطريق الصحيح.

ابتسم أبو بكر وقال: لقد جننتك في هذا الأمر بالضبط.

نظر أبو عبيدة إلى أبي بكر وقال: أنت خليق بالسيادة، إذا ما كنت تفكر في سيادة قريش فإني أول من سيدعمك.

ابتسم أبو بكر وقال: ليس أنا وليست السيادة، بل أعظم.

صمت أبو عبيدة ووضع كأسه جانباً، فقال أبو بكر: هل لك في

أمر عظيم، وخير كثير؟

قال أبو عبيدة: لقد أثرت فيّ الفضول الشديد يا أبا بكر، أوضح

لي رجاء.

قال أبو بكر: نبي يبعثه الله برسالة، يهدي بها قريشاً من

ضلالاتها.

قال أبو عبيدة: نبي في مكة؟ من يكون؟

قال أبو بكر: ما قولك في محمد بن عبد الله؟

قال أبو عبيدة: ما تقول عنه قريش جميعاً، الصادق الأمين.

قال أبو بكر: وهل يكذب الصادق الأمين إذا قال أنه نبي نزل

عليه الوحي من السماء؟

صمت أبو عبيدة، ثم سأله: هل تبعته فيما يقول؟

قال أبو بكر: هو والله الصادق الأمين الذي لم يكذب على الخلق

حتى يكذب على الخالق، ألا تسمع منه ما يقول؟

فهم أبو عبيدة أن أبا بكر قد تبع صديقه محمداً، فقال: أفعل،

خذني إلى محمد.

اصطحب أبو بكر أبا عبيدة إلى الرسول ﷺ في منزله، ودخل

عليه فرحب به الرسول ﷺ وأجلسه إليه، وعرض عليه ما جاءه به

الوحي، وقرأ عليه القرآن، فأنشرح صدر أبي عبيدة لما سمع، فقال:

والله إن هذا لحق تقشعر له الأبدان، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول

الله، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله يبعث من في القبور.

بارك جميع من في المنزل إسلام أبي عبيدة، بينما نهض أبو بكر

يستأذن للمغادرة، فسأله علي بن أبي طالب الذي علم أن أبا بكر ينتقي

خيار النفوس : من التالي؟

ابتسم أبو بكر وقال : سعيد بن زيد بن عمرو.

ابتسم الجميع ، فما كان يخفى على أحدهم قصة زيد بن عمرو مع التوحيد.

كان سعيد بن زيد قد عاد من تجارة الشام تعباً ، استراح في منزله إلى زوجته فاطمة بنت الخطاب التي اعتنت به جيداً ، ثم جلسا يتحدثان ويسألها عن أحوال قريش في غيابه ، إلى أن سمعا طرق الباب ، فتح سعيد فإذا به أبو بكر ، استقبله سعيد وفاطمة بحفاوة ، وأجلساه ليتناول الطعام معهما ، ولكن أبا بكر قال : في الحقيقة ما كنت لآتي في هذا الوقت المبكر إلا بالبشرى.

ابتهج سعيد وقال : فما هي البشرى يا خير بشير؟

قال أبو بكر : نبي آخر الزمان ، الذي بحث عنه والدك وآمن به وانتظر ظهوره في مكة ، قد أوحى إليه ، وهو بيننا يدعو الناس إلى ترك عبادة الأصنام والفوز بالجنة والنجاة من النار.

جفل سعيد ، قال : هل ظهر حقاً؟ من هو؟

قال أبو بكر : الصادق الأمين ، محمد بن عبد الله.

نظر سعيد إلى فاطمة متعجباً، ثم نظر إلى أبي بكر وقال: أوحقاً

ما تقول؟

قال أبو بكر: أوحى إليه كلام عظيم، عليك أن تستمع إليه.
دمعت عينا سعيد، وقال متأثراً: صدق والدي، لقد أوصانا أن
نتبع الرسول، أحمد الله أن والدي عرف محمداً ورآه، حتى قبل أن
يوحى إليه، الحمد لله.

وأمسك بيد زوجته فاطمة وقال متحمساً: ظهر نبي آخر
الزمان، هذا أمر عظيم، لقد اختارنا الله لنكون إلى جانبه، هذا والله فوز
الدنيا والآخرة.

قالت فاطمة: فلنذهب إليه، أحب أن أسمع ما يقول.

قال سعيد: بكل تأكيد.

ونظر إلى أبي بكر وقال: هذه والله البشري، والله إنك خير

بشير.

قال أبو بكر: الحمد والفضل لله، محمد في منزله، وهو في

انتظارك.

قفز سعيد ممسكاً بيد زوجته فاطمة وأسرعاً إلى الرسول ﷺ في

منزله، دخلا عليه ووجههما مشرق ومستبشر، وما إن سمع سعيد

القرآن حتى ذرفت عيناه الدموع، وتذكر والده وما لاقى في سبيل الله ودين الحق، وقال من فوره: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. ثم قالت فاطمة: والله إنه لحق، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

عانت خديجة فاطمة سعيدة باعتمادها الإسلام، وبارك الجميع لسعيد الذي كان شديد التأثر بظهور نبي آخر الزمان أخيراً، ثم قال: يا رسول الله، أمي وأختي أيضاً تنتظران نبي آخر الزمان، سوف أجلبهما لتسمعا كلام الله.

انطلق سعيد بن زيد إلى منزل أمه^(١) وأخته عاتكة بنت زيد، وأخبرهما أن نبي آخر الزمان قد ظهر، إنه محمد بن عبد الله وهو خليق بالرسالة، وأحضرهما لتسمعا كلام الله، فعرفتا الحق سريعاً، ونطقتا الشهادة سوياً، ثم تعانقا جميعاً يبكون ويذكرون زيداً بن عمرو.

ثم جلس سعيد بن زيد إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن أبي زيداً بن عمرو كان كما قد رأيتَ وكما بلغك، ولو أدركك لآمن بك، فاستغفر له.

(١) أم سعيد بن زيد هي فاطمة بنت نعجة، ستذكر في هذا الموضع فقط.

فأوحى الله إلى رسوله، فأجاب: نعم، أستغفر له، فإنه يجيء
يوم القيامة أمة وحده، يُحشر بيني وبين عيسى ابن مريم.
تهل وجه سعيد، ولم يشعر براحة كما شعر بها الآن منذ وفاة
والده في الطريق على يد قطاع الطرق.

عاد أبو بكر إلى منزله، واستدعى أهله، وأخبرهم خبر
محمد ﷺ، وأنه قد أوحى إليه، وأنه يدعو إلى عبادة الله وترك
الأصنام، وأنه قد صدّقه وتبعه على ما يقول، فعرض عليهم أن يتبعوا
الرسول ﷺ وينبذوا ضلالات قريش، فصدّقت زوجته أم رومان^(١)
وآمنت، وكذلك أسماء بنت أبي بكر التي كانت في الرابعة عشرة،
وعبد الله بن أبي بكر الذي كان في السابعة، ولكن عبد الرحمن بن أبي
بكر الذي كان في السابعة عشرة رفض بشدة، وفضّل أن يظل على ما
تقول قريش وساداتها من تعظيم الآلهة ورفض ما هو دخيل على ما
عرفوه.

(١) أم رومان زوجة أبي بكر وأم عبد الرحمن وعائشة بنت أبي بكر من بعد، لها دور بسيط
في السيرة.

أما أبو سفيان، فكان قد فرغ من أمور تجارته في الشام، ووزع
البضاعة في مكة، وأسرع في تحضير تجارة اليمن، وانطلق تاركاً مكة
وما يدور فيها دون أن يعلم أخباراً عن أمر الرسالة.



١٣هـ | ٦٠٩م

أوائل السور

في إحدى الليالي، كان الرسول ﷺ يصلي ويتلو القرآن، وكان هناك رجل ينظر إليه مندهشاً مما سمع، إنه خباب بن الأرت^(١)، شاب في السابعة والعشرين، صانع سيوف محترف، وعبد لسيدة قوية^(٢)، رأت فيه الموهبة فاستعملته، وبات مشهوراً في صناعة السيوف.

ظل خباب يستمع إلى أن أنهى الرسول ﷺ التلاوة وغادر، فلم يستوقفه خباب ولم يسأله، بل غادر إلى منزله.

جلست السيدة خديجة إلى ابنها هند بن أبي هالة، قدمت له

(١) خباب بن الأرت، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

(٢) خباب بن الأرت عبد لأم أنمار الخزاعية.

الغداء وقالت له: يا بني، إنك عاشرت زوجي محمداً، وكان لك خير الأب والصاحب.

قال هند: محمد أبي، وقد غمرني بحبه وعطفه، هل حدث له شيء؟

قالت السيدة خديجة: وأنت تعلم أنه الصادق الأمين، ولم يعلمك الكذب ولم يكذب على أحد قط.

قال هند: هو كذلك بل أكثر، ما الأمر يا أمه؟

قالت: منذ أيام، وبينما كان يتعبد في الغار، نزل عليه ملك يدعى جبريل، وهو رسول الله إلى أنبيائه بالرسالة والوحي، أوحى إليه أنه نبي آخر الزمان، وعليه أن يبلغ كلاماً من الله إلى عباده، ألا يعبدوا إلا الله وحده، ولا يشركوا به حجراً ولا صنماً.

ابتسم هند وقال: محمد كان دائماً يطلب إلينا ألا نتوسل إلى

الآلهة، أما أن ينزل عليه الوحي من السماء، فهذا أمر عجيب!

قالت: وهل تظن أنه يكذب؟

قال هند: حاشاه، ولكن الأمر عجيب.

قالت: استمع إلى ما يقول، فقد أوحى إليه كلام بالغ البلاغة،

له حلاوة ليس كمثلته شيء.

قال هند: أفعل.

جلس هند إلى رسول الله ﷺ، واستمع إلى آيات من القرآن عجب لها كل العجب، ففكر في الأمر، وراجع نفسه أياماً وليال إلى أن أدرك أن الأمر حق، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وسُرت به أمه كثيراً.

بدأ خبر الدين الجديد يتسرب شيئاً فشيئاً، وبدأ رجال قريش يسمعون عنه وأن محمداً ﷺ قد أوحى إليه، وأن صديقه التاجر الكبير أبا بكر قد تبعه على هذا الدين الجديد، فحضر رجال من قريش مجلس الوليد بن المغيرة، وقد كان يتباهى ويتفاخر بأمواله وأولاده، خاصة خالد بن الوليد، الذي برز كمقاتل فذ لا يهزمه أحد في قريش، فقال أحدهم ساخراً: أنت صاحب المال والجاه والأولاد، وما خص الله الوحي إلا لمحمد.

أحس الوليد بالمغيرة تدق صدره، وقد سمع بعضاً مما يتلو الرسول ﷺ، ولكنه ضحك فضحك من معه في المجلس، فقال لهم: ما هذه الإشاعات الغريبة؟ يتيم أبي طالب يتنزل عليه الوحي وأنا صاحب المال والجاه والأولاد! وما هذا الذي يقول إلا أساطير الأولين،

بل مسه الجان بين ليلة وضحاها ليقول: إنني أرى الملائكة.

ضحك الجميع فقال الرجل: فليصبه أحدكم بالعين، تهلكه
وتُسكت لسانه، وتبعد عنه صاحبه.

سأل الوليد بن المغيرة: وهل صدّقه أبو بكر؟

قال الرجل: سألته هذا الصباح، فأخبرني أنه على دين صاحبه
الصادق الأمين، ودين إبراهيم، ولا يتوانى عن إخبار أي أحد بذلك.
عض الوليد على أنامله وساد الصمت المكان، الجميع متخوف من
صيت أبي بكر، وهو سيد بني تميم ولا يستطيع أحد التعرض له.

فأعلم الوحي الرسول ﷺ ما قاله الوليد بن المغيرة وجلسائه،
وأنزل الله الآيات: ﴿فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ﴾ ٥ ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ ٦ ﴿إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ٧ ﴿فَلَا تُطِعِ
الْمُكَذِّبِينَ﴾ ٨ ﴿وَدُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ٩ ﴿وَلَا تُطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ١٠
﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ١١ ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ١٢ ﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ ١٣
﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ١٤ ﴿إِذَا تُثْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾ ١٥
﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ ١٦ ﴿^(١)﴾.

وأوحي إليه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ

(١) سورة القلم، الآيات ٥-١٦، نزلت في الوليد بن المغيرة، المفتون أي المجنون.

لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾^(١).

وبينما أبو بكر في شؤون تجارته، مر عليه أبو سلمة يشتري منه بعض الثياب، وبعد حديث قصير سأله أبو بكر عن رأيه في الأصنام وعبادتها، وأنها لا تضر ولا تنفع، فقال له أبو سلمة: إنها حجارة لا تضر ولا تنفع، ولكن آباءنا عكفوا على عبادتها، وعلمونا أن نتقرب إليها. فقال أبو بكر: هل لك في خير من ذلك؟ نبي ظهر في مكة.

تعجب أبو سلمة، فقال: نبي! هنا في مكة! من يكون؟
قال أبو بكر: أخوك في الرضاعة، ابن عمك الصادق الأمين،
ووالله إنه لصادق.

تعجب أبو سلمة وقال: محمد بن عبد الله! هل هو نبي يُوحى إليه كما يُقال؟

قال أبو بكر: إنك صاحب عقل لا يهديك إلا إلى حق، أولاً تسمع ما يقول؟

فكر أبو سلمة وقال: وماذا يقول؟

(١) سورة القلم، الآيات ٥١-٥٢.

قال أبو بكر: كلام لا يقوله إلا خالق الخلق.

سكت أبو سلمة يفكر، فقال له أبو بكر: لن تخسر شيئاً إذا استمعت إليه، وهذه الثياب أعطيك قماشاً مطرزاً معها.

ابتسم أبو سلمة وقال: ستفرح أم سلمة بالقماش المطرز، يبدو جميلاً، سأخذ الثوبين، وشكراً على النصيحة.

اتجه أبو سلمة من فوره إلى منزله، وجلس إلى أم سلمة يقول لها ما أشار عليه أبو بكر، فقالت أم سلمة: والله لقد نصحك صاحبك، وإنك لصاحب عقل لا يهديك إلا إلى خير، فاهب إلى محمد واستمع إليه، لأن كان حقاً فهو والله الخير كله.

كما مر على أبي بكر الأرقم بن أبي الأرقم^(١)، وعثمان بن مظعون^(٢) الذي كان يسخر من عبادة الأصنام وشرب الخمر، وعبيدة بن الحارث^(٣)، فحدثهم عن أمر النبوة خفية، ونصحهم أن يستمعوا إلى ما جاء به محمد ﷺ، فذهبوا جميعاً إلى منزل الرسول ﷺ والتقوا بأبي سلمة الذي كان قد حضر ليستمع إلى ما يقول الوحي.

(١) الأرقم بن أبي الأرقم، صحابي، سيرد ذكره في هذا المكان فقط.

(٢) عثمان بن مظعون، صحابي، له دور بسيط في السيرة.

(٣) عبيدة بن الحارث بن المطلب، زوج زينب بنت خزيمة أم المؤمنين من بعد، له دور في السيرة إلى غزوة بدر.

قرأ عليهم الرسول ﷺ القرآن، وشرح لهم أمر الوحي وعبادة الله الواحد، وعرض عليهم الإسلام، فابتهج الجميع وشهد أربعتهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وخرج أبو سلمة سعيداً مهللاً إلى أم سلمة يبشرها أن الرسول حق، والوحي حق، وهو نبي آخر الزمان، ولهم فخر الدنيا والآخرة، فابتهجت أم سلمة، وذهبت إلى الرسول ﷺ من فورها، وسمعت القرآن، وقالت: والله إنه لحق، وإننا معك يا رسول الله، فامض إلى ما أمرك الله، وإنا إن شاء الله مساندوك.

وذهب عبيدة بن الحارث إلى زوجته زينب بنت خزيمة^(١) يخبرها بأمر الوحي والنبوة، فابتهجت وأبشرت، وذهبت مع زوجها إلى الرسول ﷺ، وأعلنت إسلامها.

كما ذهب عثمان بن مظعون إلى إخوته^(٢)، وأخبرهم بأمر الرسالة، فذهبوا إلى النبي وأعلنوا إسلامهم جميعاً، وأسلم ابن عثمان بن مظعون^(٣).

(١) زينب بنت خزيمة، أم المؤمنين من بعد، لها دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٢) أخوا عثمان بن مظعون هما قدامة وعبد الله ابنا مظعون، سيرد ذكرهما في هذا المكان فقط، وأخته زينب بنت مظعون، زوجة عمر بن الخطاب وأم عبد الله (لم يولد بعد) وحفصة بنت عمر، أسلمت وكتمت إسلامها عن زوجها.

(٣) السائب بن عثمان بن مظعون، صحابي، سيرد ذكره في هذا الموضع فقط.

أما خباب بن الأرت فقد كان في دكانه يعمل على صناعة
السيوف، ولكنه كان غير كل يوم شارداً الذهن، يفكر فيما سمع من
محمد ﷺ عند الكعبة، فجاءه نفر من قريش يسألونه عن السيوف،
وكان يكلم نفسه: إن أمره لعجب!

نظر الرجال إلى بعضهم متعجبين، فسأل أحدهم خباب: أي
أمر؟

فقال خباب: هل رأيتموه؟ هل سمعتم كلامه؟

نظروا إلى بعضهم ثانية لا يفهمون ما يقول، فقال خباب
لنفسه: أجل رأيته وسمعته، رأيت الحق يتفجر من جوانبه، والنور
يتألاً بين ثناياه.

فهم القرشيون أنه يعني محمداً ﷺ، فصاح أحدهم: من هذا
الذي تتحدث عنه؟

أجاب خباب: ومن سواه يا أبا العرب؟ من سواه من قومك
يتفجر من جوانبه الحق، ويخرج النور من بين ثناياه؟
فهب آخر مذعوراً يقول: أراك تعني محمداً.

هز خباب رأسه قائلاً: نعم إنه هو رسول الله إيلنا ليخرجنا من
الظلمات إلى النور.

فهبوا إليه وضربوه، وأوثقوه بالسلاسل، وسخنوا حديد
السيوف حوله وضربوه بها إلى أن فقد وعيه، وما إن أفاق حتى رأى
سيدته تستشيط غضباً مما أخبرها به الرجال، فقالت: أنت، هل
صحيح ما يقوله الرجال أنك تركت عبادة الأصنام، واتبعت ما جاء به
محمد؟

نظر خباب حوله، فإذا به ما يزال في المتجر، والسيوف ملقاة
حوله، والنيران مشتعلة، ويدها موثقتان بالسلاسل، نظر إلى سيدته
وقال: والله إنه ليتفجر من جوانبه الحق، ويخرج النور من بين ثناياه.
غضبت سيدته وسخّنت الحديد بالنار، ووضعت على رأس
خباب، فصرخ إلى أن فقد وعيه، وعندما فتح عينيه رأى سيدته تنظر
إليه بكل قسوة تقول: هذا ما ستلاقي كلما ذكرت مذمماً.
ابتسم خباب وقال: لن أذكر إلا محمداً رسول الله.

غضبت سيدته وتابعت تعذيبه إلى الفجر، في الليلة التالية لم
يصبر خباب، وذهب إلى منزل النبي ﷺ، فتح زيد بن محمد الباب
قلقاً من طارق في ساعة غريبة، ولكن خباب قال: أعتذر عن حضوري
في هذا الوقت، هل لي أن أرى رسول الله؟

استبشر زيد خيراً، وأدخل خباباً ونادى والده يخبره أن خباباً

صانع السيوف المعروف يسأل عن رسول الله.

استبشر الرسول ﷺ ، واستقبله بسرور ، فقال خباب : يا رسول الله ، لقد سمعت ما تقرأ عند الكعبة ، والله إنه الحق ، وإن قریشاً على باطل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله.

سر البيت بإسلام خباب ، وأعدت السيدة خديجة له طعاماً ولباساً ، ونصحوه بالصبر على ما يلاقي إلى أن يقضي الله أمراً.



١٣هـ | ٦٠٩م

مرحلة الدعوة الأولى

كان جميع المسلمين يجلسون في منزل الرسول ﷺ يستمعون القرآن وما يقص عليهم من أمر الوحي، والأنبياء، والجنة والنار، ويفسر لهم ما يخفى عليهم من الآيات.

كان سعد بن أبي وقاص يكتنم إسلامه عن أمه^(١)، حيث كانت تعظم الأصنام وتتبارك بها بشكل كبير، ولكنه اختلى بأخيه عامر بن أبي وقاص يخبره عن أمر محمد بن عبد الله، والرسالة، والوحي، والقرآن، وأقنعه أن يذهب إلى الرسول ﷺ ليستمع إلى ما يقوله، ففعل عامر.

دخل سعد وعامر إلى دار الرسول ﷺ حيث كان الرسول ﷺ يتلو على المسلمين القرآن ويعلمهم، فاستمع إليه ليلة ثم غادر. ولكنه في الليلة الثانية أحب أن يعاود الكرة، ويستمع إلى ما يقول رسول الله،

(١) أم سعد بن أبي وقاص وعامر وعمير ابنا أبي وقاص، هي حمنة.

فذهب بضع ليال إلى دار الرسول ﷺ مستخفياً يسمع القرآن، ثم شرح الله صدره، وجلس إلى رسول الله ﷺ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

عقبة بن أبي معيط^(١) كان من سادات قريش من بني أمية، وهو صديق حميم لأبي جهل وأبي بن خلف^(٢)، وكان لعقبة راعي غنم يبلغ الثامنة عشر من العمر يدعى عبد الله بن مسعود^(٣)، كان آدم نحيفاً وقصيراً ونحيل القدمين، فقيراً يرعى الغنم من أول النهار إلى آخره. وذات يوم وهو يرعى الغنم لسيدته في صحراء مكة، مر عليه رجلان لم يعرفهما، كانا الرسول ﷺ وأبا بكر، وكانا عطشين، فوقفا عند عبد الله بن مسعود، وسأله الرسول ﷺ: يا غلام، هل من لبن؟ فأجاب عبد الله بن مسعود: نعم، ولكني مؤتمن عليه. فابتسم الرسول ﷺ فرحاً بأمانته، فقال: هل عندك من جذعة^(٤) لم ينزل عليها الفحل^(٥) بعد؟

(١) عقبة بن أبي معيط، من سادات بني أمية، له دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٢) أبي بن خلف، أخو أمية بن خلف سيد بلال بن رباح، له دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٣) عبد الله بن مسعود، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

(٤) الجذعة هي الشاة الصغيرة.

(٥) الفحل هو الذكر، يعني هل من شاة صغيرة لا تدر لبناً.

أجاب: نعم.

وأشار إلى شاة صغيرة لا لبن لها، فأمسكها أبو بكر، وبدأ الرسول ﷺ يمسح على الضرع ويدعو ويقرأ القرآن، إلى أن انتفخ الضرع ممتلئاً باللبن أمام عين عبد الله بن مسعود، ثم جلب أبو بكر صخرة مقعرة، فحلب الرسول ﷺ فيها وملاها، وقدمها إلى أبي بكر الذي شرب وارتوى، وأعادها إلى الرسول ﷺ فشرب وارتوى، ثم قدمها إلى عبد الله بن مسعود فشرب منها مندهشاً مما رأى، فكان لبناً شهياً صافياً، ثم وضع الرسول ﷺ يده على الضرع وقال: اقلص.
فانكمش الضرع وعاد فارغاً كما كان.

دُهل عبد الله بن مسعود لما رأى، إنها معجزة يراها رأي العين،
فمال إلى أبي بكر وسأله: من الرجل؟

أجابه أبو بكر: هذا رسول الله الواحد، الذي لا إله إلا هو.
فقال عبد الله بن مسعود: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله.

وغادر الرسول ﷺ وأبو بكر، وظل عبد الله بن مسعود يفكر في الرسول ﷺ، وقرر أن يتبعه ويراقبه ويستمع لما يقول.

وبدأ الناس يسمعون عن الدين الجديد أكثر فأكثر، بعضهم كان يرى الرسول ﷺ يصلي في الليل، والبعض يسمع القرآن من بعض المسلمين الجدد، وبدؤوا يشعرون بأناس تركوا عبادة الأصنام، ويستمعون إلى تلاوة الرسول ﷺ عند الكعبة، وتوافد القليل من الناس إلى منزل الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم^(١)، وكان الرسول ﷺ يعلم المسلمين القرآن في منزله كل ليلة، وبينما كان الرسول ﷺ يعلم المسلمين سورة الفاتحة، كان يقول: قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، وله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٣)، قال: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤)، قال: مجدني عبدي فهذا لي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٥) أهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^(٧)، قال: فذاك له.

حضر خنيس بن حذافة السهمي^(٢) ليستمع إلى الدين الجديد في منزل الرسول ﷺ دون أن يخبر أحداً، تفاجأ بأناس لم يكن يعلم أنهم

(١) من الأوائل الذين أسلموا: مسعود بن ربيعة، سليط بن عمرو، عياش بن أبي ربيعة (وله دور بسيط في السيرة) وامراته أسماء بنت سلامة، عامر بن ربيعة.

(٢) خنيس بن حذافة السهمي، صحابي، زوج حفصة بنت عمر من بعد، قبل زواج النبي منها.

قد أسلموا، رحبوا به، وبعد استماعه لما يقوله الرسول ﷺ شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وحضر بعده عبيد الله بن جحش^(١)، الذي كان قد ترك عبادة الأصنام مع أصدقائه ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو، وحضر معه أخوه عبد الله بن جحش^(٢)، وأبو أحمد بن جحش^(٣)، واستمعوا لما يقول الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم.

كان عبيد الله بن جحش قلقاً من إخبار زوجته رملة بنت أبي سفيان^(٤) خبر إسلامه، فهي من بني أمية، وخبر كهذا قد ينتشر بسرعة ويسبب الكثير من المتاعب، أو ربما تتركه وتفر منه.

ارتبكت أموره وعلته كآبة من الحزن والقلق، حتى كانت ليلة استيقظ في جوفها وظن أن زوجته نائمة، فأخذ يرتل القرآن، ويصلي، ويطلب من الله السداد والتوفيق، ولكن رملة لم تكن نائمة، فسمعت بعضاً مما يتلو، فدخلت قلبها تلك الآيات، فاقتربت من زوجها

(١) عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان قبل زواج النبي منها، نرجو التفريق بينه وبين الصحابي عبد الله بن جحش.

(٢) عبد الله بن جحش، صحابي، له دور في السيرة إلى ما بعد الهجرة.

(٣) أبو أحمد بن جحش، سيذكر في هذا الموضع فقط.

(٤) رملة بنت أبي سفيان هي أم حبيبة، أم المؤمنين من بعد، لها دور في السيرة كاملة.

بهدهوء، وقالت: أألت نائماً يا زوجي؟

ارتبك عبيد الله، فنهض قائلاً: كلا، كنت أفكر في أمر ما، ولم أستطع النوم.

قالت: وماذا كنت تفعل قبل قليل؟ ما هذا القول الذي كنت تقول؟

قال: لم أقل شيئاً، ولم أفعل شيئاً، فقط لم أستطع النوم.

قالت: بلى، لقد سمعتُ كلاماً جميلاً كنت تقوله، ما كان شعراً

ولا كهانة، أحب أن أسمعه ثانية.

هدأ عبيد الله وشعر بطمأنينة في صدره، بل استبشر في إسلام

زوجته، فهي حليلة راشدة، قال: سوف أصدقك القول يا رملة، هذا

دين جديد جاء به محمد بن عبد الله، يدعو إلى عبادة الله الواحد، وترك

عبادة الأصنام.

قالت رملة: إذن الإشاعات صحيحة، ومحمد بن عبد الله يدعي

النبوة.

قال عبيد الله: بل هو نبي آخر الزمان يا رملة، اسمعي ما يقول.

قالت رملة: خذني إليه في الغد.

قال عبيد الله: بل آخذك الآن، فهو يدعو سراً، ولم يستعلن بعد.

ذهبت رملة مع زوجها إلى منزل الرسول ﷺ، والتقت بزَيْنَب

بنت جحش وأختها حمنة بنت جحش اللتان أخبراهما أخوهما عبد الله بإسلامه، فاستمعن إلى القرآن، وأعلن إسلامهن^(١)، وسُعد عبيد الله جداً بإسلام زوجته، وزال عنه الهم والقلق.

في هذه الأثناء كان بنو هاشم يحضرون لعرس جعفر بن أبي طالب، الذي اختار أسماء بنت عميس زوجة له، حيث أن أختها لبابة الكبرى هي زوجة عمه العباس بن عبد المطلب الذي رباه.

كان الاحتفال جميلاً، والموائد كبيرة، وحضر الرسول ﷺ وشارك في الولائم، وكانت بنو هاشم يداً واحدة.

وذات يوم كان جعفر بن أبي طالب جالساً إلى زوجته أسماء بنت عميس يفكر في أمر ابن عمه محمد ﷺ، فقد وصل إلى مسامحه أمر الدين الجديد، قال: هل علمت يا أسماء بأمر ابن عمي محمد؟

قالت أسماء: هل تعني أمر النبوة؟

قال: هل تظنين أنه نبي فعلاً؟

(١) الإخوان عبد الله وعبيد الله وأبو أحمد وزينب وحمنة أبناء جحش، أولاد عمّة الرسول ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، لعبد الله وعبيد الله وحمنة دور صغير في السيرة، أبو أحمد سيذكر في هذا الموضع فقط، أما زينب بنت جحش فهي أم المؤمنين من بعد، لها دور في السيرة كاملة.

قالت: هو ابن عمك، وأنت أعلم الناس به، وإن كل قريش تعلم أنه الصادق الأمين، وقد علمت أن أختي زينب بنت خزيمة قد تبعته على ما يقول.

تفاجأ جعفر وقال: أحقاً تقولين؟ هل آمنت بما يقول؟

قالت أسماء: لا تخبر أحداً بما سأقول، نعم هي وزوجها عبيده بن الحارث قد اتبعا محمداً، كما أن أختي أم الفضل زوجة عمك العباس هي أيضاً قد اتبعت محمداً.

صمت جعفر متفاجئاً مما تعرف أسماء، فقال: إذن هناك من صدق بنبوة ابن عمي، وهم يكتُمون ذلك.

قالت أسماء: يكتُمونه لأنهم يعلمون أن قريشاً ستتصدى لهم، وهم قليل، لا طاقة لهم بمواجهة قريش.

قال جعفر: ما رأيك أن نذهب إلى محمد، لعلنا نستمع إلى ما يقول.

قالت أسماء: نفعل، غداً نزورهم ونتحدث إليهم.

انشغل جعفر بن أبي طالب في العمل منذ الصباح، وفي المساء اصطحبه أبو طالب معه يتحدث إليه ويطوفون حول الكعبة، فشاهد الرسول ﷺ يصلي هناك، وعلي يصلي إلى يمينه، علم جعفر أن هذا هو الدين الجديد، فقال لأبيه: هل علمتَ بأمر ابن عمي محمد؟

قال أبو طالب: نعم، وإنه الصادق الأمين، وطلبتُ إلى علي أن يلزمه.

ثم نظر إلى جعفر وقال: وعليك أنت أيضاً أن تلزمه، فلن يهديكما إلا إلى خير.

فرح جعفر، واقترب من الرسول ﷺ وصلى عن يساره، وفرح الرسول ﷺ وعلي به كثيراً، ثم عاد جعفر من فوره إلى زوجته أسماء بنت عميس يخبرها بما جرى، وأنه قد أسلم، ففرحت لذلك وطلبت إليه أن يصطحبها إلى منزل الرسول ﷺ لتستمع إلى ما يقول.

فرح علي بن أبي طالب بحضور أخيه جداً، وأجلسه قريباً من الرسول ﷺ وزوجته، واستمع جعفر وأسماء إلى القرآن الكريم، وإلى ما يقول الرسول ﷺ وما يدعو إليه من توحيد الخالق، وخير الخلق، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والنجاة من النار، والفوز بالجنة.

ما إن أنهى الرسول ﷺ حديثه الليلة حتى أعلن جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس إسلامهما أمام الجالسين، وكان الرسول ﷺ سعيداً بهما جداً، وكذلك علي وجميع من في المنزل.

أما عبد الله بن مسعود فكان ينتظر قدوم الرسول ﷺ إلى الكعبة

ليستمع إلى ما يقرأ وينظر فيما يفعل، فسمع الرسول ﷺ يتلو القرآن الكريم في الليل، من سورة الفاتحة والعلق والمدثر والمزمل، فأعجب به إعجاباً شديداً، وذهب إلى الرسول ﷺ عندما فرغ فقال له: يا رسول الله، علمني من هذا القول الطيب.

فنظر إليه الرسول ﷺ وقد كان في عيون عبد الله بن مسعود بريق للتعلم، فقال له: إنك لغلام معلّم.

زرعت كلمة الرسول ﷺ في صدر عبد الله بن مسعود رغبة شديدة في تعلم القرآن، وبات يتردد على بيت الرسول ﷺ كثيراً يسمع القرآن ويحفظه ويتعلم كل تفاصيله.

كما توافد بعض الرجال والنساء إلى منزل الرسول ﷺ بعد أن سمعوا بعض الإشاعات عن دين جديد، فأسلمت مجموعة منهم^(١). وكان من بين من أسلموا عبد أسود يدعى عامر بن فهيرة^(٢)،

(١) ممن أسلموا في هذه الفترة حاطب وخطاب ومعمّر أبناء الحارث الجمحي، وزوجاتهم فاطمة بنت المجلل العامرية، وفكيهة بنت يسار، كما أسلم المطلب بن أزهري بن عبد عوف وامراته رملة بنت أبي عوف، ونعيم بن عبد الله العدوي، وحاطب بن عمرو العامري (أخو سهيل بن عمرو والسكران بن عمرو زوج سودة بنت زمعة)، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (أخو هند بنت عتبة)، وواقد بن عبد الله.

(٢) عامر بن فهيرة، صحابي، له دور بسيط في السيرة.

سمع الرسول ﷺ وآمن مع من آمنوا، ولكن سيده^(١) قد علم بأمر إسلامه، واستغل ضعفه وقلة حيلته وبدأ بتعذيبه، فلما رأى أبو بكر ذلك، عرض أن يشتريه، فاشتراه وأصبح عامر بن فهيرة يرعى أغنام أبي بكر.



(١) سيده هو الطفيل بن عبد الله، سيرد ذكره في هذا الموضع فقط.

١٢هـ | ٦١٠م

دار الأرقم

عرض الأرقم بن أبي الأرقم أن يحضر الرسول ﷺ إلى منزله كل ليلة، يجتمع بالمسلمين يعلمهم الإسلام والقرآن، حذراً أن تعلم قريش بأمر المسلمين الجدد، وتوافدهم مباشرة على منزل الرسول، فوافق الرسول ﷺ، وبات منزل الأرقم بن أبي الأرقم قرب الصفا مركزاً للمسلمين يتعلمون فيه الإسلام خفية كل ليلة، ويسلم فيه من يريد الدخول في هذا الدين^(١).

انتشر خبر رسول الله ﷺ في قريش، وبات الناس يتجادلون فيما بينهم في أمره في أسواقهم وسمرهم واجتماعاتهم، فكان أحدهم

(١) أول من أسلم في دار الأرقم هم خالد وعامر وعافل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل اللبثي، سيذكرون في هذا الموقع فقط.

يقول: محمد بن عبد الله بات ليلته يحدث نفسه، إنه يقول أنه يرى ملائكة وأشياء لا وجود لها، إنه مجنون.

ضحك الرجال، فقال أحدهم: بل احذروا منه، إنه على اتصال وثيق بالشياطين، أخشى أن يصيبكم بمكروه.

قال آخر: عن أي مكروه تتحدث؟ محمد بن عبد الله ما كان ليؤذي أحداً، إنه فقط مريض، يرى ما لا نرى.

فأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْثُقُوسُ رُوجَتْ ۝ وَإِذَا الْآلَمُودَةُ سُيِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝ فَلَا أُنْفِيسُ بِالْخُنُوسِ ۝ الْجُورِ الْكُنُوسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذَهِبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝﴾^(١).

(١) سورة التكوير، الآيات ١-٢٨. قول رسول كريم هو جبريل، ما صاحبكم بمجنون هو محمد ﷺ.

وصلت تلك الآيات إلى مسامع أبي جهل، فابتسم وقال: إذن
فذلك إلينا، إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم.

فأوحى الله إلى رسوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾^(١).

اتجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة، وطاف بها يتقرب إلى الله، وكان
يلاحظ أنظار قريش تلاحقه، والهمس واللمز يزداد يوماً بعد يوم.

جلس عند جدار الكعبة يقرأ القرآن لنفسه ويراجعه حتى لا
ينساه، فأوحى إليه الله تعالى الآيات: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي
خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ
عُتَاءً أَحْوَى ۝ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ
وَمَا يَخْفَى ۝ وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى ۝ فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الْذِكْرِ ۝ سَيَذَكَّرُ
مَنْ يَخْشَى ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ثُمَّ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝
بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ
الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝﴾^(٢).

(١) سورة التكويد، الآية ٢٩.

(٢) سورة الأعلى، الآيات ١-١٩.

فطمأن الله تعالى نبيه أن الله تكفل بحفظه للقرآن فلن ينسى منه
إلا ما شاء الله، وكان الرسول ﷺ كلما تلى هذه الآيات يقول: سبحان
ربي الأعلى.

دخل كثير من المستضعفين العبيد الإسلام أملاً منهم في التغيير
والعدل والإنصاف وإنهاء الظلم والاستعباد، وكان كلما اكتشف سيد أن
عبده قد أسلم بدأ بتعذيبه أشد العذاب، وعرضه أمام المأل وسار به في
الحر وسحبه على رمال الصحراء، وكلما رأى المسلمون عذاب
إخوانهم، حزنوا عليهم ودعوا لهم، ولكنهم ظلوا يكتمون إسلامهم.
ولكن أبا بكر كان سباقاً للمساعدة، فقد كانت قريش تعلم بشأن
إسلامه، وكان غنياً شريفاً فيها، فما كان منه إلا أن اشترى وأعتق كل
عبد أسلم وعذبه سيده، حتى صرف على العبيد الكثير من الأموال،
وظنت قريش أن التاجر الماهر بدأ يخسر أمواله في سبيل إعتاق العبيد
الفاشلين، ولكن أبا بكر كان يحتسب أجره وأمواله لله وحده.
وكان ممن أعتقهم أبو بكر أمة^(١) كان سيدها قد علم بإسلامها، وأخذ
يعذبها أمام قريش، فوقف أبو بكر أمامه وقال: ألا ترحم هذه المسكينة؟

(١) الأمة اسمها زنيرة.

قال الرجل : فاشترها مني كما اشتريت العبيد الفاشلين قبلها.

قال أبو بكر : اشتريتها، فأعتقها.

قال الرجل : هي لك بالثمن الذي تريد، إنها لا تساوي عندي

شيئاً.

قال أبو بكر : اشتريتها منك وهي أعظم عندي من مال الدنيا

كلها.

ركضت الأمة تشكر أبا بكر وتقبل يديه، فقال لها أبو بكر:

أنت حرة، اذهبي إلى منزلي لتعتني زوجتي بجراحك.

وبعد بضعة أيام فقدت الأمة بصرها، فسعد بذلك سيدها القديم

وقال لها عندما قابلها في السوق : ما أذهب بصرك إلا اللات والعزى.

فقالت له بكل إخلاص: كذبت ورب الكعبة، ما تضر اللات

والعزى وما تنفعان.

وانتشر خبر عماها بين قريش، وأن اللات والعزى قد لعنت

الأمة المسلمة، وكثر الحديث حول ذلك، واشتد وقع الكلام على الأمة،

وأن عماها قد آذى المسلمين، فرد الله إليها بصرها، وأعرضت قريش

عنها.

كما مر أبو بكر على أمة وابنتها^(١) قد أسلمتا، وكانتا أمتين لامرأة غنية في قريش علمت بأمر إسلامهما، فصارت تقسو عليهما كثيراً، وذات يوم بعنتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً.

فسمعها أبو بكر تقول ذلك، فقال لها: حلي يمينك.

فرغبت بالمال مقابلهما، حيث تعلم كل قريش أن أبا بكر يدفع المال الطائل في إعتاق العبيد المسلمين، فقالت: هو حل، أنت أفسدتهما فأعتقتهما.

قال: فيكم هما؟

عرضت عليه مبلغاً كبيراً، ولكنه لم يتردد وقال: قد أخذتتهما وهما حرتان.

ثم نظر إلى الأمة وابنتها وقال لهما: أرجعا إليها طحينها.

فقالتا بكل انكسار: أونفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟

قال: وذلك إن شئتما.

علم عمر بن الخطاب بإسلام جارية لبعض أقربائه^(٢)، فاتجه

(١) الأمة هي النهديّة، كانت أمة لامرأة من بني عبد الدار.

(٢) جارية بني مؤمل.

إليهم على الفور يقول: إن جاريتكم قد تبعت محمداً، وهي تفعل
وتقول ما يقول، ألا تنهونها؟

فقال سيدها: هي لك يا عمر، افعل ما تراه مناسباً.

فسحبها عمر بن الخطاب أمام قريش كلها، وأخذ في تعذيبها
من الصباح إلى المساء، وهي ترفض أن تكفر بمحمد وما جاء، فكان
يضربها ولا يتركها إلا إذا ملّ، فيقول لها ساخراً: إني أعتذر إليك،
إني لم أتركك إلا ملالة^(١).

فتقول له بكل إصرار: كذلك فعل الله بك.

فمر أبو بكر عليهما في اليوم التالي، وقال لعمر: يا ابن
الخطاب، لقد اشتريت الجارية من سيدها، فدعها وشأنها.
ابتهجت الجارية، وقال عمر: ما بال التاجر الكبير ينفق ماله
في شراء العبيد الفاشلين؟

قال أبو بكر: أحتسب أجري عند الله.

فاشترها أبو بكر وأعتقها، وأعتق جارية أخرى بعدها^(٢).

(١) ملالة أي مل من تعذيبها.

(٢) أعتق أم عبيس.

جلس أبو قحافة إلى الوليد بن المغيرة يتحدثان، قال الوليد: يا

أبا قحافة، هل سمعت ما جاء به محمد؟

قال أبو قحافة: سمعت القليل، وما شأنه؟

قال الوليد: يدّعي أنه يوحى إليه كلام من السماء.

قال أبو قحافة: وهل آذى به أحداً من قريش؟

قال الوليد: ليس بعد، ولكنني لست مطمئناً.

قال أبو قحافة: دعه وما يرى، وادع الآلهة أن تشفيه.

قال الوليد: ألم تعلم أن ابنك أبا بكر قد صدّقه وتبعه فيما يقول؟

قال أبو قحافة: نعم أعلم، ولكنه لا يؤذي أحداً، ولم يكن يعبد

الآلهة منذ الصغر.

قال الوليد: وهل علمت أنه يصرف نقوده في إعتاق العبيد

الضعفاء فقط لأنهم يشاركونه الرأي؟

صمت أبو قحافة، فعدده له الوليد بن المغيرة أسماء العبيد

الضعفاء وأسيادهم والمبالغ التي سمع أن أبا بكر قد دفعها في إعتاقهم،

وقال: انصحه، إذا استمر على هذه الحال فإن قريشاً ستظن أنه سفيه.

ذهب أبو قحافة إلى ابنه أبي بكر وجلس إليه يجادله ويقول:

يا بني، أراك تعتق الضعفاء، أعتق الأقوياء ليساندوك ويعاونوك.

فأجابه أبو بكر: ما لذلك أعتق، بل أعتقهم لوجه الله.
قال أبو قحافة: يا بني، إن استمر الأمر على هذه الحال فإنك
ستخسر نقودك، ولن تجد من يعاونك، وسيسفك أقرباؤك.
قال أبو بكر: يا أبت، إن الله معي، ورضاه أبغي.
قال أبو قحافة: أخشى أن يخذلك إلهك.
قال أبو بكر: إلهي القادر على كل شيء، خالق كل شيء،
المتصرف في كل شيء، أستعين به دون سواه.
فهم أبو قحافة أن لا فائدة من إقناع أبي بكر، فتركه وشأنه.

التقى أبو بكر ببلال بن رباح، عبد أمية بن خلف، يحمل
الأصنام الثقيلة على ظهره لينقلها إلى السوق، قال أبو بكر: السلام
عليك يا بلال، كيف يومك؟
التفت بلال سعيداً بقاء التاجر الخلق أبي بكر، فأسقط إحدى
الأصنام على الأرض فانكسر، هرع بلال إلى الصنم يتفحصه ويحاول
إصلاحه دون فائدة، قال: أرجوك ألا تغضب مني، أرجوك ألا تغضب
أمية بن خلف، أتوسل إليك أن تستر علي.
حزن أبو بكر لحال بلال، وتوسله لأحجار لا تضر ولا تنفع،

فوضع يده على ذراعه وقال: لا عليك يا بلال، لن يعلم أحد بأمر هذا الصنم، لأنه لن يشي بك.

قال بلال: سيغضب أمية بن خلف كثيراً، هذا الإله يساوي الكثير.

ابتسم أبو بكر وقال: إذا علم فأخبره أنك سترد عليه ثمنه، وسأساعدك في ذلك.

هدأ بلال قليلاً ثم قال: آسف أنني أفسدت عليك يومك بأشغالي.

ابتسم أبو بكر وقال: بل إنني حزين لما حدث.

قال بلال: صحيح، إله كهذا قد يوقع بنا المصائب.

هز أبو بكر رأسه وقال: لن يوقع بك هذا الحجر أية مصائب، ثق بذلك، فهو حجر لن يضرك.

نظر بلال إلى أبي بكر وقال: ألا تخشى غضب الآلهة؟

ابتسم أبو بكر وقال: إنما أخشى الله وحده، ولا أخشى حجارة حفرها تاجر يبييعها بأعلى الأثمان، ما بالك يا بلال؟ ألا تعلم من نقش هذا الصنم؟

قال بلال: بلى أعلم، إنه ينقش أجمل الآلهة لسيدي أمية بن

خلف، فيبيعها له بسعر رخيص، فيبيعها أمية بأسعار باهظة.
قال أبو بكر: إنها تجارة يا بلال، وليست بعبادة خالصة
للخالق، هل خلقك هذا الحجر؟

قال بلال: بل كنت على قيد الحياة قبله.
قال أبو بكر: وأنت كسرتة، فهل يستطيع أن يحرك يده
ويردها إليك؟

قال بلال: أبدأ، ماذا تعني يا أبا بكر؟
قال أبو بكر: أعني أن ما فعله قريش ما هي إلى ضلالات،
استغلها التجار، عبادة الخالق لا تحتاج إلى نقود، ولا يفرق خالقنا
بين سيد وعبد، كلنا عبيده وحده.

ضحك بلال قائلاً: هل تعني أنني وأمية بن خلف متساوون عند
الخالق؟

قال أبو بكر: بل ربما تكون أفضل منه وأعلى منزلة.
كف بلال عن الضحك عندما رأى الجدبية في وجه أبي بكر،
قال: هل تمزح؟ كيف لي أن أكون أفضل من سيدي؟ إنه شريف في
قريش، وغني جداً، وما أنا إلا عبد حبشي أخدمه ليل نهار!
قال أبو بكر: ولكنه يعبد أحجاراً لا تضر ولا تنفع، بل إنها

ستهلكه في حياته وبعد مماته، أما أنت إذا ما عبدت الله وحده، ولم تشرك به حجراً ولا صنماً، فإنك تفوز في الدنيا والآخرة.

سأل بلال: وهل تؤمن أن هناك حياة بعد الموت يا أبا بكر؟

قال أبو بكر: ومن للظالم في الدنيا غير الله في الآخرة؟

صمت بلال يفكر، فقال أبو بكر: فكر فيما قلت، ولتعلم أن هناك رسول في قريش يدعو الناس إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام، وأننا ممن اختارهم الله لنصرته ومساندته، وهذا شرف الدنيا والآخرة، فلا يسبقنك إليك أحد.

تعجب بلال: رسول هنا في قريش! من يكون؟

قال أبو بكر: إنه محمد بن عبد الله، الصادق الأمين، والله الذي لا إله إلا هو إنه على حق، وإنه قد أتى بكلام من عند الله، أتحب أن تسمع منه شيئاً؟

نسي بلال أمر الأصنام التي يتوجب عليه أن يحملها إلى سيده، وجلس إلى أبي بكر ينصت إلى ما يتلو، فاقشعر بدنه لما يسمع، وعلم أن هذا كلام عظيم، وأسلم على يد أبي بكر وتعلم القرآن والصلاة، وأخفى إسلامه عن سيده أمية.

بات بلال من ليلته يصلي للخالق الواحد، ينتظر إلى منتصف

الليل حيث ينام العبيد الآخرون، فينهض ويستقبل القبلة في بيت المقدس، ويصلي ما تعلم من أبي بكر.

ولكن ذات يوم رآه عبد آخر وهو يصلي الليل، فعلم أن هذا مما يأمر به الدين الجديد الذي تُعاقب عليه قريش، فذهب إلى أمية بن خلف يخبره أن عبده بلال كان يفعل ما يفعله أتباع الدين الجديد، فاشتاق غضب أمية بن خلف على بلال، وتوعد له بأشد العذاب.

سحب العبيد بلالاً إلى أرض الصحراء، وألقوه تحت أقدام أمية بن خلف، فبدأ يسأله: هل صحيح ما سمعت؟ هل تركت عبادة اللات والعزى واتبعت محمداً؟

لم يبال بلال في إخفاء إسلامه، وقال بكل ثقة: أعبد الله وحده ولا أشرك به صنماً ولا حجراً، اللات والعزى لا تضر ولا تنفع، وإننا سواسية أمام الله، إليه نرجع وإليه المصير.

غضب أمية أكثر، وقال: سواسية؟ من تعني، أنا وأنت؟

قال بلال بكل ثبات: لا فرق عند الله بين عبد حبشي وسيد شريف، كلنا عبيد الله الواحد، هو خلقنا وإليه المصير.

ورفع صوته لتسمعه مكة يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

من ذلك الوقت لم يتوانى أمية بن خلف عن تعذيب بلال بأشد أنواع العذاب، وكان يتفاخر في قريش بما يفعل، فكان يأخذه في الصحراء وسط الظهيرة، وينزع ثيابه، ويلبسه دروع الحديد، ويلقيه على التراب ويضع حجراً كبيراً يحمله عدة رجال معاً ليضعوه على صدره.

ظل بلال صامداً رغم كل التعذيب، يكاد أن ينصهر من شدة الحرارة، ويعود إليه أمية بن خلف بعد الساعتين والثلاثة يسأله: كيف رأيت العذاب؟ ألسنتُ السيد والأمر لي وحدي؟

فلا يرد بلال عليه، فيقول أمية: اكفر بالله يا بلال، وأعلن أمام قريش أنك تعبد اللات والعزى، وأني سيدك مدى الحياة، أرفع عنك العذاب.

فيقول بلال كلمة واحدة: أحد أحد.

فيزداد غضب أمية بن خلف، ويزيد العذاب على بلال، فما يزيد ذلك بلالاً إلا إصراراً وعزيمة.

مر أبو بكر على بلال يعذبه أمية بن خلف، فعرض عليه أن يشتريه، ولكن أمية رفض، وأصر إلا أن يعذب بلالاً إلى أن يكفر، وبلال ما يزال صامداً على موقفه، فيقول له أمية: لا تزال هكذا حتى

تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.

وتكرر عذاب بلال يوماً ففترة طويلة، ما إن تصبح الشمس في منتصف السماء حتى يحمل أمية بلالاً إلى الصحراء، يضع فوقه الحجر والحديد أمام قريش كلها، يأمره أن يكفر.

وتعب أمية من صمود بلال، فاقترب منه وقال له هامساً: بلال، كن عاقلاً واكفر بالله، كلمة تقولها أرفع عنك العذاب، إنني لا أؤمن بالحجارة، هي لا تضر ولا تنفع، ولكنها تجلب النقود، وهي تجارتي وكل ثروتي، كلمة تقولها وأرفع عنك العذاب، اكفر بمحمد وأطع سيدك.

ولكن بلالاً ظل صامداً يقول: أحد أحد.

يئس أمية بن خلف من بلال، وزاد عليه العذاب حتى كاد يقتله بين يديه، فركض إليه أبو بكر يقول: أما ترحم هذا المسكين؟ حتى متى؟

أخيراً قال أمية لأبي بكر: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى.

قال أبو بكر: نعم أشتريه، بكم تبيعه؟

قال أمية: أبيعته بتسع جرات من فضة.

وقد كان هذا مبلغاً كبيراً جداً على عبد حبشي، فكان أمية يببالغ

في ذلك لتعجيز أبي بكر، ولكن أبا بكر قال: اشتريته.

تعجب أمية، وجفل الناس حولهم، ولكنه ضحك على الصفقة المربحة وقال: أتعلم يا أبا بكر، لو أبيتَ إلا أن تأخذه بجرة واحدة لبعته لك.

فأجابه أبو بكر: وأنا والله لو أبيت يا أمية إلا أن تبيعه بمئة جرة لاشتريته.

فسكت أمية بن خلف أمام عزم أبي بكر في إعتاق بلال، ولكنه تركه ورفع عنه العذاب ما إن ضمن الصفقة الرابعة، وترك بلالاً لأبي بكر.

أخذ أبو بكر بلالاً إلى منزله، واعتنى بجراحه، وكان بلال يريد أن يستمع إلى رسول الله ﷺ ويذهب إلى دار الأرقم ويتردد عليه كل ليلة، فقال لأبي بكر: إن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعمل الله.

فقال أبو بكر: أطلقتُ سراحك لوجه الله، فافعل ما تشاء.

ومن يومها وبلال بن رباح يلازم الرسول ﷺ يتعلم منه الإسلام والقرآن عن قرب.

كانت هذه ظاهرة عجيبة بالنسبة لقريش، أن ينفق أبو بكر التاجر الذكي، أموالاً طائلة في شراء العبيد! فبدؤوا يسيرون بين الناس يقولون: هل تعلمون لماذا يعتق أبو بكر العبيد، لأن بلالاً بن رباح له عليه نعمة في الماضي، فيريد أن يجزيه بها.

فأنزل الله تعالى الآيات على رسوله ﷺ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنْذَرْنَاهُ نَارًا تَلْقَىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾^(١).

فوعده الله أبا بكر بالرضى والجزاء الأوفى في الآخرة على إعتاقه العبيد لوجه الله.

وتابع أبو بكر إعتاق العبيد، ومر على عبد^(٢) لصفوان بن أمية

(١) سورة الليل، الآيات ١-٢١. الذي يؤتي ماله يتزكى هو أبو بكر الصديق.

(٢) العبد اسمه أبو فكيهة.

بن خلف^(١)، كان صفوان قد اكتشف إسلامه، فأرسله إلى أبيه يقول:
إليك هذا الصابئ، لا ينفعني.

فربط أمية بن خلف في رجله حبلاً فجره حتى ألقاه في
الصحراء، وجعل يخنقه، فجاء أخو أمية أبي بن خلف فقال: زده.
فشد أمية بن خلف على عنقه أكثر حتى ظن أنه مات، فمر بهم
أبو بكر الصديق فقال: أمية، أشتريه منك.
ألقي أمية بن خلف العبد على الصحراء وقد ملّ من تعذيبه
وقال: هو لك، لا نفع منه.
واشتراه أبو بكر وأعتقه.

أما أبو جهل فقد كان منزعجاً من هذا الدين الجديد، ويخشى
على تجارة قريش أن تكسد بسببه، واستغل ظاهرة إيمان العبيد
والإماء الضعفاء، وبات يقول في قريش: ألا تعجبون إلى هؤلاء
وأتباعهم الضعفاء، لو كان ما أتى محمد خيراً وحقاً ما سبقونا إليه.
وكان كلما سمع بالرجل قد أسلم وتابع محمداً على دينه تتبعه
وتعقبه، فإن كان له شرف ومنعة من قومه أنبه وأخزاه وقال له:

(١) صفوان بن أمية بن خلف، له دور في السيرة كاملة.

تركت دين أبيك وهو خير منك ، والله لنخزيك في قريش.

وإن كان تاجراً قال له : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك

حتى لا يبقى لك مال.

وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به سيده ليعذبه.

وكانت السيدة خديجة في هذه الأثناء حاملاً ، وتعلم النساء

الإسلام ، كما كانت تؤجر عبيداً بنقودها ليتبعوا زوجها الرسول ﷺ

ليتأكدوا من سلامته ، حيث بدأت مكة تعلم أكثر فأكثر عن أمر الدين

الجديد.

وفي ليلة مباركة ، ولدت السيدة خديجة ولداً جميلاً ، سعد به

الرسول ﷺ كثيراً ، وأطلق عليه اسم عبد الله ، وكان الجميع يرون النور

والسرور في وجهه ، فباتوا ينادونه الطاهر والطيب.

كان خباب بن الأرت حافظاً وصاحب ذهن واع ، وكان ينتقل على

دور المسلمين بمكة يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين ويرشدهم إلى

القيام بالعبادات وحسن أدائها ، وكان في كثير من الأوقات سفيراً أميناً

بين هؤلاء المسلمين الذي تحول ظروفهم ولقاء الرسول ﷺ .

وكان عمار بن ياسر في عمله اليومي، وكان قد سمع بعض الكلام عن صديقه محمد ﷺ والنبوة، ويوماً سمع الرسول ﷺ يتلو القرآن عند الكعبة، فأعجب لما سمع، وقال في نفسه: يبدو أن الإشاعات صحيحة، هذا هو الدين الجديد الذي جاء به محمد.

أنهى الرسول ﷺ صلاته وغادر، وظل عمار واقفاً يفكر: إن محمداً الصادق الأمين، ويبدو أن هناك دين جديد فعلاً، هل يُعقل أن يكون نبياً يوحى إليه؟ ومن لها في مكة إلا الصادق الأمين؟

قرر عمار أن يتحرى الأمر أكثر قبل أن يؤلب قريشاً عليه، وبدأ يسأل بسرية عن أناس آمنوا مع محمد ﷺ، أو يسمع عن هذا الدين دون أن يراه أحد يقترب من محمد ﷺ، فكان ممن سأله رجل قد كتم إسلامه، فرأى تعلق عمار بأمر الدين، فأسر له وقال: اسمع يا عمار، اكنتم هذا الأمر، اذهب الليلة إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، وستجد محمداً يعلم الناس الدين الجديد هناك، فإن أعجبك فاتبعه، وإلا فاكنتم.

فرح عمار بذلك كثيراً وقال: هذا بالضبط ما كنت أبحث عنه. وانتظر الليلة بفارغ الصبر، وما إن غربت الشمس حتى أسرع إلى دار الأرقم، ولكنه وجد صهيباً الرومي يقف عند الباب، اقترب

عمار منه وسأله: عمت مساء، هل ترغب في شيء من الأرقام؟

قال صهيب: عمت مساء، أردت فقط أن ألقى التحية، ماذا

عندك؟

سكت عمار قليلاً ثم قال: اصدقني القول يا صهيب، لماذا

حضرت هنا في هذه الساعة؟

ابتسم صهيب وقد علم أن عماراً قد قدم ليسمع من محمد ﷺ

وقال: حضرت لما حضرت أنت له، أريد أن أسمع من محمد.

ابتسم عمار وقال: فهو الخير كله، محمد الصادق الأمين،

فلنسمع ما يقول.

طرقا الباب، ودخلا ليجدا بضع رجال ونساء حول الرسول ﷺ

يتعلمون القرآن، ويحدثهم الرسول ﷺ عن الإيمان والله والملائكة،

وبعض الأنبياء السابقين، فجلسوا واستمعوا.

كان الرسول ﷺ يعلم الصحابة سورة جديدة أوحى الله بها

إليه: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ

فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرْمَ ذَاتِ

الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ

بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْتَرُوا فِيهَا

١٣) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤)
 فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي
 أَكْرَمَنِ ١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦) كَلَّا ١٧)
 بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ١٨) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ١٩)
 وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ٢٠) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢١) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ
 الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢٢) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٣) وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ
 بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ٢٤) يَقُولُ يَلِيْتَنِي قَدَمْتُ
 لِحَيَاتِي ٢٥) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَدِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ٢٦) وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدًا ٢٧)
 يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٨) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٩) فَأَدْخُلِي
 فِي عِبَادِي ٣٠) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ٣١) ﴿١﴾

حدثهم رسول الله عن الأمم السابقة، عاد وثمود وفرعون
 وأنبيائهم، وكيف ابتلوا بالكافرين.

ثم أسلم عمار وصهيب في جلسة واحدة، وانطلق عمار إلى أبيه
 وأمه يحدثهما عن الدين والله والإيمان، وتلى عليهما القليل مما حفظ،
 فانشرح صدرهما وآمنا.



(١) سورة الفجر، الآيات ١-٣٠.

١٢هـ | ٦١٠م

فتور الوحي

ظل الرسول ﷺ يدعو إلى الإسلام والتوحيد، وظلت الآيات تنزل عليه إما بالوحي أو عن طريق جبريل عليه السلام، الذي كان يتصور على شكل رجل يتحدث إلى الرسول ﷺ، وأقبل الأحرار والعبيد على الإسلام، فأسلموا وكتموا إسلامهم.

وفي هذه الأثناء توفي ورقة بن نوفل، فحزنت عليه ابنة عمه السيدة خديجة كثيراً، فقد كان خير قريب، وحزن على فراقه الكثيرون. كان قلب ورقة بن نوفل مطمئناً بالإيمان، وبأن محمداً ﷺ نبي الله، فسألت خديجة زوجها عن ابن عمها ورقة وقالت: يا ابن العم، إن ابن عمي ورقة بن نوفل كان كما تعلم من العلم في الدين، وقد صدق ما جئت به، وتمنى لو يكون شاباً فيساندك، فهل لك من علم أين هو من الله الآن؟

فابتسم الرسول ﷺ وقد أراه الله ورقة، وقال يطمئننها: لقد رأيتته فرأيت عليه ثياباً بيضاً، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض.

ابتهجت السيدة خديجة واطمأن قلبها، وزال حزنها ببشارة الرسول ﷺ لها.

ثم مرت الأيام ولم تنزل آيات جديدة على الرسول ﷺ، بل لم يحضر جبريل ﷺ للقاءه على الإطلاق، تعجب الرسول ﷺ من ذلك وشعر بالقلق، ولكن السيدة خديجة طمأنته وقالت: لا تقلق يا ابن عمي، سيحضر عندما يأذن الله له، لا تعجل أمر الله.

كانت غفار قبيلة تقطع الطريق على القوافل، وتقتات من السرقة، وكان من سادتهم شاب يدعى أبو ذر الغفاري^(١)، كان طويلاً نحيلاً وأسمراً، شديد اللهجة، وقد كان يصلي لرب واحد، ولا يؤمن بالأصنام والكواكب، وكان يدعو إليها واحداً طول الليل والنهار. وصل أبو ذر وأخوه أبواب مكة، فدخلها أخوه أولاً يسمع

(١) أبو ذر الغفاري، هو جندب بن جنادة، له دور في السيرة كاملة.

الأخبار فيها، فعاد إلى أبي ذر فسأله: ما أخبار مكة؟
أجاب: هي على حالها، ولكنني وجدت رجلاً يقول كلاماً ما هو
بالشعر! يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويزعم أنه نبي يأتيه الخبر من
السماء.

تعجب أبو ذر، وسأل: نبي! وما فعل به قومه؟
قال: كذّبوه، وقالوا عنه شاعر ومجنون.
قال أبو ذر: فما رأيك وأنت شاعر؟
قال: لقد سمعتُ الكهانَ فما يقول بقولهم، وقد وضعتُ قوله
على إقراء الشعر، فوالله ما يلتئم لسان أحد أنه شعر، ووالله إنه لصادق
وإنهم لكاذبون.

فكر أبو ذر قليلاً ثم قال: هل تنتظرنني حتى أنظر في أمره.
فقال أخوه: نعم، ولكن انتبه، لا تسأل قوم مكة عنه مباشرة.
فقال: لماذا؟

قال: قريش تؤذي من يسأل عنه.
أشار أبو ذر بالإيجاب، ثم حمل من فوره جرة ماء وطعاماً
وثياباً لينطلق إلى مكة، وقد سمع بنصيحة أخيه، فدخلها وجلس عند
الكعبة، يعلم أنه لا بد أن يراه هناك.

انتظر أبو ذر يوماً عند الكعبة، ولكنه لم يلحظ محمداً ﷺ،
والمشكلة أنه لا يعرف شكله أساساً.

حل المساء، وظل أبو ذر نائماً على جدار الكعبة، وأشرقت
شمس اليوم التالي، وكذلك مر اليوم دون أن يعرف أين محمد ﷺ،
ومر اليوم الثالث والحال على ما هي عليه.

في ليلة اليوم الثالث كان علي بن أبي طالب يسير قرب الكعبة،
كان في الحادية عشرة من العمر، وكان يميز تماماً من يرغب في لقاء
الرسول ﷺ ممن يريد إيذاه. وجد أبا ذر هناك، فعلم أنه ليس من
قريش، فاتجه إليه يسأله: الرجل غريب؟

فقال أبو ذر: نعم.

قال علي: تعال معي أضيفك.

نهض أبو ذر دون أن يقول شيئاً، وذهب مع علي بن أبي طالب
إلى منزل أبي طالب، لم يتحدثا في الطريق على الإطلاق، وصلا المنزل
وأكل أبو ذر ونام إلى الصباح، ثم غادر دون أن يتحدث في أي شيء.

عاد أبو ذر إلى الكعبة، استند عليها يبحث عن محمد ﷺ دون
جدوى، ونزل الليل، وجاء علي بن أبي طالب إليه مجدداً، ورآه على
حاله فقال: أما زال الرجل غريباً؟

فأجاب أبو زر: نعم.

قال علي: تعال أضيفك.

فأخذ علي أبو زر ثانية، فأكل ونام إلى الصباح دون أن يتحدثا.
عاد أبو زر إلى الكعبة، ومر اليوم إلى الليل، وعاد علي ليرى أبا
زر على حاله، فقال علي: أما آن للرجل أن ينتهي من غربته؟ تعال
معي أضيفك.

قام أبو زر بتثاقل مع علي، فسأل علي: ما الذي يدعو الرجل إلى
أن يأتي يبيت عند البيت ثلاثة أيام؟

فقال أبو زر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني وتكتم عني.
قال علي: نعم.

قال أبو زر: سمعتُ برجل يدّعي أنه نبي، جدتُ أسمع منه.
فقال علي: هو والله حق، هو رسول الله، وأنا ابن عمه، فاتبعني
من الغد، فإن وجدته ألتقط من الأرض شيئاً فاعلم أن هناك من
يتبعنا، فانصرف وتقابل في اليوم التالي عند البيت.

في اليوم التالي سار علي أمام أبي زر بعيداً، فتبعه أبو زر
يراقبه، شعر علي أن أحدهم يتبعه، فالتقط شيئاً عن الأرض فعلم أبو
زر أنها إشارة أن يفترق عنه حيث أن هناك من يراقبهما، ففعل.

في اليوم التالي عاد علي يسير أمام أبي ذر، هذه المرة لم يتبعهما أحد، ووصلا دار الأرقم حيث النبي ﷺ يجتمع بأصحابه. دخل أبو ذر الغفاري على الرسول ﷺ، وسلّم عليه قائلاً: السلام عليك يا رسول الله.

فاستبشر الرسول ﷺ برغبته في الإسلام، فأجلسه وعرض عليه الدين وأبو ذر صامت منصت بعيون حادة، فما إن أنهى الرسول ﷺ كلامه إلا قال أبو ذر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. وفرح الرسول ﷺ به فرحاً شديداً وقال له: ممن أنت؟ قال: من غفار.

فوضع الرسول ﷺ أصابعه على جبينه عجباً مما يسمع، غفار قطاع الطرق! ثم قال: فمن ضيفك؟ قال أبو ذر: بقيت على ماء زمزم ثلاثة أيام غير أن علياً أخذني.

طلب الرسول ﷺ إلى صحابته أن يضيفوا أبا ذر، ومكث أياماً يتعلم القرآن من رسول الله، فحفظ وفهم كل ما قيل له بعقل متفتح وذهن راشد، إلى أن قال له الرسول ﷺ: عد إلى قبيلتك وادعهم إلى الإسلام، واكتم عني هذا حتى تعلم أنني ظهرت، فعد.

قال أبو ذر: والذي بعثك بالحق، لأصرخنّ بها في مكة.
وخرج من دار الأرقم بين الصحابة في منتصف الليل، والصحابة
ينظرون إلى ما يفعل صامتين، واتجه إلى جبل الصفا، حيث كان من
أعلى الأماكن في مكة، وصرخ: يا معشر قريش! يا معشر قريش!
سمعتُ قريش صوت المنادي، وبدؤوا يخرجون من ديارهم في
منتصف الليل يرون المنادي، وعندما اجتمعوا قال أبو ذر: أشهد أن لا
إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله!

ففجع الناس وبدؤوا يصرخون: اضربوا هذا الصابئ!
صعد الرجال إلى أبي ذر، وبدؤوا يضربونه بأحذيتهم ضرباً
شديداً، وكانوا ينوون قتله، وفقد وعيه من شدة الأذى، فركض العباس
بن عبد المطلب، ورمى نفسه على أبي ذر يحميه ويقول لقريش:
ويلكم! أتضربون رجلاً من غفار وتجار تكم تمر بغفار إلى الشام؟ لا
تقتلوه!

فتوقف الرجال عن ضربه، وحمل العباس أبا ذر، الذي فتح
عينيه بصعوبة وقال: والله لأصرخنّ بها غداً.

في اليوم التالي كانت الجراح ماتزال على أبي ذر ومع ذلك صعد
إلى الصفا حيث كان بالأمس وقال: يا معشر قريش!

فاجتمعوا أكثر من الأمس، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقاموا يضربونه أشد من الأمس، وكاد يموت، ولكن العباس ركض ثانية إليه، وحماه منهم يقول ثانية: ويلكم أتقتلون رجلاً من غفار!

وأخرجه من بين أيديهم.

أخذه الصحابة وطببوه، ثم وقف أمام رسول الله، فقال له الرسول ﷺ: عد يا أبا ذر إلى قومك، وادعهم إلى الإسلام، ولا تأتني حتى أظهر.

هكذا عاد أبو ذر إلى قومه غفار، واتجه فوراً إلى أخيه الذي كان قد عاد إلى غفار قبله، فقال له أبو ذر: رأيتَ ذاك الرجل الذي تكذبه قريش لأنه نبي؟

قال الأخ: وما شأنه؟

قال أبو ذر: فإنه والله صادق، وإنني قد أسلمت، وإنني أدعوك إلى اتباع ما يقول وما سأخبرك عنه.

قال الأخ: لقد سمعتُ قوله، وما سمعتُ مثله قط، وإنني معك، فامض يا أخي وفقك الله.

وأتيا أمهما، فقال لها أبو ذر: رأيتُ رجلاً أفضل قومه مروءة،
وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم أمانة،
وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى، حتى سماه قومه
بالأمين، يدعو إلى الله بالحسنى، وينهى عن الفحشاء والمنكر، فشهدتُ
أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

فأسلمتُ قائلة: ما لي رغبة عن دينكما، فإني قد أسلمتُ
وصدقتُ.

وبدأ أبو ذر يعلم الدين في غفار قطاع الطرق إلى أن أسلم نصفهم،
أما النصف الثاني فكان رأيهم إن ظهر محمد اتبعوه.

مر شهر ولم يحضر جبريل ﷺ، ولم يتنزل شيء على
الرسول ﷺ، فشعر الرسول ﷺ بالقلق والحزن، وصار يتردد على
الجبال، يحاول أن يختلي ويتعبد، لعل الوحي ينزل من السماء.

ظل الأمر كذلك لشهرين آخرين، فزاد شوق الرسول ﷺ إلى
الوحي، وإلى القرآن، وزاد قلقه، وزاد تردده على جبال مكة بعيداً عن
الناس، ولم يوح إليه شيء.

ظلت السيدة خديجة تنتظره في كل مرة راجية أن يعود بخبر،

ولكنه يعود كل مرة دون أي جديد، فتصبره وتقول له: خيراً إن شاء الله، سوف ينزل الوحي بأمر من الله، لا تقلق يا ابن عمي، فإنك تدعو إلى الله كل يوم، ولم تقصر في شيء.

في هذه الفترة عاد أبو سفيان من رحلة اليمن، وكانت تجارته مزدهرة والأرباح وفيرة، فأسرع الناس إلى منزله يهنئونه بالعودة سالماً غانماً، ويسألونه عن بضائعهم، فكان يحسب لهم نقودهم، ويوزع عليهم الغنائم.

حضر الرسول ﷺ إلى منزل أبي سفيان، وكانت زوجته هند بنت عتبة جالسة مع أبي سفيان تلاعب أطفالهما، فسلم الرسول ﷺ ورحب بعودة أبي سفيان سالماً وسأله عن سفره ومقامه ولم يذكر شيئاً عن بضاعته عنده، ثم غادر.

نظر أبو سفيان إلى زوجته هند وقال: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته.

فقالت له هند: أو ما علمت شأنه؟

قال فزعاً: وما شأنه؟

قالت: يزعم أنه رسول الله.

جفل أبو سفيان وتذكر كل ما كان يدور من أخبار أثناء سفره،
وأمر صديقه أمية بن أبي الصلت، فلاحظت هند شروده فقالت: مالك؟
نظر إليها ثم قطب جبينه وقال: هذا لهو الباطل، لهو أعدل من
أن يقول هذا!

قالت: بلى والله إنه ليقولن ذلك، ويدعو إليه، وإن زوجته على
دينه.

قال: هذا هو الباطل!

وخرج من فوره واتجه إلى الكعبة، ولقي الرسول ﷺ، فقال له
على الفور: إن بضاعتك قد بلغت الخير الكثير، فأرسل من يأخذها،
ولستُ آخذاً منك فيها ما آخذ من قومي.

فرفض الرسول ﷺ ذلك وقال: إذن لا آخذها.

قال أبو سفيان: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من
قومي.

فوافق الرسول ﷺ، وأرسل رجالاً يأخذون البضاعة، ودفع إلى
أبي سفيان ما دفعه غيره.

ولكن أبا سفيان كان مقتنعاً بعبادة الأصنام، وقال في نفسه: لا

يمكن أن يكون محمد الصادق الأمين يبتدع أمراً عظيماً كهذا! إنه هين
لين مع الجميع.

* * *

طالت فترة الانتظار، ولم ينزل الوحي من السماء، ولم يظهر
جبريل ﷺ، وشعر الصحابة بانقطاع الوحي، وظل الرسول ﷺ
يختلي بنفسه على رؤوس الجبال، واشتد عليه الانقطاع الطويل،
فسمع جبريل ﷺ يوماً يقول: يا محمد، إنك رسول الله حقاً.
سكن رسول الله ﷺ لما سمع، ولكن جبريل ﷺ لم يزد على ذلك
شيئاً، فعاد رسول الله ﷺ إلى زوجته السيدة خديجة يخبرها، فتقول
له: إذن هو أمر الله، اصبر ولا تقلق.

مرت ستة أشهر على ذلك، وعلمت قريش بأمر انقطاع الوحي،
وبدأ الرسول ﷺ يسمع الكلام الجارح: استغنى عنه الله، كاذب، لم
ينزل وحي عليه من قبل، نسي ما كان سيقول، كان يلقنه ورقة بن
نوفل الذي مات...

وأخيراً لقيته زوجة عمه أبي لهب، أم جميل، تضحك وتسخر
وتقول: ما أرى صاحبك^(١) إلا قد ودعك وقلاك^(٢).

(١) صاحبك تعني جبريل ﷺ.

(٢) قلبي يعني هجرتك وتركك.

ثقل هم رسول الله ﷺ كثيراً إلى أن تنزل جبريل ﷺ بسورتين
تفرجان بهما صدر الرسول ﷺ مما أصابه من غم: ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ
إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ
ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾^(١).

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنْقَضَ
ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ⑧﴾^(٢).

فابتهج الرسول ﷺ واستبشر، وقال لصحابته: أبشروا، اتاكم
اليسر، لن يغلب عسر يسرين.

وسري عن صدر الرسول ﷺ والصحابة، وعاد الوحي يتنزل
بالآيات الكريمات.



(١) سورة الضحى، الآيات ١-١١. فيها رد على أم جميل أن الله لم يهجر الرسول ﷺ ولم
يتركه، بل أنعم عليه في الدنيا، ولسوف ينعم عليه في الآخرة.
(٢) سورة الشرح، الآيات ١-٨.

١١هـ | ٦١١م

مرحلة الدعوة السرية

ظل المسلمون يجتمعون في دار الأرقم يتعلمون الإسلام سراً، وكانوا يواظبون على صلاة قيام الليل، وأوحى الله إلى رسوله سورة العصر والعديات، وعلمها للصحابة.

كما كان الصحابة يلاقون مضايقات متواصلة من قريش، فكلما علمت قريش بإسلام أحدهم إما عذبتة أو آذته في تجارته وماله.

في هذه الأثناء مرض عبد الله ابن الرسول ﷺ مرضاً شديداً، وسهر عليه الرسول ﷺ والسيدة خديجة الليالي الطوال، وأحضروا له الأطباء، ولكن حالته ظلت تتدهور يوماً بعد يوم، إلى أن لفظ أنفاسه الرقيقة بين يدي والديه، حزنا عليه حزناً شديداً، واحتسبوا واسترجعوا، ودفنه أبو عبيدة بن الجراح، ودعا له الرسول ﷺ والصحابة، وصعب فراقه على رسول الله ﷺ.

وفي اليوم التالي استوقف الرسول العاص بن وائل^(١) بعد وفاة عبد الله يقول: قد انقطع نسلك يا محمد، أنت أبت^(٢)، لو هلكت انقطع ذكرك واسترحنا منك.

ويضحك ساخراً ويضحك نوادي قريش معه، فتأذى رسول الله ﷺ من ذلك كثيراً، فأوحى الله إليه الآيات: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾^(٣).

فسأل الصحابة رسول الله ﷺ: يا رسول الله، ما الكوثر الذي أعطاك ربك؟

فقال: نهر كمثل ما بين صنعاء إلى أيلة من أرض الشام، آنيته أكثر من عدد نجوم السماء، يرده طير لها أعناق كأعناق البخت^(٤).

فسألوا: والله يا رسول الله إنها لناعمة؟

فقال: آكلها أنعم منها.

أثناء سوق عكاظ، سمع رجل^(٥) عن الرسول ﷺ، وكان يكره

(١) العاص بن وائل هو والد الصحابي عمرو بن العاص، له دور في السيرة إلى ما قبل الهجرة.

(٢) الأبت^ر الذي انقطع نسله من الذكور.

(٣) سورة الكوثر، الآيات ١-٣.

(٤) البُخت هو نوع من الإبل.

(٥) الرجل يدعى عمرو بن عبسة السلمي، سيذكر في هذا الموضع فقط.

عبادة الأصنام، فتعجب أن هناك نبي في مكة، فقرر أن يستفسر،

فذهب إلى الرسول ﷺ وسأله: ما أنت؟

فأجابه الرسول ﷺ: أنا نبي.

فقال: وما النبي؟

فأجابه الرسول ﷺ: رسول الله.

قال: الله أرسلك؟

قال رسول الله ﷺ: نعم.

قال: بما أرسلك؟

قال رسول الله ﷺ: بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وتكسر

الأصنام، وتوصل الأرحام.

قال: نعم ما أرسلك به، فمن تبعك على هذا؟

قال رسول الله ﷺ: حر وعبد^(١).

فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، فأتبعك

يا رسول الله؟

فقال الرسول ﷺ: لا، ولكن الحق بقومك، فإذا أُخبرت أني قد

خرجت فاتبعني.

(١) حر وعبد بشكل عام.

وفي ليلة بينما كان المسلمون يصلون حول مكة في الخفاء، ظهر عليهم نفر من مشركي مكة وهم يصلون، ففوجئ المسلمون بهم أمامهم، وفوجئ المشركون بذلك أيضاً، وتفاجأوا بعددهم الذي لم يكونوا يتوقعونه! ولكن أحدهم لم يميز الآخر في الظلمة، فبدأ المشركون يقولون: ما هذا الذي تفعلون؟ وما هذا الدين الذي استحدثتم؟ تتركون دين آبائكم، خسرتم وخسر من تبعكم.

فقال أحد المسلمين: بل أنتم الخاسرون، تعبدون حجراً لا يضر ولا ينفع، وتقولون هؤلاء شفاعونا عند الله، الله لم يطلب شفيعاً، إنكم تكذبون على الله وتكابرون.

قال المشركون: أنتم ضعفاء تستترون، تعلمون أن لا طاقة لكم بقريش وساداتها وقوتها، فأين تذهبون؟ قال المسلمون: الله أقوى، هو ناصرنا.

غضب المشركون وقالوا: إن فلينصركم الله علينا. وهموا بضرب المسلمين، وكان بينهم سعد بن أبي وقاص، وتشابك الطرفان، وبدأ العنف يدب بينهم، ولم يكن بين أيديهم من أسلحة، ولم يكن الرسول ﷺ أمرهم بالقتال، بل بالصبر والاستخفاء. تضاربت الجهتان، فبحث سعد بن أبي وقاص عن شيء حوله

يضرب به، فوجد عظم فك بعير، فتناوله وضرب به رجلاً من
المشركين فجرحه وأسال دمه، فهرب المشركون على ذلك، وحلفوا
وتوعدوا، ولكنهم لم يعلموا بالضبط من كان الرجال هناك، وكان هذا
أول دم أريق في الإسلام.

في مكة كان الناس مجتمعين في نواديهم، وبدأت المفارقة
واشتدت بين القبائل، وكانت تلك عادتهم، وتخاصم بنو عبد مناف
وبنو سهم على الشرف، فتعانده السادة والأشراف أيهم أكثر، فقال بنو
عبد مناف: نحن أكثر سيدياً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً.
وقال بنو سهم: بل نحن من لدينا السادة والأعزاء، ونحن أعظم
نفراً منكم.

فطلب بنو عبد مناف أن يعدوا الأشراف، وفعلاً قاموا بالعد،
فكان أشراف بنو عبد مناف أكثر من أشراف بني سهم، ولكن بني
سهم رفضوا الإقرار بالهزيمة بل قالوا: نعد موتانا من الأشراف،
فنحن أكثر.

وفعلاً ذهبوا إلى القبور، وبدؤوا يعدون أشرافهم في المقابر، فكان
بنو سهم أكثر من بني عبد مناف، فسعدوا لذلك وابتهجوا، فأنزل الله

تعالى فيهم الآيات: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۗ كَلَّا ۚ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۗ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۗ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۗ﴾^(١).

كان أبو سفيان بن حرب يحاول أن ينافس بني هاشم بالإنفاق، ولكنه كان بخيلاً في طبعه، يحاول أن يظهر الثراء والشرف، فكان ينحر في كل أسبوع ناقتين. وذات يوم ذبح ناقتين ومعه العاص بن وائل، يشرفان على النحر والتوزيع، فأتاهما يتيم يسأل شيئاً من اللحم، فبخل عليه أبو سفيان، وأبعده العاص بن وائل بعصاه يقول: اذهب أيها اليتيم، ليس لنا حاجة بك ولا عون.

فأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ ۗ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۗ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۗ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۗ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۗ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۗ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۗ﴾^(٢).

(١) سورة التكاثر، الآيات ١-٨.

(٢) سورة الماعون، الآيات ١-٧.

١٠هـ | ٦١٢م

الجهر بالدعوة

عاد النبي ﷺ يتعبد في غار حراء، يشعر بسعادة غامرة وارتقاب للقاء جبريل رسول الله، والمسلمون يتعبدون خلصة ويخفون إسلامهم والتقاءهم برسول الله ﷺ في دار أبي الأرقم، وذات يوم أتى جبريل النبي ﷺ يوحي إليه آيتين من ربه، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

ما إن سمعها النبي ﷺ حتى علم أن إذا بدأ بها قومه سيورى منهم ما يكره، فصمت، فقال له جبريل: يا محمد، إنك إن لم تفعل ما أمرك ربك تعالى، عذبك ربك.

فعاد النبي ﷺ إلى المنزل، يعلم صعوبة المهمة، وما سيلاقى من

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩٤.

الأذى والتكذيب، فأخبر السيدة خديجة التي كانت تعلم أن هذا اليوم آت، قالت: سمعاً وطاعة لله ولنبي الله.

ثم استدعى النبي ﷺ علياً ابن أبي طالب، وقال له: يا علي، إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فاصنع لنا يا علي شاة على صاع^(١) من طعام، وأعد لنا عس^(٢) لبن، ثم اجمع بني عبد المطلب.

أطاع علي وحضر الطعام والشراب وجمع بني عبد المطلب أربعين رجلاً، كما جلست عائلة النبي ﷺ معهم، وقسم لهم النبي ﷺ الشاة ووزعها في الطبق، ثم قال: كلوا باسم الله.

فأكلوا حتى شبعوا عن آخرهم، ونظروا إلى الطبق فإذا به كما كان أول مرة، لم يتغير فيه إلا القليل من آثار الأصابع، ثم قال النبي ﷺ لعلي: اسقهم يا علي.

فأحضر علي القدح وشرب الجميع حتى ارتووا، فلما انتهوا نظروا إلى القدح فإذا به لم ينقص شيئاً! فقال أبو لهب: لقد سحرنا محمداً!

فبدأ النبي ﷺ يقول: يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا

(١) الصاع يعني الإناء.

(٢) العس يعني القدح.

أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس عم النبي أنقذ نفسك من النار، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة النبي، أنقذي نفسك من النار، لا إغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبليها ببلائها^(١).

ساد الصمت المكان، فقال النبي ﷺ : فمن منكم يؤمن بهذا؟ سكت الجميع، ثم قام علي بن أبي طالب فقال: أنا أو من لك. فضحك لذلك عمه أبو لهب، وسخر من كل ما قيل وجرى وقال: ألهذا تجمعنا؟ هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك، فتكلم ودع الصغار، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وإن سكت عما تقول فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به.

ونفض يضحك وغادر المكان، فقام بعده الناس وغادروا، كيف يذكرهم محمد ﷺ بالنار وهم لا يؤمنون أن هناك حياة بعد الموت؟ حزن الرسول ﷺ من ردة فعل عشيرته، فقالت خديجة: لا

(١) سأبليها ببلائها يعني سأصلها.

عليك، إنها أول مرة تواجههم فيها علانية، اصبر عليهم.

وفي اليوم التالي قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: يا علي، عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب، فإن هذا الرجل^(١) قد بدرني إلى ما قد سمعتَ قبل أن أكلم القوم.

فجهز علي بن أبي طالب الطعام والشراب وجمعهم ثانية إلا أبا لهب، فقدّم لهم النبي ﷺ الطعام والشراب كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا حتى شبع آخروهم والطعام كامل كما هو، ثم قال النبي ﷺ: الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها للجنة أبدأً أو النار أبدأً.

صمت الجميع فتابع قائلاً: يا بني عبد المطلب، والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به، قد جئتمكم بأمر الدنيا والآخرة. والله لا أغني عنكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم، واعلموا أن أول آت يوم القيامة المتقون، فإن تكونوا يوم القيامة مع

(١) هذا الرجل يعني أبا لهب.

قرايتكم فذاك وإياي لا يأتون الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها
على أعناقكم، فأصد وجهي عنكم، فتقولون: يا محمد، فأقول هكذا.
فصرف وجهه، وتابع: فتقولون: يا محمد، فأقول هكذا.
وصرف وجهه إلى الشق الآخر.

ساد الصمت المكان، وأخيراً قال عمه أبو طالب بلطف: ما أحب
إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو
أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب،
فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا
تطاوعني على فراق دين عبد المطلب، والله لنمنعك ما بقينا.

وافق الجميع على رد أبي طالب، فقال النبي ﷺ: أيكم يقضي
عني ديني، ويكون خليفتي في أهلي.

فسكت الجميع، وفهموا أن ما سيقوم به محمد ﷺ من دعوة
قريش قد يكون خطيراً عليه فيكلفه حياته، فأعاد قائلاً: أيكم يقضي
عني ديني، ويكون خليفتي في أهلي؟

فنهض علي بن أبي طالب وقال: أنا يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: أنت يا علي، أنت يا علي.

وانفض الاجتماع على ذلك، ولم يؤمن له أحد من قومه، فعلم أن

عليه أن يفعل أكثر مما فعل، وأن يبادر بالدعوة قريشاً، فأخبر السيدة خديجة أنه سيبلغ قريشاً بالأمر، فقالت: والله إنني لأخشى عليك قريشاً، ولكنها الرسالة، فامض لأمر ربك، وإننا معك ماضون.

خرج النبي ﷺ واتجه إلى جبل الصفا، وبعثت السيدة خديجة عبيداً لها ليطمئنوا على سلامة زوجها، فصعد النبي ﷺ ونادى: يا صباحاه! يا بني فهر! يا بني عدي! يا بني غالب! يا بني لؤي! يا بني مرة! يا بني كلاب! يا بني عبد مناف! يا بني قصي!...

سمع الناس النداء، فاتجهوا إلى جبل الصفا، ومنهم من بعث رسولاً ليرى ما خبر المنادي، فاجتمع الناس، فقالوا: ما وراءك؟ فقال النبي ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً قط.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

تعجب الناس مما يسمعون، ولكن عمه أبا لهب قال من بين

الجميع: تبا لك يا محمد، ألهذا جمعتنا!

ثم قال للناس ساخراً: يدعي أنه قد نزل إليه وحي من السماء

لنعبد الله، ها هي الأوثان تقربنا إلى الله، فاستعينوا بها يصبكم الخير الكثير.

وانفض الناس على ذلك، وهم متعجبون مما سمعوا، وتركوا الرسول وحيداً، فأوحى الله إليه الآيات: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾^(١).

عاد الرسول ﷺ إلى المنزل، فاستقبلته السيدة خديجة وقد علمت أن قريشاً لم تصغ إليه، بل وإن عمه قد أثقل عليه، فأجلسته وخفت عنه.

أما أبو لهب فقد عاد إلى زوجته أم جميل، فقال لها: أرأيت ما يفعل محمد بنا، إنه ينوي أن يؤلب قريشاً والعرب علينا، ويكسد علينا مكاسبنا وتجارتنا.

سألت أم جميل: وماذا فعل؟

قال: صعد على الصفا يعلن أنه رسول من الله، ويحدّر من عذاب النار، ويحث الناس على ترك عبادة الأصنام.

فجعت أم جميل وقالت: أوجهر بها في مكة! يريد أن يبعد

(١) سورة المسد، الآيات ١-٣.

الناس عن عبادة آبائهم؟ بنس ما جاء به، الأصنام رعت مكة أعواماً

كثيرة، ألا يخشى أن تغضب علينا وتفسد تجارتنا وحياتنا؟

قال: يدعي أنها حجارة لا تضر ولا تنفع، آه لو سمعت العرب

بما يقول، لتهاكت مكة.

قالت أم جميل: على بني هاشم أن يوقفوه عند حده، لا طاقة لنا

في مواجهة قريش.

قال: لم يصدقه أحد، زوجته والأطفال، وبعض العبيد فقط.

ضحكت أم جميل وقالت: هذا عهدي بقريش، ما كان لهم أن

يُسحروا بكلام يفسد عليهم حياتهم، علينا أن نلقن محمداً درساً يعلم

منه أن قريشاً لن تستمع إليه.

وبدأت أم جميل تحمل الأشواك والأوساخ وتلقيها أمام منزل

الرسول ﷺ كل صباح، وكلما فتح الباب، اضطروا لتنظيف المكان ونقل

الأشواك، فأوحى الله إلى رسوله ﷺ الآيات: ﴿وَأْمُرْ أَتُهٖ حَمَّالَةَ

أَحْطَبٍ ۖ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(١)، تنمة للآيات الأولى عن

أبي لهب.

(١) سورة المسد، الآيات ٤-٥.

في هذه الأثناء، وصل مكة رجل عالم^(١)، دخل السوق ليشتري بعض الثياب، ثم اتجه إلى الكعبة، فرأى العباس بن عبد المطلب جالساً هناك، فجلس إلى جانبه ينظر إلى الكعبة، فرأى الرسول ﷺ قدم ووقف ليصلي مستقبلاً الشام والكعبة، ثم جاء علي بن أبي طالب ووقف عن يمينه وظل بجواره، ثم جاءت السيدة خديجة بنت خويلد ووقفت خلفهما، وصلوا جميعاً، فركع الرسول ﷺ فركع علي وخديجة، ثم سجد الرسول ﷺ فسجد علي وخديجة. تعجب الرجل مما رأى! وقال للعباس: يا عباس، أمر عظيم!

فنظر العباس إلى ابن أخيه محمد ﷺ وقال: نعم، أمر عظيم.

فسأل الرجل: ما هذا؟

قال العباس: دين جديد.

سأل الرجل: فمن الرجل؟

تعجب العباس: أولاً تعرفه!

قال الرجل: لا.

قال العباس: هذا ابن أخي، محمد بن عبد الله.

سأل الرجل: ومن الغلام؟

(١) الرجل العالم اسمه عفيف الكندي، سيذكر في هذا الموضع فقط.

قال: ابن أخي، علي بن أبي طالب.

سأل الرجل: ومن المرأة؟

قال: خديجة بنت خويلد، والله لا أعلم على وجه الأرض مسلماً

غير هؤلاء الثلاثة.

تعجب الرجل مما رأى، وظل يراقبهم حتى انتهوا، فسأل

العباس: وماذا فعل به قومه؟

أجاب العباس: كذبوه وهو الصادق الأمين.

فقال الرجل: وماذا عنك يا عباس؟

أجاب العباس: أنا على دين أبي وإخوتي.

فتردد الرجل في الاقتراب والسؤال عن هذا الدين.

في قبيلة عربية، كان عمرو بن مرة الجهني^(١) -الذي رأى مناماً

لرسول الله قبل البعثة- جالساً إلى قومه، فأتاهم صاحبهم عائداً من

مكة يقول لهم: أمر عظيم حدث في مكة، أحمد قد بُعث يدعو الناس

إلى عبادة الخالق وترك عبادة الأصنام.

جفل عمرو، هذا تفسير رؤياه، فبات يسأل الرجل عن كل ما

(١) عمرو بن مرة الجهني، ذكر في فصل مقدمات البعثة، له دور صغير في السيرة.

يعرف: ما اسمه؟ من أي قبيلة هو؟ هل هو ذو شأن في قومه؟ هل يكذب؟ هل يخون؟ ماذا فعل به قومه؟

قال الرجل: على رسلك يا عمرو، إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، من بني هاشم، أوسط قومه، وهو الصادق الأمين، ولكن أحداً لم يصدقه، وإن أهل مكة تتهمه بالجنون.

نهض عمرو من فوره يقول: ما هذا التناقض العجيب؟

وحزم أمتعته واتجه إلى مكة، وبحث سريعاً عن رسول الله ﷺ إلى أن قابله، فجلس إليه وأخبره الرؤيا التي رآها قبل سنين: يا ابن عبد الله، لقد رأيتُ نوراً ساطعاً يخرج من الكعبة، وصل إلى يثرب وأطراف قبيلتي، وسمعتُ صوتاً بين النور يقول: ظهر الإسلام، وكُسرت الأصنام، ووصلت الأرحام. وقد سمعتُ بك اليوم، وحضرتُ مسرعاً إليك لأستمع إلى هذا الدين الجديد وما تقول فيه.

فرحّب به رسول الله ﷺ وقال له: يا عمرو بن مرة، أنا النبي المرسل إلى العباد كافة، أدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم بحقن الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الله، ورفض الأصنام، فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، فأمن يا عمرو يؤمنك الله من هول جهنم.

فقال عمرو من فوره: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله،

آمنتُ بما جئتَ من حلالٍ وحرامٍ، وإن رفض ذلك كثير من الأقسام.

ثم أنشد:

شهدت بأن الله حق وإنني لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجراً إليك أجوب القفر^(١) بعد الدكادك^(٢)
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً رسول ملك الناس فوق الحباتك^(٣)

فقال له رسول الله ﷺ: مرحباً بك يا عمرو بن مرة.

فقال عمرو: يا رسول الله، ابعثني إلى قومي لعل الله يمن عليهم
بي كما من عليّ بك.

فقال له رسول الله ﷺ: عليك بالرفق والقول السديد، ولا تكن
فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً.

عاد عمرو بن مرة فرحاً إلى قبيلته، وبدأ يدعوهم إلى الإسلام
بكل صبر وفطنة وتفان.

في اليوم التالي اتجه الرسول ﷺ إلى الكعبة بصحبة أبي بكر،
وبينما هما هناك حضرت أم جميل تحمل القاذورات والأشواك لتلقي

(١) القفر تعني الأرض الخالية.

(٢) الدكادك هي الأراضي الصخرية.

(٣) الحباتك تعني مسير النجوم.

بها على باب منزل الرسول ﷺ وخديجة، فرآها زيد بن محمد، فأوقفها قائلاً: كفي عما تفعلين، فهو رسول الله فعلاً، وسيعذبك الله لذلك.

ضحكت وقالت: ستبارك لي الآلهة دفاعي عنها، وأنتم ستموتون شر ميتة.

ابتسم زيد وقال: ألم تسمعي أن الله أنزل في شأنك وزوجك قرآناً؟ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾^(١).

احمر وجه أم جميل غضباً وقالت: أو قال محمد ذلك؟

قال زيد: بل رب محمد.

ألقت أم جميل الأشواك غاضبة واتجهت إلى الكعبة حيث الرسول ﷺ وأبو بكر جلوس، تحمل في يدها حجارة قاسية، فوصلت الكعبة ورأت أبا بكر جالساً وحده، وقد أخذ الله بصرها عن الرسول ﷺ، فوقفَت أمام أبي بكر وقالت غاضبة: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذه الحجارة

(١) سورة المسد، الآيات ١-٥.

فمه، مُذمماً^(١) عصينا، وأمره أبينا، ودينه تركنا.

وغادرت غاضبة وأبو بكر متعجب، فالرسول ﷺ إذ جالس إلى جانبه تماماً! فسأل أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟
فأجابه الرسول ﷺ: ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني.
واتجهت أم جميل إلى منزلها، وكان زوجها وأبناؤها هناك،
فقالت غاضبة لأبي لهب: أما سمعت ما يقوله ابن أخيك عنا؟
قال أبو لهب: وماذا يقول؟

قالت: يقول أننا سندخل ناراً ذات لهب، وأنني سيكون لي
حبل من لهب يلف حول عنقي.

غضب أبو لهب لذلك غضباً شديداً، وكذلك أولادهما، فنظر أبو
لهب إلى أولاده وقال: رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا رقية وأم كلثوم.
فانطلق عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب من فورهما إلى منزل
الرسول ﷺ وخديجة، فطرقا الباب بقوة، فتحت السيدة خديجة
الباب لهما قلقاً، ولكنها رسمت ابتسامة رقيقة لخاطبي ابنتيهما،
وقالت: أهلاً وسهلاً بكما، تفضلاً، هل من خطب ما؟
فقالا من فورهما: لا نريد ابنتيك، هما طالق.

(١) تعني به الرسول محمداً ﷺ، كانت قريش إذا هجت محمداً ﷺ عكست وصف اسمه إلى مذموم.

وتركاها على الباب وحدها وغادرا.

ظلت السيدة خديجة واقفة تتحمل الابتلاء تلو الآخر، كيف

لها أن تخبر زوجها وبناتها خبراً كهذا؟

أغلقت الباب بهدوء، وحاولت أن تصبر نفسها، فسمعت صوت

رقية من وراء الباب تقول: لقد طلقانا.

التفتت السيدة خديجة لترى رقية متفاجأة مما سمعت، وبدأت

الدموع تسيل من عينيها، فعانقتها أمها تخفف عنها وتقول: لا عليك

يا حبيبتي، علينا بالصبر، وإنك جميلة وشريفة، وسيعوضنا الله خيراً

منهما.

اقتربت أم كلثوم من أمها وأختها تستفسر عما يجري، فضمتها

السيدة خديجة مع أختها وقالت بهدوء: حبيبتي، فلندعو الله أن

يعوضنا خيراً من عتبه وعتيبة، لقد قررا العداة وتركا الخطبة.

حزن الجميع لما جرى، وصبروا على مصابهم، ودعوا الله أن

يعوضهم الخير الكثير.

عاد أبو بكر إلى شؤون تجارته، وطاف الرسول ﷺ بالكعبة،

وبدأ يُقبل على مجالس قريش يدعوهم إلى الله وترك عبادة الأوثان التي

لا تضر ولا تنفع، وما كان أحد يستجيب له، فلما قام من المجلس الذي كان فيه أبو الحكم بن هشام قال لمن حوله: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني أعاهد الله إن رأيتك ساجداً أن أطأ على رقبتك، وأعقر وجهه بالتراب، وما له أتباع، ولقد علمتم ما بها أحد أكثر نادياً يساند مني.

نهض أحد الجالسين في المسجد واتجه إلى العباس بن عبد المطلب وأخبره بما يهدد به أبو الحكم، فقلق العباس على ابن أخيه، فذهب مسرعاً إلى الرسول ﷺ، استوقفه وحذره قائلاً: يا ابن أخي، حاذر أبا الحكم بن هشام، فقد أقسم بالله لئن رآك تسجد عند الكعبة ليطأن على رقبتك، وليعفرن وجهك بالتراب.

غضب رسول الله ﷺ مما سمع، واتجه مسرعاً عائداً إلى المسجد، فقلق العباس أكثر وقال: هذا يوم شر.

وأسرع خلف ابن أخيه، فما إن وصل الرسول ﷺ الكعبة حتى وقف يتلو: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِيطغى ⑥ أَنْ رَءَاهُ اسْتَعْتَضَى ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⑧﴾ (١).

(١) سورة العلق، الآيات ١-٨.

فأتى رجل أبا الحكم وقال له: يا أبا الحكم، هذا محمد.

نهض أبو الحكم ليقترب من الرسول ﷺ، ثم وقف فجأة وتغير وجهه وتصيب عرقاً، وعاد خائفاً إلى مجلسه ينتقي بيديه، وأوحى الله إلى الرسول ﷺ يقرأ الآيات: ﴿أَرَعَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ① عَبْدًا إِذَا صَلَّى ②﴾ أَرَعَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ③ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ④ أَرَعَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ⑤ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ⑥ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑦ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑧ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑨ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ⑩ كَلَّا لَا تَطَّعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑪﴾^(١).

وسجد رسول الله ﷺ، فقال الرجال: يا أبا الحكم، ما بالك؟ وأبو الحكم يرتجف ويقول: ألا ترون ما أرى؟ والله لقد سد أفق السماء علي! إن ببني وببيه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة! أنهى رسول الله ﷺ سجدته، ونهض، فسأله العباس بعد ما رأى: لقد خشي أبو الحكم أن يقترب منك. فقال رسول الله ﷺ: لو فعل أبو جهل^(٢) لأخذته الزبانية الملائكة عياناً.

(١) سورة العلق، الآيات ٩-١٩.

(٢) أبو جهل، لقب أطلقه النبي على عمرو بن هشام بدلاً من أبي الحكم.

عاد الرسول ﷺ إلى منزله، فكان المنزل هادئاً وحزيناً، أجلسَت السيدة خديجة زوجها وأخبرته بهدوء ما حصل من عمه أبي لهب وزوجته وأولاده، وكيف حزنَت بناته من تطليقهنَّ بهذه الصورة، فصبر واحتسب، وواسى ابنتيه على ما أصابهما، وطلب إليهما أن توكلا أمرهما لله فسيعوضهما خيراً إن شاء الله.

وخرج رسول الله ﷺ حزيناً إلى الكعبة، وطاف بها يدعو ربه، فلقى عتبة بن أبي جهل، فقال لرسول الله ﷺ: لقد طلقنا بناتك، ما لنا بهنَّ من حاجة، وإن عبتَ آلهتنا وآباءنا وأمهاتنا ثانية والله لننقنَّ في وجهك.

فرجع رسول الله ﷺ يده إلى السماء وقال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك.

ارتعد عتبة وقال: ألا تكف عن سحرك هذا! سأقف في وجهك ما حييت!

وغادر مسرعاً إلى بيته، وأخبر أباه أبا لهب ما قاله له ابن أخيه، وظن أن أباه سيغضب لأجله ولكن أبا لهب خاف، وظل صامتاً يفكر ويفكر، فقال عتبة: هل تصدق أن دعوة محمد تصيبني؟

قال أبو لهب: لا تسافر، ولا تغب عن مكة وما حولها، لا

تجلسنّ وحدك أبداً.

خاف عتبة أكثر وقال: هل تظن أن ما قاله محمد يحصل لي؟
فسكت أبو لهب.

كان عثمان بن عفان يعمل في تجارته، فمر عليه عتيبة بن أبي
لهب يطلب بعض البهارات، وأثناء الحديث سأله عثمان: ومتى
سيكون زفافك أنت وأخوك؟

فابتسم عتيبة وقال: لقد طلقت رقية بنت محمد، يزعم أن أبانا
يدخل النار، وأما ستطوق بحبل من لهب، لا حاجة لنا بهما.
تفاجأ عثمان وسأل: وأخوك أيضاً؟

قال: طبعاً، هذا الدين الجديد الذي ابتدعه سيجلب الدمار على
قريش، على الجميع أن يتصدى له، ونحن أول من يفعل.

سكت عثمان، فقال عتيبة: ومن يريد أن يكون صهراً لمجنون؟
جفل عثمان، وترك تجارته واتجه إلى منزله، وجمع عائلته
وقال لهم: لقد اخترت عروساً.

فرحت أم عثمان جداً بالخبر السار، وأخيراً حبيب قريش قرر
الزواج، سألته: ومن هي سعيدة الحظ التي حظيت بقلب حبيب قريش؟

قال عثمان: بل إنني سعيد الحظ إن حظيت بقلبها وقلب أبيها،
إنها رقية بنت محمد بن عبد الله.

قال والد عثمان: شريفة ابن شريف، ما سمعنا عنهم إلا أطيب
الحديث.

قالت أم عثمان: بورك لكما، سأذهب فوراً لأتحدث إلى أمها
خديجة بنت خويلد.

ذهبت أم عثمان من فورها إلى السيدة خديجة، فرحبت بها
أجمل ترحيب، وعرضت عليها أم عثمان خطبة ابنتها رقية، فتهلل
وجه السيدة خديجة، وأخبرتها أنها يشرفها أن تبارك هذا الزواج،
وستعرض الأمر على زوجها الليلة، وأخبرت السيدة خديجة
الرسول ﷺ وابنتها بخطبة عثمان بن عفان حبيب قريش، المسلم
الحيي العفيف الشريف لابنتها، فشعر الجميع أن الله قد عوضهم
خيراً، وتحضر الجميع للزفاف، وكانت الموائد عظيمة من كل
الطرفين، فباركت بنو أمية وبنو هاشم الزواج الكريم، كما أن العرب
لم تسمع بزواج أفضل من زواج عثمان برقية، فقد كانا متفاهمين
متحابين مستقرين، حتى أن شعراً قد أنشد لهما:

أحسن زوجين رأهما إنسان رقية وزوجها عثمان

وترك عثمان بن عفان الارتحال للتجارة، وعيّن موظفين يرتحلون عنه، ولازم الرسول ﷺ يتعلم منه، وبدأ يكتب ما ينزل على الرسول ﷺ من آيات، فأصبح من كتاب الوحي.

كان المقداد بن عمرو^(١) مقاتلاً بارعاً وقويّاً، طويلاً آدم البشرة كثيف الشعر، سمع الرسول ﷺ ينادي على الصفا، فأقلقه الأمر وبدأ يفكر فيه ملياً: جنة ونار، رب لجميع العباد أم حجارة لا تضر ولا تنفع؟ والله إن لي عقلاً لن يهديني إلا إلى خير، سأذهب وأستمع إليه بنفسني لأقرر.

ذهب إلى الرسول ﷺ يستمع منه، وعرض عليه الإسلام والقرآن، فقال المقداد: والله ما تدعو إلا إلى خير، أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله.

كان مصعب بن عمير^(٢)، الشاب ذو الرابعة عشر، يسير في طرقات مكة يلبس الحرير الدمشقي، ويضع أغلى العطور، بل كانت

(١) المقداد بن عمرو، صحابي، له دور في السيرة.

(٢) مصعب بن عمير، له دور أساسي في السيرة.

النساء ينظرن إلى جماله كلما سار في أي زاوية، إنه حلم كل فتاة في مكة، فقد كان غنياً مرفهاً ووسيماً، وكان لطيفاً ومدللاً.

مشى شاب في الطريق بعده ينظر إلى النساء ينظرن إلى الشاب الماشي بعيداً، فسألهن: من ذاك؟

قالت إحداهن: إنه مصعب بن عمير، ألا تشم رائحة عطره الفواحة؟

فعلاً كانت رائحة العطر ما تزال في الطريق حتى بعد أن ابتعد، إنه كزهرة متفتحة تمشي على الأرض.

دخل مصعب منزله فاستقبلته أمه^(١) بحفاوة، فهو ولدها المدلل، وقالت له على الفور: لقد وصلت البضاعة الجديدة من الشام، انظر ماذا جلبتُ لك.

ووضعت أمامه مجموعة جديدة ثمينة من الثياب، ابتسم مصعب مشيراً إلى ثوبه الذي يرتديه وقال: لقد لبستُ هذا الثوب لأول مرة.

قالت أمه: وهل كنت تنوي أن ترتديه مرة ثانية؟ انظر! هذه الثياب هي أجمل ما صنعتُ الشام.

اقترب مصعب ينظر إلى الثياب، إنها فعلاً جميلة وبراقة، كلها

(١) أم مصعب بن عمير اسمها خناس.

من الحرير الذي لم يحلم أهل مكة برؤيته، نظر إليها وابتسم قائلاً:
شكراً يا أمي، أنت دائماً الأفضل.

فرحت أمه، وطلبت منه أن يستبدل ثوبه بثوب جديد قبل
الذهاب إلى الاجتماع مع أهل القبيلة.

كان مصعب خارج مكة عندما نادى الرسول ﷺ في الناس
يخبرهم أنه نبي بُعث إليهم، ولكنه سمع بعض الناس يتحدثون عن
ذلك، فجلس في ناد عله يسمع تفاصيل ما حدث، فجلس إلى جانب أحد
وجهاء قومه، فسأله مصعب: أسمعتَ ما قاله محمد بن عبد الله؟
قال: نعم يا مصعب، لقد كنتُ حاضراً.

تحرك مصعب ناحيته ليكون على مقربة منه ثم قال: ورب
الكعبة ألا تحدثني بما سمعت.

قال: كنتُ أمام حانوت سعد بن أبي وقاص لأتسلم منه بعض
النبيل والسهام استعداداً لموسم الصيد الذي قربت أيامه، عندها طرقت
أذني صوت محمد الأمين ينادي على الصفا: واصباحاه. فانفلتت مسرعاً
تجاه الصفا تاركاً خلفي سعداً ونبله وسهامه، وعندما وصلت إلى هناك
كانت كثرة كثيرة من بطون قريش قد سبقتنني، ثم قال محمد: يا آل
غالب، يا آل فهر! وعدد بطون قريش، لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا

الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا له: ما جربنا عليك كذباً يا محمد. قال بعدها: إني رسول الله إليكم. فرد عليه عمه أبو لهب قائلاً: تبا لك ألهذا جمعتنا. وانفض الناس عنه، ولم يبق أمامه في الساحة إلا بعض العبيد والموالي وضعفاء مكة.

قال مصعب: ثم ماذا؟ ألم يقل غير ذلك؟

قال: لقد سمعته يقول إنه يوحى إليه، ثم تلا بعض كلمات مما يزعم أنها تنزلت عليه.

قال مصعب: أتذكرها؟

قال: ورب هذه الكعبة يا مصعب فهمتُ بعضه وجهلتُ بعضه، ولكن والحق يقال كلماته صدعت قلبي.

هكذا عاد مصعب يفكر فيما سمع إلى أن حل الليل، وقدمت له أمه الطعام فلم يأكل، سألته: ما بك يا مصعب؟ لعلك نسيتَ كعادتك أن تمر على آلهتنا لتباركك وتبعد عنك الأمراض والآفات.

قال مصعب: لاشيء يا أمه، ولكن أريد أن آوي إلى فراشي.

ولم يغمض لمصعب جفن، شيء ما كان يؤرقه، يريد أن يسمع من محمد ﷺ رسالة السماء.

ما إن حل الصباح، حتى استفسر مصعب بحذر عن الرسول ﷺ،

ووجده علي بن أبي طالب يسأل عن الرسول ﷺ ، فسأله علي : إنه في منزله ، عن أي شيء تسأل؟

قال مصعب بحذر : أريد أن أستمع إليه فحسب .

خشي علي على مصعب من أذى قريش ، فاقترب منه وقال حذراً : احضر الليلة إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم قرب الصفا ، ستجده هناك ، واكتم الأمر .

انتظر مصعب إلى الليل لا يكاد يطيق طول النهار ، ودخل دار الأرقم ليجد جماعة من المسلمين هناك لا يعلم أحد بإسلامهم ، وجلس إلى الرسول ﷺ يقول : يا محمد ، اعرض علي ما نزل عليك من السماء . فأجلسه الرسول ﷺ قربه ، وتلا عليه آيات من القرآن ، واستمع إلى ما يرشد به أصحابه ، وما شرح لهم من القرآن ، فعلم أنه الحق ، ويدعو إلى الرشد والخير ، فأعلن إسلامه ، وكتمه عن أمه .

بات مصعب يحب العزلة عن ضلالات قريش ، ويكثر الطواف بالكعبة والجلوس إليها ، ويختلس غفلة قريش فيتجه إلى ربه يصلي ركعات وركعات ، فإذا جاء المساء أسرع إلى دار الأرقم ليستمع إلى النبي ﷺ ويتزود من نور الإيمان .

بدأ أمر المسلمين ينكشف شيئاً فشيئاً، فعلم عم الزبير بن العوام^(١) بأمر إسلام الزبير، فقام بتعذيب ابن أخيه، وجاءه بدخان فملاً عينيه ورثتيه به حتى كاد يموت، ولكن الزبير كان يبتسم ويقول: لا أكفر أبداً.

كذلك ذاع في بني أمية خبر إسلام عثمان بن عفان فثار عمه^(٢) غضباً، فأخذ عثمان وربطه وقال له: أتترك ملة آبائك إلى دين مستحدث؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان بن عفان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه.

ولم يتزحزح عثمان، ولم يفلح التعذيب في تغيير رأيه، فتركه عمه لا يدري أحسن ما فعله به أم لا.

وحاولت قريش أن تضيق له في تجارته، ولكنه لم يتأثر ولم يترك دينه، بل وبدأ يعتق العبيد كما يفعل أبو بكر، فلما رأوا أن المقاطعة لم تفلح، بل وقد تضرر التجار الباقون من مقاطعة عثمان، أوقفوا المقاطعة، وعادت تجارة عثمان أفضل مما كانت عليه.

كما حاولت قريش أن تؤثر على تجارة عبد الرحمن بن عوف،

(١) عم الزبير بن العوام هو نوفل بن خويلد.

(٢) عم عثمان بن عفان هو الحكم بن أبي العاص.

ولكنه كان ما يزال أفضل التجار، وقد قال له الرسول ﷺ: أنت أمين في أهل الأرض أمين في أهل السماء، أنت صادق صالح بار.

ولم يعد يستخدم اسم عبد عمرو مطلقاً، فكان صديقه الحميم أمية بن خلف يناديه ويقول: يا عبد عمرو! أرغبت عن اسم سمّك به أبوك؟

فقال عبد الرحمن: نعم.

فقال أمية: إني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف.

فقال عبد الرحمن: اختر ما شئت.

فقال أمية: فأنت عبد الإله.

قال عبد الرحمن: نعم.

فكان يناديه عبد الإله فيجيب.

وعلمت أم طلحة بن عبيد الله بأمر إسلامه، فلم تتقبل الأمر، وعذبتة عذاباً شديداً، فقد كانت تربطه بالحديد إلى عنقه ليجلده الناس بالسياط على ظهره، وتشتمه أمام الجميع، ولكنه لم يتراجع.

أما سعيد بن زيد فكتّم إسلامه ولم يمسه أحد من قريش لحسن

معاملته لهم وشرفه بينهم، وقد ضم إليه الرسول ﷺ رجلين من فقراء المسلمين يطعمهما معه في منزله.

وهكذا ظل المسلمون ثابتين على مواقفهم، صابرين على الأذى من أقرب الناس إليهم، ينتظرون أمر الله وفرجه.

عاد سعد بن أبي وقاص إلى منزله، ووجد أصناماً وضعتها أمه^(١) له في غرفته، حتى تبارك له وتحميه، فحمل الأصنام وأخرجها من غرفته، وفي نهار اليوم التالي رأى أمه تحمل أخاه الرضيع عمير^(٢)، وتمسح الأصنام في الصالة فقال لها: عمت صباحاً يا أماه، هل ترغبين شيئاً من السوق؟

اقتربت أم سعد منه وقالت: عمت صباحاً يا ولدي الحبيب، لقد أحضرت لك آلهة باهظة الثمن، تحميك وتبارك عملك، لماذا أراك أخرجتها من غرفتك؟

قال سعد: يا أماه، هذه حجارة لا تضر ولا تنفع، ولن تبارك لي ولن تحميني، الله وحده الحامي.

(١) أم سعد وعامر وعمير بنو أبي وقاص هي حمنة بنت سفيان بن أمية، لها دور صغير في السيرة.

(٢) عمير بن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص، له دور بسيط في السيرة إلى غزوة بدر.

جفلت أم سعد، ولما سمع عامر النقاش اقترب منهما ليخفف وطأة ما سيحصل، ولكن أم سعد قالت مستاءة: ما هذا الذي تقول؟ ألا تخشى أن تسمعك الآلهة؟

قال سعد: يا أماه، هذه حجارة لا تسمع ولا ترى، ولا تضر ولا تنفع، ولا أخشى إلا أن يسمعني الله أتبرك لها وأدعو لها من دونه. صرخت أم سعد وقالت: ما هذا الكلام الذي استحدثت؟ ما هذا الدين الجديد؟

قال سعد: إنه ليس ديناً جديداً، إنه دين الأنبياء، دين التوحيد لله الخالق، فاتركي عنك عبادة الحجارة، واعبدي الذي خلقك يا أماه.

صرخت أم سعد قائلة: صبأت يا عاق؟

قال سعد: بل أسلمت لله.

حاول عامر أن يتدخل بينهما ولكن أمه قالت: يا عاق أمك، لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتُعيّر بي فيقال: يا قاتل أمه.

فقال سعد: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً. فوقف عامر بينهما يقول: كفا عن ذلك، ابتعد يا سعد، وأنت يا

أمي اتركه يؤمن بما يشاء، فإنه لن يؤذيك.

صرخت أم سعد قائلة: أو تترك أخاك يهين الآلهة؟

قال عامر: اتركه يؤمن بما يشاء، سنظل بارين بك يا أماه،

فأنت أغلى ما نملك في هذه الدنيا، وقد أوصانا ديننا بالوالدين.

جفلت أم سعد وقالت: وهل صبأت مع أخيك؟

سكت عامر فصرخت أم سعد: يا مصيبتاه!

ثم ركضت إلى الأصنام في المنزل: يا آلهتي العظيمة، استجيبني

لي واثنني ولديّ عما يفعلان، يا آلهتي العظيمة، أبعدي الشكوك

والعصيان من منزلنا، يا آلهتي العظيمة، اشفي ولدي من السحر

والجحود.

نظر سعد وعامر إلى بعضهما يائسين من أمر والدتهما وتعظيمها

للأصنام، فقال سعد: أنا ذاهب إلى الرمي، افعلي ما تشائين يا أماه.

خرج سعد، ولكن عامراً ظل إلى جوار أمه يحاول أن يهدئها

دون أن يكفر، ولكنها كانت عنيدة جداً، وبرّت بقسمها فلم تأكل ولم

تشرب ولم تمشط شعرها يوماً كاملاً.

عاد سعد من الرمي، فجلس إليه أخوه عامر وأخبره أن أمه لم

تأكل ولم تشرب شيئاً ليوم كامل، وهو قلق عليها، فقال له سعد:

ستأكل عندما يشتهي بها الجوع، وستشرب عندما يشتهي عليها العطش،
لا تقلق.

ولكن أم سعد مكثت اليوم التالي لا تأكل ولا تشرب ولا تمشط
شعرها، وجلست في الشمس لا تستظل حتى يعود سعد وعامر عن
رأيهما، فلما عاد سعد من الرماية وجد قريشاً مجتمعاً، فسأل عما
جرى، فأخبره أحدهم: هذه أمك، قد أخذت أخاك عامراً، تعطي الله
عهداً ألا يظلمها ظل ولا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى يدع الصباوة.
انزعج سعد من تصرف والدته، ودخل بين الناس واقترب من
أمه وأخيه، فنظر إلى أمه وقال: احلفي عليّ يا أمه.

قالت: لم؟

قال: لأن لا تستظلي في ظل ولا تأكلي طعاماً ولا تشربي شراباً
حتى تري مقعدك من النار.

قالت: إنما أحلف على ابني البار عمّار.

فقال سعد: والله لو كانت لك ألف نفس، فخرجت نفساً نفساً،

ما تركت ديني هذا لشيء.

قالت: أحلف أنني لن أكلمك حتى تترك دينك، زعمت أن الله

أوصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا أمرك بترك دينك.

ترك سعد أمه وشأنها، وظلت تضغط على عامر، ولكنه هو الآخر صبر ولم يستجب لها، وفي اليوم الثالث ظلت تحت الشمس لا تأكل ولا تشرب حتى أغمي عليها، فسقاها أحدهم حتى استيقظت، فجعلت تدعو على سعد، وتصرخ وتؤذي عامراً أكثر.

فذهب سعد بن أبي وقاص مع أخيه عامر إلى الرسول ﷺ، وأخبراه ما حصل، فأوحى الله إلى رسوله ﷺ الآيات: ﴿وَإِنْ جِهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾^(١).



(١) سورة لقمان، الآية ١٥.

١١ / - ١٠ هـ | ٩ / ٦١٢ م

موسم الحج

بدأ موسم الحج، وبدأت الأسواق تفتح أبوابها، والعرب يتوافدون إلى مكة من كل مكان.

وبدأ الرسول ﷺ يحضر المجالس، ويعرض عليهم الإسلام، ودين التوحيد، وترك عبادة الأصنام، ففزعت قريش لذلك وما يمكن أن يحدث إذا علمت العرب بأمر محمد ﷺ.

عقد رؤساء قريش اجتماعاً عاجلاً في دار الندوة يناقشون فيه ما سيفعلون بمحمد ﷺ، وكان يترأس المجلس الوليد بن المغيرة وقد كان أكبرهم سناً، فقال: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً.

قال العاص بن وائل: أنت كبيرنا وسيدنا ووحيد قومنا^(١)، فقل
وأقم لنا رأياً نقول به.

قال الوليد: بل أنتم فقولوا أسمع.

قال أبو جهل: نقول كاهن.

قال الوليد: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو
بدندنة الكاهن ولا سجعه.

قال سهيل بن عمرو: نقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بصوته
ولا وسوسته.

قال أمية بن خلف: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه
وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قال أبو لهب: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو
بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول؟

(١) ووحيد قومه، لقب الوليد بن المغيرة، لأنه كان رئيسهم وأغناهم.

فنهض الوليد بن المغيرة، وسار بين القوم، وفكر وعقد حاجبيه، وأطال التفكير، ثم قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة^(١)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

وافق الجميع على ذلك، وتفرقوا، وجعلوا يجلسون في الطرقات لا يمر بهم أحد إلا حذروه من محمد ﷺ، وذكروا له أنه ساحر يفرق بين المرء وعشيرته.

فأعلم الله رسوله ﷺ أمر مكرهم، وأوحى إليه الآيات: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝ دَرَنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَكَانَ إِذَا نُفِخَ فِي السُّورِ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ أُولَئِكَ لَوْ يَعْلَمُونَ ۝ لَأَسْأَلَنَّ مِنْ رَبِّيَ الْبَشِيرَ ۝ قَدْ جَاءَ الْوَعْدَ ۝ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأَصْلِيهِ

(١) أصله عذق وفرعه جناة، وصف جميل لشجرة لها فروع كثيرة ومثمرة.

سَقَرٌ ﴿٦٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٦٧﴾ لَا تُبْقَى وَلَا تُدْرِكُ ﴿٦٨﴾ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٦٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٧٠﴾ ﴿١﴾.

دخل أبو جهل مجلساً من مجالس قريش، فاقرب أحدهم منه قلقاً وقال: لقد قال محمد في اجتماعنا كلاماً كبيراً.

قال أبو جهل: وماذا قال؟

قال له الرجل الآيات، فضحك أبو جهل وقال: ثكلتكم أمهاتكم، إن محمداً يتوعدنا ويخوفنا بجهنم ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يببطشوا بواحد منهم؟

ضحك الرجال، فقال أبي بن خلف: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين.

فأعلم الله رسوله ﷺ بما يقولون، وأوحى إليه الآيات: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي

(١) سورة المائدة، الآيات ٨-٣٠.

مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ كَلَّا
 وَالْقَمَرِ ﴿٣٧﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٨﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٤٠﴾
 نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
 كَسَبَتْ رَهينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ
 الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ
 نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَدِّبُ بِیَوْمِ
 اللَّيْلِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشُّفَعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ
 عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ
 يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوْتَى صُحْفًا مُنْشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ
 الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ
 يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُؤُوتِ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴿١﴾

ظل الرسول ﷺ يلتقي القبائل واجتماعاتهم، ويدعوهم إلى
 عبادة الله الواحد، وترك عبادة الأصنام، ويتلو عليهم القرآن، وظل
 رجال قريش يتبعونه ويقولون عنه أنه ساحر، ويحذرون القبائل منه،
 ومرة كان أبو جهل يتبع الرسول ﷺ حين دخل على إحدى القبائل،
 فتبعه وقال للرجال: هذا الرجل ساحر مجنون، جاء بكلام من

(١) سورة المدثر، الآيات ٣١-٥٦.

الشياطين، يدّعي أنه يرى الملائكة، فاحذروا أن تسمعوا له.

ولكن الرسول ﷺ عرض عليهم أن يستمعوا له، فإن أعجبهم ما يقول آمنوا، وإن كرهوه تركوه، فوافق الرجال، فتلى عليهم آيات من القرآن، ولكن أبا جهل قال: دعوكم منه، هو يردد هذا الكلام طيلة الوقت، وقد فرق بين المرء وزوجه، والأخ وأخيه، والرجل وقبيلته.

صمت الرجال، فقدم عمر بن الخطاب وأبعدهم عن الرسول ﷺ قائلاً: لا يسحركم، لا يسحركم، لا تستمعوا له.

ولم يقبل أحدهم على رسول الله ﷺ، فها هم أهله وقبيلته لا يؤمنون به، ومع ذلك لم ييأس الرسول ﷺ، وظل يلتقي القبائل واجتماعاتها، وظلت قريش تنفر الناس مما يقول.

وقف الرسول ﷺ يقول للناس في سوق ذي مجاز: يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

فاجتمع عليه الناس ليسمعوا ما يقول، ولكن عمه أبا لهب كان يسرع إليه حيث ذهب، ويسف عليه التراب والحجارة حتى تأذت قدما الرسول ﷺ، ويقول للناس: إنه صابئ، كاذب، أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم، فإنما يريدكم أن تتركوا عبادة اللات والعزى.

فابتعد الناس عن الرسول ﷺ يقولون: إذا كان هذا رأي عمه به
فما شأننا بما يقول؟

وكان الرسول ﷺ إذا سمع الحجاج يلبون ويقولون: لبيك لا
شريك لك.

يقول: قد قد^(١).

ولكن الناس يتابعون تلبية الشرك: إلا شريكاً هو لك.

التقى أبو جهل وأبو لهب وتحاورا في أمر الرسول ﷺ، فقال
أبو جهل: إن ابن أخيك هذا يؤلب علينا القبائل، هل تتركه هكذا؟
قال أبو لهب: لقد نهيتُه وأبعدتُ الناس عنه، ولكننا لا
نستطيع فعل أكثر من ذلك أمام القبائل، فماذا ستقول القبائل عن
قريش؟

قال أبو جهل: نريد أن ينهاه أقوم الناس عليه.

قال أبو لهب: إنه أبو طالب، إذا حدّث محمداً فسيرتدع.

قال أبو جهل: هذا حل سليم، هيا بنا إلى أبي طالب.

ذهب أبو لهب وأبو جهل إلى أبي طالب، فدخلوا عليه غاضبين

(١) قد يعني حسبكم توقفوا.

مستائين، فقال: خيراً جاء بكما؟

قال أبو لهب: وأي خير وابن أخيك يدور بين القبائل يؤلب

الرجال على آلهتنا وعبادتنا وتجارتنا؟

قال أبو جهل: ما نحن يا أبا طالب، إن كنت فينا ذا منزلة

بسنك وشرفك وموضعك، بتاركي ابن أخيك على هذا حتى نُهلكه أو

يكف عنا ما قد أظهر بيننا من شتم آلهتنا وسب آبائنا وعيب ديننا،

وإننا لا نريد حربك وعداوتك، فكل ما نطلبه أن تكف محمداً عنا،

فانظر في أمرك ثم اقض إلينا قضاءك.

فكر أبو طالب ثم نظر إلى ابنه عقيل وقال له: انطلق فاتني بمحمد.

كان الوقت ظهيرة والشمس تسطع في وسط السماء، وجد عقيل

الرسول ﷺ وطلب إليه أن يحضر معه إلى عمه أبي طالب، لبى رسول

الله ﷺ على الفور، ولما حضر وجد عمه أبا لهب وأبا جهل هناك، قال

له أبو طالب: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديمهم

ومسجدهم، فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق

أنا ولا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك، وانته عن أذاهم.

فرح أبو لهب وأبو جهل، وظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله،

فنظر إلى السماء ثم قال: يا عم، لو وضعت الشمس في يميني والقمر في

يساري ما تركت هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك في طلبه.

ودمعت عين رسول الله ﷺ ، وولّى مدبراً ، فابتسم أبو طالب

وقال : والله ما كذب ابن أخي قط.

وناداه : يا ابن أخي أقبل .

فأقبل رسول الله ﷺ ، فقال له أبو طالب : امض على أمرك

وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

ثم أنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب^(١) دفيناً

فامض لأمرك ما عليك غضاضة^(٢) أبشر وقرّ بذاك منك عيوناً

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي فلقد صدقت ، وكنت قدم أميناً

وعرضت ديناً قد عرفت بأنه من خير أديان البرية^(٣) ديناً

لولا الملامة أو حذاري سبّة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وعاد أبو جهل وأبو لهب خائبين ، وساند أبو طالب ابن أخيه

ودعّمه بقبيلته ، فكانوا معه للنخوة والحمية حتى لو كانوا على غير دينه .

(١) أوسد في التراب ، أي أدفن .

(٢) ما عليك غضاضة ، أي لا تمسك إهانة .

(٣) البرية ، أي الخلق .

في المساء، بعد أن يعود الناس إلى بيوتهم، يتجه رسول الله ﷺ إلى دار أبي الأرقم يعلم أصحابه القرآن، تناول الرسول ﷺ شيئاً من الأرض بيده فقال: ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار.

فقال بلال بن رباح: يا نبي الله، أفلا نتكل؟

قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خُلق له، أما سمعتم الله في كتابه يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝﴾^(١)، ما من يوم غربت فيه شمسها إلا وبجانبها ملكان يناديان، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً.

تابع المشركون تعذيب من علموا بإسلامه، وحاولوا ثني الرسول ﷺ عما يفعل، ولكن أبا طالب كان يمنعهم من إيذاء ابن أخيه، وكانوا يحضرون إليه يقولون: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه.

(١) سورة الليل، الآيات ٥-١١.

فبيتسم لهم، ويقول لهم قولاً جميلاً، ويردهم رداً رقيقاً،
فينصرفون عنه.

كما حاول رجال أن يذهبوا إلى أبي العاص بن الربيع زوج زينب
بنت الرسول ﷺ، يحاولون إقناعه بتطليقها ليؤذوا رسول الله ﷺ،
فقالوا له: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت،
فإنك على خلاف دينهم.

فأجابهم رغم أنه لم يسلم: لا والله، لا أفارق صاحبتى، وما
أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش.

فكر رؤساء قريش بمساومة الرسول ﷺ، فاجتمع الوليد بن
المغيرة وأمّية بن خلف والعاص بن وائل وتشاوروا، فقال الوليد بن
المغيرة: إن دين محمد يدعو إلى كل خير، وإن إقبال الناس عليه
سيزداد، وعلينا أن نتصرف بسرعة قبل أن تفلت الأمور من أيدينا.

وقرروا أن يحاولوا مساومة الرسول ﷺ على دينه، فيكيف عن
إيذاء الآلهة وتجارتهم.

طلبوا لقاء الرسول ﷺ، فاستبشر الرسول ﷺ بقاء سادة
القوم، فحضر واجتمع بهم فقال الوليد بن المغيرة: يا محمد، إننا
نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح.

استبشر الرسول ﷺ وسأل: وما هي؟

قال: تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة، ونعبد إلهك سنة، فنشرك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبدته خيراً مما نعبد، كنت قد أخذت منه بحظك، وإن كان الذي نعبد خيراً مما تعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا.

شعر الرسول ﷺ أن رؤساء قريش قد بدؤوا مرحلة القلق من الدعوة، وأنهم بدؤوا المساومة والتنازل، وهي بداية انهيار عبادة الأصنام، حتى وإن عادوه فهم يعرفون أنه الحق، وما كان للرسول أن يشرك مع الله آلهة أخرى.

لاحظ أمية بن خلف إطراق الرسول ﷺ في التفكير، فقال: اعبد معنا آلهتنا يوماً، نعبد معك إلهك عشرة، واعبد معنا آلهتنا شهراً لنعبد معك إلهك سنة.

فأوحى الله إلى رسوله آيات، فخرج الرسول ﷺ من المجلس وتلى على الناس: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ۗ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۗ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۗ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۗ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۗ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۗ﴾^(١).

فيئس رؤساء قريش من المساومة، وعادوا خائبين.

(١) سورة الكافرون، الآيات ١-٦.

٩هـ | ٦١٣ م

بين قريش والمسلمين

وقف الرسول ﷺ أمام الكعبة يركع ويسجد، وتلى آيات أوحى الله بها إليه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾^(١).

كان كل أهل مكة يعرفون قصة الفيل والطيور جيداً، فجدبت الناس حول الرسول ﷺ، فقلق سادة قريش من تأثير القرآن على الناس، وكان عتبة بن ربيعة جالساً، فبعث رجاله ليبعدوا الرسول ﷺ عن الكعبة وينفض الناس.

وعاد الرسول ﷺ يعلم أصحابه في دار الأرقم، وقدم زيد بن

(١) سورة الفيل، الآيات ١-٥.

الخطاب^(١)، ووجد أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد هناك، تعجب للقائهما حيث كانا يكتمان إسلامهما، فاستبشرت فاطمة بقدم أخيها، وأخبرها أنه يريد أن يسمع ما جاء به محمد، فأجلسه الرسول ﷺ، واستمع إلى القرآن، فأعجب به، وأعلن إسلامه.

كما حضرت ميمونة بنت الحارث وسلمى بنت عميس، أختا زينب بنت خزيمة وأم الفضل لبابة الكبرى وأسماء بنت عميس اللواتي أسلمن قبلها، فأعلننا إسلامهما، فأصبحن الأخوات المؤمنات. ثم حضر السكران بن عمرو مع زوجته سودة بنت زمعة بعد أن سمعا رسول الله يقرأ القرآن عند الكعبة، فجلسا إلى المسلمين، وسمعا من رسول الله ﷺ، وأعلننا إسلامهما معاً.

تجهز أبو سفيان لرحلة تجارية إلى اليمن، وأثناء مغادرته نزل في الطائف، واختار ضيافة صديقه الحميم أمية بن أبي الصلت. جلسا يتحدثان ويأكلان، ثم سأل أمية صديقه: يا أبا سفيان، هل تذكر قول النصراني؟

تنهد أبو سفيان وقال: أذكره، وقد كان.

(١) زيد بن الخطاب، هو أخو عمر بن الخطاب وفاطمة بنت الخطاب.

نظر إليه أمية بتلهف وقلق، وسأل: من؟

قال أبو سفيان: محمد بن عبد الله.

تعجب أمية وقال: ابن عبد المطلب!

أكد أبو سفيان: ابن عبد المطلب.

قص أبو سفيان ما سمعه في مكة لصديقه أمية، فأطرق يفكر

وقال: الله أعلم.

ونهض يدور في المجلس، وبدأ يتصبب عرقاً وقال: والله يا أبا

سفيان لعله هو، إن صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله عز

وجل في نصره عذراً.

تابع أبو سفيان تجارته إلى اليمن، وفي عودته مر على الطائف،

وزار صديقه أمية الذي علم من أمر محمد ﷺ الخبر الكافي، فجلس

أبو سفيان إليه، وبعد حديث بسيط سأله: يا أمية، قد كان من أمر

الرجل ما قد بلغك وسمعته.

فتنهذ أمية وقال: قد كان لعمرى، أما إنه حق، فاتبعه.

قال أبو سفيان: فأين أنت منه يا أمية؟

أجاب أمية: والله ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقيف أبداً.

ثم جلس إلى أبي سفيان وأسر له قائلاً: ما يمنعي من اتباعه إلا

الاستحياء من نساء ثقيف، إني كنت أحدثهن أني هو، ثم يرينني
تابعاً لـغلام من بني عبد مناف! كأنني بك يا أبا سفيان قد خالفته، ثم
قد رُبطت كما يُربط الجددي حتى يُؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد.
سخر أبو سفيان من تعليق أمية، فهو سيد مطاع في قريش،
ومحمد ﷺ لا يقوى على مواجهته.

دخل أبو سفيان مكة وفي نفسه شيء مما سمع من صديقه، ولكن
ما إن رأى ضعاف المسلمين يُعدّبون من قبل السادة قال في نفسه: فأين
جنده من الملائكة ينصر أتباعه؟

أوحى الله إلى رسوله سورة الفلق والناس، فجلس الرسول ﷺ
يقرأهما عند الكعبة، فمر عليه رجال من قريش يريدون أن يسخروا
من الرسول ﷺ فقالوا: يا محمد، صف لنا ربك، أمن ذهب هو أم من
فضة أم من زبرجد أم من ياقوت؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممن ورث
الدنيا ومن يورثها؟ انسبه لنا.

فأوحى الله إلى نبيه الإجابة عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ
الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾^(١).

(١) سورة الإخلاص، الآيات ١-٤.

فانزعجوا منه وانصرفوا، بينما كانت هذه الآيات عظيمة في صدور المسلمين، وزادتهم إيماناً إلى إيمانهم.

اشتد العذاب على الصحابة، وشدت المشركون العذاب على خباب بن الأرت، فكانوا يكونون ظهره بسيفه التي يصنعها، وكانت سيدته تسخن الحديد وتضعه على رأسه، ثم تشعل الحجارة بالنار إلى أن تصبح حمراء وترميها على الأرض، وتربط خباب بالحبال وتجره على الأرض فوق الحجارة المحترقة، فأصبح ظهر خباب مخططاً بالسواد من الحروق، فكان يقول: لولا أنني سمعت رسول الله ﷺ نهى أن ندعو بالموت لدعوت به.

لما رأى المسلمون العذاب الذي يقع على إخوانهم المستضعفين طلبوا من الرسول ﷺ أن يأذن لهم بقتال هؤلاء المعتدين، ولكن الله سبحانه لم يأذن لنبيه بعد بقتال المشركين، عسى الله أن يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله ويصدق بالرسالة.

واشتد العذاب أكثر، فذهب المستضعفون إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يدعو ربه ليخفف عنهم ما هم فيه، فوجدوه جالساً عند الكعبة، فجلس خباب إلى الرسول وسأله: يا رسول الله، ألا تدعو الله

لنا؟ ألا تستنصر الله لنا؟

فأجابهم الرسول ﷺ : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون.

جاء اليوم الذي قرر فيه مصعب بن عمير أن يخبر أمه بنبأ إسلامه، فطلب إليها أن تجلس إليه قائلاً: هناك أمر أريد أن أحدثك بشأنه يا أمي.

قالت: خيراً؟ هل هناك مكروه؟

قال: بل كل الخير يا أماه، اجلسي.

جلست أم مصعب إليه فقال لها: لا بد أنك سمعتِ بأمر محمد والدين الجديد، والله إنه على الحق، وإن ما يقوله من الله الواحد، وإنه نبي الله إلينا لنترك عبادة أحمجار لا تضر ولا تنفع، ونعبد خالقنا وحده لا شريك له.

جفلت أم مصعب، فقالت: لا تقل أنك صبات مع الفقراء والعبيد؟

قال مصعب: هذا دين الناس كافة، لا فرق بين غني وفقير، حر وعبد.

قالت مستأفة: بل هناك الفرق كل الفرق، انظر إليك، انظر إلى ثيابك، انظر إلى منزلك، انظر إلى عطورك، انظر إلى حصانك، انظر إلى ما تملك، أتقارن نفسك بالفقراء والعبيد؟
قال مصعب: هذا ليس مهماً، المهم أن نعبد من رزقنا كل هذه النعم.

قالت غاضبة: الآلهة التي نتقرب لها كل يوم هي من ترزقنا وتحميننا.

قال مصعب بهدوء: الآلهة التي تعبدون كل يوم تحتاج إليك أكثر من حاجتك إليها، كم صنماً تكسّر فأصلحناه؟ كم صنماً اتسخ فنظفناه؟

وقفت أم مصعب وقد ثارت ثائرتها تصرخ وتقول: ما كنت لأدعك تصبأ! إن عاندت فسأقوم بحبسك.

سكت مصعب يعلم أن أمه قادرة على فعل شيء كهذا، بل ربما أكثر، ولكنه ظل صامتاً فقالت: أنا جادة، إن لم تترك دين محمد فسأحبسك.

قال مصعب: ما أنا بتارك دين الحق، لقد عرفتُ الطريق إلى الله.

قالت: أي إله تعني يا مصعب؟

قال: إنه إله واحد، الذي خلق الأرض والسماء وبسط الظلام

والنور، وجعل الموت والحياة.

قالت: أتعبد إله غير اللات ومناة وهبل يا مصعب؟

قال: يا أماه، أعلم أنك راجحة العقل نافذة البصيرة، وإنني

لأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الأحجار لا تنفع ولا تضر، ولا تملك من

أمر نفسها شيئاً، إنها نفس الأصنام التي حطمها النبي إبراهيم،

فكيف يا أماه تكون هذه الأحجار التي نصنعها بأيدينا آلهة نتوجه

إليها بالعبادة والتقديس؟

قالت غاضبة: خسئت يا مصعب وشُلّ لسانك، أبهذه الجرأة

تنال من آلهتنا وتسخر من معتقداتنا؟

قال: يا أماه...

أسكته قائلة: كف يا مصعب عن هذا الهراء! لقد سحرك

محمد بسحره فصبات عن ديننا وتابعته فيما يدعو إليه، وحق هذه

الآلهة لأضعنّ قدمك في القيد كما نفعل بالدواب حتى تموت أو تكف

عن هذا الذي تقول.

هكذا حبست أم مصعب ابنها في المنزل لعله يرتد عن الإسلام، ولكنها واجهت منه إصراراً وتحملاً لم تكن تعهده، عندها فتحت الباب وقالت: تستطيع أن تخرج، ولكن ليس لك شيء من مالي، وليس لك مكان في هذا المنزل.

نهض مصعب ليخرج من المنزل لا يعرف أين سيذهب، ولكنه يعلم أن أمه لن تتراجع أبداً حتى يترك الإسلام، وهذا آخر ما يمكن أن يفكر فيه.

اتجه مصعب إلى باب المنزل ففتحته له أمه تقول: اذهب لشأنك، لم أعد لك أمماً.

فنظر مصعب إليها يقول: يا أمي، إني لك ناصح، وعليك أشفق، فاشهدي بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

فصرخت: قسماً باللات والعزى، لا أدخل في دينك فيزري برأبي ويضعف عقلي.

خرج مصعب من منزله لا يملك شيئاً، واضطر إلى ارتداء الخشن من الثياب، وتحمل أذى قريبه، ولكنه ظل مصراً على الإسلام يقابل الرسول ﷺ ويتعلم منه الكثير.

جلس سعد بن أبي وقاص إلى الرسول ﷺ يسأله: يا رسول الله،
أي الناس أشد بلاء؟

فأجابه الرسول ﷺ: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فَيُبتلى
الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في
دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه
يمشي على الأرض ما عليه خطيئة.

وقد كانت السيدة خديجة أصبر الناس، والأكثر مساندة لزوجها
في الدعوة، وذات يوم ذهب الرسول ﷺ إلى غار حراء يتعبد وكان معه
جبريل عليه السلام، فقال جبريل عليه السلام: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت،
معها إناء فيه طعام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني،
وبشرها ببیت في الجنة من قصب^(١)، لا صخب فيه ولا نصب^(٢).

فلما أقبلت بالطعام لزوجها، أخبرها الرسول ﷺ ببشرى
جبريل عليه السلام، وقال: يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك.
فابتهجت وقالت: هو السلام^(٣) ومنه السلام وعلى جبريل
السلام.

(١) القصب هي الشرائط المذهبية.

(٢) الصخب هو الصوت العالي، والنصب هو التعب.

(٣) هو السلام تعني الله سبحانه وتعالى.

٧ / ٨ هـ | ٤ / ٦١٤ م

الهجرة إلى الحبشة

كان عمار ووالداه يكتمون إسلامهم، ويصلون في جوف الليل، وفي ليلة لمحهم عبد يصلون، فأسرع إلى سيده^(١) يوقظه ويقول: يا سيدي، خبر عظيم.

نهض الرجل يقول: من الأفضل أن يكون خبراً عظيماً لتوقظني من نومي في جوف الليل.

قال العبد: إن ياسراً بن عامر قد صبأ، هو وزوجته وابنه. تنهد الرجل وقال: هم أقل من أن يأبه أحدهم بهم، دعني أكمل نومي.

قال العبد: كل السادة تعذب عبيدهم الصابئين، ماذا سيقول وجهاء قريش؟

(١) سيد ياسر بن عامر هو أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي، سيذكر في هذا الموضع فقط.

قال الرجل: ليس لدي وقت لذلك، سأسلط عليه سيدياً من بني مخزوم يقوم بالمهمة.

في اليوم التالي علم أبو جهل بأمر عائلة آل ياسر، فغضب غضباً شديداً، وتولى تعذيبهم بدلاً من سيدهم، وافتضح أمرهم في قريش. ربط أبو جهل ثلاثتهم، ثم سحب الأب والأم ليعذبهما أمام عمار.

بدأ أبو جهل بأمر عمار، سمية بنت الخياط، حيث كان يعلم أنها امرأة ولن تتحمل العذاب، وأن زوجها وابنها لن يتحملا المنظر فيكفران، ولكن هذا لم يحدث، فقد صمدت سمية أمام التعذيب والقهر والشمس والجلد، صمدت في وجه أبي جهل وتعذيبه بشتى الطرق، وقالت لطاغية قريش: مهما تفعل، فإن إيماني في قلبي، وأنت لا تملك ما في القلوب.

فاستغاب أبو جهل، وأمسك رمحه وضربها ضربة مميتة، واستشهدت أمام زوجها وولدها، وكانت أول شهيدة في الإسلام. فمر الرسول ﷺ على العائلة ورأى سمية، فحزن حزناً شديداً على ما تلاقيه العائلة الضعيفة، وما لاقته سمية، فقال لياسر وعمار: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.

مرت أيام قليلة على وفاة سمية، واستمر تعذيب عمار وياسر،
فاستشهد ياسر إثر العذاب، وبقي عمار وحده.

ظل عمار ثابتاً حتى بعد استشهاد والديه، وظل أبو جهل يعذبه
ويشد في تعذيبه، إنه يعلم أن أبا جهل لن يتوقف قبل أن يقتله كما
قتل أبويه، فما عاد هناك ما يخسره في هذه الحياة إلا نفسه.

وقف أبو جهل أمام عمار يأمره: سبّ محمداً.

ظل عمار صامتاً يتحمل العذاب، فضربه أبو جهل وقال ثانية:
سبّ محمداً، فلن أتوانى عن قتلك كما قتلت أبويك.

كان عمار يعلم ذلك، ولم يعد يحتمل العذاب أكثر، فأطاعه
أخيراً رغماً عنه، وفرح أبو جهل بذلك، ولكنه قال: هل ترى هذه
الخنفساء؟ قل إنها ربك.

فأرغم عماراً على ذلك، فقال: هي ربي.

ضحك أبو جهل، وأخيراً ترك عماراً بعد أن أطاعه، فجثى عمار
وبدا يبكي ويلطم ويقول: لقد خسرت والدي، والآن خسرت ديني، يا
تعسك يا عمار، ماذا فعلت بنفسك؟

ما إن فكر بذلك حتى جرى إلى الرسول ﷺ يبكي، إنه لا يريد
أن يخسره، فهذا الدين ورسوله هو كل حياته.

وقف عمار أمام الرسول ﷺ والدموع في عينيه، وآثار الجراح والدماء تملأ جسده، فرق له الرسول ﷺ وقال: ما وراءك؟
قال عمار: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير.

فأجابه الرسول ﷺ بهدوء: يا عمار، كيف تجد قلبك؟
قال عمار بكل ثقة: أجد قلبي مطمئناً بالإيمان.
فقال الرسول ﷺ: يا عمار، إن عادوا فعد^(١).

وأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعُغْلُقُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾^(٢).

ابتهج عمار لما سمع، ثم قال له الرسول ﷺ: تعال يا عمار، اجلس.

سأل عمار: لم يا رسول الله؟

قال: أحب أن أدعو لأبويك.

(١) إن عادوا فعد، يعني إذا طلبوا منك أن تقول ما يسيء فافعل لتتخلص من البلاء.

(٢) سورة النحل، الآيات ١٠٦-١٠٩.

فجلس عمار ورفع الرسول ﷺ يديه يقول: اللهم اغفر لآل ياسر، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت.

ثم قال للصحابة عن عمار: إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه.

رغم أن سهيل بن عمرو كان من أكثر المعادين للدين الجديد، فلم يكن رأي أولاده مثله، فالتقى عبد الله وأبو جندل وأختهما^(١) بالرسول ﷺ، وسمعوا القرآن، فأمنوا وكتموا إسلامهم عن والدهم.

صار القرآن يُسمع أكثر في مكة، والحديث يكثر حول هذا الدين الجديد وأتباعه، فاجتمع رؤساء قريش يتناقشون حول هذا الدين الذي يسحر الكثيرين.

قال الوليد بن المغيرة: هذا الدين ينتشر أسرع مما نظن، وأظن أن عدد أتباعه في الخفاء يفوق ما نتصور، علينا أن نوقف محمداً بأية وسيلة. قال عتبة بن ربيعة: أبو طالب يحمي محمداً، فإذا خلصتم إلى

(١) عبد الله بن سهيل، وأبو جندل بن سهيل لهما دور بسيط في السيرة، اختهما اسمها سهيلة بنت سهيل.

أبي طالب وهو على دينكم، يردع ابن أخيه ويوقفه.

قال أبو جهل: ذهبنا إليه عدة مرات ولكنه يردنا على الدوام.

قال أبو سفيان: ما رأيكم أن نبادله بشاب من شبابنا؟ يعطينا

محمدًا فنعطيه أجمل وأفضل وأقوى شبابنا عوضاً عنه؟

استحسن الناس هذا الرأي، ووقع الخيار على عمارة بن الوليد

بن المغيرة، فهو أجمل الشباب وأشرفهم وأقواهم في قريش.

اتجه وجهاء مكة إلى أبي طالب، معهم عمارة بن الوليد،

فقدموه إلى أبي طالب وقال عتبة بن ربيعة: يا أبا طالب، هذا عمارة

بن الوليد، أقوى وأجمل وأذكى فتى في قريش، فخذ فلك عقله

ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد

خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله،

فإنما هو رجل برجل.

تعجب أبو طالب لما يسمع وقال: أين ذهبت عقولكم؟ تعطوني

ابنكم أربيه لكم، وأعطيتكم ابني لتقتلوه؟ هذا والله لا يكون أبدًا! أفلا

تعلمون أن الناقة إذا فقدت ولدها لم تحن إلى غيره.

فقال أحد الحاضرين من عشيرة أبي طالب: والله يا أبا طالب لقد

أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن

تقبل منهم شيئاً.

فنهض أبو طالب وقال: والله ما أنصفوني! ولكنك قد أجمعت
خذلاني ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك.
وأنشد:

أرى أخويننا من أبيننا وأمننا إذا سُئلا قالوا إلى غيرنا الأمر
هما أغمزا^(١) للقوم في أخويهما وقد أصبحا منهم أكفهما صفر
أخص خصوصاً عيد شمس ونوفلاً هما نبذانا مثل ما نبذ الجمر
هما أشركا في المجد من لأخاله من الناس إلا أن يرش له ذكر
وتيم ومخزوم وزهرة منهم وكانوا لنا مولى إذا ابتغى النصر
تركت قريش بني هاشم، وعذبوا من استطاعوا من المسلمين من

قبائلهم، فعلم أبو طالب أنه نجح وقبيلته في حماية ابن أخيه فأنشد:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها^(٢) وسمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها

(١) أغمز يعني صغر من شأنه.

(٢) الغثة هو النحيل.

كان عمر بن الخطاب يبعد من يستمع للقرآن بقوته وجبروته، وكان الناس يخافون أن يراهم يقتربون من الرسول ﷺ، بل وبات يتتبع الرسول ﷺ أينما ذهب حتى يمنع الناس من سماع القرآن. وذات يوم قام عمر بن الخطاب يسير في مكة يريد جليسا، فلم يجد أحداً، فذهب إلى الخمار فلم يجده، فقرر أن يذهب إلى الكعبة يطوف بها، فإذا به يجد الرسول ﷺ قائماً يصلي، يستقبل الشام، ويجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقال عمر لنفسه: والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول.

وقام يقترب، فخاف أن ينتبه الرسول ﷺ إليه، فدخل تحت ثياب الكعبة يستمع إلى الرسول ﷺ وقد كان يتلو: ﴿الْحَاقَّةُ ۝۱ مَا الْحَاقَّةُ ۝۲ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝۳ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝۴ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝۵ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝۶ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَقَلٍ خَاوِيَةٍ ۝۷ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝۸ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةَ بِالْخَاطِئَةِ ۝۹ فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمْ أَخَذَةً رَّابِيَةً ۝۱۰ إِنَّا لَمَّا طَعْنَا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝۱۱ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝۱۲ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝۱۳ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝۱۴ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝۱۵ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ

فَهِيَ يَوْمِيذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٦٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمِيذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿٦٧﴾ يَوْمِيذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿٦٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ
كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ ﴿٦٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ
حِسَابِيَةَ ﴿٧٠﴾ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٧٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٧٣﴾
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٧٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ
بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٧٥﴾ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ ﴿٧٦﴾ يَلَيْتَنِي
كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٧٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٧٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٧٩﴾ خُدُوهُ
فَعَلُوهُ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٨١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
فَأَسْلُكُوهُ ﴿٨٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٨٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ
الْمَسْكِينِ ﴿٨٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٨٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٨٦﴾
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٨٧﴾ ﴿١﴾.

فتعجب عمر من نسق القرآن الغريب، وألفاظه المتناسقة، فقال

في نفسه: هذا والله شاعر كما قالت قريش.

فتابع الرسول ﷺ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَا

تُبْصِرُونَ ﴿٨٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٩٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا
تُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾﴾ ﴿٢﴾.

(١) سورة الحاقة، الآيات ١-٣٧.

(٢) سورة الحاقة، الآيات ٣٨-٤١.

تعجب عمر مما سمع ، فقال في نفسه : كاهن .

فتلى الرسول ﷺ : ﴿وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٤٤ تنزيلاً
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ
بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ
حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾
وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾^(١) .

لم يعرف عمر السر فيما سمع ، وبدأ يفكر بطريقة مختلفة ،
وترك العناد من لحظتها ، وعلم أن ما سمع لهو أمر عظيم ، ووقع في
قلبه .

أنهى الرسول ﷺ تلاوته ، ثم دعا ربه : اللهم أعز الإسلام بأحد
العمرين ، عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام .

ازداد الاضطهاد على المسلمين ، فكان العبيد يُعذَّبون ، وكان
الشرفاء يؤذون في تجارتهم وأمور حياتهم ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما
يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٤٢-٥٢ .

عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

فسأله الصحابة: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا

من يسقينا.

فأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي

وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾^(١).

هكذا تجهز المسلمون للهجرة، تاركين ديارهم وأرزاقهم

وأهلهم، راحلين إلى بلاد لا يعرفونها، وإنما فيها ملك حسن الصيت، عسى الله أن يجعل لهم مخرجاً.

كان النجاشي ملك الحبشة على دين المسيحية، وكان الرسول ﷺ

يعلم أنه رجل عادل جداً، وأن المسلمين سيؤمنون عنده، وكان الأحباش

يعلمون ما حصل لأبرهة الأشرم وإنقاذ الكعبة، فكانوا يعتبرون أهل

مكة هم أهل الله.

كان أول من تجهز للهجرة عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت

الرسول ﷺ، كما هاجر الزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد

(١) سورة العنكبوت، الآية ٥٦.

الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة وأم سلمة،
وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن
سهيل بن عمرو، وعبد الله وعبيد الله بن جحش، وزوجته رملة بنت
أبي سفيان، ثم خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب وامراته أسماء بنت
عميس^(١).

كان المسلمون يتجهزون للهجرة، فلاحظ عمر بن الخطاب ذلك،
ورأى امرأة^(٢) تتجهز وتحمل أمتعتها على إبلها، عندها لمحت عمر
بن الخطاب يقترب، فخافت من قسوته وكرهه للمسلمين، وكان يعلم
أنها وزوجها^(٣) قد أسلما.

اقترب عمر منها بهدوء وسألها: إلى أين يا أمة الله؟

قالت: أفر بديني، قهرتونا وظلمتونا.

فقال: إذن هو الانطلاق يا أمة الله.

قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا،

حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

(١) هاجر غيرهم، وتختلف كتب السيرة في أسماء المهاجرين.

(٢) المرأة هي ليلي بنت أبي حثمة.

(٣) زوج ليلي هو عامر بن ربيعة.

فقال: صحبكم الله.

والتفت مغادراً وتركها دون أن يؤذيها، تعجبت المرأة من رقة كلام عمر! فذهبت إلى زوجها بسرعة تقول له: سمعتُ من عمر بن الخطاب عجباً! وجدتُ منه رقة ما عهدتها فيه.

ابتسم زوجها وقال: أطمعين أن يسلم عمر؟

قالت: نعم والله.

قال: والله لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب.

قالت: لا والله، أرى فيه خيراً.

وجهز عثمان بن مظعون أمتعته، فمر عليه قريبه أمية بن خلف وقد آذاه عندما علم إسلامه، فرآه يحضّر أمتعته فسأله: إلى أين؟
فأنشد عثمان بن مظعون أبياتاً يلومه فيها:

أخرجتني من بطن مكة آمناً وأسكنتني في صرح بيضاء تقنع^(١)
تريش نبالاً لا يواتيك ريشها وتبري نبالاً ريشها لك أجمع
وحاربت أقواماً كراماً أعزة وأهلكت أقواماً بهم كنت تفرع
ستعلم إن نابتك يوماً ملمة وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

(١) تقنع يعني قببح.

فتركه أمية يغادر.

اقترح الرسول ﷺ على أبي بكر أن يهاجر إلى الحبشة مع المسلمين، رغم أن فراق الصديقين فيه مشقة كبيرة عليهما، إلا أن الضرر قد وصل أبا بكر في نفسه وتجارته وعياله، فرأى رسول الله ﷺ أن يسافر صديقه فيذهب عنه الضرر، فجهّز أبو بكر أمتعته، يصعب عليه فراق صديقه رسول الله ﷺ، وسار خارجاً من مكة حزيناً متثاقلاً، وفي الطريق التقى بابن الدغنة^(١)، وكان كافراً من أشرف العرب، فسأل أبا بكر: أين تريد يا أبا بكر؟

فأجابه أبو بكر: أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي.

قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل^(٢)، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، وأنت في جواربي.

(١) ابن الدغنة، من أشرف كنانة، سيذكر في هذا الموضع فقط.

(٢) الكل يعني الضعيف.

هكذا رجع أبو بكر إلى مكة، وطاف بالكعبة حول أشراف قريش مع ابن الدغنة وهو يقول: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق؟

قبل أشراف مكة جوار ابن الدغنة رغم أنهم كارهون، فوقف أبو بكر عند الكعبة يقرأ القرآن، فقال أبو جهل لابن الدغنة: إن كنت جعلته في جوارك فعلى الأقل لا يقرأ القرآن بيننا، فإنه يسحر الناس إذا قرأ القرآن، فهو يبكي كلما قرأ، ويجتمع النساء والأطفال حوله، ويؤثر فيهم. مُرُّ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به فإننا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا.

فقال ابن الدغنة: حسناً.

وذهب إلى أبي بكر وطلب إليه أن يعبد ربه في داره، فذهب أبو بكر إلى داره، وابتنى ركناً في ساحته يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينظر إليه المارة ويعجبون به وينظرون إليه وهو يبكي عندما يقرأ القرآن. ففرغ وجهاء قريش لذلك، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقال له أمية بن خلف: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في

داره، وإنه جاوز ذلك، فبنى ركناً بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فاتّه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك نتمته، فإننا كرهنا أن نتجاوز جوارك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

فذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه من العبادة في دارك، وإنني لم أجرك لتؤذي قومك، فإنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إليّ نمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أن قريشاً تجاوزت جوارى في رجل أجرته.

فقال أبو بكر: إنني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله.

حزن ابن الدغنة لقرار أبي بكر، ولكنه ذهب إلى الكعبة وقال لقريش: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد علي جوارى، فشأنكم بصاحبكم.

وعادت قريش تؤذي أبا بكر وتبعث بسفهاؤها يتتبعونه.

لقيه سفيه وهو عامد إلى الكعبة، فرمى على رأسه تراباً، فرآه

الوليد بن المغيرة، فقال له أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟

قال الوليد: أنت فعلت ذلك بنفسك.

فقال أبو بكر: أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك.

كان عدد المهاجرين بضعة عشر، واتجهوا إلى شاطئ البحر ويسر الله لهم سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، فلما سمعت قريش بخبر هجرتهم بعثت رجال يلحقون بهم، ولكنهم وصلوا الشاطئ متأخرين، حيث كانت السفينتان قد أبحرتا بأمان، وزاد حقد قريش على من هاجر من أولادها وأقربائها، وازدادوا حقداً وقسوة على الدين الجديد.

وصل المهاجرون إلى الحبشة، ودخلوا على النجاشي، ورووا عليه قصتهم، وكيف أوذوا لتركهم عبادة الأصنام إلى عبادة الله، فرحب بهم واستقروا في بلاده، واستقبلهم النجاشي بعدله كما وصفه الرسول ﷺ، وعبدوا الله بسلام وأمان، ولم يتعرض لهم أحد، وكانت الأمور هادئة تماماً.

مر زمن ولم يسمع الرسول ﷺ أخباراً عن ابنته رقية وزوجها

عثمان بن عفان من بعد خروجهما إلى الحبشة، وكانت السيدة خديجة قلقة على ابنتها كثيراً، فكان الرسول ﷺ يسأل كل من يحضر من طريق الحبشة عن أخبارهما، فقدمت امرأة من قريش فقالت له: يا محمد، قد رأيت ختنك ومعه امرأته.

فسألها الرسول ﷺ: على أي حال رأيتهما؟

قالت: رأيتَه قد حمل امرأته على حمار ضعيفة، وهو يسوقها.

فقال الرسول ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله

بعد لوط عليه السلام.

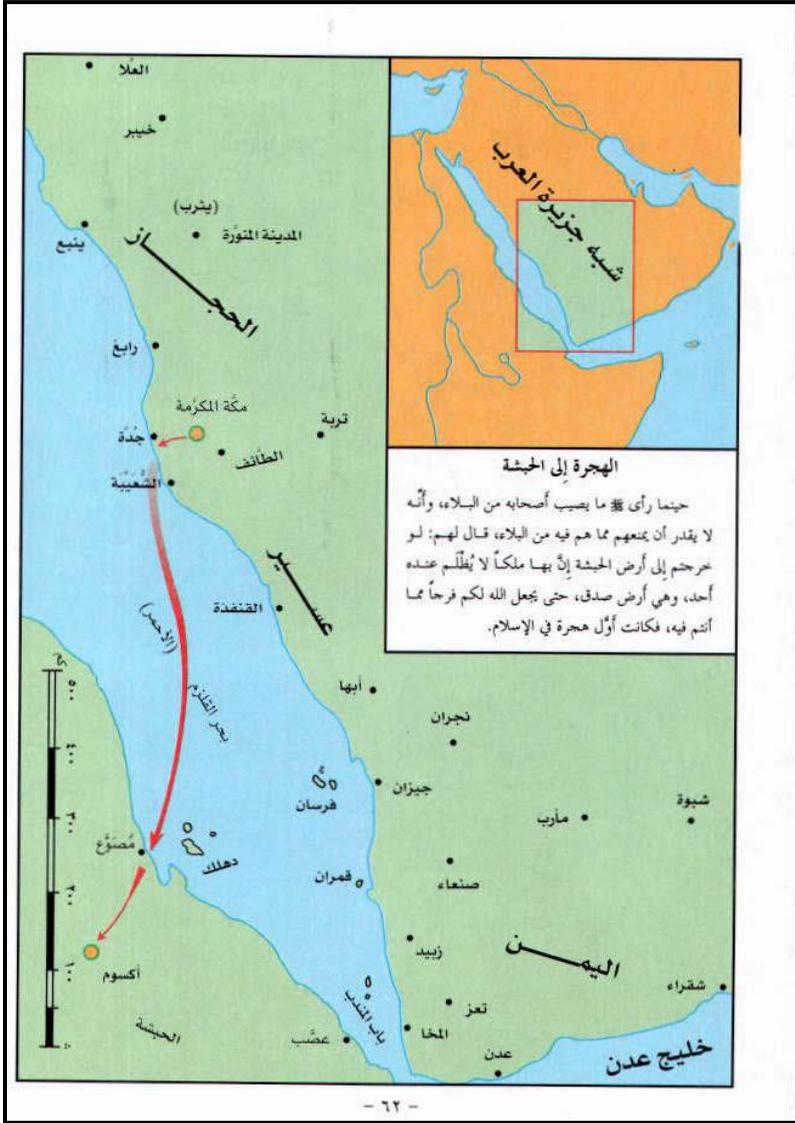
كان بيت بني جحش من أفضل البيوت في مكة، وقد هاجر الجميع إلى الحبشة وتركوه فارغاً، فمر عليه أبو جهل وعتبة بن ربيعة، فقال أبو جهل: أصبحت دار بني جحش تبكي أصحابها.

قال عتبة بن ربيعة: هذا ما جنوه على أنفسهم.

ابتسم أبو جهل وفتح الباب بقوة وقال: ومن يمنعنا منها الآن؟

سكت عتبة فقال أبو جهل: فهي لي، سأرسل بالعبيد ليجهزوا

لي منزلي الجديد.



١٠ / ٨ هـ | ٧ / ٦١٤ م

إشاعة انتشار الإسلام في مكة

جلس رسول الله ﷺ إلى الوليد بن المغيرة يحدثه في أمر الخلق والآخرة، ويعظه ويرشده، فتأثر قلبه بما سمع، فخشى الجميع أن يسلم الوليد، فلقيه رجل وقال له: تركت دين آبائك وزعمت أنهم في النار، كان ينبغي عليك أن تنصرهم.

قال الوليد: إني خشيت عذاب الله.

قال الرجل: أعطني بعض المال وأنا أحمل كل عذاب كان عليك عنك.

فكر الوليد قليلاً، وأعطى الرجل صرة من فضة، فقال الرجل: زدني.

تردد الوليد ثم أعطاه صرتان أخريان من فضة، وسأومه على المال أكثر فأبى أن يزيد، وكتب كتاباً بينهما وحضره شهود.

فأوحى الله إلى رسوله ﷺ آياته، فاتجه إلى الكعبة وقرأها
بوضوح أمام الناس جميعاً وسط ذهول الجميع: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾
وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ
بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ
يُجْزَاهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ
وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ
أَعْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾
وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٢﴾
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾
هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّبِعُونَ ﴿٦٠﴾
وَأَنْتُمْ سَلِيمُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۗ ﴿٦٢﴾﴾^(١).

كان وقع الآيات شديداً على الجميع، وفي آخر الآية سجد
الرسول ﷺ، فسجد المسلمون كما فعل، ثم سجد كفار قريش جميعاً
من هول الآيات.

(١) سورة النجم، الآيات ٣٣-٦٢.

اهتزت قريش، وساد الصمت المكان، وطاف الرسول ﷺ حول الكعبة ثم غادر، ولم يتعرض إليه أحد.

سافر رجل من مكة إلى الحبشة، وقد شاهد ما حدث ذلك اليوم، وأخبر المسلمين في الحبشة أن قريشاً كلها قد سجدت لله خلف الرسول ﷺ، فابتهج المسلمون، وظنوا أن الإسلام قد انتصر في مكة وأن الجميع قد أسلموا.

فبدأ المسلمون في الحبشة يفكرون في العودة إلى ديارهم، بعضهم اقترح انتظار أوامر الرسول ﷺ في هذا الشأن، والبعض الآخر قرر العودة إلى الديار والأهل والاحتفال بالانتصار.

اجتمعت قافلة صغيرة للعودة إلى مكة، كانت تضم عبد الرحمن بن عوف، وأبا عبيدة بن الجراح، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وعثمان بن مظعون، وأبو سلمة وأم سلمة، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وعبد الله بن جحش، وغيرهم قليل.

ولكن قريشاً لم تكن قد أسلمت، بل وقد ازداد الأذى على المسلمين، فلما اقترب العائدون من الحبشة إلى مكة شعروا بتوتر الأوضاع، وعلموا أن الأذى قد اشتد أكثر على المسلمين.

سمع سهيل بن عمرو خبر وصول ابنه إلى أطراف مكة، فبعث إليه رسولاً يخبره: يا عبد الله، لقد ابتهج والدك بعودتك، وهو يدعوك إلى الأمان، وإلى الأهل والعشيرة.

فرح عبد الله بن سهيل برسالة والده، ودخل مكة لا يظن بأبيه إلا خيراً، ولكن ما إن رآه سهيل بن عمرو حتى أمسك به يقول: أخيراً أمسكتُ بك يا عاق أبيك وتارك دينه ودين آبائه، إلى أين تظن أنك تفر مني؟

وبدأ بحبسه وتعذيبه أشد من ذي قبل، ولما اشتد العذاب أكثر على عبد الله اضطر أن يقول: كفرتُ بمحمد، واتبعتك.

ابتهج سهيل بن عمرو وقال: الآن يا عبد الله، أكان عليّ أن أقوم بجلدك وتعذيبك لتعود إلى صوابك؟ قم يا ابن أبيك، اغتسل واسترح، وشارك قومك سهرهم وسمرهم.

نهض عبد الله حزيناً، واغتسل يقول في نفسه: سامحني يا الله، اغفر لي يا الله، والله إنك ربي الذي لا إله إلا أنت، أعني على والدي وعلى قومي، واستر علي.

فكف عنه والده التعذيب، ولكن عبد الله أخفى إسلامه في نفسه.

أما عثمان بن مظعون فقد دخل مكة في جوار الوليد بن المغيرة، وفي هذا الجوار عاش آمناً لا يتوجه إليه أحد بأذى أو يصيبه مكروه، ولكنه رأى أنه في جوار بينما أصحابه من المسلمين الذين عادوا معه ينالون الخسف والهوان، فقال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي.

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وفت نمتك وقد رددت إليك جوارك.

تعجب الوليد وقال: لماذا؟ لعله آذاك أحد من قومي؟

قال: لا، ولكن أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال الوليد: فانطلق إلى المسجد، فاررد عليّ جوارى علانية كما أجزتك علانية.

فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جوارى.

قال عثمان: صدق، قد وجدته وفيماً كريم الجوار، ولكنى قد أحببتُ ألا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره.

رد عثمان بن مظعون جوار الوليد بن المغيرة، وانطلق في أرجاء

مكة ودروبها، وكأنه يتحدى هؤلاء المشركين أن يتقدم إليه أحد بمكروه، حتى وقعت عينه في أثناء سيره على حلقة من الناس يتحلقون حول شاعر مسافر ينشد شعره، فجلس عثمان يستمع معهم، حتى وصل الشاعر إلى قوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

فقال عثمان: صدقت.

قال الشاعر: وكل نعيم لا محالة زائل.

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

قال الشاعر: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم،

فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا

ديننا، لا تجدن في نفسك من قوله.

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وتفاقم الشر، فقام إليه رجل

فلطم عينه فأصابها، فرأى الوليد بن المغيرة ما بلغ من عثمان فقال: أما

والله إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة.

فقال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما

أصاب أختها في الله، وإنني والله لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا

عبد شمس.

فقال الوليد: هلم إن شئت إلى جوارك فعد.

قال عثمان: لا.

كذلك عاد أبو سلمة مع أم سلمة، وقد استجار بأبي طالب فأجاره، وكان أبو سلمة من بني مخزوم، وأبو طالب من بني هاشم، فسار إلى أبي طالب رجال من بني مخزوم فقالوا له: يا أبا طالب، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟
أجاب أبو طالب: إنه استجار بي، وهو ابن أختي برّة، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي.

فقام أبو لهب ووقف في صف أبي طالب وقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون توثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد.

خشي بنو مخزوم أن ينضم أبو لهب إلى محمد والمسلمين حمية لعشيرته، فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة.

وعاد مصعب بن عمير وعلى وجهه علامات التعب والضعف،

الأمر الذي جعل أمه تكف عن عذابه، وأقبل على الرسول ﷺ وهو جالس بين أصحابه يلبس قطعة بالية من الثياب، فلما رآه الصحابة طأطأوا الرؤوس رحمة له، فسلم على الرسول ﷺ، ورد عليه الرسول ﷺ السلام وأثنى عليه وقال: الحمد لله يُقلب الدنيا بأهلها، لقد رأيتُ هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه، ثم أخرجته من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله.

كما قدم عبد الله بن جحش إلى مجلس الرسول، وقد وجد أبا جهل قد استولى على منزله، فشكى ذلك إلى رسول الله ﷺ: يا رسول الله، كانت منزلنا أفضل المنازل في مكة، وما إن غادرناها إلى الحبشة حتى استولى عليها عمرو بن هشام، وما لنا مكان نأوي إليه إلا أن نستجير إلى أقربائنا.

فقال له الرسول ﷺ: ألا ترضى أن يرزقك الله بيتاً في الجنة؟

قال عبد الله: بلى يا رسول الله، أرضى.

ثم نهض الرسول ﷺ مع بعض أصحابه، وزار أم أيمن التي كانت دائماً تعامله كابنها، وعزاها في وفاة زوجها، ثم قال لأصحابه: من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن.

فقال زيد بن محمد ﷺ: أنا أتزوجها يا رسول الله.

فتزوج زيد بن محمد ﷺ من أم أيمن.

حضر طبيب^(١) من القبائل المجاورة مكة ليعتمر، فسمع سفهاء مكة يقولون: إن محمداً مجنون.

فقال: آتى هذا الرجل لعلّ الله أن يشفيه على يدي.

فبحث عن الرسول ﷺ إلى أن لقيه، فجلس إليه وقال له: إنني طبيب أعالج الجنون، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهل أخبرني ما خبرك.

فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

ذهل الطبيب وقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فلقد بلغن قاموس البحر.

فأعادها الرسول ثلاث مرات، فقال الطبيب: تالله لقد سمعتُ قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعتُ مثل هذه الكلمات، فهلّم يدك أبايعك على الإسلام.

(١) الطبيب اسمه ضماد، وهو من قبيلة أزد شنوءة.

فبايعه رسول الله ﷺ وقال له: وعلى قومك؟

قال الطبيب: وعلى قومي.

وغادر إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فأمنوا.

اجتمع الرسول ﷺ مع سادات قريش، عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأميمة بن خلف يدعوهم إلى الإسلام ويعظهم، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم، ويدعوهم أكثر من مرة.

فبينما رسول الله ﷺ منشغل بمن عنده جاء إليه عبد الله بن أم مكتوم^(١)، وهو رجل بسيط أعمى، قد تلمس الطريق إلى الرسول ﷺ ليسمع عن هذا الدين، ولم يعلم بالحاضرين في المجلس.

قاطع عبد الله بن أم مكتوم حديث الرسول ﷺ في المجلس وقال: يا رسول الله، علّمني مما علّمك الله.

توقف الرسول ﷺ عن حديثه، فقال عبد الله بن أم مكتوم ثانية: يا رسول الله، علّمني مما علّمك الله.

تأثر الرسول ﷺ من مقاطعته لحديثه مع وجهاء قريش بهذه

(١) عبد الله بن أم مكتوم، صحابي، له دور في السيرة.

الصورة، وعبس، وأعرض عن عبد الله بن أم مكتوم ليقبل على جلسائه من جديد يكلمهم بكل الحجج والبراهين لإقناعهم، فغادر عبد الله بن أم مكتوم، ثم أوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۙ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَا مِنْ أَسْتَعْتَى ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۚ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْفَى ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ﴾^(١).

فكان عتاباً من الله تعالى لرسوله ﷺ لإصرار الرسول ﷺ على دعوة من يرفض الدعوة ويحاربها، وإعراضه عن الرجل البسيط القادم بنفسه ليسلم بسهولة، وما على الرسول ﷺ إلا الذكرى، وليس له أن يقهر نفسه في سبيل دعوة من يعرض.

فهرع الرسول ﷺ إلى عبد الله بن أم مكتوم، وجلس إليه، وأجابه عن كل تساؤلاته، وعلمه وأرشده إلى الطريق القويم حتى استبشر وأعلن إسلامه.

وأخذ الرسول ﷺ إلى داره، وجلس إلى أصحابه، يعلمهم ما

(١) سورة عبس، الآيات ١-١٦.

نزل عليه من آيات سورة عبس والقدر، ومن يومها كلما لقي
الرسول ﷺ عبد الله بن أم مكتوم كان يقول له: أهلاً بمن أوصاني به
ربي خيراً.



١٢ / ٧هـ | ٩ / ٦١٥ م

إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب

كان حمزة بن عبد المطلب، البالغ السابعة والأربعين من العمر، ينتطي حصانه في جبال مكة، يصطاد ما طاب له من الفرائس، وكان يجلس وحيداً يصطاد ساعة ويتأمل ساعة، شغل تفكيره ما جاء به ابن أخيه محمد ﷺ، إنه يعرفه حق المعرفة، وهو أخوه في الرضاعة، ورفيق حياته، وصديق طفولته، ويعرف عنه مكارم الأخراق ورقة الشمائل ومحبة الضعفاء والوقوف في وجه الظلم.

وهو من قبل هذا ومن بعده الأمين الصدوق بين أهله وعشيرته، والحائل بين قريش وبين إراقة الدماء عندما اختلفت في وضع الحجر الأسود، فعل ذلك وهو صغير، أما وقد بلغ مبلغ الرجال يأتي بما يفرق جمعهم ويشتت وحدتهم؟

هز رأسه، يقول: محال أن يفعل محمد ذلك، إنه لن يأتي منه

إلا الحق والعدل، ولن يدعوهم إلا إلى خير، أيكون صادقاً مع الناس أميناً بينهم كاذباً على ربه يتقول عليه بما لم يوح إليه به؟ لا، إن هذا لن يكون.

هكذا كان يفكر حمزة بينه وبين نفسه، وهو يسرع بحصانه إلى مكان الصيد، وشغلته أمور الصيد عن حديث محمد وما تدبره قريش له.

في هذه الأثناء كان الرسول ﷺ عند الصفا، فالتقى بأبي جهل، فأذاه وشتمه ونال منه ما يكرهه من العيب لدينه، يقول: إلهك هذا لا يستحق شيئاً ونحن أهل الكعبة والعبادة، لا يستطيع فعل شيء ونحن أهل الحرب والسيف، لا يستطيع أن ينصرك أو يعينك ومعك الضعفاء ونحن أهل الشرفاء، كنت صادقاً أميناً عندنا وبت كاذباً خواناً، لا أحد يريد أن يستمع إليك، كلنا نعلم أنه قد أصابك مس من الشياطين وتقول ما يقولون، عد إلى بيتك وأهلك يطيبوك فإنك مجنون. وكانت في الجوار امرأة تتألم لما تسمع، ولا تملك أن تفعل شيئاً.

في المساء عاد حمزة بن عبد المطلب من صيده، ونزل جبال مكة

إلى الكعبة يحمل سيفه ورمحه سعيداً بما جمع من غزلان وطيور
وحوانات برية، فالتقى بالمرأة، وطلبت إليه أن تسر إليه بما سمعت،
فقالته له: يا أبا عمارة^(١)، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفأ من
أبي الحكم بن هشام، وجده جالساً فأذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم
انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

غضب حمزة لذلك غضباً شديداً، واتجه من فوره إلى أبي جهل
حيث لقيه عند الكعبة، وبدون مقدمات ضربه بقوسه ضربة شجت
رأسه، وقال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول، رُدّها علي إن
استطعت.

فقال أبو جهل: أما ترى ما جاء به؟ يسفه عقولنا ويسب
آلهتنا، وخالف آباءنا.

فقال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله.
فقام رجال من بني مخزوم يقولون: ما نراك يا حمزة إلا قد
صبأت.

فرد عليهم حمزة: ومن يمنعني وقد استبان لي منه ما أشهد أنه
رسول الله، وأن الذي يقول حق؟ فامنعوني إن استطعتم.

(١) أبو عمارة كنية حمزة بن عبد المطلب.

فقام الرجال لينصروا أبا جهل، ولكن أبا جهل أوقفهم قائلاً:
دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.
توقف الرجال، وغادر حمزة، وقبض أبو جهل على جرحه
بقوة وقال: تبا، لقد امتنع محمد بجدار منيع.

ورجع حمزة إلى بيته يشاور نفسه فيما فعل، هل فعل ذلك
عصيبة لابن أخيه، أم أنه نور الحق الذي عليه أن يسير فيه؟ هل من
الصواب أن يترك سيد من قريش دين آبائه ويلتحق بدين جديد غريب
عن الجميع؟

جلس أبو بكر إلى الرسول ﷺ عند الكعبة وسأله: يا رسول
الله، ألا نسمع قريشاً الإسلام وسط مكة؟
فأجابه الرسول ﷺ: يا أبا بكر، إنا قليل.
فقال أبو بكر: يا رسول الله، والله إنه لحق ظاهر، وما يكذب به
إلا المكابرون، فلنظهر بهذا الدين ليسمعه الجميع، ويصل إلى الجميع
بكل وضوح.

فلم يزل أبو بكر يلح حتى وافق الرسول ﷺ، وتفرق المسلمون
في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس

خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، وما إن بدأ أبو بكر خطبته بحمد الله
والثناء عليه، أكب عليه مشركوا قريش.

انزعج عتبة بن ربيعة لجرأة أبي بكر، فنهض من مجلسه
واقترح رجاله وخلع نعله وبدأ يضرب به وجه أبي بكر، فنزف
كثيراً، وأغلقت عينيه، وتأذى أنفه حتى أغمى عليه.

وقبل أن ينتفض أحد من المسلمين لنصرة أبي بكر، انتفضت
قبيلته بنو تيم، فدفعوا الناس عن أبي بكر وحملوه لينقلوه إلى بيته لا
يشكون أنه قد مات، فقال أبو قحافة لعتبة بن ربيعة: والله يا عتبة لو
مات لنتقم له.

وقال آخر: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنّ عتبة بن ربيعة.

حمل الرجال أبا بكر إلى منزل والدته^(١)، ففزعت لما حل
بابنها، فقالوا لها: إن عاش فأطعميه واسقيه، ونشك أنه يعيش.

أبعد المسلمون رسول الله ﷺ بسرعة خشية أن ينال ما نال صديقه أبا
بكر، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يعلم خبر صديقه أو يطمأن عليه
بعد ما جرى، وقلق عليه قلقاً شديداً.

(١) أم أبي بكر هي سلمى بنت صخر، ستذكر في هذا الموضع فقط.

تحدث الناس عمّا حل بأبي بكر، وكيف أنه ربما قد مات،
ووصل إلى مسامع الزبير بن العوام الخبر فظن أنهم يتحدثون عن رسول
الله ﷺ وليس أبا بكر، فحمل سيفه وشق طريقه بين الناس إلى أن
وصل إلى الرسول ﷺ فرآه بخير، فسأله الرسول ﷺ ينظر إلى سيفه:
مالك يا زبير؟

أجاب: أُخبرت أنك قُلت.

فدعا له الرسول ﷺ ولسيفه وأثنى عليه، فكان سيف الزبير
أول سيف سُئل في الله.

اعتنت أم أبي بكر بابنها، وظل فاقد الوعي إلى الليل، ولكنه
أخيراً فتح عينيه، ابتهجت أمه كثيراً ولكنه قال من فوره: ما فعل
برسول الله؟

انزعجت أمه وقالت: أما زلت تذكره؟

فقرّبت منه شراباً وقالت: فكر بنفسك أولاً، لقد كدت تموت.
فقال: والله لا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تطمئن نفسي
على رسول الله.

قالت: والله مالي علم بصاحبك.

قال: اذهبي إلى فاطمة بنت الخطاب، فاطمئني منها على رسول الله.

حاولت أم أبي بكر أن تثني ابنها عن ذلك ولكنه أصر عليها، فذهبت إلى فاطمة، وطرقت الباب، فتحت فاطمة بنت الخطاب متعجبة من طارق في الليل! فقالت أم أبي بكر: يسألك أبو بكر ما فعل برسول الله.

خشيت فاطمة من أن يُعلم خبر إسلامها وزوجها، فقالت: والله ما أدري ما ابنك وما أدري ما محمد، ولكن إن شئت أن أطمئن على ابنك أتيتُ معك.

ذهبت فاطمة مع أم أبي بكر إلى منزلها، فما إن رأت أبا بكر على حاله حتى صاحت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

فتح أبو بكر عينيه وقال: ما فعل برسول الله؟

قالت فاطمة: هذه أمك تسمع.

فهم أبو بكر أنها تكتُم إسلامها عن أمه فقال: فلا شيء عليك منها.

قالت فاطمة: سالم صالح.

قال: أين هو؟

قالت: في دار ابن الأرقم.

قال أبو بكر: فإن لله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله.

قالت فاطمة: انتظر حتى تهدأ الحركة ويسكن الناس.

فعلاً قام أبو بكر ومشى يتكئ على أمه حتى وصلوا إلى دار الأرقم، وقد كان الرسول ﷺ قلقاً على صديقه قلقاً شديداً، ففتح الباب، فرآه الرسول ﷺ، فأكبّ عليه وقبله، وأكبّ عليه المسلمون، فرق له الرسول ﷺ رقة شديدة على ما جرى به، وأخذه واحتضنه، فلما لاحظ أبو بكر قلق الرسول ﷺ الشديد عليه قال: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي.

فدعا له الرسول ﷺ وأجلسه إلى جانبه، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هذه أمة برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار.

كانت أم أبي بكر واقفة، فدعا لها الرسول ﷺ، ودعاها إلى الله، فما أنهى كلامه حتى قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. ابتهج أبو بكر بإسلام أمه، وفرّج عنه كل ما أصابه.

أما حمزة بن عبد المطلب، فقد أرق الليلة، واتجه إلى الكعبة يفكر محتاراً فيما فعل وفيما يتوجب عليه أن يفعل، إنه لا يشك لحظة في صدق محمد ونزاهة مقصده، ولكن أيمن أن يستقبل امرؤ ديناً جديداً بكل ما يفرضه من مسؤوليات وتبعات في لحظة غضب مثلما صنع هو؟

تضع إلى الكعبة رافعاً أكفه إلى السماء يقول: اللهم ما صنعت إن كان رشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً.

هدأ قلبه، وسكنت نفسه، شعر أن ما عليه أن يفعل إلا أن يلتقي محمداً ﷺ ويجلس إليه.

في اليوم التالي زار حمزة ابن أخيه محمداً في منزله، سعد به الرسول ﷺ كثيراً، وقدّم له الطعام والشراب، فقص عليه حمزة ما جرى معه، وقال له: يا ابن أخي، إنني قد وقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو أرشد أم هو غي شديد. فاستبشر الرسول ﷺ وأسمعه شيئاً من القرآن، فأنصت حمزة، وعرض عليه ما جاء به الإسلام، فأحس بطمأنينة كبيرة، لماذا لم يستمع إلى ابن أخيه وعذوبة ما جاء به من قبل؟ فشهد الشهادتين

وفرّح الرسول ﷺ بإسلام عمه كثيراً، وفرّح كل من في المنزل، فقال حمزة للرسول ﷺ: أظهر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأني على ديني الأول.

فكان حمزة ممن أعز الله به دينه، وأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ الآيات: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

وأنشد حمزة في إسلامه:

حمدت الله حين هدى فؤادي	إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز	خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا	تحدر دمع ذي اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها	بآيات مبينات الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع	فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقوم	ولما نقضي فيهم بالسيف

وبعد ثلاثة أيام، كان الصراع الداخلي لعمر بن الخطاب، الذي

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢٢، نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل.

بلغ الثالثة والثلاثين، ما يزال شديداً، لقد كان ما سمعه من الرسول ﷺ أفضل من كل ما سمع من الشعر، هل هو سحر أم حق ووحى ودين جديد؟

تعب عمر من التفكير، وتطرق إلى مسمعه أن محمداً ﷺ يجتمع مع أصحابه عند بيت قرب الصفا، فغضب وقرر أن يحسم الأمر ويحمل سيفه وينطلق إلى محمد ﷺ ليقتله.

وفي طريقه قابل رجلاً^(١) يكتُم إسلامه، رأى الرجل عمراً محمراً الوجه يحمل السيف، فعلم أن الأمر خطير، فسأله: إلى أين يا عمر؟ فرد عمر غاضباً: إلى محمد الذي فرَّق أمر قريش، وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله.

خاف الرجل على الرسول ﷺ، فحاول أن يثني عمر قائلاً: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟

قال عمر: أراك اتبعت محمداً! ولو أعلم ذلك لبدأت بك.

ارتعد الرجل من عمر وقال بسرعة: أبداً أبداً.

قال عمر: إذن دعني وما أبغي.

(١) الصحابي هو نعيم بن عبد الله، سيذكر في هذا الموضع فقط.

فقال الرجل مسرعاً يحاول أن يبعد عمرًا عن الرسول ﷺ :
ولكن اعلم يا عمر، بدلاً من أن تذهب إلى محمد انظر إلى أختك
وزوجها، فقد اتبعوا محمداً.

غضب عمر غضباً شديداً وقال: أوقد فعلاً؟

قال الرجل: نعم.

انطلق عمر من فوره إلى منزل أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد
يشتعل غضباً، بينما ركض الرجل يحذر الرسول ﷺ من غضب عمر.

أما في منزل سعيد بن زيد، فقد كان هو وفاطمة جالسين إلى
خباب بن الأرت يعلمهما القرآن كما نزل على الرسول ﷺ، وفجأة
سمعوا طرق الباب، نهض سعيد يسأل: من الطارق؟
أجاب عمر: عمر.

انتفض كل من في المنزل، فجرى خباب واختبأ في زاوية لا يراها
عمر، وفتح سعيد الباب بهدوء، فدخل عمر غاضباً وأمسك سعيداً
وقال: ما هذه المهمة التي سمعت؟
قال سعيد: ما سمعت شيئاً.

صرخ عمر قائلاً: بلى، وبلغني أنك اتبعت محمداً، بلغني أنك

قد صبات!

قال سعيد بهدوء: يا عمر، رأيتَ إن كان الحق في غير دينك؟
فدفعه عمر بقوة فسقط سعيد على الأرض، ووقف عمر يضربه
على وجهه، فهزعت فاطمة بنت الخطاب تدفع أخاها عن زوجها،
فلطمها عمر فشق شفيتها وأسقط الحلق من أذنها من قوة الضربة،
وسقطت من جيبها أوراق كانت قد كتبت فيها القرآن تحفظه.
توقف عمر عندما رأى وجه أخته وقد لطمته الدماء، ولكنها
قالت بثبات: هل تسمع يا عمر؟ رأيتَ كل شيء بلغك عني مما تذكره
من تركي آهتك وكفري باللات والعزى، فهو حق، أشهد أن لا إله إلا
الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، فاقض ما أنت قاض.
سكت عمر بعد أن سمع ما قالت أخته بكل صراحة، وهدأ
الغضب عنه، فنظر إلى الأوراق على الأرض وقال لها: ناوليني هذه
الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.
فقالت فاطمة: إنا نخشاك عليها.
قال: لا تخافي، أقسم أنني سأردها إليك.
فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، أنت تشرك
بالله، وهذه الصحيفة فيها كلام الله، ولا يمسه إلا المطهرون، اذهب
فاغتسل كي تقرأها.

صمت عمر قليلاً، عاد النزاع القديم يراوده، هل يُسحر بكلام محمد؟ هل سحر أخته وزوجها؟ قرر أخيراً أن ينهض ويغتسل بهدوء، ثم عاد إلى أخته وقال: ناوليني الصحيفة.

ناولت فاطمة أباها عمراً الصحيفة، ووقفت إلى جانب زوجها سعيد قلقة، وبدأ عمر يقرأ: ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِن تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٧﴾ ﴿١﴾.

دخلت تلك الكلمات ثقيلة على صدر عمر، وقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! لا يقول هذا الكلام إلا رب العالمين، دلوني على محمد. ابتهج سعيد وفاطمة، وخرج خباب بن الأرت من مخبئه وقال مبتهجاً: نعم يا عمر، هو في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، وما أراك يا عمر إلا نتاج دعوة رسول الله: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام، اذهب إليه يا عمر. خرج عمر من فوره متجهاً إلى دار الأرقم، وطرق الباب، هناك

(١) سورة طه، الآيات ١-٨.

كان الرسول ﷺ مجتمعاً مع المسلمين يعلمهم القرآن، وقد وصلهم خبر أن عمر بن الخطاب متوشح سيفه يريد قتل الرسول ﷺ، وكيف حاول الصحابي إبعاده عن الرسول. سأل بلال بن رباح الطارق: من هناك؟ قال: عمر.

اهتز كل من في المنزل، وقد كان رسول الله ﷺ يوحى إليه، ولكن حمزة بن عبد المطلب قال: لا عليكم، إن كان قد جاء لخير فأهلاً به، وإن كان غير ذلك قتلناه بسيفه، افتحوا له.

تردد الصحابة قليلاً، ثم فتحوا الباب بقلق شديد، ودخل عمر بن الخطاب ينظر إلى الحاضرين، جمع من الناس بين غني وفقير، سيد وعبد، يعلم إسلام بعضهم ويجهل معظمهم، وحمزة يقف أمامه في استقباله، ما إن خطا عمر خطوة أخرى حتى أمسك حمزة بيده وأدارها على ظهره، فقال الرسول ﷺ: دعه يا حمزة، تعال يا عمر.

ترك حمزة عمراً، واقترب من الرسول ﷺ وقد أزاح الصحابة الطريق أمامه وقد حبست أنفاسهم، وعندما وصل إلى رسول الله ﷺ شده الرسول ﷺ من ثيابه، فسقط عمر على ركبتيه أمامه، فقال له الرسول ﷺ: أما آن لك أن تسلم يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم

أعز الدين بعمر بن الخطاب.

فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

كَبَّرَ الرسول ﷺ، ونهض جميع من في المنزل مكبرين، وارتج المنزل بأصواتهم، تكبير وصياح وصل أهل مكة، عمر بات منهم، عمر بات معهم!

ابتهج عمر لفرحتهم، وأنشد أمام رسول الله ﷺ:

الحمد لله ذي المن الذي وجبت له علينا أيادي ما لها غير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا صدق الحديث نبي عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ربي عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها فكاد يسبقني من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبي صدق أتى بالحق من ثقة وافى الأمانة ما في عوده خور
ثم قال: انظروني آتيكم.

وخرج بين دهشة الجميع، واتجه من فوره إلى منزل أبي جهل،

وطرق الباب، ففتح أبو جهل وقال له عمر: يا أبا الحكم، أما علمت؟

قال أبو جهل: ماذا؟

قال: أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟

احمر وجه أبي جهل غيظاً وقهراً، حمزة وعمر! قال: تبا لك

سائر اليوم، أفسدت عليّ يومي.

وأقفل الباب، فذهب عمر إلى أبي سفيان، وطرق عليه الباب،

ففتح، فقال له عمر: يا أبا سفيان أما علمت؟

قال: ماذا؟

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

تأفف أبو سفيان وقال: تبا لك سائر اليوم.

وأقفل الباب في وجهه، ولم يتعرض أحد بالسوء لعمر.

ذهب إلى أكثر الناس نشرًا للأخبار في مكة^(١)، حيث كان معروفاً

بإفشاء الأسرار والفضائح، فقال له: أأكتمك خبراً؟

قال: نعم.

قال عمر: ولا تحدث به أحداً؟

قال: نعم.

(١) رجل اسمه جميل بن معمر، سيذكر في هذا المكان فقط.

قال عمر: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
لطم الرجل وجهه وانطلق يجري، فركض عمر خلفه، وبدأ
الرجل يصرخ في مكة: يا معشر قريش صباً عمر! صباً عمر!
فيصرخ عمر خلفه ويقول: كذب! ما صباًت، بل أسلمت.
هاجت مكة، واجتمع رجالها على عمر يضربونه، وتبادل عمر
والرجال الضرب والصراع، وظلوا كذلك إلى المساء، يضربونه
ويضربهم، حتى تعب عمر، وأخذ رجلاً منهم ووضع اصبعيه أمام
عينيه يقول: سأفقع عينيك إن لم تبعدهم عني.
فصرخ الرجل: قوموا عنه! قوموا عنه!
فابتعد الرجال عن عمر، فنهض يقول: والله لو كنا أربعمئة
رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم^(١).
وجاء العاص بن وائل السهمي على جلبية الشجار، فقال: ما
شأنكم؟
قالوا: صباً عمر.
قال: اتركوه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني
عدي يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلوا عن الرجل.

(١) يعني مكة، يتقاتلون عليها بالسيوف.

فابتعد الرجال عن المكان، وانفض الشجار.

عندها عاد عمر بن الخطاب إلى دار الأرقم، ووقف أمام الرسول ﷺ يقول: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ فقال الرسول ﷺ: بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم.

قال عمر: أليسوا على الباطل؟

قال الرسول ﷺ: نعم.

قال عمر: ففيم الاختفاء؟

قال الرسول ﷺ: فما ترى يا عمر؟

قال عمر: نخرج يا رسول الله، فنعلن الإسلام في طرقات مكة، حتى نطوف بالكعبة، والله لنحن بالإسلام أحق أن ننادي منا بالكفر، فليظهروا لمكة دين الله، فإن أراد قومنا بغياً علينا ناجزناهم، وإن قومنا أنصفونا قبلنا منهم.

قال الرسول ﷺ: نعم يا عمر، نخرج.

ابتهج الصحابة كلهم، وقد بلغوا الأربعين بإسلام عمر، ونهضوا معاً، يتقدمهم الأشراف، وانقسموا صفين، أحدهم يرأسه عمر بن الخطاب، والآخر يرأسه حمزة بن عبد المطلب، والرسول ﷺ يسير

بين الصفيين، يقولون بأعلى صوتهم: الله أكبر والله الحمد، الله أكبر والله الحمد!
الحمد!

وصلوا الكعبة على هذه الحالة، وطافوا بالببيت، ووقفت قريش تنظر إليهم بغيظ شديد، ما استطاعت أن تتعرض لأحد منهم، ودخلوا البيوت مغتاضين.

وقف المسلمون حول الكعبة، ونظر الرسول ﷺ إلى عمر بن الخطاب وقال له: أنت الفاروق، يفرق الله بك بين الحق والباطل، لقد فرح أهل السماء بإسلام عمر بن الخطاب.

عاد عمر بن الخطاب إلى منزله، وجمع كل أولاده وزوجته من فوره، وقال لهم: اعلموا أنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإني آمركم أن تؤمنوا بالله وحده.

تعجب الجميع، فقد كان عمر أشد الناس على المسلمين! فابتسمت زوجته زينب بنت مظعون وقالت: حمداً لله الذي هداك إلى الحق، وقد كنت قد أسلمت منذ سنين، ودعوتُ الله كثيراً أن يشرح قلبك للإسلام.

تعجب عمر لما يسمع، زوجته كتمت عنه إسلامها طول هذا

الوقت! فقالت حفصة بنت عمر وقد بلغت الحادية عشرة من العمر:
نعم يا والدي، لقد أخبرتنا أننا عما جاء به محمد، وأنا نعلم أنه
رسول الله.

نظر عمر إلى ابنه الصغير عبد الله البالغ ثلاثة أعوام يقول: يا
أبت، أنا مسلم أيضاً.

فقال عمر يحدق في ابنه عبد الله: وتترك أباك يدخل جهنم!
والله لأوجعنك ضرباً.

ضحك الجميع، وعانقوا والدهم، وعمّت السعادة المنزل.
ومذ ذلك اليوم بات المسلمون يستطيعون الصلاة في الكعبة أمام
الناس، وقال الوليد بن المغيرة ينظر إليهم: لقد انتصف القوم اليوم
منا.

ونزل قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

جاء رجل من العرب يسأل عن الرسول ﷺ، أعلن إسلامه وسأل
الرسول ﷺ سؤالاً كان يحيره دوماً: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٤.

الناس فيه ويتكادحون، أشيء قُضي عليهم ومضى عليهم من قدر سبق،
أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكّدت به عليهم الحجة؟
أجابه الرسول ﷺ: في شيء قد قُضي عليهم.

فقال الرجل: ففيم نعمل؟

قال الرسول ﷺ: من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه
لها، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾^(١).

وتعلم الرجل من الرسول ﷺ سورة الشمس، وحدثه عن قصة
ثمود والناقة، فاطمأنت نفسه، وعاد إلى قريته.

وفي بيت أروى بنت عبد المطلب عممة الرسول ﷺ، دخل عليها
ابنها^(٢)، فسلم عليها وقال لها: يا أماه، لقد أسلمت اليوم واتبعته
محمدًا.

فقالته بهدوء: إن أحق من وازرت ابن خالك، وإنه لو كنا نقدر
على ما يقدر عليه الرجال لتبعناه ودافعنا عنه.

(١) سورة الشمس، الآيات ٧-٨.

(٢) ابن أروى بنت عبد المطلب هو طليب بن عمير بن وهب، سيذكر في هذا الموضع فقط.

قال: فما يمنعك يا أمي أن تسلمي وتتبعيه؟ قد أسلم أخوك حمزة.

قالت: أنظر ما يصنع أخواتي، ثم أكون إحداهن.
قال: فإني أسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه وصدقته وشهدت أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله.
فكرت أروى قليلاً، وكانت امرأة ذات عقل وحلم، ثم قالت: أذهب إليه، وأستمع له.

فذهبت مع ابنها إلى منزل رسول الله ﷺ، وجلست إليه وأكرمها، واستقبلتها السيدة خديجة بحفاوة، وأسمعها الرسول ﷺ القرآن، وأجابها عن كل تساؤلاتها فأسلمت، وفرح الرسول ﷺ بإسلام عمه وعمته في شهر واحد.

ولكن ابنها قد آذته قريش لما علمت إسلامه، ودفاعه عن الرسول ﷺ، فجاءها رجال من قريش يقولون: ألا ترين ابنك قد صير نفسه غرضاً يدافع عن محمد؟

قالت بهدوء: خير أيامه يوم يدافع عن ابن خاله، وقد جاء بالحق من عند الله.

تعجب الرجال: أوقد صبات؟

قالت: بل أسلمت.

فخرج الرجال إلى أخيها أبي لهب يقولون: ألا ترى أختك قد
اتبعت ابن أخيك مع ابنها وأخيها، إلى متى يا آل عبد المطلب تخالفون
دين أباكم؟

فغضب أبو لهب، وأسرع إلى منزلها ودخل عليها يقول: عجباً
لك ولاتباعك محمداً وتركك دين عبد المطلب!

قالت: قد كان ذلك، فقم دون ابن أخيك وعاضده واتبعه، فإن
يظهر أمره فأنت بالخيار أن تدخل معه أو تكون على دينك، وإن يصب
كنت قد أعذرت.

تأفف أبو لهب وقال: ولنا طاقة بالعرب قاطبة؟

وانصرف. وقد كانت أروى شاعرة، دافعت عن الرسول ﷺ
بشعرها.

وتعلم حمزة بن عبد المطلب من الرسول ﷺ الكثير، وكان دائم
المتابعة له بعد إسلامه، حتى كان يوم وجد الرسول ﷺ فيه جالساً
وحده، فتوجه إليه قائلاً: يا رسول الله، إنني أريد أن أرى جبريل في
صورته.

فقال الرسول ﷺ: إنك لا تستطيع أن تراه.

قال: بلى.

قال رسول الله ﷺ: فأقعد مكانك، واخفض بصرك.

ف فعل حمزة، ونزل جبريل إلى طرف الكعبة، فطلب الرسول ﷺ

إلى حمزة أن يرفع بصره، فنظر فإذا به يرى قدمين مثل الزبرجد الأخضر، وخر مغشياً عليه.

أفاق بعد دقائق وقد هاله ما حدث، وعاد إلى متابعة الرسول

ﷺ والتعلم منه ما يقدر عليه.

أوحى الله إلى رسوله سورة البروج، فجلس إلى الصحابة في دار

الأرقم يعلمهم، وتلى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا

مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾^(١).

فسأل مصعب بن عمير: يا رسول الله، ما قصة أصحاب

الأخدود؟

(١) سورة البروج، الآيات ٤-٩.

قال رسول الله ﷺ : كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فأتى الساحر الملك، فقال: قد كبرت سني ودنا أجلي، فادفع لي غلاماً أعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً يعلمه السحر، فكان الغلام يختلف إلى الساحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فكان الغلام إذا مر بالراهب قعد إليه، فسمع من كلامه، فأعجب بكلامه، فكان الغلام إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله قعد عند الراهب يسمع كلامه، فإذا رجع إلى أهله ضربه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال له الراهب: إذا قال لك الساحر ما حبسك قل حبسني أهلي، وإذا قال أهلك ما حبسك فقل حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ مر في طريق وإذا دابة عظيمة في الطريق قد حبست الناس لا تدعهم يجوزون، فقال الغلام: الآن أعلم أمر الساحر أرضى عند الله أم أمر الراهب. فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فإني أرمي بحجري هذا فيقتله ويمر الناس. فرماها فقتلها، وجاز الناس، فبلغ ذلك الراهب، وأتاه الغلام فقال الراهب للغلام: إنك خير مني، وإن ابتليت فلا تدلن علي. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء، وكان للملك جليس، فعمي، فقيل له: إن ها هنا غلاماً يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء، فلو

أتيتته؟ فاتخذ له هدايا ثم أتاه فقال: يا غلام، إن أبرأتني فهذه الهدايا كلها لك. فقال: ما أنا بطبيب يشفيك، ولكن الله يشفي، فإذا آمنت دوعتُ الله أن يشفيك. فأمن الأعمى فدعا الله فشفاه، فقعد الأعمى إلى الملك كما كان يقعد، فقال له الملك: أليس كنت أعمى؟ قال: نعم. قال: فمن شفاك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فدل على الغلام، فدعا الغلام فقال: ارجع عن دينك. فأبى الغلام، فأخذه بالعذاب، فدل على الراهب، فأخذ الراهب، فقال: ارجع عن دينك. فأبى، فوضع المنشار على هامته فشقه حتى بلغ الأرض، وأخذ الأعمى فقال: لترجعن أو لأقتلنك. فأبى الأعمى، فوضع المنشار على هامته فشقه حتى بلغ الأرض، ثم قال للغلام: لترجعن أو لأقتلنك. فأبى، فقال: اذهبوا به حتى تبلغوا به ذروة الجبل، فإن رجع عن دينه، وإلا فدهوه^(١). فلما بلغوا به ذروة الجبل فوقعوا فماتوا كلهم، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: أين أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. قال: فذهبوا به فاحملوه في قرقور^(٢)، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه. فذهبوا به، فلما توسطوا به

(١) ددهوه أي دحرجوه عن الجبل.

(٢) القرقور هي السفينة الطويلة.

البحر قال الغلام: اللهم اكفنيهم. فانكفأت^(١) بهم السفينة، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال الملك: أين أصحابك؟ فقال: دعوت الله فكفانيهم. قال: لأقتلنك. قال: ما أنت بقاتلي حتى تصنع ما أمرك. فقال الغلام للملك: اجمع الناس في صعيد واحد، ثم اصلبني، ثم خذ سهماً من كنانتي فارمني وقل: باسم رب الغلام، فإنك ستقتلني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه وأخذ سهماً من كنانته، فوضعه في كبد القوس، ثم رمى، فقال: باسم رب الغلام. فوقع السهم في صدغ^(٢) الغلام، فوضع يده هكذا على صدغه، ومات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقالوا للملك: ما صنعت، الذي كنت تحذر قد وقع، قد آمن الناس. فأمر بأفواه السكك فأخذت، وخذ الأخدود^(٣) وضمّ فيه النيران، وأخذهم وقال: إن رجعوا وإلا فألقوهم في النار. فكانوا يلقونهم في النار، فجاءت امرأة معها صبي لها، فلما ذهبت تقتحم وجدت حر النار، فنكصت^(٤)، فقال لها صبيها: يا أماه، امضي فإنك على الحق. فاقتحمت في النار.

(١) انكفأت أي مالت.

(٢) الصدغ بين العين والأذن.

(٣) الأخدود هو شق في الأرض.

(٤) نكصت أي تراجع.

كان جميع الصحابة صامتين من هول ما سمعوا، لقد تعذب
المؤمنون قبلهم كثيراً، وقتلوا، وألقوا في النار، فدعوا الله أن يثبتهم.

في هذه الأيام تقدم خنيس بن حذافة السهمي للزواج من حفصة
بنت عمر بن الخطاب، فبارك لهما عمر، وأولت القبيلة لهما في حفل
زفاف جميل.

في ليلة، خرج أبو جهل وأبو سفيان ورجل ثالث^(١) ليسمعوا من
رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته دون ميعاد بينهم، فأخذ كل
رجل منهم مجلساً ليستمع منه، كل يريد أن يسمع هذا الكلام الذي
يسحر الناس، فباتوا يستمعون له حتى الصباح، وطلع الفجر، ونهض
كل منهم ليعود إلى منزله، فكشف نور الصباح ثلاثتهم، فتلاوموا،
قال أبو جهل لأبي سفيان: ماذا تفعل هنا؟

قال أبو سفيان: وما جعلك تختبئ هنا إلى الفجر؟

قال أبو جهل: اخفض صوتك لا يسمعك محمد، وإياكما أن
تعودا لما فعلتما ثانية، فلو رآكم بعض سفهائكم أوقعتم في نفسه شيئاً.

(١) الرجل هو الأخنس بن شريق، سيذكر في هذا الموضع فقط.

قال أبو سفيان: فلا تفعل ذلك أيضاً يا أبا الحكم، فكل قريش تعلم أنك تكره ما جاء به محمد.

وتجادلوا حتى انصرفوا، ولكنهم في الليلة التالية عادوا إلى منزل الرسول ﷺ، وجلسوا حيث اختبئوا بالأمس، فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر، والتقوا ثانية، فقال أبو جهل: ويحكم! ألم نتعاهد ألا نعود لذلك ثانية.

قال أبو سفيان: لم أستطع النوم الليلة، أردت أن أفهم ما يقول محمد فحسب.

قال أبو جهل: فلا تعودا لمثل ذلك أبداً.

ولكن في الليلة الثالثة عادوا إلى مجلسهم، فباتوا يستمعون للرسول ﷺ يقرأ القرآن حتى طلع الفجر، وتلاقوا، فقال أبو جهل: لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود.

فتعاهدوا، وعادوا إلى منازلهم.

ولكن الرجل الثالث تبع أبا سفيان إلى منزله، وجلس إليه وسأله: أخبرني يا أبا سفيان عن رأيك فيما سمعت من محمد.

قال أبو سفيان: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وأشياء ما أعرف معناها ولا ما يراد بها.

قال الرجل : وأنا والذي حلفتَ به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال :

يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟

تنهد أبو جهل وقال : ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن بنو مخزوم

وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا للحرب فحملنا ،

وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تساوينا على الركب وكنا كفرسي رهان

قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا

نسمح به أبداً ولا نصدقَه.

هز الرجل رأسه وغادر.

كان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة سورتي التين وقريش في دار

الأرقم ، وعندما انتهى عاد إلى منزله ، فلقبته السيدة خديجة سعيدة ،

وبشرته قائلة : لقد ولدت أم أيمن مولودها الأول لابننا زيد ، أسماه

أسامة بن زيد.

ابتهج الرسول ﷺ لذلك كثيراً ، وذهبا لزيارة ابنهما زيد

وحفيدهما أسامة.

كان أسامة بشوشاً ولطيفاً ، ابتهجت به العائلة جميعاً ، إنه أول

حفيد، وأحب حفيد، وأعز حفيد.

حملة الرسول ﷺ بين يديه، ودعا له ولأمه وأبيه بالخير الكثير.

في موسم الحج، كان رسول الله ﷺ حريصاً على دعوة الناس إلى طريق الله، وكانت قريش حريصة على منع الناس من الاستماع له، استوقف رسول الله ﷺ رجلاً من الأوس^(١)، وكان شريفاً في قومه، فجلس إليه ودعاه إلى الإيمان بالله وحده، فقال له الرجل: فلعل الذي معك مثل الذي معي.

فسأله رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟

قال: مجلة لقمان.

فقال رسول الله ﷺ: اعرضها علي.

فقرأ الرجل مما كان عنده من مجلة لقمان، وكان فيها من الحكم والكلام الجميل الكثير، فقال له رسول الله ﷺ: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علي هو هدى ونور. فتلى عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فقال

(١) الرجل هو سيد أو سويد بن الصامت، سيذكر في هذا الموضوع فقط.

الرجل : إن هذا القول حسن.

ولم يزد على ذلك، وانصرف إلى المدينة دون أن يعلن أنه قد
أسلم، وقُتِل في حرب بين الأوس والخزرج على ما هو مؤمن به.



٦-هـ | ٦١٦م

الطفيل بن عمرو الدوسي^(١)

ركض غلام إلى عتبة بن شيبة، الذي كان يجلس إلى أبي سفيان بن حرب، دخل عليه مسرعاً يقول: يا سيدي، حضرت قبيلة دوس من اليمن للتجارة، يقودهم سيدهم الطفيل بن عمرو.

ابتهج عتبة لما سمع، قال: انصرف يا غلام، حضرت التجارة وازدهر الشعر.

ابتسم أبو سفيان، ولكنه تذكر شيئاً مهماً فقال: لعله يستمع إلى محمد.

نظر عتبة إلى أبي سفيان وقال: هل تظن أن رجلاً مثل الطفيل يُسحر بكلام محمد؟

(١) الطفيل بن عمرو الدوسي، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

قال أبو سفيان: الطفيل شاعر نبيه، سيعجبه ما جاء به محمد.
صمت عتبة، ثم نادى الغلام، وأخبره أن يدعو الطفيل إلى وليمة
في خيمته.

لبي الطفيل بن عمرو الدوسي الدعوة بكل سرور، فقد كان على
علاقة طيبة بأشراف قريش، دخل على عتبة بن ربيعة الذي استقبله
بحفاوة، وأجلسه قريباً منه يتبادلان أطراف الحديث، بعد أن سأله
عن رحلته وما جلب من تجارة، اقترب منه وقال له: يا طفيل، إنك
قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا، محمد بن عبد الله، قد
أعزل بنا، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق
بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين
زوجته، وأنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمته
ولا تسمعنّ منه شيئاً.

تعجب الطفيل وقال: أهو على هذه الدرجة من الدهاء؟

قال أبو سفيان: لو سألت أياً من وجهاء مكة لنصحك بما
ننصحك به، لا تقربته ولا تسمعنّ منه شيئاً.

قلق الطفيل مما سمع، وقرر أن يبتعد عن محمد ﷺ، وأن يسد
أذنيه ولا يسمع ما يقول على الإطلاق.

ازدهرت التجارة في قريش، وكسب الطفيل المال الوفير، وألقى
الشعر الكثير، وسهر وسمر وسعد بمقامه في مكة، وفي المساء بينما كان
يغادر خيمة سمر، رأى محمداً ﷺ قرب الكعبة يتلو القرآن، فعلم
على الفور أن هذا ما حذرته منه قريش، فتراجع على الفور، وهم
بالمغادرة وسد أذنيه، ولكنه بعد بضع خطوات توقف، وفكر في نفسه:
ويلي، إنني رجل أميز بين الخبيث والجميل من القول، وإنني شاعر
لبيب، ألا أستطيع أن أميز قول محمد بن عبد الله؟ فإن كان الذي يأتي
به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

فاقترب أكثر، وجلس على مقربة يستمع إلى تلاوة الرسول ﷺ
العطرة، وقضى ساعة يتلو فيها الرسول ﷺ السورة تلو السورة
والطفيل مندهش لما يسمع: ما هذا الكلام؟ ما أعذبه وما أغرب نسقه!
انتهى الرسول ﷺ من تلاوته وانصرف إلى منزله، ولكن الطفيل
تبعه وطرق عليه الباب في ساعة متأخرة، تعجبت السيدة خديجة
وقلقت أن أحداً قد تبع الرسول ﷺ ليؤذيه، ولكن الرسول ﷺ فتح
الباب واستقبل الطفيل، وحضرت له السيدة خديجة الطعام والشراب،
فقال الطفيل: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي أنك تسحر الناس، وتفرق
بين المرء وأهله، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني

لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعتَه قولاً
حسناً، فاعرض علي أمرك.

استبشر الرسول ﷺ والسيدة خديجة بأمر الطفيل، فعرض
الرسول ﷺ عليه أمر الإسلام، وتوحيد الله، وتلى عليه سورة
الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾^(١).

ذهل الطفيل لما سمع! جمل قصيرة تحوي معان عظيمة كهذه!
فقال: والله ما سمعتُ قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه، أشهد أن
لا إله إلا الله وأنت رسول الله.

فرح الرسول ﷺ بإسلام الطفيل سيد دوس، ولكن الطفيل قال
من فوره: مرني يا رسول الله، ماذا أفعل لهذا الدين؟
فقال له الرسول ﷺ: اذهب إلى قومك وادعهم إلى الإسلام.

فقال الطفيل: يا رسول الله، إنني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع
إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً
عليهم فيما أدعوهم إليه.

فرفع الرسول ﷺ يديه إلى السماء دعياً: اللهم اجعل له آية.

(١) سورة الإخلاص، الآيات ١-٤.

وغادر الطفيل، وحزم أمتعته وسافر من فوره متجهاً إلى قبيلته دوس، وما إن اقترب منها إذا بنور يظهر بين عينيه، هذه هي الآية، ولكن الطفيل ظنّ أن النور في وجهه سيكون مخيفاً للناس، فدعا الله: اللهم لا تجعلها في وجهي، كي لا يظنوا أن بي عاهة ومرضاً. فانقل النور لحظتها من وجهه إلى يده، وكأنه يحمل ناراً فيها.

دخل الطفيل على قبيلته ليلاً، وفي يده النور وكأنه شعلة مضيئة، خرجت القبيلة من منازلها تنظر إلى سيدها الطفيل، وأي شيء غريب حدث معه! وخرج من بينهم شاب في العشرين من العمر، يحمل هرة بين يديه، ويرتدي ثياباً بسيطة، فقال لهم الطفيل: إن هذا نور الإسلام، الدين الحق الذي جاء به محمد، وقد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وسمعتُ منه قولاً عظيماً، فيا قومي اسمعوا وأطيعوا، يهدكم الله ويوفقكم في الدنيا والآخرة.

حدّ قومه به لا يفهمون ما يعني، بل لم يصدقوا ما يقول، معظمهم دخل المنازل عائداً إلى فراشه، والآخرون ظل ينظر إلى الطفيل مستنكراً عليه ما يقول.

هكذا ولم يسلم أحد من دوس، ولم يصدق أحد كلام الطفيل،

حتى مع وجود الآية لم يكثر ثوا بها، وعمت قلوبهم عنها نهائياً.
ظل الطفيل واقفاً إلى أن عادت كل القبيلة إلى منازلها إلا ثلاثة،
أمه وأبوه وزوجته، نظر إليهم وفي يده الآية، قالت زوجته: أهلاً
بعودتك.

نظر الطفيل إليها وقال: أولاً تصديقين ما أقول؟
قالت أم الطفيل: بل نصدق، ادخل وحدثنا ما سمعت.
فرح الطفيل بتقبل عائلته الأمر، وفعلاً كانت أمه أول من أسلم،
وقالت: يا بني، دينك ديني.

ثم قال أبوه: يا بني، دينك ديني.
ومن بعدهما أسملت زوجته قائلة: دينك ديني أيضاً.
هكذا كانت عائلة الطفيل هي العائلة المسلمة الوحيدة في دوس،
اغتسلوا وصلوا وقضوا ليلتهم مؤمنين موحدين.

وفي آخر الليل طرق أحدهم باب منزل الطفيل والعائلة مجتمعة،
نهض الطفيل وفتح فإذا به الشاب الذي كان يحمل الهرة بين يديه
واقفاً، نظر إليه الطفيل يقول: أهلاً بك يا أبا هريرة^(١).

(١) أبو هريرة هو عبد شمس بن صخر الدوسي، صحابي، لقبه أهله بهذا اللقب لتعلق هرة صغيرة به كان يحملها معه أينما ذهب، له دور في السيرة كاملة.

نظر أبو هريرة في الطفيل وقال: أردتُ أن أسمع ما جئتُ به.
فرح الطفيل لذلك وأدخل أبا هريرة منزله، وحدثه بما جرى
معه في مكة، فانشرح صدر أبو هريرة، وأعلن أنه على دين الطفيل
وأهله، وتطهر وصلى معهم.
كان هؤلاء الأربعة الوحيدين الذين قبلوا ما جاء به الطفيل،
ولكن القبيلة لم تقبته بالدين الجديد، وباتت تؤذي الطفيل وأهله،
وبدؤوا يحتقرونه، ورفضوا الحديث إليه وكأنه عاد ملعوناً من مكة.
ظل الطفيل يحاول هدايتهم ولكن دون فائدة، فدوس كانت
ترفض الاقتراب أو الاستماع إليه نهائياً.



٦-هـ | ٦١٦م

الهجرة الثانية إلى الحبشة

شعاب أبي طالب

ازداد اضطهاد المسلمين في مكة، وحزن الرسول ﷺ على أصحابه، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة إلى حيث النجاشي ومن بقي هناك من أصحابهم، فقد لاقوا عند النجاشي الاستقبال والأمان، وعبدوا الله مطمئنين.

هذه المرة تجهز الكثيرون للهجرة، فخرج ما يقارب الثمانين صحابياً بين رجل وامرأة هاربين من أذى قريش، طائعين لرسول الله ﷺ، آملين بكرم وعدل النجاشي.

كانت التجهيزات تتم في الخفاء التام، وخرجوا جماعات صغيرة في عتمة الليل، ولم تنتبه قريش لأمرهم إلا بعد أن كانوا قد

ركبوا السفن وغادروا اليابسة.

كانت الأعداد هذه المرة أكبر من المرة السابقة، واهتزت قريش لذلك كثيراً، واجتمعوا في دار الندوة على عجل، قال أبو جهل غاضباً: لقد هاجر الكثيرون، واستقبلهم النجاشي أحسن استقبال، وأسلم عمر وحمزة، وبات هذا الدين ينتشر سريعاً، عليكم أن تتصرفوا.

قال عتبة بن شيبه: لقد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا، إنه يسحر الجميع.

قال الوليد بن المغيرة: لقد فقدنا السيطرة على هذا الدين، فقد بدأ العديد من السادة يدخلون فيه.

قال سهيل بن عمرو: عجباً! حتى الشعراء عجزوا أمامه وأدانوا له بالطاعة.

قال أبو سفيان: عليكم أن تتخذوا اليوم قراراً قبل أن تنفضوا، لقد شاع أمر محمد.

قال أبو جهل صارخاً: إنه القتل، يجب أن يموت محمد بأي وسيلة.

قال الوليد بن المغيرة: لن تترككم بنو هاشم.

قال أبو جهل: نفديه بدية مضاعفة.

قال عتبة بن ربيعة: لن يرضوا بذلك أيضاً.

قال أبو جهل: نجعل قاتله من غير قريش.

صمت الجميع، وفكروا أن يطرحوا هذه الفكرة على بني هاشم، فبعثوا إلى أبي طالب ووجهاء بني هاشم، فقال الوليد بن المغيرة: يا أبا طالب، لقد غلب على أمرنا في ابن أخيك، لقد فرق شملنا، وشتت قريشاً، وفرق بين المرء وأهله، فإننا دافعون لكم في دمه دية مضاعفة، وليقتله رجل من غير قريش، يريحنا وتريحون أنفسكم.

احمر وجه أبي طالب وقال: على ماذا تساومون؟ أسلمكم ابن أخي لتقتلوه، لن يكون ذلك أبداً ما حييت، ولن ترضى بنو هاشم أبداً. فأبى بنو هاشم ذلك، وبات الوضع في غاية الخطورة، فوقف معهم أيضاً بنو المطلب بن عبد مناف، وأتى رجل من بني هاشم الرسول ﷺ راکضاً يحذره يقول: إن قريشاً يتواعدونك ليقتلوك.

فخرج رسول الله ﷺ من باب الصفا فرعاً إلى ربه، فأتاه جبريل ﷺ فقال له: يا محمد، إن الله قد أمر السماء أن تطيعك، والأرض أن تطيعك، وأمر الجبال أن تطيعك، فإن أحببت فمر السماء أن تنزل عليهم عذاباً منها، وإن أحببت فمر الأرض أن تخسف بهم، وإن أحببت فمر الجبال أن تنضم عليهم.

فقال رسول الله ﷺ : أؤخر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم.

لما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه عادوا واجتمعوا ثانية.

قال أبو جهل : إذاً علينا أن نضغط على من يجيرونه، بني هاشم.

فكر الجميع في هذه النقطة، فقال عتبة بن ربيعة: هي المقاطعة إذاً.

صمت الجميع صمت موافقة لأمر عظيم، فنادى عتبة بن ربيعة إلى اجتماع يضم جميع رؤساء القبائل، وتناقشوا في أمر المقاطعة إلى أن يسلم بنو هاشم ابنهم للقتل، فوافق المعظم ولم يعارض إلا الأقلية.

وقف عتبة بن ربيعة يتلو نص الوثيقة على من يكتب: اجتمعت قبائل قريش على أن لا يناكحوا بني هاشم ومن ناصرهم، ولا يزوجون منهم، وأن لا يبيعوا لهم ولا يشترون منهم، وأن لا يجالسوهم ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم، وأن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب لهم للقتل.

ثم قاموا بالتوقيع وعلقوها في جوف الكعبة، واستثنوا من المقاطعة أبا لهب، فقد آزر قريشاً في خصومتها لقومه.
 ركض رجل إلى أبي طالب يعلمه ما قررت قريش، ففزع وجمع بني هاشم على عجل، واتفقوا على مساندة ابنهم محمد بأي ثمن، والاجتماع في شعاب قرب مكة لحمايته من أي غادر.
 ولكن كانت تلك الشعاب مقفرة، ليس فيها ماء ولا شجر، نصبوا الخيام، وحملوا إليها ما استطاعوا حمله، وجلسوا فيها يحاولون العيش بعيداً عن أهل مكة ومقاطعتها، محوطين ابنهم محمداً يقدونه بكل ما يملكون.

جلس أبو طالب يقول:

لؤيا وخصاً من لؤي بني كعب	ألا أبلغا عني على ذات بيننا
نبياً كموسى خطي في أول الكتب	ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً
ولا خير ممن خصه الله بالحب	وأن عليه في العباد محبة
لكم كائن نحساً كراغية السقب ^(١)	وأن الذي ألقى من كتابكم
ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب	أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى
أواصرنا بعد المودة والقرب	ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا

(١) راغية السقب يعني صوت ولد الناقة حين يولد.

وتستجلبوا حرباً عواناً وربما أمر على من ذاقه جلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمداً لغزاء من عض الزمان^(١) ولا كرب

* * *

أما السيدة خديجة بنت خويلد، فقد كانت تجمع أمتعتها
للرحيل، فالتقى بها سادة بني أسد يقولون: أيتها الطاهرة، أما أنت
فابقي، فأنت صاحبة المكانة والشرف، ابق في منزلك معززة مكرمة،
ليس عليك أن تعيشي في شعاب مقفرة.

ولكنها قالت: والله لا أكون إلا حيث يكون زوجي والمسلمون،
وسأسانده بكل ما أوتيت من مال وشرف وقوة، أو مثل زوجي تتآمر
قريش على قتله؟ حسبنا الله ونعم الوكيل.

فتركها قومها، وحزمت أمتعتها وذهبت إلى الشعاب تساند
زوجها، وقد بلغت الستين من عمرها.

* * *

وبدأ الحصار بكل جدية، في البداية كانت المؤونة والمال في بني
هاشم تكفيهم ليومهم، ولكن بسرعة بدأت الأموال تنقص، والطعام
يقل، وما من أحد في مكة يبيع ولا يشتري منهم، وبدؤوا يشعرون

(١) عض الزمان يعني زمن شديد.

بصعوبة الأيام وضيق الحال.

كان مصدر رزقهم الوحيد هي القوافل الصغيرة التي يبعثها المتعاطفون والمساندون في جوف الليل مما لم تلاحظه قريش أو توقعه، ولم يستطع أحد الحصول على زاد بغير تلك الطريقة.

كما كان أبو طالب شديد الحرص على حماية ابن أخيه، وكان يوصيه ألا ينام في فراشه كل ليلة، حتى لا تصل إليه قريش فتغدر به. حضر أبو جهل إلى الشعاب مع زميل له^(١)، والتقى بأبي طالب فقال له: ألا تكفون عن عنادكم يا آل هاشم؟ سلّموا لنا محمداً تعودون إلى المال والجاه والشرف.

فرد أبو طالب قائلاً: والله لا يكون لنا الشرف والجاه بتسليم ابننا لتقتلوه، وها نحن صابرون، فافعلوا ما تشاؤون.

قال أبو جهل: ألا نرى محمداً لنحاججه؟

قال أبو طالب: نخشى غدركم.

قال أبو جهل: ها أنتم بيننا، ونحن اثنان، فقط نسأله ونحاججه علّه انتهى مما يفعل بكم.

اصطحب أبو طالب أبا جهل وزميله للقاء رسول الله، وقد كان

(١) الرجل يدعى عدي بن ربيعة، من المشركين، سيذكر في هذا الموضع فقط.

الرسول ﷺ يعلم أصحابه القرآن حتى في الشعاب، وأوحى الله إليه سورة القارعة، فبينما هو بين أصحابه إذ جاءه أبو جهل ليجادله، فقال: ألا ترى يا محمد ما حل بأصحابك وأقربائك، إن هذا بسببك وبسبب إهلك، أفلا تكف عما تفعل؟

ولكن رسول الله ﷺ ما كان ليكف عن أمر أمره الله به، وصبر مع أصحابه وأهله في سبيل الله، فقال الرجل: يا محمد، حدثني عن يوم القيامة الذي تزعم، متى يكون وكيف يكون؟

فحدثهما الرسول ﷺ كما أوحى الله له أنها تكون من إحياء العظام وهي رميم، فلما انتهى ابتسم الرجل ساخراً وقال: هل تعلم يا محمد، لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام؟

فأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۗ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعُ عِظَامَهُ ۗ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۗ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۗ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۗ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۗ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۗ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيِّنَ الْمَقَرِّ ۗ كَلَّا لَا وَزَرَ ۗ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۗ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۗ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۗ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۗ﴾ (١).

(١) سورة القيامة، الآيات ١-١٥.

نهض أبو جهل غاضباً وقال: كف عن ذلك يا محمد! فلتمت أنت وأهلك وكل ما يساندك.

فأمسك الرسول ﷺ يد أبي جهل وقال له: أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى.

فابتسم أبو جهل وقال: يا محمد، ما تستطيع أنت وربك في شيئاً، واني لأعز من مشى بين جبلي مكة.

وغادرا الشعاب، وعاد أبو جهل إلى منزله وتمطى في فراشه

يسخر من تهديد الرسول ﷺ له، فأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿كَلَّا

إِذَا بَلَغَتِ النَّرْقَارُ ﴿٦٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٦٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٦٨﴾ وَالْتَقَتِ السَّاقُ

بِالسَّاقِ ﴿٦٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٧٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٧١﴾ وَلَكِن

كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴿٧٣﴾ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ أُولَىٰ

لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٧٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٧٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ

يُمْنِيٍّ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٧٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

وَالْأُنثَىٰ ﴿٧٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٨٠﴾﴾^(١).

قال رسول الله ﷺ: سبحانك وبلى.

(١) سورة القيامة، الآيات ٢٦-٤٠. فلا صدق ولا صلى نزلت في أبي جهل.

عاد أبو جهل إلى مجالس قريش، وأخبرهم بوضع محمد ﷺ وأصحابه البائس، وكيف ما يزال مصرّاً أن ربه يحيي العظام البالية، وأنه يهدده وهو في حاله تلك، فكان أمية بن خلف حاضراً في المجلس، فهمز الرسول ﷺ وذكره بسوء أمام الجالسين يقول: لا بد أن الجوع جعله يرى شيطانه يقدم له الطعام والشراب في قصور من ذهب.

فضحكوا ساخريين، فأوحى الله تعالى إلى رسوله ما فعل أمية، وأوحى إليه الآيات: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُثَبِّدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ ۝٩﴾^(١).



(١) سورة الهمزة، الآيات ١-٩.

٥٠٠هـ | ٦١٧م

بُعَاثُ

سلمان الفارسي^(١)

كان رجل يصحب خادمه يدخلان يثرب، كان الخادم يرتدي ثياباً بسيطة، رغم أن وجهه يوحي أنه ليس من العرب، فقد كان أشقراً جاء من بلاد فارس، وباعه تجار إلى هذا الرجل ليستخدمه، فأخذه الرجل إلى مدينته ألا وهي يثرب.

وقف الخادم يحدق في أبواب المدينة، وركز كل تفكيره على النخل يملأ المكان، وكأنه لم ير شيئاً كهذا من قبل! سحبه الرجل ليدخل، فقال الخادم: يا سيدي، أتأذن لي أن أشاهد هذه البلدة؟ نظر سيده إليه برؤية وقال: لا تتأخر، ولا تفكر في الهرب يا سلمان.

(١) سلمان الفارسي، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

قال سلمان الفارسي: أبداً، أطوف بها وأعود.

قال سيده: حسناً، لا تتأخر، لدينا عمل كثير.

ركض سلمان الفارسي في المدينة، ووقف أمام صخرتين، وكأنه أخيراً وجد ما كان يبحث عنه، فالتفت حوله ثانية ليشاهد النخل، ثم جثى على الأرض وبدأ يبكي، بكى كثيراً حتى بدأ يرجف، ولكنه كان سعيداً بما رأى، فقد وصل.

ثم عاد إلى سيده يخدمه بكل إخلاص.

كانت يثرب تنقسم إلى قبيلتين أساسيتين، هي الأوس والخزرج، وكانت تنشب بينهم الكثير من الحروب الأهلية، فما تلبث حرب أن تخدم حتى تندلع حرب بعدها، وكانت بعض القبائل اليهودية قد هاجرت إلى يثرب واتخذت منها مسكناً لهم، وأثناء الحروب كانت قبائل اليهود غالباً ما تساند الأوس على الخزرج.

اجتمع الخزرج منزعين من اليهود، وقرروا أن يبعثوا إليهم بكتاب تهديد: إلى بني قريظة وبني النضير، إن الأوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا، ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب، فإن ظفرنا بكم فذاك ما تكرهون، وإن ظفرتكم لم نتوقف عن

قتالكم أبداً، فتصيروا إلى ما تكرهون، ويشغلکم من شأننا ما أنتم الآن منه خالون، وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا. وقع التهديد ثقیلاً على اليهود، فأرسلوا ردهم إلى الخزرج: إنه قد كان الذي بلغكم، والتمست الأوس نصرنا، وما كنا لننصرهم عليكم أبداً.

فبعثت الخزرج: فإن كان ذلك فابعثوا إلينا برهائن تكون بين أيدينا، نضمن بهم أنكم لن تدعموا الأوس ثانية.

وافق اليهود، وبعثوا إليهم أربعين غلاماً منهم يكون رهينة على أن لا يعاونوا الأوس على الخزرج أبداً، ومكثوا عندهم إلى أن اجتمع سيد من سادات الخزرج يقول لقومه: يا قوم، إنكم تسكنون منازل سوء، ليس فيها ماء ولا شجر وفير، وإنه والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريضة والنضير على عذب الماء وكريم النخل.

طمع الخزرج بالعيش الرغيد، فراسلوا اليهود يقولون: إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها، وإما أن نقتل رهنكم.

وقع التهديد شديداً على اليهود، وهموا أن يتركوا ديارهم، ولكن سيدياً منهم وقف في الناس يقول: يا قوم! امنعوا دياركم، وخلوه

يقتل الرهن، والله ما هي إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن.

فثبت اليهود في مساكنهم، وبعثوا إلى الخزرج: لا نسلم لكم دورنا، وانظروا الذي عاهدتمونا عليه في رهننا، فقوموا لنا به.

غضب الخزرج، وقام سيد منهم لقتل الرهائن، إلا شريف واحد منهم يدعى عبد الله بن أبي بن سلول^(١)، وكان عاقلاً حليماً، وقف بين الخزرج يقول: هذا عقوق ومائم وبغي، فلستُ معيناً عليه، بل أطلق الرهن تحت يدي.

انقسم رأي الخزرج بين مؤيد ومعارض، وأطلق بعضهم الرهائن وقتل الباقيين، فلما علمت الأوس أن الخزرج غدرت باليهود الذين عاونوهم من قبل، عدت عدة للحرب، فنشبت بينهم حرب أهلية كسابقاتها، ولكنها لم تلبث طويلاً.

ولكن يهود بني قريضة والنضير أرادوا أن تشتد الحرب على الخزرج الذين قتلوا أولادهم غدرًا، فبعثوا إلى الأوس أنهم سيساندوهم، وقبلت الأوس الدعم، وجمعوا دعم بعض القبائل المجاورة أيضاً، وأعدوا العدة ثانية على الخزرج.

(١) عبد الله بن أبي بن سلول، سيد من الخزرج، له دور في السيرة كاملة.

علمت الخزرج بدعم اليهود للأوس، فأجمعوا على القتال،
واتجهوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول وقالوا له: قد كان الذي بلغك من
أمر الأوس وأمر قريضة والنضير واجتماعهم على حربنا، وإنا نرى أن
نقاتلهم.

ولكن عبد الله بن أبي وقال: إن هذا بغي منكم على قومكم
وعقوق، والله ما أحب ذلك ولا أشارك فيه.

ونهى عبد الله بن أبي إلى قومه وقال: هذا والله بغي، والله إنني
أرى قوماً لا ينتهون أو يهلكوا عامتكم، وإنني لأخاف إن قاتلوكم أن
ينصروا عليكم لبغيكم عليهم.

فقال سيد من بني الخزرج منزعاً: والله إنك قد ارتجفت خوفاً
حين بلغك حلف الأوس وقريضة والنضير.

فقال عبد الله بن أبي: والله لا حضرتكم أبداً، ولا أحد أطاعني
أبداً، ولكأني أنظر إليك قتيلاً يحملك أربع رجال في عباءة.

لم يأخذ بنصيحة عبد الله بن أبي إلا قليل، ولبثت الأوس
والخزرج أربعين ليلة يتحذرون للحرب، ويجمع بعضهم لبعض،
ويرسلون إلى حلفائهم من قبائل العرب.

كان ممن أرسل الأوس وفداً إلى مكة، يطلبون دعم قريش على الخزرج في الحرب، جلسوا إلى وجهاء مكة يحاولون إقناعهم، ولكن لم يكن هناك فائدة كبيرة ترجى من التدخل، فلم يحظوا بالدعم المطلوب. وسمع عن قدومهم رسول الله ﷺ، وأنهم التقوا بأبي طالب في الشعاب يلقون التحية عليه ويشرحون له أمر يثرب، فعجبوا من أمر المقاطعة، ومن حال بني هاشم شرفاء قريش من الجوع والعطش! أسرع رسول الله إلى مجلس أبي طالب يلقاهم ويستمع إليهم، فأخبروه وأبا طالب عن حربهم مع إخوانهم من الخزرج وغدرهم باليهود، فاستمع إليهم رسول الله ﷺ إلى أن انتهوا، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟

قالوا: وما ذاك؟

قال: أنا رسول الله إلى العباد أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي الكتاب. ثم تلى عليهم القرآن، وشرح لهم الإسلام، فقال أحدهم^(١) وكان أصغرهم سناً: يا قوم، هذا والله خير مما جئتم له.

فأخذ رجل حفنة من تراب فرماها على وجه الشاب وقال: دعنا

(١) الشاب يدعى إياس بن معاذ، سيذكر في هذا الموضع فقط.

منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا.

فصمت الشاب، وقام الرسول ﷺ عنهم، وعادوا إلى يثرب دون دعم يُذكر، وكان الشاب يهزل ويكبر الله ويحمده ويسبحه حتى مات.

في يثرب تجمع حشد كبير من الأوس وأعوانهم، والخزرج وأعوانهم، ونشبت حرب طاحنة بينهم وقعت في داخل المدينة في منطقة لبني قريضة تسمى بُعات، ولكن الأوس رأوا الخزرج أكثر منهم، فتخاذلوا وتراجعوا عند اشتداد الحرب إلى أن لاذوا بالفرار. فرح الخزرج بفوزهم، وبدؤوا يعيرون إخوانهم من الأوس على الفرار، فلما سمع كلامهم زعيم الأوس، شعر بالعار، وأخذ رمحه وطعن بها فخذته وصاح: واعقراه! والله لا أتزحزح حتى أُقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا.

لما سمع الأوس صياح قائدهم عادوا إلى القتال، واستماتوا أكثر من السابق، وقتلوا من الخزرج الكثير، ووصلوا إلى قائدهم فقتلوه. وبينما عبد الله بن أبي يسير قرب المعركة يتفقد النتائج، إذا به يرى قائد الخزرج قد حملة أربعة رجال في عباءة مقتولاً، فقال: ذق وبال العقوق.

انقلبت دفة المعركة، وفاز الأوس على الخزرج في نهاية المطاف، وقتلوا منهم الكثير، حتى صاح رجال الأوس يقولون: يا معشر الأوس! كفوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب.

توقفت المعركة، وكانت قد أنهكت كلاً من الأوس والخزرج، وسكنت الأوضاع في يثرب وقد توفي العديد من وجهاء الطرفين.

في مكة، وفي شعاب أبي طالب، كان الوضع يزداد سوءاً، فقد نفدت كل الأموال وكل الزاد، وتغير لون الناس هناك، وصار الطعام نادراً جداً، وضيّق أهل مكة الحصار أكثر فأكثر، كما اشتد الأذى على المسلمين من غير بني هاشم، وتأذوا في بدنهم وأموالهم وأهلهم. وقف أبو لهب وسط مكة سعيداً بمقاطعته قومه مقابل العيش الرغيد وسط وجهاء قريش، فكان يمسح الأصنام يومياً وهو يقول: قد نصرت اللات والعزى.

مرت هند بنت عتبة على أبي لهب وهو ينظف الآلهة، فقال لها: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقيهما وظاهر عليهما؟

قالت: نعم، فجزتك الآلهة خيراً يا أبا لهب.

وكان أبو جهل يمنع الناس من أن تتعاطف مع المقاطعة، وتبعث الطعام إليهم، وفي يوم لقي أبو جهل ابن أخ السيدة خديجة بنت خويلد^(١) ومعه قمح يريد به عمته، فتعلق أبو جهل به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة. فرآهما رجل^(٢) من قريش، فاقترب وقال لأبي جهل: ما لك وله؟ فقال أبو جهل: يحمل الطعام إلى بني هاشم. فقال الرجل: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل.

فأبى أبو جهل، واشتد الجدل، فأخذ الرجل عصا غليظة فضرب بها أبا جهل فشجه، فهرب أبو جهل يصيح: والله لأفضحنكما في مكة. ووصل الطعام إلى السيدة خديجة التي كانت جالسة مع ابنتها فاطمة التي بلغت الثالثة عشرة، وهما تتضوران من الجوع، ولكنهما قامتا بتوزيع الطعام على كل من كان بحاجة.

(١) حكيم بن حزام بن خويلد، عمته السيدة خديجة بنت خويلد.

(٢) الرجل هو أبو البخترى بن هشام.

وقف الوليد بن المغيرة وسط مكة يقول في الناس: يا معشر قريش! أيما رجل من آل هاشم وجدتموه عنده طعام يشتريه فزيدوا عليه، وحولوا بينهم وبينه، ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعلي النقد. كما كسدت تجارة أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله، وعمر بن الخطاب، وما عادوا قادرين على إعانة أهل منزلهم أو إرسال الطعام إلى المحاصرين في الشعب.

وكان أبو لهب إذا قدمت قافلة إلى مكة يمنع المسلمين وبني هاشم من الاقتراب منها والشراء منها، ويقف يقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن لا خسار عليكم.

فيزيدون أسعار السلع أضعافاً مضاعفة، حتى يرجع الرجل إلى أطفاله وهم يتضورون من الجوع وليس في يده شيء يطعمهم، ويغدوا التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى تعب المسلمون ومن معهم جوعاً وعرياناً.

وما تزال الآيات تتنزل على الرسول ﷺ في الشعب، فأوحى إليه الله سورة الرسائل، وق، والبلد، وكان يعلم أصحابه، كما كان

يجلس إلى عمه أبي طالب يحدثه دوماً عن الإسلام ويحاول أن يهديه،
وبينما هما جالسين، إذا بهما يريان نجماً يسقط تجاه الأرض، فامتلاً
الأفق بنار، ففزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟

فقال له رسول الله ﷺ: هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات
الله.

فعجب أبو طالب، وسكن روعه عندما رأى ابن أخيه هادئاً
يراقب ما حدث، وأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ①
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② التَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا
حَافِظٌ ④ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ
بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑨
فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪ وَالْأَرْضِ ذَاتِ
الصَّدَعِ ⑫ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ ⑬ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ⑭ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮
وَأكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَمَهْلِ الْكُفْرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا ⑰﴾^(١).

اشتد الأذى على بني هاشم، وكادوا يهلكون، ولم يكن لديهم
خيار إلا أن يسلموا ابنهم للقتل أو أن يهلكوا جميعاً. فقام أبو طالب
وتوجه إلى الكعبة مع مجموعة من أقاربه، وأمسكوا بأستار الكعبة،

(١) سورة الطارق، الآيات ١-١٧.

وبدأ أبو طالب يدعو: اللهم إن أباي قومنا إلا النصر علينا، فعجل نصرنا، وحل بينهم وبين قتل ابن أخي، ندعو برب هذا البيت على القاطع المنتهك للمحارم، والله لتنتهن عن الذي تريدون أو لترين الله بكم في قطيعتنا بعض الذي تكرهون.

فاقترب عتبة بن ربيعة يقول: إنكم يا بني عبد المطلب لا صلح بيننا وبينكم، ولا رحم إلا على قتل هذا الصبي السفية.
حدق أبو طالب في عيون عتبة، وبادلته عتبة نظرات الحقد والغضب، فشعر بيأس من قومه، وغادر راجياً من الله تعالى الفرج، وقد كان بعض أهل قريش قد ساءهم ما رأوا من ضيق حال إخوانهم.

في مدينة دوس، مر الطفيل بن عمرو على أبي هريرة في حظيرته، حيث كان يداعب هرتة ويطعم الماشية، ولم تكن حال أبي هريرة يسيرة، فقد ولد يتيماً، ويعيش مع أمه في فقر شديد.
رأى أبو هريرة الطفيل فوقف قائلاً: السلام عليك.
لاحظ أبو هريرة التعب على الطفيل، فقال: لا بأس عليك، لقد قمت بكل ما تستطيع أن تفعل، الله يهدي من يشاء.
قال الطفيل: أريد أن أعود إلى مكة، أريد أن أقابل رسول الله.

شعر أبو هريرة بغبطة شديدة، كم أراد أن يرى الرسول ﷺ، ولكنه فقير الحال، وعليه أن يبقى إلى جوار والدته، فودعه الطفيل وغادر إلى مكة.

وصل الطفيل مكة، واتجه إلى حيث الرسول ﷺ فوراً، فوجده محاصراً في شعاب أبي طالب، وقف أمامه، فنهض رسول الله ﷺ سعياً يستقبل الطفيل، ثم سأله عن سبب مجيئه، فأجابه الطفيل: يا رسول الله، كفر شديد، وفسق وعناد، كفرت دوس وأبت الإسلام، وحاربت الدين، وغلبت عليهم الزنا، فادع الله عليهم.

صمت رسول الله ﷺ، وذهب يتوضأ، ثم صلى ركعتين، ثم رفع يديه إلى السماء، فشعر الطفيل بهول ما طلب، فوضع يده على رأسه يقول: واقوماه! واقوماه! سيدعو على قومي.

فقال الرسول ﷺ: اللهم اهد دوساً، اللهم اهد دوساً، اللهم اهد دوساً.

ثم نظر رسول الله ﷺ إلى الطفيل وقال: ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم.

دهش الطفيل، واستبشر بما سمع، ثم جلس إلى الصحابة يسمع القرآن ويتعلم الإسلام، إلى أن حزم أمتعته، وعاد إلى قومه مستبشراً،

يدعوهم برفق ولين وصبر إلى الإسلام، فقد وجد المسلمين في مكة
يعانون مع قومهم أكثر مما يعاني هو مع قومه.



٤هـ | ٦١٨ م

في الحبشة

ازداد غضب قريش على المسلمين، واجتمعوا مرات عديدة
يمكرون لهم ولآل هاشم، حتى وصل كيدهم المسلمين الفارين في
الحبشة في حماية النجاشي.

قال أبو لهب: يا سادة مكة، تضيقون على الناس هنا وتنسون
أناساً ينعمون في حياتهم وعبادتهم عند النجاشي، والله إن أكثرتم من
الأذى هنا والرقعة هناك لهاجر أهلكم تباعاً إلى الحبشة، ولربما صنعوا
قوة هناك يغزوكم بها.

قال سهيل بن عمرو: النجاشي على دين النصرانية، ربما يقتنع
بدين محمد.

صمت الجميع، فقال الوليد بن المغيرة: ولكن النجاشي رجل ذو
سلطة وحكمة، علينا أن نتوخى الحذر فيما نقول له.

قال عتبة بن ربيعة: نبعث إليه داهية العرب، وأفضل شبابنا إليه.

قال أبو جهل: عمرو بن العاص^(١) صديق مقرب للنجاشي، وله مجلس طيب عنده، يقربه النجاشي ويحبه، كما أن له لسان طليق وذكي، هو داهية العرب.

قال أبو سفيان: ونبعث معه الهدايا الفاخرة، نجمع أفضل ما عندنا ونوزعه على النجاشي ولن ننسى حاشيته وأعوانه ووزراءه.

قال الوليد بن المغيرة: وأنا أبعث مع عمرو ابن أخي بجير بن أبي ربيعة^(٢)، فهو من أفضل شباب قريش، سبيليان بلاء حسناً عند النجاشي.

قال عتبة بن ربيعة: فابعثوا إليهما فليحضرا في الحال.

قدم عمرو بن العاص وبجير بن أبي ربيعة المجلس، فلما جلسا قال عتبة بن ربيعة: إن أصحاب محمد قد أمنوا في الحبشة، وعليكما إقناع النجاشي بفسد عقلهم، وقلّة حيلتهم علينا، فاذهبا إليه بهذه الهدايا وابدؤوا بأعوانه، ثم ادخلوا النجاشي.

ثم نظر إلى عمرو بن العاص وقال: إنه صديقك، ولا أشك أبداً

(١) عمرو بن العاص، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

(٢) بجير بن أبي ربيعة، هو عبد الله بن أبي ربيعة، له دور صغير في السيرة، أخوه عياش بن أبي ربيعة، وأخوه لأمه أبو جهل.

بتأثيرك عليه، نريد أن نعيد الجميع إلى مكة.

وافق عمرو بن العاص وبعير بن أبي ربيعة على الفور، وانطلقا
يجمعان الهدايا من وجهاء قريش، واتجها إلى الحبشة على الفور،
وما إن وصلا حتى وزعا الهدايا على الحاشية، فابتهجوا ورضوا بما
حصلوا عليه، فنظروا إلى عمرو وبعير وسألا: وما الحكاية وراء هذه
الهدايا؟

أخرج بعير بن أبي ربيعة رسالة من سادة قريش إلى الحاشية،
قرأها: إنه قد حضر إلى بلدكم منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم
يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد
بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم، فإذا كلما الملك
فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلم بهم،
وأعلم بما عابوا عليهم.

نظر الحاشية إلى بعضهم وقالوا: نعم، نفعل.

فرح عمرو بن العاص وبعير بن أبي ربيعة بسهولة الوضع مع
الحاشية، ولم يبق أمامهم سوى إقناع النجاشي، صديق عمرو بن
العاص، بأن يعيد المسلمين معهم إلى مكة.

تحضّر عمرو بن العاص جيداً لهذه المقابلة، وحضّر أفضل الهدايا وأفخم العطور والأقمشة ليضعها أمام النجاشي، وفعلاً دخل عمرو بن العاص وبجير بن أبي الربيع وسجدا تعظيماً للملك، وكان عمرو واثقاً أمام صديقه النجاشي، وضع الهدايا القيمة ففرح النجاشي بها كثيراً، وأحسن استقبال عمرو بن العاص وقربه في مجلسه قائلاً: أهلاً بصديقي عمرو.

قال عمرو بن العاص: تسعدني رؤيتك بصحة جيدة أيها الملك.

قال النجاشي: فما وراءك يا عمرو؟

قال عمرو: أيها الملك، إنك قد آويت في بلدك هذا جماعة من غلماننا الأشرار، ومن سفهائنا وأساء الناس خلقاً، جاؤوا بدين جديد تركوا به ملة آبائهم، ولم يدخلوا في دينك، وفرقوا بين الرجل وزوجته.

قلق النجاشي من وصف عمرو للمهاجرين، تابع عمرو قائلاً: وقد بعثنا إليك فيهم عشائرتهم، آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، ونريد منك أن تردهم معنا.

سكت الملك، وأطرق يفكر في قلق، ثم نظر إلى أتباعه الذين قالوا من فورهم: صدق أيها الملك، قومهم أعلم بهم، وأعلم بما عابوا عليهم،

فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

ابتسم عمرو مبتهجاً، فقد كان للهدايا الأثر الذي كان يرجو، ولكن النجاشي عاد يفكر ويفكر، ثم قال: لا والله لا أسلمهم إليكما حتى آتي بهم إلى هاهنا وأسمع منهم، فإن كانوا كما تقولون أعطيتهم إليكم، وإن لم يكونوا كذلك فما أنا بالذي أطردهم من بلدي، لا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنتم جوارهم ما جاوروني.

عض عمرو شفته، كيف له أن يعترض على شيء كهذا، فهو يعلم أنه قمة العدل، بل وهو الأسلوب الذي عُرف به النجاشي.

بعث النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ أن يحضروا جميعاً إلى قصر الملك، وقد كانوا جالسين يتدارسون القرآن وما وصل إليهم من آيات من مكة، تعجب الصحابة! فهم لم يؤذوا أحداً ولم يفعلوا ما يقلق الملك، ولكن جعفر بن أبي طالب قال: نطيع الملك، وندخل عليه كما يأمر.

فتساءلوا بينهم: ما تقولون للنجاشي إذا جئتموه؟

قال جعفر: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

وافق الجميع على ذلك واجتمعوا جميعاً ليدخلوا إلى مجلس النجاشي كما أمر، فدخلوا واقفين لم يسجدوا للنجاشي، فرأوا النجاشي جالساً على كرسيه حوله حاشيته، وإلى جانبه الآخر يجلس عمرو بن العاص وبجير بن أبي الربيع، هنا فهم الصحابة ما يجري، وبدأ القلق يتسرب إليهم، ها هي قريش تلحق بهم إلى الحبشة، همهم الصحابة فيما بينهم: ماذا سنفعل؟

قال جعفر: ما اتفقنا عليه سابقاً، نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائناً ما كان.

قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: السلام عليك أيها الملك. فاستغل عمرو بن العاص هذه الفرصة، ونهض قائلاً: ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون ولم يحيوك بتحيتك، ولم يسجدوا أمامك. فقال النجاشي غاضباً: ما منعكم أن تسجدوا وتحيونني بتحيتي؟ قال جعفر في ثبات: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل.

ابتسم عمرو بن العاص ساخراً، فبدأ النجاشي بالسؤال: ما هذا

الدين الجديد الذي استحدثتموه؟ تركتم ملة آبائكم ولا تدخلون في ديني، فأبي دين هذا؟

قدّم المسلمون جعفر بن أبي طالب يجيب عنهم، وقد كان قد بلغ الثلاثين فقط، كان أمان المسلمين يتوقف على ما سيقول في دقائق، كان عليه أن يقنع النجاشي الملك العادل ويبطل كيد قريش ولسان عمرو المعسول، فبدأ يقول: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونقطع الأرحام، ويأكل القوي منا الضعيف، فبعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.

هز النجاشي رأسه معجباً بما يسمع، فتابع جعفر: فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار، ونهانا عن الفواحش والمنكر وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، فأما به وصدقناه واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

كانت جمل جعفر واضحة بسيطة صريحة، لا يمكن لعقل أن يرفضها أو يجادل فيها، كان الجميع منصتاً فتابع جعفر: فعدا علينا قومنا، فعذبونا وقهرونا وآذونا وفتنونا في ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، أمرنا نبينا أن نأتي إليك أنت، فرغبنا في جوارك، وأخترناك على من سواك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك.

ساد الصمت المكان، كانت عيون النجاشي تبرق إعجاباً بما سمع، وشعر عمرو بقوة تأثير ما قال جعفر في النجاشي، وحدث ما كان يخشاه، فقد قال النجاشي: هل معك شيء من هذا الذي جاء به نبيكم؟

فقال جعفر: نعم، باسم الله الرحمن الرحيم ﴿كَهَيْعَصَ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ٥ يَرْتُبِي وَيَرِّثُ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ ٦ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ٧ بِنَزَكِرِيّاً إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً ٨ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غَلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً ٩ قَالَ

كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿١﴾
 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿٢﴾
 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٣﴾
 يَبِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿٤﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
 وَرِزْقًا ۗ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿٥﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿٦﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ
 يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿٧﴾ ﴿١﴾.

ففاضت عيون النجاشي وحاشيته بالدموع، وقال: هذا والذي

جاء به موسى ليخرج من مشكاة^(١) واحدة.

ثم التفت إلى عمرو بن العاص وبعير بن أبي الربيع وقال:

أعبيد هم لكم؟

قال عمرو: لا.

قال: فلکم عليهم دين؟

قال عمرو: لا.

فقال النجاشي: انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً.

خرج عمرو بن العاص غاضباً، كيف له أن يُهزم أمام جعفر وهذا

(١) سورة مريم، الآيات ١-١٥.

(٢) المشكاة هي ما يوضع فيه المصباح، أي أنه نور واحد في الديانتين.

الدين الجديد، وهو صاحب الكلام والمنطق المعسول؟ قال متوعداً: والله لآتينهم غداً بما أستأصل به خضراءهم.

ولكن بجير بن أبي الربيع كان قد رق قلبه لما سمع، فقال: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

فقال عمرو: والله لأخبرن النجاشي أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

خطط عمرو وفكر جيداً بالكلمات التي سيقولها للنجاشي هذه المرة، يجب عليه أن يوقع عليهم الحجة الأكيدة، ليس هناك مجال للخطأ هذه المرة.

طلب عمرو بن العاص لقاء النجاشي في اليوم التالي، فرحب به النجاشي كعادته، فقال له عمرو: أيها الملك، هؤلاء القوم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون.

انزعج النجاشي، هل يعيب الدين الجديد دينه؟ قال: إن لم يقولوا في عيسى مثل قلبي لم أدهم في ساعة من نهار.

فبعث إلى الصحابة يدعوهم للقائه ثانية، هذه المرة أخبرهم أحد

الحاشية أن النجاشي يريد أن يسمع ما تقولون في عيسى بن مريم.

قلق الصحابة، ماذا سيقولون الآن؟ شعروا بالضيق وقلة الحيلة،

ولكن جعفرًا بن أبي طالب قال: نقول كما قال الله ونبيه، كائنًا في ذلك ما هو كائن.

* * *

أجاب الصحابة الدعوة، ودخلوا على النجاشي، فسألهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟
فأجاب جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التي لم يقربها بشر.

نظر عمرو بن العاص إلى النجاشي، فكان الوضع أسوأ مما تخيل، فقد كان النجاشي مبتسمًا تلمع عيونه من الفرحنة ومعتزًا بما يسمع، فعلم أنه قد خسر تمامًا، وقام النجاشي يحسم الأمر، طلب أكبر القسيسين والرهبان وسألهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟
قالوا: أنت أعلمنا، فما تقول؟

فضرب الأرض، وأخذ منها عودًا ثم قال: والله ما تعدى عيسى بن مريم ما قال هؤلاء وزن هذا العرجون^(١).

لم يعجب التعليق الحاشية، وهمموا فيما بينهم، ولكن

(١) العرجون هو العنقود الصغير الذي يحمل التمرة.

النجاشي قال لحاشيته في حزم: وإن نخرتم والله، والله لا أدعهم أبداً.
ونظر إلى المسلمين وقال: اذهبوا فانطلقوا في بلادي حيث شئتم،
لا تُؤدّون أبداً ولا تُظلمون، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم
غرم، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيتُ رجلاً منكم، أشهد أنه
رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به
عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك
لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه.

ثم نظر إلى عمرو بن العاص وقال: ردوا عليهما هداياهما، فلا
حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حيث رد علي ملكي، ولا
أطاع الناس فيّ، فأطيع الناس فيه.

خرج عمرو بن العاص وبعير بن أبي الربيع مطأطي الرأس،
وقد فشلت خطتهما تماماً، وكانت تلك أول مرة في حياة عمرو بن
العاص يخونه فيها لسانه ودهاؤه أمام أحد، وخرج المسلمون فرحين
بما جرى، يحمدون الله ويعبدونه بأمان.

عاد جعفر بن أبي طالب إلى منزله، واستقبلته زوجته أسماء
بنت عميس بفرح شديد، فقد كانت قلقة عليه جداً، فجلس إليها

وحدثها بما جرى، فسرت كثيراً كيف عاد داهية العرب عمرو بن العاص أدراجه خائباً، ثم سألت زوجها: ولكن ماذا عنى النجاشي بقوله ما أخذ الله مني الرشوة حيث رد علي ملكي؟

ابتسم جعفر وقال: سمعتُ من الأحباش قصته في شأن ملكه، فقد كان والده ملك الحبشة، له أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، بينما لم يكن للملك ولد سوى النجاشي، ففكر سادة القوم أنهم لو قتلوا الملك وملكوا أخاه فإن له اثني عشر رجلاً يتواثرون الملك، وبقيت الحبشة عليهم دهنراً طويلاً لا يكون بينهم اختلاف، أفضل من أن يموت النجاشي فيصبح الخلاف بعده. ففعلوا، وملك الأخ حيث كان النجاشي صغيراً، ولكن النجاشي كان صبياً ذكياً نبيهاً يحب عمه، فقربه عمه إليه وأحبه، فخاف السادة من هذه العلاقة، ولربما ملك النجاشي بعد عمه، وإن علم أنهم تآمروا على قتل والده هلكوا، فقالوا: إما أن نقتل الصبي النجاشي وإما أن نخرجه من بلادنا. فقرروا أن يخرجوه من البلاد، وباعوه من تاجر إلى تاجر، وفي إحدى الليالي هاجت السحاب، فخرج العم الملك تحت المطر، فأصابته صاعقة فمات من فوره، ففزع الجميع إلى الأولاد، فإذا هم حمقى لا يصلحون للرئاسة، فهاجت الحبشة، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله إن ملككم الذي لا يصلح

أمركم غيره للذي بعتم، فإن كان لكم بأرض الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب. فخرجوا في طلبه حتى أدركوه فردوه، ووضعوا عليه التاج وأجلسوه على سريرته وملكوه، فقال التاجر الذي اشتراه: ردوا علي مالي كما أخذتم مني غلامي. فقالوا: لا نعطيك. فذهب التاجر إلى النجاشي، وقال له: أيها الملك إنني ابتعت غلاماً فقبض مني الذين باعوه ثمنه، ثم عدوا على غلامي فأخذوه من يدي ولم يردوا علي مالي. فكان من عدل النجاشي أن قال: لتردن عليه ماله أو ليعلنن غلامه يده في يده فليذهبن به حيث شاء. فقالت الحاشية: بل نعطه ماله. فأعطوه إياه، فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رشوة فأخذ الرشوة فيه حين رد إلي ملكي، ولا أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

في الشعب كانت حال المسلمين وبني هاشم قد بلغت ذروتها، فباتوا يأكلون ورق الأشجار، ويتلمسون ما تتركه البعير، حتى خرج سعد بن أبي وقاص إلى الخلاء فسمع طقطقة تحت قدمه، فإذا به جلد بعير يابس، فأخذها وغسلها ثم أحرقتها، ووزعها على وجبة ثلاثة أيام.

وكان بعض أهل قريش ممن يكره القطيعة ويحن قلبه على بني

هاشم يحضر الدابة، فيضع عليها الطعام والماء والزاد، ثم يترك حبالها ويوجهها إلى الشعاب تسير وحيدة إلى أن تصل إلى بني هاشم إذا لم يتعرض لها أحد من قريش، فيأكلون منها ويشربون ويلبسون.

وصل خبر عودة عمرو بن العاص وبجير بن أبي ربيعة إلى بني هاشم والمسلمين، ففرحوا بعدل النجاشي وحمايته أبناءهم، فأنشد أبو طالب في النجاشي:

تعلم خيار الناس أن محمداً وزير لموسى والمسيح بن مريم
أتى بهدى مثل الذي أتيا به وكل بأمر الله يهدي ويعصم
وأنكم تتلونونه في كتابكم بصدق حديث لا حديث الترجم
وأنك ما يأتيك منا عصابة لفضلك إلا أرجعوا بالتكرم

وكان رسول الله ﷺ يجتمع بأصحابه ويعلمهم القرآن، وذات ليلة قدم الوليد بن المغيرة معه أبو جهل وبعض رجال قريش يريدون رسول الله ﷺ، فالتقوا أبا طالب، وأعطوه الأمان أن يجادلوا محمداً دون أن يؤذوه، فاستشار أبو طالب ابن أخيه فقبل لقاءهم، فجلسوا إليه، فقال الوليد بن المغيرة: يا محمد، ألا ترى ما حل بأهلك وعشيرتك وأصحابك؟ ألا تكف عما تفعل؟ اعتزل وهذا الدين في

منزلك ، ولا تفسد علينا تجارتنا وعبادتنا وأولادنا.

ولكن الرسول ﷺ كان ما يزال صابراً ، فانزعج الوليد بن المغيرة وقال للرسول ﷺ : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقين ، نصف على هذا الجبل ، ونصف على الجبل الآخر .

ضحك الرجال معه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : إن فعلتُ تؤمنوا؟

جفل أبو جهل ، ونظر الرجال إلى بعضهم ، فقال الوليد : نعم .

وكانت ليلة بدر ، فسأل الرسول ﷺ الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا ، فحدّق الجميع في القمر ، ورأوا ما لم تصدقه أعينهم ، لقد انشق القمر أمام أعينهم ، نصف على الجبل والنصف الآخر على الجبل الآخر ، ورسول الله ﷺ ينادي أبا سلمة والأرقم بن أبي الأرقم يقول :
اشهدوا .

ثم عاد القمر والتصق أمام أعينهم ، فصرخ أبو جهل قائلاً :

ساحر! ساحرنا محمد!

فتمالك الوليد بن المغيرة نفسه وقال : نعم ، هذا والله السحر .

فأوحى الله إلى رسوله الآيات : ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ①
وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ

بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ الْتُّذُرُ ﴿٦﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٧﴾
خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ
إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴿١﴾.

فزع الرجال لما سمعوا الآيات، وأن الساعة التي يعدهم بها
محمد ﷺ قد اقتربت، وعادوا إلى مكة مسرعين، ثم توقف الوليد بن
المغيرة يقول لأصحابه: يا معشر قريش، إن محمداً يزعم أن القيامة قد
اقتربت، وما كذب قط، فكفوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر.

أطاع الجميع الوليد بن المغيرة، ومضت الأيام وامتدت، ولم تأت
القيامة، وما يزال الرسول ﷺ في الشعاب يعاني مع أهله ضيق
الحصار، فجاءه الوليد بن المغيرة يقول: يا محمد، ما نرى شيئاً مما
تخوفنا به!

فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ
فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢﴾.

فخاف الوليد، وعاد إلى مكة يقول: كفوا عن بعض ما كنتم
تعملون حتى ننظر.

(١) سورة القمر، الآيات ١-٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١.

فلما امتدت الأيام، عاد إلى الرسول ﷺ ومعه رجال من قريش يقولون: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به!
فأوحى الله إليه الآيات: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ...﴾.
فوثب الرسول ﷺ ورفع الناس رؤوسهم خائفين، فتابع الآية:
﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).
فاطمأنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: بُعثتُ أنا والساعة كهاتين.
وأشار بإصبعيه، ثم قال: إن كادت لتسبقني.
فتركه الرجال، وعادوا إلى ما كانوا يفعلون من الشرك وعبادة الأوثان، وفعل المنكرات.

وعلم رسول الله ﷺ صحابته سورة القمر، وبينما كان يتلو:
﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾^(٢) أَمْ يَقُولُونَ
فَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾^(٣).
فتساءل عمر بن الخطاب في نفسه: أي جمع يهزم؟
وظل ينتظر تأويلها.

(١) سورة النحل، الآية ١.
(٢) سورة القمر، الآيات ٤٣-٤٥.

بدأ رجال من قريش يشعرون بالضيق لما يجري في شأن بني هاشم، وانقسم رأي قريش إلى قسمين، قسم رأى في القطيعة الظلم وعليهم أن ينتهوا، وقسم لم يتعاطف معهم على الإطلاق.

في هذه الأثناء ولدت لبابة الكبرى لزوجها العباس بن عبد المطلب ولداً، فرح به جميع بني هاشم والمسلمين، وطلبت إلى الرسول ﷺ أن يقوم بتسميته، فأطلق عليه الرسول ﷺ اسم عبد الله، فكان عبد الله بن العباس^(١)، وقد دعى له الرسول ﷺ أن يعلمه الله الحكمة، وأن يفقهه في الدين ويلمه التأويل، ودعا له أن يزيده علماً.

وتدهورت صحة أبي طالب، كما تدهورت صحة خديجة بنت خويلد حتى قلق عليها قومها وخشوا أن تموت، فبدؤوا يسربون لها الأكل في الشعب، فما إن يصلها حتى تقول: والله لا آكل حتى يأكل المسلمون.

لم تعد الحياة في الشعب تطاق، فرثا الرسول ﷺ لحال الناس، خاصة زوجته وعمه، وقد تغير لونهما وهزلت صحتهما كثيراً، فملأت الشفقة قلبه، فرحم الله تعالى عباده وأوحى إلى رسوله في أمر صحيفة المقاطعة أمراً، فالتقى الرسول عمه أبا طالب فقال له: يا عم، إن الله قد سلط الأرضة^(٢) على الصحيفة.

(١) عبد الله بن العباس، اشتهر بابن عباس، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

(٢) الأرضة هي حشرة تشبه النمل.

فأخبره الرسول ﷺ أن الأرضة لم تترك اسماً لله فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك وظلم وقطيعة رحم، فتعجب أبو طالب لذلك وقال: أريك أخبرك بهذا؟

فأخبره أن الله أوحى له بذلك، فقال أبو طالب: لا والنجوم الثواقب ما كذبتني.

فانطلق من فوره مع وفد من بني هاشم إلى الكعبة، حتى وصل هناك وجمع قريش كثير، فلما رأوهم قادمين ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء، فأتوهم ليسلموهم رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم، وفي حياته فرقتمكم وفسادكم.

ولكن أبا طالب وقف يواجه سادة قريش وقال: قد حَدَّثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح.

فوافقوا وأتوا بالصحيفة مغلقة مستبشرين بتسليم الرسول ﷺ إليهم، فوضعوها بينهم، فقال عتبة بن ربيعة: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد، جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نصف، إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني، أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا، فوالله لا نسلمه أبداً حتى نموت من عند آخرا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم، فقتلتموه أو استحبيبتم.

نظر سادة قريش إلى بعضهم وقد تجمع رجال كثير من أهل مكة حولهم ليشهدوا ما يجري، وكلهم يعلم أن الصحيفة آمنة داخل الكعبة، قال عتبة بن ربيعة: قد رضينا بالذي تقول.

ففتحو الصحيفة فوجدوا الصادق قد أخبر خبرها، وقد أكلت الأرضة كل اسم لله فيها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قفز أبو جهل يقول: والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم.

فلم يقبلوا الاتفاق، وصرخوا يعلنون أن محمداً سحرهم، واقتنع الناس بما يقولون، فقال بنو هاشم عائدين إلى الشعاب: إن أولى بالكذب والسحر غيرنا.



وعادت قريش بشر مما كانوا عليه من الشدة على الرسول

والمسلمين وبني هاشم، ولكن رجالاً من أهل مكة رأوا بأعينهم ما جرى، وكانوا يكرهون ما يحدث لإخوانهم من بني هاشم، ويتمنون أن تنتهي المقاطعة الجائرة.

مشى رجل إلى صديقه، فاختمى به وسأله: أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت؟ أما إنني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبداً.

فقال الرجل: فماذا أصنع وإنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها.

قال: فقد وجدت رجلاً.

قال: ومن هو؟

قال: أنا.

قال: ابغنا ثالثاً.

فذهب إلى رجل آخر يعلم أنه يكره المقاطعة، فقال له: أرضيت

أن يهلك بنو هاشم وأنت شاهد على ذلك موافق عليه؟

قال: ما أصنع؟ إنما أنا رجل واحد.

قال: قد وجدت ثانياً.

قال: من هو؟

قال: أنا.

قال: ابغنا ثالثاً.

قال: قد فعلت.

وأخبره من هو، فقال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى رجل آخر، وقال له: كيف بات أهلك البارحة؟

قال: بخير.

قال: لكن إخوانك هؤلاء الذين في الشعب بات صبيانهم جياً

حتى أصبحوا.

قال: وماذا أفعل وأنا رجل واحد؟ فهل من أحد يعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

أخبره بالآخرين، فقال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى خامس، وذكر له قرابته، فسأل: وهل على هذا الأمر

معين؟

قال: نعم.

وسمى له القوم، فاجتمعوا واتفقوا، وتعاهد الخمسة^(١) على القيام بنقض الصحيفة، فقال أحدهم: أنا أبدؤكم.

فلما كان الصباح ذهبوا إلى أنديتهم، وذهب أولهم فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلأى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل: كذبت والله لا تشق.

فقال الرجل الثاني: أنت والله أكذب، ما رضينا بها حين كتبت.

فقال الثالث: صدق والله، لا نرضى ما كتب فيها.

فقال الرابع: صدقتم وكذب من قال غير ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل.

فقام الرجال فشقوا الصحيفة، وابتهج من كان يرى الظلم والجور فيها لأهلهم وإخوانهم من بني هاشم، وانتهت المقاطعة على الفور بعد ثلاث سنوات من العناء، وأسرع الناس إلى بني هاشم ليبشروهم ويطعموهم ويشاركوهم حياتهم.

(١) الخمسة هم هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأبو البختری بن هشام، وزمعة بن الأسود. لم يسلموا ولكنهم كانوا أصحاب نخوة في سادة قريش.

وتوافد الناس إلى الشعاب، حاملين ما استطاعوا حملهم على
الفور، ذهل بنو هاشم لما رأوا، أخيراً فرّج الله عنهم حالهم، ورحبوا
بإخوانهم من القبائل الأخرى، وتناولوا الطعام جنباً إلى جنب، وعادوا
إلى مساكنهم وسط مكة يبيعون ويشترون ويعيشون مع الجميع، وطافوا
مع الرسول ﷺ حول الكعبة فرحين به وبنجاته وانتهاء الظلم.
ومدح أبو طالب الرجال الخمسة الذين كانوا السبب في إنهاء
الحصار، وأنشدهم شعراً يفخر بهم، بينما شلت يد كاتب الصحيفة.



٣- | ٦١٩ م

عام الحزن

اقتربت قافلة الحارث بن عبد العزى^(١) من مكة، كان متشوقاً
لرؤية ابنه محمد ﷺ بعد أعوام طويلة من الغياب.

دخل مكة، وسأل نوادي مكة عن ابنه محمد ﷺ، وكيف هي
أحواله، وأين يجده، فنهض إليه سهيل بن عمرو وأسر له قائلاً: ألا
تسمع يا حارث ما يقول ابنك هذا؟

قال الحارث: وما يقول؟

قال سهيل: يزعم أن الله يبعث الناس بعد الموت، وأن لله دارين
يعذب فيهما من عصاه، ويكرم فيهما من أطاعه، وقد شئت أمرنا وفرق
جماعتنا.

(١) الحارث بن عبد العزى هو والد الرسول ﷺ في الرضاعة وزوج حليلة السعدية.

تعجب الحارث لما سمع ، ولكنه قال : فأين هو؟

أجابه سهيل : تجده في السوق ، يجلس إلى صديقه أبي بكر .

ذهب الحارث إلى ابنه رسول الله ﷺ ، ففرح الرسول ﷺ برؤيته ، وأحسن استقباله وأجلسه إليه ، وبعد حديث قصير سأل الحارث : أي بني ، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول إن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة أو نار؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم ، أنا أزعم ذلك ، ولو قد كان ذلك اليوم يا أبة لقد أخذتُ بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم .

قال الحارث : أي بني ، أنا أعلم الناس أنك مختلف ، وأن الله قد بارك فيك وفيما تحط فيه منذ الصغر ، وإني والله أعلم منذ صغرك أن لك شأنًا وقد كان ، أشهد أنك صادق ، وأؤمن بما تؤمن به ، وأعلم أن لو قد أخذتَ بيدي فعرفتني ما قلتَ الآن لم ترسلني إن شاء الله حتى يدخلني الله الجنة .

فرح الرسول ﷺ بإسلام أبيه ، واستقبله في منزله أحسن استقبال ، وحاولت السيدة خديجة أن تقدم له كل ما تستطيع رغم ضعف حالها وسوء صحتها .

لم يطل الحارث الزيارة ، وعاد مسرعاً إلى زوجته حليلة

يخبرها بشأن نبوة ابنهما، فدخل عليها مبتهجاً يقول: أبشري يا حليلة، أبشري بخير يوم طلع عليك.

ابتهجت وقالت حليلة: هل جاء ابني محمد معك؟

قال: ابننا نبي يتنزل عليه الوحي من السماء، إنه نبي آخر الزمان، أنت أم نبي.

قفزت حليلة مهللة: ورب الكعبة إنني أعلم الناس بابني، إن كان له شأن في صغره وها قد تحقق، والله إنه لخليق بالنبوة، ومن أفضل منه في قريش والعرب قاطبة؟

قال: قد بعثني إليك بالتحية والسلام والهدايا، كما أنه يدعوك إلى ما يدعو إليه.

قالت: ابني محمد يدعوني، والله الذي خلق محمد لإن طلب إلي أن أفيده بروحي لفعلت، فلتشهد يا الله أنني أؤمن بكل كلمة أوحيتها إلى محمد، أدعوك يا الله أن ترزقني زيارة محمد والنظر إلى وجهه الكريم.

فأسلمت حليلة من فورها وهي على يقين أن ابنها كان حقيقاً بالنبوة.

عاد أبو بكر إلى منزله، فاستقبلته زوجته^(١)، وبعد العشاء حدثته في أمر ابنتها عائشة قائلة: لقد حضرت اليوم نساء شريفات من بني نوفل بن عبد مناف، يخطبن ابنتنا عائشة لابنهم جبير بن المطعم بن عدي^(٢).
ابتسم أبو بكر قائلاً: نسب شريف، فقد كان والده المطعم بن عدي كارهاً لمقاطعة بني هاشم، وقد عاون على نقض صحيفة المقاطعة.
قالت: نعم، وسوف يتحدث إليك المطعم بن عدي في الأمر، وأظن أنه كما قلت، شريف خلوق محمود الصفات، رفض الظلم والقطيعة، وأظنه سيكلمك في الغد، وبما أن عائشة ما تزال صغيرة فإن الأمر لن يتجاوز الخطبة حالياً.
نهض أبو بكر قائلاً: أهلاً ومرحباً به وبولده.
في صباح اليوم التالي لقي المطعم بن عدي أبا بكر في السوق، وجلسا وتحدثا في أمر الخطبة، ورحب أبو بكر بالنسب الشريف والعائلة الكريمة، وبقي الأمر مجرد خطبة بين العائلتين، فعائشة ما تزال صغيرة، ولم يستعلن أحدهما بالأمر.

(١) زوجة أبو بكر هي أم رومان، أم السيدة عائشة وعبد الرحمن ابنا أبي بكر.
(٢) جبير بن المطعم، صحابي، لم يسلم بعد، له دور صغير في السيرة، ووالده المطعم بن عدي أحد أشرف مكة وممن عاون المسلمين رغم شركه، له دور في السيرة.

كان الرسول ﷺ يعتني بزوجته السيدة خديجة التي كانت حالتها تسوء يوماً بعد يوم، ويجلس إليها الساعات الطوال، وكانت رغم مرضها تُصبر زوجها وتقول له: لا عليك يا عزيزي، سيجعل الله من بعد ذلك فرجاً.

وكذلك كان يعود عمه أبا طالب، الذي كان أيضاً يعاني المرض الشديد، وقد صعب على رسول الله ﷺ رؤيتهما على هذه الحال، وقد كانا أصلب الناس وأشجعها في الدفاع عنه ومساندته.

في نوادي قريش اجتمع السادة يتناقشون في أمر محمد ﷺ بعد أن فشلت المقاطعة ثلاث سنين.

قال أمية بن خلف: يا معشر قريش، إن هذا الأمر يزداد، وإن أبا طالب ذو رأي وشرف وسن، وهو على دينكم، وهو اليوم مريض، فامشوا إليه فاسألوه يأخذ لكم وعليكم في ابن أخيه، فإنكم إن خلوتم بعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب، وقد خالفا دينكم، تكون الحرب بينكم وبين قومكم.

قال أبو سفيان: أجل، انطلقوا بنا إلى أبي طالب، فلي نصفنا منه فيأمره فليكيف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبد، فإننا نخاف أن

يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء نؤذي به محمداً فتعيرنا العرب،
يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه.

قال أبو جهل: هذا هو الرأي، لقد سمعت أنه على فراش
الموت، ابعثوا إليه فليأذن لنا نقابله.

فبعثوا رجلاً منهم إلى أبي طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك
يستأذنون عليك.

قال أبو طالب: أهلاً بهم، أدخلهم.

دخل أبو جهل وأبو سفيان والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة
وسهيل بن عمرو والعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط، وأميرة بن
خلف مع نفر من قريش، فقال عتبة بن ربيعة: يا أبا طالب، إنك ما
حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت
الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا
نكف عنه.

وقال الوليد بن المغيرة: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا
فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلتهنا وندعه وإلهه.

تنهد أبو طالب، وبعث إلى الرسول ﷺ ليحضر، فلما دخل كان
هناك مجلس قريب من أبي طالب، فلاحظه أبو جهل قبل أن يتجه

الرسول ﷺ إليه، فقفز إلى ذلك المجلس قريباً من أبي طالب خشية أن يرق أبو طالب للرسول ﷺ إذا ما كان قريباً منه، واضطر الرسول ﷺ للجلوس بعيداً عن عمه، قال أبو طالب وقد أنهكه التعب: يا ابن أخي، هؤلاء مشيخة قومك وقد سألوك النصف أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك.

فأجابه الرسول ﷺ: أي عم، أولاً أدعوهم إلى ما هو خير لهم

منها؟

قال أبو طالب: وإلى ما تدعوهم؟

قال الرسول ﷺ: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم.

فقال أبو جهل: ما هي؟ لنعطينك وعشراً أمثالها.

قال الرسول ﷺ: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

فصفقوا بأيديهم، ثم قال أبو جهل: أيسع لحاجتنا جميعاً إله واحد؟ سلنا غير هذه الكلمة.

فقال رسول الله ﷺ: يا عم، ما أنا بالذي يقول غيرها.

فقال عقبة بن أبي معيط: هيا انطلقوا يا قوم، إن هذا القول الذي

يقوله ويدعوننا إليه من قول لا إله إلا الله شيء يريدنا منا محمد، يطلب به الإستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعاً، ولسنا مجيبيه إلى ذلك، وما سمعنا بما يقوله من قبل، لقد اختلقه محمد.

فغادروا وهم غاضبون يقولون: والله لنشتمنك وإلهك الذي يأمرك بهذا، إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه.

فأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ٣ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَجْرٌ كَذَابٌ ٤ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ٥ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ٧ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ٨ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ١٠ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ١١﴾ (١).

وأوحى إليه كذلك: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) سورة ص، الآيات ١-١١.

فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴿١﴾.

فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي، ما رأيتك ظلمتهم.
فلما سمع الرسول ﷺ رده طمع في إسلامه، فجعل يقول له: أي
عم، فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة.
نظر أبو طالب إلى عيون الرسول ﷺ طامعة في إسلامه، ولكنه
قال: يا ابن أخي، والله لولا مخافة السببة عليك وعلى بني أبيك من
بعدي، وأن تظن قريش أنني قتلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا
لأسرك بها.

فأوحى الله إلى رسوله الآيات: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ﴿٢﴾.

مضت بضعة أيام، ساءت حالة السيدة خديجة وأبو طالب أكثر،
وكان الرسول ﷺ منشغلاً بهما، وقدم علي بن أبي طالب إلى
الرسول ﷺ يخبره أن أبا طالب في شدة شديدة، فأسرع إليه الرسول ﷺ
ووجد عنده سادة قريش، فقال لهم: خلوا بيني وبين عمي.

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٦.

قال أبو لهب: ما نحن بفاعلين، وما أنت أحق به منا، إن كانت لك قرابة فلنا مثل قرابتك.

فجلس الرسول ﷺ إلى عمه الذي بات شاحباً جداً، ويلتقط أنفاسه الأخيرة، فقال له: يا عم، بك علي كرامة ويذك عندي حسنة، ولست أجد اليوم ما أجزيك به، غير أنني أسألك كلمة واحدة تحل لي بها الشفاعة عند ربي، أن تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تصيب بها الكرامة عند الممات، فقد حيل بينك وبين الدنيا، وتنزل بكلمتك هذه الشرف الأعلى في الآخرة.

فقال: إنك لي ناصح، والله لولا أن تعيرني قريش بها فيقال جزع عمك من الموت، وتلحقك بعدي مسبة تكون عليك وعلى بني أبيك سيئة وصعبة لعلت الذي تقول، ولأقررت بها عينك لما أرى من شدة وجدك ونصحك لي.

فصاح أبو جهل قائلاً: يا أبا طالب، أنت رأس الحنيفية ملة الأشياخ.

فقال أبو طالب: لا تحدث نساء قريش أن عمك جزع عند الموت، أنا على ملة عبد المطلب.

فقال رسول الله ﷺ: لا أزال أستغفر لك ربي حتى يردني.

فقال أبو طالب آخر ما قال: يا معشر قريش، أوصيكم بتعظيم هذا البيت، فإن فيه مرضاة الرب وقوام العيش، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، اتركوا البغي فقد أهلك القرون من قبلكم، يا معشر قريش، أجيئو داعي وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة وشرف الممات، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة.

كان هذا آخر ما قاله أبو طالب، وأغمض عينيه، فحزن عليه الجميع، وبكى علي على أبيه كثيراً، وغادر سادة قريش المنزل، فرجع الرسول ﷺ بيديه ودعا لعمه بالرحمة والمغفرة كثيراً، ثم عاد وجلس إلى زوجته السيدة خديجة، حيث كانت حالتها تسوء أكثر فأكثر.

علم المسلمون أن الرسول ﷺ استغفر لعمه الذي لم يسلم، فقالوا: ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا ولذي قرابتنا؟ قد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد رسول الله يستغفر لعمه.

فبدأ المسلمون يستغفرون لموتاهم من المشركين إلى أن أنزل الله تعالى الآيات: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَحْصَابُ الْجَحِيمِ ﴿٣٧﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ

عَدُوُّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٣﴾^(١).

ظل الرسول ﷺ يعنني بالسيدة خديجة، وقد كان من الواضح أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، كان حزينا عليها حزناً شديداً، وبناتها تتناوبن على العناية بأمه.

وأخيراً وضعت السيدة خديجة يدها في يد زوجها قائلة: أحمد الله الذي رزقني خير البشر زوجاً، وأرجو من الله أن يسامحني على أي تقصير بدر مني في مساندتك، فقد كنت نعم الزوج، دعائي الأخير أن يجمعني الله بك في الجنة.

قبض رسول الله ﷺ على يدها ودعا لها كثيراً، إلى أن توفيت بين يديه، فبكى عليها كثيراً، وبكت بناتها وفجعن برحيلها، فقالت فاطمة: والله لا أقول إلا إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في موت أمي، والله لا أدري أحزن لفراق أمي أم أفرح لما بشرت به في الجنة.

دفن الرسول ﷺ زوجته السيدة خديجة في الحجون^(٢)، ونزل في قبرها ينظر إلى الوجه المشرق الذي كان يستقبله بصفاء وابتسامة،

(١) سورة التوبة، الآيات ١١٣-١١٤.

(٢) الحجون هو اسم جبل في مكة.

اليوم فقد الثقة والأمل ، فقد كلمات التثبيت والتبشير ، فقد المحبة والرقّة ، فقد جزءاً من حياته لا يعوضه إياه أحد ، فقد خديجة .
عم الحزن المنزل ، وتعب الرسول ﷺ لفراقها تبعاً شديداً ، فقد كانت خير زوجة ، وخير أم ، وقد أحبها حباً شديداً ، وسمي هذا العام بعام الحزن ، حيث خشي الصحابة على الرسول ﷺ مما فيه من شدة الحزن .

ما عاد الرسول ﷺ في منعة في قومه ، فقد مات عمه أبو طالب الذي كان يجيره منهم طول هذا الوقت ، وباتت قريش تستحل إيذاء الرسول ﷺ أينما حل وذهب ، وتدفع إليه بسفهاؤها يؤذونه ويدفعونه في شوارع مكة ، وكان أبو جهل يشده ويدفعه كلما مر به ، إلى أن اجتمع عشرة رجال عليه مرة واحدة يدافعونه ، فرأته ابنته فاطمة ، فهرعت إليه تدفع الناس ما استطاعت وتقول : ويحكم ! أستضعفتم أبي بعد وفاة جدي وأمي؟ والله لأرجمنكم بالحجارة .

وأمسكت بالحجارة وبدأت ترمي بها من كان حول أبيها ، فقال لها الرسول ﷺ : هوني عليك يا بنية ، فإن الله مانع أبيك .

وعادت به إلى المنزل والتراب على رأسه ، فما إن رأته ابنته أم

كلثوم حتى ركضت إليه تغسل عنه التراب وهي تبكي، فيقول لها رسول الله ﷺ: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أبيك، ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب.

في اليوم التالي كان وجهاء مكة جالسين حول المسجد يتحدثون، فذكروا رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ أقبل رسول الله ﷺ، فقال أمية بن خلف: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم.

فقال أبو سفيان: ما له اليوم معين، أين إلهه الذي يدافع عنه؟

فقال أمية بن خلف: هل تتركونه يسير في مسجدكم هكذا؟

طاف الرسول ﷺ حول الكعبة، فلما مر قرب مجلسهم أسمعوه

ما يكرهه، وباتوا يقولون: أين إلهك يا محمد؟

قال أمية بن خلف: أعطني شيئاً من مال خديجة أدفع إليك

برجال يحرسونك.

قال عقبه بن أبي معيط: لماذا؟ ألا تحرسه الملائكة؟ أم أنهم

أضعف من أن يقاتلوا عبيدنا؟

ضحك أبو جهل يقول: عن أي ملائكة تتحدث؟ إنه فقط يهذي في منامه.

ضحك الرجال، فتأذى رسول الله ﷺ مما قالوا، وأكمل يطوف حول الكعبة، ثم عاد يمر أمام مجلسهم، فأسمعوه ما يكره ثانية، فمضى الثالثة فمر عليهم فأسمعوه ما يكره، فتوقف أمامهم وقال: أسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح. ارتجف القوم من كلمات الرسول ﷺ، وجفلوا وصمتوا، حتى قال له أمية بن خلف: انصرف يا أبا القاسم راشداً، فما كنت بجهول. فتركهم رسول الله ﷺ، وظلوا صامتين طيلة الجلسة.

في اليوم التالي اجتمعوا في ناديهم، فقال أبو جهل: ذكرت محمدًا بما يكره، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه!
فقال أمية بن خلف: والله لا نتركه هذه المرة أبداً.
فلما أقبل رسول الله ﷺ قام إليه الرجال يقولون: أنت الذي تهددنا وأهنتنا وتعيبها علينا؟
فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذي أقول ذلك.

فبدؤوا يضربونه، وضع عقبة بن أبي معيط ثوبه في عنق

الرسول ﷺ يخنقه، فركض رجل إلى أبي بكر يصرخ ويقول: أدرك صاحبك قد نالت منه قريش!

خرج أبو بكر من منزله وركض إلى المسجد، فوجد الرجال يدفعون الرسول ﷺ من كل صوب، ودخل بينهم يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!

فتركوا رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فضربوه وشدوا شعره ولحيته، فهلعت بنو تيم تنقذ أبا بكر من أيديهم.

عاد أبو بكر إلى منزله، وقد جرحوا رأسه وتساقط شعره من الأذى، فكان كل ما يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

رأى الصحابة ما جرى لأبي بكر من دفاعه عن الرسول ﷺ، وعلموا فضله عليهم وحرصه على رسول الله ﷺ أكثر من أي منهم، فقال رسول الله عن أبي بكر: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم^(١) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه.

باتت فاطمة قلقة على أبيها كثيراً، وأصبحت تتبعه أينما ذهب

(١) عكم يعني انتظر.

في مكة خشية أن يؤذيه السفهاء، فعاد الرسول ﷺ يصلي عند الكعبة، وأبو جهل وأصحابه جلوس ينظرون إليه، وكانت هناك ناقه تلد قريباً منهم، فقال أبو جهل: أيكم يجيء بمشيمة هذه الناقة فيضعها على ظهر محمد إذا سجد؟

ضحك القوم، ولكن عقبة بن أبي معيط قام فقال: أنا أفعل.

فذهب إلى الناقة وسط تشجيع الجميع، وأخذ منها المشيمة ملطخة بالدماء، وانتظر الرسول ﷺ إلى أن سجد، فوضعها على ظهره بين كتفيه أمام القوم، فضحكوا يتمايلون على بعض من كثرة الضحك ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءت ابنته فاطمة مرة ثانية، فرفعت عن ظهره المشيمة المتسخة وهي تبكي، فرفع رسول الله ﷺ رأسه ويديه ثم دعا: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش.

فخاف القوم من دعاء الرسول ﷺ عليهم، وتوقفوا عن الضحك، فتابع الرسول ﷺ قائلاً: اللهم عليك بأبي جهل، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة، اللهم عليك بأمية بن خلف، اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط.

وذكر آخرين، فارتعبوا فانفضوا خائفين.

وعاد الرسول ﷺ إلى منزله، فإذا بجيرانه قد ألقوا القمامة على عتبة المنزل، فأزاح القمامة قائلاً: أهذا حق الجوار؟

* * *

ذكر بنو هاشم ما حل بمحمد ﷺ بعد موت عمه أبي طالب، فقال أحدهم لأبي لهب: واللات والعزى إن ابن أخيك يصيبه من قريش سوء، وقد استباحوه أمام أعيننا، وما من أحد في بني هاشم من يدافع عنه. قال آخر: رحل أبو طالب، وما عاد له من مانع يقدره وجهاء قريش.

وسمع أبو لهب ما فعل عقبة بن أبي معيط وأبو جهل وسائر وجهاء قريش بابن أخيه، فاشتعلت في صدره حمية القرابة، وعليه أن يدفع الأذى عن ابن أخيه كما كان يفعل أبو طالب، فهو صاحب رأي بينهم، فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول: يا محمد، امض لما أردت، وما كنت صانعاً إذا كان أبو طالب حياً فاصنعه، واللات لا يوصل إليك حتى أموت.

فكان في المساء أن سب رجل رسول الله ﷺ وكان أبو لهب حاضراً، فقام أبو لهب إليه فلطمه وشتمه، فصاح الرجل يقول: يا معشر قريش! صبأ أبو لهب!

قلق وجهاء قريش لذلك وقدموا إلى أبي لهب يسألونه، فقال: ما فارقتُ دين عبد المطلب، ولكنني أُمْنَعُ ابن أخي أن يُضامَ حتى يمضي لما يريد كما كان يفعل أخي أبو طالب.

حاول أبو جهل أن يتحدث ولكن عتبة بن ربيعة أوقفه قائلاً لأبي لهب: لقد أحسنتَ وأجملتَ ووصلتَ الرحم.

وطلب من الجميع المغادرة، فمكث رسول الله ﷺ كذلك أياماً يأتي ويذهب لا يتعرض له أحد من قريش مخافة منعة أبي لهب له.

نزلت سورة ص على الرسول ﷺ، فاجتمع الصحابة إليه ليتعلموا السورة، فسأل زيد بن محمد: يا رسول الله، أتحدثنا ما كان من ابتلاء نبي الله أيوب؟

فقال رسول الله ﷺ: إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلان من إخوانه كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا

أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يُذكر الله إلا في حق. وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى إلى أيوب في مكانه: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك ما رأيت أحداً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو. وكان له أندران^(١)، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق^(٢) حتى فاض.

ظل رسول الله ﷺ في جوار أبي لهب، وتوقف أذى قريش له، وصعد يوماً على الصفا، ونادى في أندية قريش بأسماء قبائلها: يا بني فلان، يا بني فلان...

وحدّرهم عذاب الله، وعاقبة الشرك، فقال رجل منهم: إن

(١) أندران مثني أندر، وهو البيدر، أي المكان المعد لوضع المحصول بعد حصاده.

(٢) الورق يعني الفضة.

صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت إلى الصباح.

فقال أمية بن خلف إلى جانبه أخيه أبي بن خلف: يا محمد، إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟ أليس بيننا وبينك قرابة؟
خصنا بهذا الخبر العظيم.

وقال أبي بن خلف: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فنشتري فنربح؟ وبالأرض التي يريد أن تجذب فترحل عنها إلى ما قد أخصب؟

فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾^(١).

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٨٤-١٨٨.

عاد الرسول ﷺ يطوف حول الكعبة، وكان أهل مكة يطوفون دون ثياب، فسأل المسلمون رسول الله ﷺ عن ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾^(١).

فنهو عن الطواف دون ثياب، كما كانوا إذا دخلوا في الصلاة تكلموا فيها، ويسأل بعضهم بعضاً عن عدد الركعات فيجيبه في صلاته، فأنزل الله تعالى الآيات: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾^(٢).
فنهوا عن اللغو في الصلاة.

لما رأت قريش أن محمداً عاد يدعو إلى دينه ولا يتعرض له أحد اجتمعوا، فقال أبو جهل لعتبة بن ربيعة: لقد أسكتني يا عتبة، انظر ما حل بنا، أبو لهب بات درعاً منيعاً يمنع محمداً.

(١) سورة الأعراف، الآيات ٣١-٣٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.

قال عتبة بن ربيعة: وهل كنت تظن بني هاشم تاركيك تشتم أبا

لهب؟

قال أبو سفيان: إنها الحنكة يا قوم، علينا أن نقنع أبا لهب

بترك محمد وجواره.

قال أبو جهل: أنا لها.

ذهب أبو جهل مع عقبة بن أبي معيط إلى أبي لهب، فقال أبو

جهل: يا أبا لهب، أخبرك ابن أخيك أين مصير أبيك عبد المطلب؟

فقال أبو لهب: لا.

قال عقبة بن أبي معيط: أفلا تسأله؟

ذهب أبو لهب إلى الرسول ﷺ يسأله: يا محمد، أين هو مصير

أبي عبد المطلب؟

فأجابه الرسول ﷺ: مع قومه.

فعاد أبو لهب إلى أبي جهل وعقبة يقول: قد سألته فقال مع قومه.

فقال عقبة بن أبي معيط: بل إنه يزعم أنه في النار.

قال أبو لهب: لم يقل ذلك.

قال أبو جهل: أسأله هل عبد المطلب في النار.

عاد أبو لهب إلى الرسول ﷺ، فسأله: يا محمد، أيدخل عبد

المطلب النار؟

فقال رسول الله ﷺ : ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب

دخل النار.

فغضب أبو لهب وقال : والله لا برحتُ لك إلا عدواً أبداً وأنت

تزعم أن أبي عبد المطلب شريف قريش في النار.

وهكذا بداهة قريش ترك أبو لهب نصرة ابن أخيه، وعادت

قريش تبعث بسفهاؤها لمضايقة الرسول ﷺ أينما كان.

وتتابع نزول الوحي من السماء، وأوحى الله إلى نبيه آيات من

سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ

أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا

فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ أَنْ يَرَوْا الْهَبَّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَ رَبِّنَا

بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾^(١)

(١) سورة الأعراف، الآيات ٤٠-٤٣.

فقال رسول الله ﷺ : الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فيقال لها حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله، وإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج. فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء. فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر.



٣-هـ | ٦١٩ م

الطائف

عادت الجن تعبئة إلى إبليس، قالوا له: يا عظيمنا إبليس، لقد طفنا الأرض كلها ولكننا لم نعلم سبب الرجم في السماء، ولسنا نستطيع أن نقعد في مقاعدنا لنعلم خبر السماء.

قال إبليس: فاذهبوا واتوني من تراب من كل بقعة من الأرض.
قالوا: سمعاً وطاعة.

وانتشروا في الأرض يجلبون التراب من كل البقاع، وأحضروه إلى إبليس في عرشه حول الأفاعي، فأخذ يشم التراب، ثم قال: صاحبكم في مكة.

تعب الرسول ﷺ من أذى قريش في مكة، فقد بات السفهاء يترصدون له في كل مكان، وما من مجير ولا معين كما كان يدافع عنه

عمه أبو طالب، فقرر أن يعرض الإسلام خارج مكة، علّه يجد التصديق والعون والنصرة.

تجهز الرسول ﷺ للخروج إلى الطائف حيث تسكن قبيلة ثقيف، ساعده ابنه زيد بن محمد، وخشي عليه أن يذهب وحده، فاستأذنه في الخروج معه فأذن له.

خرج الرسول ﷺ بصحبة زيد بن محمد إلى الطائف سيراً على الأقدام، وكانت تبعد ٧٠ كم عن مكة، وهي على مرتفع جبلي، صعدا وتحملا وعورة الطريق وقسوة الحجارة أملاً في أن يشرح الله صدورهم للإسلام، فيساندوا هذا الدين ونبيه.

أول من التقى بهم الرسول ﷺ رجلين من سادة ثقيف، أولهما حكيم من خيرة رجالهم، والثاني راهبهم أمية بن أبي الصلت، صديق أبي سفيان.

استأذن زيد لرسول الله ﷺ، وما إن سمع أمية بن أبي الصلت اسمه حتى ارتجف قلقاً، ها هو الرسول الذي كان ينتظر خروجه قد حضر.

دخل رسول الله ﷺ إليهما، وجلس إليهما يحدثهم عن الإسلام، وتوحيد الله، وقرأ عليهم القرآن، أما الحكيم فقال له: هذه

مكارم الأخلاق، ولكننا لا نترك دين آبائنا.

وقال أمية بن أبي الصلت حسداً: ما سمعتُ برسول يخرج من

العرب، إني على دين عيسى.

حزن الرسول ﷺ بإعراضهما، فهما من خيرة الرجال وأكثرهم

علماً وحكمة، وما إن خرج حتى نظر الرجل إلى أمية بن أبي الصلت

وقال: أنت على علم بأمر رسول يخرج من العرب، وكنت تقول أنه

أنت، فماذا جرى؟

تنهد أمية قائلاً: لا أؤمن برسول من غير ثقيف.

فأنزل الله تعالى في أمية بن أبي الصلت الآيات: ﴿وَأَثَلْ عَلَيْهِمْ

نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ

الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ

مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ

فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِّلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾^(١).

تابع الرسول ﷺ سيره مع ابنه زيد إلى أن وجدا على أطراف

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٧٥-١٧٨.

الطائف ثلاثة إخوة^(١) من سادات ثقيف، فجلس إليهم الرسول ﷺ يحدثهم عن الإسلام، والدين الجديد، وترك عبادة الأصنام، وتلى عليهم القرآن، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أولهم: والله أمزق أستار الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الثاني: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد ينس من خير ثقيف، وكره أن يصل إلى أهل الطائف ما قاله له سادتهم، فقال لهم: إن فعلتم ما فعلتم فاكلتموا عني.

ولكنهم لم يفعلوا، بل بعثوا بعبيدهم إلى أهل الطائف يصيحون: سيصلكم رجل سفيه، يدعي أن الله والملائكة تنزل عليه من السماء تكلمه، فاحذروا أن يسحركم، وأثقلوا عليه ما استطعتم.

(١) الإخوة الثلاثة هم: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، سيذكرون في هذا الموضع فقط.

وما إن دخل رسول الله ﷺ الطائف حتى استقبله الناس بالحجارة، يرمونه وزيداً يقولون: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ ظل السفهاء والأطفال يرمون الحجارة تصيب أقدام رسول الله ﷺ، فتأذت ودميت، ولم يستطع أن يتحدث إلى أحد أو أن يسمع كلامه أحد، كما حاول زيد أن يحمي رسول الله ﷺ من الحجارة، فأصابت بعضها رأسه، فشجه، فغادر رسول الله ﷺ الطائف ينزل الجبل مع زيد، وقد تأذيا من الحجارة التي أصابتهم، وصعوبة الطريق.

سار رسول الله ﷺ مسافة مع زيد ينزفان وقد تأذيا كثيراً من الحجارة، ثم جلسا إلى بستان على طرف الطريق تحت شجرة متعبين، ورفع رسول الله ﷺ يديه يدعو: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك

العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

كان البستان ملكاً لعتبة بن ربيعة في الطائف، وكان جالساً إلى أخيه شيبه^(١) يراقبان الرسول ﷺ وزيداً، وقد تأذيا كثيراً من أهل الطائف، فرق قلبهما، وبعثا بغلامهما عدّاس^(٢) يحمل عنباً يطعمهما. حمل عدّاس العنب وقدمه إلى رسول الله ﷺ، فتناول الرسول ﷺ العنب وقال: باسم الله.

تعجب عدّاس وقال: والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد!

فسأله الرسول ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت؟ وما دينك؟

فقال عدّاس: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

قال الرسول ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

زهل عدّاس وقال: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد

خرجتُ منها وما فيها عشرة يعرفون ما متى، فمن أين عرفتَ أنت

متى وأنت أميّ وفي أمة أمية؟

فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي.

(١) أخو عتبة بن ربيعة هو شيبه بن ربيعة، له دور بسيط في السيرة.

(٢) عدّاس، غلام لعتبة بن ربيعة في بستان الطائف، سيذكر في هذا الموضع فقط.

فانكب عدّاس يقبّل رأس الرسول ﷺ فرحاً أنه قد التقى بنبي، وكان عتبة وشيبة يراقبان ما يفعل، فتعجبا، وقال شيبة: أما غلامك فقد أفسده عليك.

عاد عدّاس مبتهجاً إلى عتبة، فسأله: لماذا تقبّل محمداً في لهفة؟ فقال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي.

فقال عتبة: ويحك لا يصرفنك عن دينك! فإن دينك خير من دينه. فقال عدّاس: الأنبياء كلهم على دين الله.

ونهى الرسول ﷺ يكمل سيره نازلاً جبال الطائف، وتبعه ابنه زيد، فلما رأى عتبة ذلك قال لأخيه: تعال ننزل إلى مكة، فإننا سنحضر حدثاً لا يجب أن يفوتنا.

وأثناء سير رسول الله ﷺ وزيد، نزل جبريل ﷺ إلى جانبه ملك آخر، قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، هذا ملك الجبال، إن شئت فمره يطبق عليهم الأخشبين.

فقال الرسول ﷺ: بل أصبر، لعل الله يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله.

نزل الرسول ﷺ جبال الطائف مقترباً من مكة، وكان يخشى أن يصل خبر تكذيب الطائف له هناك، فيشمت به الناس، وتزداد أذيتهم له ولأصحابه.

بقيت أمامهم مسيرة ليلة من مكة، وحل الليل، وناما بواد تحت نخلة، وفي جوف الليل نهض رسول الله ﷺ يتلو القرآن ويصلي، فمر به نفر من الجن فاستمعوا لما يقرأ دون علمه، فعلموا أن هذا ما كانوا يبحثون عنه، فتحلقوا حوله يستمعون إلى أن فرغ رسول الله ﷺ من قيامه، فنهضوا يتحاورون فيما بينهم، قالوا: هذا كلام عجب!

قال آخر: إنه يقول أن الله ليس له زوجة ولا أولاد، وليس له شركاء، هذا ليس ما أخبرنا به إبليس.

قال آخر: لقد كان يكذب علينا، لم نكن نتصور أن يكذب أحد على الله.

قال آخر: أيها الجن، هذا نبي، وقد أقفلت السماء بنزول نبي.

قال آخر: نعم إنه نبي، وقد أسلمنا معه، لنخبر الباقين.

وانصرفوا إلى أهلهم من الجن يخبرونهم ما شاهدوا، وأوحى الله

إلى رسوله ﷺ الآيات يخبره ما جرى في عالم الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ

أَسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ
 فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ
 صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَا ظَنَنَّا
 أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ⑤ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ
 يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن
 يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
 وَشُهَبًا ⑧ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ
 شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
 رَشَدًا ⑩ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ⑪ وَأَنَا ظَنَنَّا
 أَن لَّن نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ⑫ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى
 ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ⑬ وَأَنَا مِنَّا
 الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ⑭ وَأَمَّا
 الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ⑮ وَالْوَالِدُ يَسْتَقِيمُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ
 مَاءً عَذَقًا ⑯ لِنُقْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
 صَعَدًا ⑰ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ⑱ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ
 عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ⑲ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا
 أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ⑳ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ㉑ قُلْ إِنِّي لَنْ
 يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ㉒ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ
 وَرِسَالَةً وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا

أَبَدًا ﴿٣١﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ
 عَدَدًا ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقْرَبُٓ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٣٣﴾ عَلِيمٌ
 الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِٗ أَحَدًا ﴿٣٤﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
 يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٣٥﴾ لِيَعْلَمَٓ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ
 رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٣٦﴾ ﴿١﴾.

فكانت الآيات مواساة للرسول ﷺ بتكذيب الإنس له، إلا أنه

قد آمن معه نفر من الجن، وأخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن هؤلاء النفر
 من الجن قد ذهبوا إلى قومهم منذرين: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ
 الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ
 قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
 مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾ يَا قَوْمَنَا
 أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّن
 عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ
 لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنَّا بَقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُجِئَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ
 إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٥﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ
 هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٦﴾

(١) سورة الجن، الآيات ١-٢٨.

فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَعَلَّ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾^(١).

وصل أتباع إبليس يخبرونه بما سمعوا، فقالوا: يا عظيمنا إبليس، لقد وجدناه، إنه رسول من الله نزل بمكة، وإنه يأتيه الوحي من جبريل.

تنهد إبليس ثم حدق بهم يقول: فماذا تفعلون؟
قالوا: نزين الشهوات في أعين أصحابه.
قال: فذاك فافعلوا.

وقف رسول الله ﷺ أمام مكة عند حراء، وإلى جانبه ابنه زيد، قال زيد: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ سيزيدون من أذيتهم لك.
فقال رسول الله ﷺ: يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً.
قال زيد: لا بد أن قريشاً قد علمت بما حصل في الطائف، ألا تطلب الجوار يا رسول الله؟

(١) سورة الأحقاف، الآيات ٢٩-٣٥.

رأى رسول الله ﷺ ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته، ففكر فيمن يطلب الجوار، فأرسل زيدا إلى رجل^(١) من سادات قريش لم يسلم، فقال الرجل لزيد: أنا في جوار قريش. ورفض جوار الرسول ﷺ، فعاد زيد خائبا، فأرسله إلى سهيل بن عمرو، ولكن سهيلاً رفض أيضاً قائلاً: إن قبيلتي لا تجير على القبائل الحليفة.

فعاد زيد خائبا إلى رسول الله ﷺ، أخيراً أرسله إلى المطعم بن عدي، وقد كان ذا شرف ونخوة، فقد نقض الصحيفة المقاطعة الظالمة، وما إن أخبره زيد أن والده رسول الله محمد بن عبد الله يطلب الجوار حتى يدخل مكة، قال: نجير محمداً بدمنا ورجالنا. واستدعى أبناءه فحملوا أسلحتهم ووقفوا عند أركان الكعبة، وركب المطعم ناقته ونادى في قريش: يا معشر قريش، قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم.

فرح زيد بذلك كثيراً، وركض إلى رسول الله ﷺ يخبره، فدخل الرسول ﷺ مكة ووصل إلى الكعبة حيث يحرسه أبناء المطعم، وصلى ركعتين والمطعم وأبناءه يحرسونه بأسلحتهم، فاستوقف أبو سفيان

(١) الرجل هو الأخنس بن سريق، سيذكر في هذا الموضع فقط.

المطعم يسأله : أمجير أم تابع يا مطعم؟

فقال المطعم : بل مجير .

فقال أبو سفيان : أما والله لو قلت تابع لقاتلناك ، أما وقد أجرته

فذاك شأنك .

فقال أبو جهل يُسمع رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرته ،

ولكن لم تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه؟ هذا نبيكم يا عبد مناف .

وضحك أبو جهل ساخراً ، فانزعج عتبة بن ربيعة حيث أن بني

أمية من بني عبد مناف وقال : وما ينكر أن يكون منا نبي وملك؟

فقال رسول الله ﷺ : أما أنت يا عتبة فما حميتَ لله ، وإنما

حميتَ لنفسك ، وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد

حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً ، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا

يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون .

فسكت الجميع ، ودخل رسول الله ﷺ منزله ، تستقبله فاطمة

وأم كلثوم متشوقتين لرؤيته ، تجلسانه وتحضران له الطعام .

عاد رسول الله ﷺ يدعو إلى الله وهو في جوار المطعم بن عدي ،

ولكن قريشاً كانت تشتاط غيظاً ، فكان أبو جهل وأبي بن خلف جالسين

إلى إحدى نواديهم، فذكروا رسول الله ﷺ وما أصاب من جوار المطعم، فقال أبو جهل: في جوار أبي طالب أو جوار المطعم، لقد نفذ صبرنا من محمد ودينه.

قال أبي بن خلف: وهل تقدر على إيذاء محمد؟
قال أبو جهل غاضباً: واللات لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن.
وصل رسول الله ﷺ الكعبة وبدأ يصلي، فرآه كل من في النادي، ولكن الله أعمى بصر أبا جهل عن رؤية الرسول ﷺ، فقال له أصحابه:
يا أبا الحكم، محمد هناك.

فجال حول الكعبة بنظره يرى جميع الناس إلا رسول الله ﷺ، فقال: أين هو؟ أنا لا أراه.

فتأفف أبي بن خلف وقال: بل جبنت يا أبا الحكم، أنا لها.
ونهض أبي بن خلف واتجه إلى رسول الله ﷺ، وأخذ عظاماً بالية، ووقف أمام رسول الله ﷺ وفتت العظام بيده إلى أن تطايرت، ونفخ عليها في وجه الرسول ﷺ وقال: أتزعم يا محمد أن الله يحيي هذا بعدما رم وبلى؟

فأجابه رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هذا، ثم يدخلك الله في النار.

وأوحى الله تعالى إلى رسوله الآيات في أبي جهل وأبي بن خلف:

﴿يَسْ ١﴾ وَالْقُرْءَانَ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِيهِ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠﴾ (١).

﴿أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ٨٠ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣﴾ (٢).

تقرب جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي، يخبره عن الإسلام

(١) سورة يس، الآيات ١-١٠.

(٢) سورة يس، الآيات ٧٧-٨٣.

والنبي، فقلق وزراؤه أن يترك ملكهم المسيحية ويدين بدين جديد.
كتب النجاشي ورقة يقول فيها أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمدًا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه
وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعلها تحت ثيابه عند صدره، فدخل عليه
وزراءه، واجتمعوا وقرروا الوقوف في وجهه، فقال لهم: يا معشر
الحبشة، ألسنتُ أحق الناس بكم؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟

قالوا: خير سيرة.

قال: فما بالكم؟

قالوا: إنك قد فارقت ديننا، وخرجت عليه، وزعمت أن عيسى

عبد.

قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟

قالوا: نقول هو ابن الله.

فوضع النجاشي يده على صدره فوق الورقة التي كتب فيها ما

يؤمن، وقال: وأنا أشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئاً.

وإنما كان يعني الورقة المكتوبة تحت يده، ولكن ذلك لم يخمد

نار الفتنة، وانشق أتباع النجاشي من حوله، واستغل بعض الطامعين في الحكم أمر المسلمين والدين الجديد، وكيف أحبهم النجاشي واعتنى بهم، وسينقلب عن المسيحية، فأرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه وقال لهم: لقد هيأت لكم سفناً للنجاة، اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا. قلق المسلمون على النجاشي قلقاً شديداً، وأشعلت نار الحرب، وانشق عنه جزء من الحاشية، وجرت أحداث المعركة بعيداً عن المسلمين، يفصلهم عنهم ضفة النهر، ونزل على النجاشي رجل ينازعه الملك، وحزن المسلمون المهاجرون حزناً شديداً، فخافوا أن يفوز ذلك الرجل على الملك فيأتي رجل لا يعرف من حقهم ما كان النجاشي يعرف منه.

لم يعرف المسلمون أخبار المعركة، فسألوا: من رجل يخرج حتى يحضر المعركة ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا أفعل. فذهب الزبير يستطلع الأخبار، ووضع قربة ونفخها وسبح إلى الضفة الأخرى، وكان المسلمون يدعون للنجاشي بالفوز على عدوه والتمكين له في بلاده.

انتصر النجاشي على معارضيته، فعاد الزبير يبشر المسلمين: ألا
أبشروا! قد فاز النجاشي وأهلك الله عدوه، ويمكن له في بلاده.
فعمت الفرحة المسلمين، ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه،
فكانوا عنده في خير منزل، وأهدى النجاشي الزبير بن العوام حربة
ثمينة.

ثم اشتاق الزبير بن العوام إلى الرسول ﷺ وأهله في مكة، فحمل
أمتعته وعاد مهاجراً، فاستقبله أهله بسرور، وفرح برؤيته الرسول ﷺ.



٣-هـ | ٦١٩ م

سورة الفرقان، الرحمن، فاطر، مريم، طه،
الواقعة، الشعراء، النمل، القصص

اجتمعت قريش غاضبة من حصانة الرسول ﷺ ودعوته إلى
الإسلام دون أذى، فقال سهيل بن عمرو: إن محمداً يطوف حول
الكعبة، ويصلي، ويُسمع الناس القرآن، فماذا تفعلون؟
قال أمية بن خلف: هل تذهبون إلى المطعم بن عدي تقنعونه أن
يكف جواره؟

قال أبو سفيان بن حرب: ماذا تقولون له؟ هو يعلم تماماً كل ما
يجري.

قال أبو جهل: أقنعنا عمه أبا لهب، أفلا نقنع المطعم؟
قال عتبة بن ربيعة: المطعم مختلف، عليكم بأسلوب مختلف.

قال الوليد بن المغيرة: ألا نستطيع أن نلهي الناس عن الاستماع إلى محمد؟ هو يقص أساطير الأولين، ألا نملك قصصاً أكثر إثارة نسمعها المارة؟

عندها قال سهيل بن عمرو: هذا هو الرأي، عليكم بالنضر بن الحارث^(١)، فقد سافر إلى الشام كثيراً، وتعلم أساطير الفرس والروم، فليسمع الناس تلك القصص الخرافية ويبعد الناس عن محمد.

اتفق الجميع على ذلك، وبعثوا إلى النضر بن الحارث أن يحضر مكة، وطلبوا منه أن يقص القصص كلما حضر رسول الله ﷺ يتلو القرآن عند الكعبة، فكان النضر سعيداً مرحباً بتلك الفكرة، وبات يجلس كلما جلس رسول الله ﷺ عند الكعبة ويبدأ في إلقاء الحكايات الأسطورية، فيتجمع الناس حوله متشوقين لسماع أساطير الفرس والروم، فكان يقول لرسول الله ﷺ حين يتلو القرآن: كُف يا محمد، قد سمعنا ما تقول، ولو نشاء لقلنا مثله، والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها من كتب اليهود كما اكتتبتُ أنا قصص الفرس والروم منهم.

وبعد أن ينهي حكايته عن الروم والفرس يقول: بالله عليكم يا

(١) النضر بن الحارث، له دور بسيط في السيرة.

معشر قريش، أينما أحسن قصصاً أم محمد؟

فيقول أبو جهل: واللات والعزى أنت أفضل قصصاً من رجل يدّعي أنه يأتيه الوحي من السماء.

وقال الوليد بن المغيرة للناس المجتمعة: ما هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ألا يُرسل الله معه ملكاً يسانده؟
وقال أمية بن خلف: لو كان رسول الله حقاً لألقى الله إليه كنزاً أو تكون له جنة يأكل منها.

فقال أبو جهل مستهزئاً: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

ضحك الناس من حول رسول الله ﷺ، وما إن تركهم رسول الله ﷺ على ما هم عليه حتى نزل عليه جبريل ﷺ مواسياً يقول: يا محمد، إن شئت أن نعطيك من خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يُعط نبي قبلك، ولا يُعطى نبي بعدك، ولا يُنقص ذلك مما لك عند الله تعالى.

فأجابه رسول الله ﷺ بصبر: اجمعوها لي في الآخرة.

فأوحى الله إليه الآيات: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ

الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَا لِي هَذَا الرُّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا
وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ
الْأَمْثَلِ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِّنْ
مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا
مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا
كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَدْرَاكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً
وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾
وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي
هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ
وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِيَّاهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾ ﴿١﴾

وأُنزل الآيات: ﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾^(١).

فلما سمعت قريش الآيات أنزلت فيهم سأل سهيل بن عمرو النضر بن الحارث: ما رأيك فيما يقول محمد؟

قال النضر: ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يحرك شفتيه يتكلم بشيء، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنتُ أحدثكم عن القرون الماضية.

فأنزل الله تعالى فيه الآيات: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ^ط وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾﴾^(٢).

تجهز أبي بن خلف للسفر، وذهب إلى منزل صديقه العزيز

(١) سورة الأنفال، الآيات ٣١-٣٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٢٥.

عقبة بن أبي معيط يودعه، تحدثا وتسامرا، ثم انطلق أبي بن خلف بالقافلة.

في تلك الأثناء سمع عقبة بن أبي معيط شيئا من القرآن، فرق قلبه وبات يجلس قريبا من رسول الله ﷺ يسمع القرآن، شعر رسول الله ﷺ أن قلب عقبة قد بدأ يرق، فحدثه عن الإسلام، وبات يجلس إليه أكثر فأكثر.

بعد يومين أعد عقبة بن أبي معيط وليمة لقريش، دعا فيها رسول الله ﷺ، فلما حضر رسول الله ﷺ قال: ما أنا بآكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله.

فقال عقبة بن أبي معيط: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فسُر رسول الله ﷺ وجلس إلى مائدة عقبة إلى جانب رجال قريش، وتناولوا الطعام.

اغتاظت قريش لموقف عقبة، وقد عاد صديقه أبي بن خلف بعد ثلاثة أيام من التجارة، فاتجهوا إليه من فورهم وقالوا له: صبا صديقك عقبة، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في وليمته.

صدم أبي بن خلف، واتجه من فوره إلى منزل صديقه عقبة يسأله: أصبأت؟

فقال عقبة بكل بساطة: لا، ولكن دخل عليّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة.

قال أبي قللاً: أقسمتُ عليك بما بيني وبينك من صداقة، أن تذهب الآن إلى محمد، فتطأ على عنقه وتبصق في وجهه، فإن لم تفعل فما عدتُ صديقاً لك أبداً.

تعجب عقبة من درة فعل صديقه العزيز الذي مشى مبتعداً تاركه وشأنه، فذهب عقبة من فوره إلى رسول الله ﷺ وقد كان ساجداً يصلي عند الكعبة، فداس على رقبتيه، ثم بصق على وجهه كما طلب إليه صديقه، فسرت قريش لما رأته وهتفت باسم عقبة، وفرح به صديقه أبي كثيراً وهتف يقول: هذا هو صديقي يا قريش كما عهدتموه وعرفتموه.

ولما أنهى رسول الله ﷺ الصلاة يلتقط أنفاسه، مسح وجهه وقال: إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك.

فأوحى الله تعالى إلى رسوله الآيات: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ ﴿يَوْمَ لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٦٧﴾ ﴿١﴾.

(١) سورة الفرقان، الآيات ٢٧-٢٩.

ثم اتجه أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ يقول مستهزئاً: إن كنت يا محمد كما تزعم نبياً، فلم يعذبك ربك؟ ألا ينزل عليك هذا القرآن مرة واحدة كاملاً؟ فلا ينزل عليك الآية والآيتين فقط.

فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^(١).

جلس رسول الله ﷺ إلى صحابته يعلمهم ما نزل عليه من سورة الفرقان، ثم سأل عبد الله بن مسعود: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك.

قال عبد الله: ثم أي؟

قال رسول الله ﷺ: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك.

قال: ثم أي؟

قال رسول الله ﷺ: أن تزاني حليلة جارك.

فأنزل الله تعالى الآيات تصديقاَ لذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٢.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾^(١).

فلما وصلت هذه الآيات إلى مسامع أهل مكة، قال سهيل بن عمرو: فما يغني عنا الإسلام إذا وقد عبدنا الآلهة، وقتلنا النفس، وأتينا الفواحش؟

فأنزل الله تعالى الآيات: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢).

وأنزل الله تعالى على رسوله سورة الرحمن، فتلاها على أصحابه وعلمها لهم، ثم تفرقوا.

جلس عبد الله بن مسعود إلى جماعة من أصحابه المسلمين، الذين قالوا: نريد أن نسمع قريشاً القرآن، من رجل يسمعهم؟
كان من المؤكد أن من سيقراً القرآن ستؤذيه قريش أشد إيذاء، خاصة إذا لم تكن هناك قبيلة قوية تمنعه، ولكن عبد الله بن مسعود وقف قائلاً: أنا.

(١) سورة الفرقان، الآيات ٦٨-٦٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

نظر الصحابة إلى عبد الله، الشاب الصغير الضعيف النحيل، إنه مسكين ليس له من يمنعه في قريش، فقالوا: يا عبد الله، أنت ضعيف، ولا عشيرة لك ولا قوم يحمونك.
فقال: يحيمني الله.

وقام عبد الله بن مسعود، وذهب وسط مكة، وجلس يقرأ القرآن بصوت مرتفع وسط الناس: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾^(١).

فزعت قريش، وركضت إلى حيث الصوت، ففوجئوا بالقارئ، فقال بعضهم: من هذا الرجل النحيل؟

قالوا: هذا رجل يتلو كلام محمد!

وكان عبد الله غير معروف في مكة، وليست له عشيرة تمنعه، فاتجهوا إليه من فورهم غاضبين يقولون: هل اجترأ السفهاء علينا؟

فخلعوا نعالهم، وظلوا يضربون بها عبد الله بن مسعود ويبحثون عن وجهه ليصيبوه، وظلوا يضربون ويضربون، حتى جاء الصحابة

(١) سورة الرحمن، الآيات ١-٩.

يخرجونه من بينهم وهو يكاد يموت.

فلما ابتعدوا به عن قريش قالوا: ألم نقل لك؟ نخشى عليك.

فقال والدم يتصبب من رأسه: والله ما هان علي أعداء الإسلام

أكثر من هذا اليوم، والله لأعيدنها غداً.

قالوا له: لا تفعل، ستموت.

ولكنه في اليوم التالي، وعندما اجتمعت أعداد كبيرة من قريش

حول الكعبة، جلس في نفس المكان، وقرأ بصوت مرتفع: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١﴾

عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ

الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا

الْمِيزَانَ ۝٩﴾^(١).

فنظرت قريش إلى القارئ وقالت: هذا العبد يجترئ علينا، والله

لنقتلنه!

فاجتمعوا عليه أشد من السابق، وزادوا في ضربه، فركض

الصحابة إليه يخرجونه من بين أيديهم بصعوبة يكاد يموت، يقولون

له: ألم نقل لك!

(١) سورة الرحمن، الآيات ١-٩.

فيقول مبتسماً: والله لأعبدنَّها غداً.

فبينها الصحابة عن أذية نفسه.

وأُنزل الله تعالى سورة فاطر والواقعة وآيات من سورة مريم تفصل قصتها والنبي عيسى عليه السلام، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام يستمع إلى القصة مفصلة، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام: يا جبريل، ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟

فأنزل الله تعالى الآيات: ﴿وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأَصْطِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٦﴾﴾^(١).

اشترى العاص بن وائل سيفاً من خباب بن الأرت، الأشهر في صناعة السيوف، وترك الثمن ديناً عليه، فأتى الخباب العاص يطلب دينه، فقال العاص بن وائل: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقال الخباب: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تُبعث.

(١) سورة مريم، الآيات ٦٤-٦٥.

فقال العاص بن وائل: يا خباب، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم أو أولاد؟
قال الخباب: بلى.

فابتسم العاص وقال: فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار، فأفضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله مني ولا أعظم حظاً في ذلك، واني لأقسم أنه لا بعث بعد الموت.

وغادر ساخراً دون أن يدفع النقود، فأعلم الله تعالى رسوله ﷺ ما حصل، وأوحى إليه الآيات: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ أَظَلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أُنْخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ كَلَّا ۗ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۗ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۗ﴾^(١).

ونزلت الآية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(١) سورة مريم، الآيات ٧٧-٨٠.

(٢) سورة النحل، الآية ٣٨.

علم العاص بن وائل بنزول آيات تتحدث عنه، فهرع إلى نوادي قريش يقول: أرايتم محمداً يتحدث عنا في شعره، إنه يهجوننا وأنتم صامتون.

انزعج الجالسون، وهتفوا قائلين: صدقت، إنه يسب آلهتنا ويسفه آباءنا ونحن جالسون نتسامر.

وقرروا أن يسيروا في مكة ينادون في الحرم: محمد صابئ، كاهن ساحر، لا تصغوا إليه يا معشر قريش!

فسار رسول الله ﷺ في مكة، وظل الرجال يقولون خلفه: ساحر، كاذب، كاهن، لا يصغ إليه أحد.

فحزن رسول الله ﷺ لذلك، فإذا بجبريل عليه السلام ينزل عليه بما يطمئن فؤاده من ربه، فقص عليه من قصة موسى عليه السلام وفرعون، ليتأسى بها من أذى قريش، فكانت سورة طه، كما أوحى الله إلى رسوله سورتي الشعراء والنمل، تتحدثان عن الأنبياء وما لقوا من تكذيب قبائلهم، وقصة نبي الله سليمان، تسليية للرسول ﷺ مما يواجهه من تكذيب قريش.

جلس رسول الله ﷺ إلى رجل من قريش يحدثه عن الإسلام

والقرآن، وبعد أن أنهى رسول الله ﷺ كلامه قال الرجل: إنا لنعلم أن ما تقول هو الحق، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا وتخرجنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم.

فأوحى الله تعالى إلى رسوله سورة القصص، وفيها: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبَىٰ إِلَيْهِ فَتَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) (١).

نزل الراهب أمية بن أبي الصلت الطائف إلى مكة لقضاء بعض تجارته، استقبله صديقه الحميم أبو سفيان، وجلسا معاً يتحدثان عن التجارة، ثم عن الرسول ﷺ، فعلم سادة قريش بوجوده بينهم، فدخلوا عليه في دار أبي سفيان يقولون: أيها الراهب أمية، ألم تسمع برسول يظهر في مكة؟

تنهد أمية بن أبي الصلت حيث يعلم يقيناً أن الرسول ﷺ حق، ولكنه لا يريد أن يعلم الناس بذلك، فقال: سمعتُ عنه، ولم أسمع برسول يخرج من مكة في كتب الأولين.

(١) سورة القصص، الآية ٥٧.

حدّق به أبو سفيان، حيث يعلم يقيناً أن أمية بن أبي الصلت كان يتمنى أن يكون هو ذلك النبي، ولكن قريشاً كانت سعيدة بإجابته، فقالوا له: نريدك أن تحاجّ لنا في محمد، اجلس إليه، وأخبر قريشاً أنه ساحر كاذب.

خرج أمية بن أبي الصلت قائلاً: أين محمد؟

قالوا: عند الكعبة، يجلس إلى أبي بكر.

قدم أمية بن أبي الصلت إلى حيث رسول الله ﷺ، وجلس إليه

قائلاً: يا ابن عبد المطلب، ما هذا الذي تقول؟

فقال رسول الله ﷺ: أقول إني رسول الله وأن لا إله إلا هو.

قال أمية بن أبي الصلت: إني أريد أن أكلمك، فعدني غداً.

قال رسول الله ﷺ: فموعدك غداً.

قال أمية: فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي،

وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك؟

فقال رسول الله ﷺ: أي ذلك شئت.

نظر أمية إلى قريش حوله فقال: فإني آتيك في جماعة، فأت في

جماعة.

وافق رسول الله ﷺ، فلما كان الغد جاء أمية في جماعة من

قريش، وجاء رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة، فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر، حتى إذا فرغ قال: أجبني يا ابن عبد المطلب.

فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يس﴾ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْتَقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَيْنَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢ ...

... أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ١٣ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ١٤ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾^(١).

وثب أمية بن أبي الصلت هارباً يجر رجله من هول ما سمع،

(١) سورة يس، الآيات ١-٨٣.

فتبعته جماعته من قريش يقولون: ما تقول يا أمية؟ لماذا تهرب؟

قال: أشهد أنه على الحق.

قالوا: هل تتبعه؟

قال: حتى أنظر في أمره.

ودخل منزل أبي سفيان مسرعاً يحضّر دابته ليخرج بها إلى

الشام، فسأله أبو سفيان: لقد هال قريشاً ما فعلت، لماذا تهرب؟

قال أمية: والله إنه الحق، إنه رسول الله وآخر الرسل، ولن

أؤمن به ولن أتبعه ما حييت.

قال أبو سفيان: جاءتك قريش لتدعمها، وها أنت تقول أنه

الحق وتفر منه!

قال أمية: أما إنني لستُ رسول الله، فلن أؤمن به، فلتفعل

قريش ما يبدو لها.

وحزم أمتعته وغادر إلى الشام مسرعاً.

وممن كان مسافراً إلى الشام أيضاً عتبة بن أبي لهب، كان عليه

أن يسافر إلى الشام لتتنعش تجارته، وقد كان أبو لهب ما يزال خائفاً

عليه من دعوة محمد ﷺ، فقال له: إلزمني، ولا تجلس وحدك، وكن

دائماً مع الجماعة، ولا تغب عنهم، ولا تشغل نفسك بشيء غير
التجارة، وعد فور انتهائك.

خرج عتبة بن أبي لهب في القافلة إلى جانب أبيه، وعندما حل
المساء طلب أبو لهب إلى رجال القافلة أن يناموا حول عتبة لحمايته من
أي سوء، ولما اطمأن أبو لهب وعتبة إلى الرجال حولهما ناما.

وفي الليل هجم أسد على عتبة بن أبي لهب، التقمه منهم وهم
نائمون، فما علموا بأمره إلا في الصباح الباكر عندما استيقظوا ورأوا
آثاراً من ثيابه ودمائه، فصرخ أبو لهب: دعوة محمد! دعوة محمد
أخذت ابني! سحرك محمد يا عتبة! عليك بالساحر أيتها الآلهة،
عليك بهذا الساحر المجنون!

في يثرب، كانت الأوضاع قد هدأت، والحرب الأهلية قد
انطوت، وبدأ الناس يفكرون في طريقة تحميهم من حروب قادمة، فقد
قُتل السادة والشرفاء من الطرفين، وفقدوا جيلاً كان يحمل الحكمة
والموعظة.

اتجهت أعين الناس إلى عبد الله بن أبي بن سلول، فقد كان
شريفاً في الخزرج، وقد وقف ضدهم في حرب ظالمة على الأوس

واليهود، وهو من خيرة السادة، ومن جيل حكيم، فقرروا أن يستشيروا طرفي الأوس والخزرج في تملكه عليهم، حتى ينصف بينهم ويمنع الحروب.

فرح عبد الله بن أبي بن سلول بهذه الفرصة، أن يكون ملكاً على الأوس والخزرج جميعاً، واجتمع الجميع من الطرفين، وقبلوا به ملكاً عليهم جميعاً، وبدأوا يجهزن له مراسم التنصيب.

وكان هناك رجلان^(١) من الخزرج قد غادرا يثرب إلى مكة للاعتماد، فلما اقتربا من الكعبة رأيا رسول الله ﷺ تحت شجرة، فقال أحدهما للآخر: نأتي هذا الرجل نستودعه راحلتينا حتى نطوف بالبيت.

اقتربا وسلما عليه قائلين: عمت مساء يا أبا العرب.

فرد عليهم رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، وكانا قد سمعا عن نبي في مكة، ولكنهما تجاهلا الأمر، فقال أحدهما: من أنت؟ قال رسول الله ﷺ: انزلوا.

فنزلا عن راحلتيهما وأحسا فيه الوقار، فسألا: أين هذا الرجل الذي يدعي ما يدعي، ويقول ما يقول؟

(١) الرجلان هما رافع بن مالك ومعاذ بن عفراء، سيذكران في هذا الموضوع فقط.

قال: أنا هو.

قالا: فاعرض علينا الإسلام.

فقال لهما: من خلق السماوات والأرض والجبال؟

قالا: خلقهن الله.

قال: من خلقكم؟

قالا: الله.

قال: فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون؟

قالا: نحن.

قال: الخالق أحق بالعبادة أو المخلوق؟

قالا: الخالق.

قال: فأنتم أحق أن تعبدكم، وأنتم عملتموها، والله أحق أن

تعبدوه من شيء عملتموه، وأنا أدعو إلى عبادة الله وشهادة أن لا إله إلا

الله وأني رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، وإن غضب الناس.

قالا: والله لو كان هذا الذي تدعو إليه باطلاً لكان من معالي

الأمور ومحاسن الأخلاق، فأمسك راحلتينا حتى نطوف بالبيت.

فجلس إلى رسول الله ﷺ أحدهما، وذهب الآخر إلى الكعبة،

طاف حولها، وأخرج سبع أقداح من أعواد الخشب يستفتي نفسه،

وكتب على قدح محمد واستقبل الكعبة، وقال: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قدحه.

فسحب قدحاً للمرة الأولى، فكان اسم محمد مكتوباً عليه، أعاده وعاود الكرة سبع مرات، فكان في كل مرة يخرج فيها القدح الذي كتب عليه اسم محمد، فصاح: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله! فاجتمع الناس حوله يقولون: مجنون، رجل صباً. فقال: بل رجل مؤمن.

ثم عاد يركض إلى الرسول ﷺ، فلما رآه صاحبه قال: لقد جننت بوجه ما ذهبت به.

فقال: جننتُ وقد آمنتُ.

فعلّمهما رسول الله ﷺ سورة يوسف والعلق، ثم خرجا راجعين إلى يثرب.



٢- هـ | ٦٢٠ م

الإسراء والمعراج

مرت سنوات على دعوة رسول الله ﷺ الناس للإسلام في مكة، ولم يؤمن إلا ما يقارب السبعين، وبات الإعراض عن الدعوة ثقيلًا على رسول الله ﷺ، وما عاد يلاقي الدعم الذي كان يلاقيه من زوجته السيدة خديجة وعمه أبي طالب، ولم يستقبل دعوته أناس من خارج مكة أيضاً، ومع ذلك كان ما يزال يحاول في مكة وعلى أطرافها وفي مواسم الحج، ويعلم المسلمين ما يتنزل عليه من القرآن ومن أمر دينهم. بدا الإرهاق بادياً على رسول الله ﷺ، وزار ابنة عمه أم هانئ بنت أبي طالب^(١) في منزلها، فحزنت لحاله، تتذكر دعم والدها له، فأجلسته عندها، وقدمت له الطعام، ثم حضرت له فراشاً ينام ليلته عندها.

(١) أم هانئ بنت أبي طالب، ابنة عم رسول الله ﷺ، لم تكن آمنت بعد، سيذكر اسمها في هذا الموضع فقط.

حل المساء، فصلى رسول الله ﷺ ثم نام على فراش أعدته له أم هانئ في منزلها، ونام من في المنزل.

في تلك الليلة حضر جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وهو نائم، فدفعه برفق ليوقظه، فاستيقظ رسول الله ﷺ وجلس ولم ير شيئاً، فعاد إلى فراشه، فدفعه جبريل عليه السلام ثانية، فجلس رسول الله ﷺ ورأى جبريل الذي أخذ بذراع رسول الله ﷺ فقام معه، وخرجا من منزل أم هانئ إلى الكعبة، وقام جبريل عليه السلام بشق صدر رسول الله ﷺ واستخرج قلبه، وجاء بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبه ثم أعاده إلى مكانه.

ثم حضرت دابة شديدة البياض، تشبه ما بين البغل والحمار، في فخذه جناحان، فسأل رسول الله ﷺ عنها، فقال جبريل عليه السلام: هذا البراق، الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء من قبلك، اركب عليها يا محمد.

اقترب رسول الله ﷺ من البراق، ولكنه امتنع عنه، فوضع جبريل يده على عرف البراق بحزم وقال: ألا تستحي يا براق مما تصنع؟ فوالله ما ركب عبد الله قبل محمد أكرم عليه منه.

فتعرق البراق خوفاً، ثم انحنى حتى ركب رسول الله ﷺ،

فطار به سريعاً، وطار جبريل عليه السلام إلى جانبهما، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات الله بين السماء والأرض.

وفي الطريق، مروا على قافلة كانت البعير فيها قد فزعت من حس البراق، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيراً يمشي وحده مبتعداً عن القوم، وبدأ القوم يبحثون عن بعيرهم الضائع، فناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً لهم مكان البعير، فسمعوا الصوت من السماء دون أن يروا البراق، فذهبوا إلى المكان الموصوف، ووجدوا بعيرهم هناك!

ثم وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام بيت المقدس في الشام، فربط رسول الله صلى الله عليه وسلم البراق بحلقة كانت تربط بها الأنبياء من قبله، ثم أتى المعراج، فأصعد جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه حتى وصلا باباً من أبواب السماء، فقال جبريل عليه السلام: هذا باب الحفظة، عليه ملك اسمه إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك، وتحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

فلما وقف جبريل عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وسلم على الباب، قال الملك إسماعيل: من هو هذا يا جبريل؟

قال جبريل عليه السلام: هذا محمد.

فقال: أوقد بُعث؟

قال جبريل ﷺ : نعم.

فقال : حياه الله من أخ وصاحب ، ما أمرت أن أفتح لغيره ، وفقه الله وسدد خطاه وأعانه على ما يلقيه ، وأهلاً وسهلاً بخير من وطأت قدمه الأرض ، تفضل .

وفتح له باب السماء الدنيا ، فقابل رسول الله ﷺ الكثير من الملائكة ، فلم يلقه ملك إلا ضاحكاً مستبشراً ، يقول خيراً ويدعو به ، إلا ملك واحد ، لم يضحك ولم يظهر علامات البشر على وجهه ، ولكنه دعا لرسول الله ﷺ وقال له خيراً ، فسأل رسول الله ﷺ جبريل : يا جبريل ، من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك؟ ولم أر منه البشر مثل الذي رأيت منهم؟

قال جبريل ﷺ : أما إنه لو ضحك إلى أحد كان قبل ، أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك خازن النار .

فقال رسول الله ﷺ لجبريل ﷺ : ألا تأمره أن يريني النار؟

فقال جبريل ﷺ : بلى ، يا مالك ، أر محمداً النار .

فكشف مالك عنها غطاءها ، ففارت وارتفعت وشملت المكان

كله ، ففزع رسول الله ﷺ من هولها وقال لجبريل ﷺ : يا جبريل ،

مره فليردها إلى مكانها.

فقال جبريل ﷺ: يا مالك، ردها إلى مكانها.

فقال مالك للنار: اخبي.

فرجعت النار إلى مكانها الذي خرجت منه على الفور، ورد

عليها غطاءها.

كانت السماء الدنيا هي أول السماوات، ولقي رسول الله ﷺ بها رجلاً شديداً الطول، أسمر، جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم عن يمين وشمال، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه بابتسامة: روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويتأفف لأخرى ويقول عابساً: أف، روح خبيثة خرجت من جسد خبيث.

فسأل رسول الله ﷺ: من هذا يا جبريل؟

قال جبريل ﷺ: هذا أبوك آدم، تعرض عليه أرواح ذريته، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها وقال روح طيبة خرجت من جسد طيب، وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها وكرهها وساءه ذلك، وقال روح خبيثة خرجت من جسد خبيث، من على يمينه أهل الجنة، ومن على شماله أهل النار، سلم عليه.

فسلم عليه رسول الله ﷺ فردّ آدم السلام وقال: مرحباً بالابن
الصالح والنبى الصالح.

ثم أصد جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ إلى السماء الثانية، فاستأذن
ملكها ودخلا، فلقي رسول الله ﷺ ابنا الخالة عيسى بن مريم ويحيى
بن زكريا عليه السلام يقولان: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.
فجلس إليهما وتحدث معهما.

كان عيسى بن مريم عليه السلام أحمر، ليس بالطويل ولا بالقصير،
كثير الشامات، كأن شعره مبلل وليس به ماء.

ثم صعد إلى السماء الثالثة، فوجد فيها رجلاً من أجمل الرجال،
وجهه كالقمر ليلة البدر، وكأنه أوتي نصف جمال البشرية، سأل
رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام: من هذا يا جبريل؟
فقال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب.

ثم صعدا إلى السماء الرابعة، فإذا فيها نبى الله إدريس عليه السلام.

ثم صعدا إلى السماء الخامسة، فإذا فيها كهل أبيض الرأس
واللحية، طويل اللحية، كان جميلاً وجليلاً، سأل رسول الله ﷺ : من
هذا يا جبريل؟

فقال جبريل ﷺ : هذا المحبب في قومه هارون بن عمران.

ثم صعدا إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل أسمر، طويل،
أقنى الأنف^(١)، فسأل رسول الله ﷺ : من هذا يا جبريل؟

قال جبريل ﷺ : هذا اخوك موسى بن عمران.

فجلس رسول الله ﷺ إليه يتحدثان.

ثم صعد مع جبريل ﷺ إلى السماء السابعة، فإذا كهل يشبه
الرسول ﷺ كثيراً، يجلس إلى باب كعبة أهل السماء، يدخله
الملائكة، فسأل رسول الله ﷺ : من هذا يا جبريل؟

فقال : هذا أبوك إبراهيم، يجلس إلى باب البيت المعمور، كعبة
أهل السماء التي تقع فوق كعبة أهل الأرض، يدخله كل يوم سبعون
ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة.

(١) الأقنى من الأنوف هو الذي ارتفع أعلاه واحدودب وسطه وضاق منخراه.

نظر رسول الله ﷺ حوله، فكانت السماء مكتظة بالملائكة،
ليس فيها شبر إلا فيها ملك، ثم جلس إلى رسول الله إبراهيم عليه السلام،
سلم عليه فسأل إبراهيم: يا جبريل، من هذا معك؟
فقال جبريل: محمد.

فرحب إبراهيم برسول الله ﷺ ثم قال: مُر أمتك فلتكثر من
غراس الجنة، فإن تربتها طيبة، وأرضها واسعة.
فسأل الرسول: وما غراس الجنة؟
قال إبراهيم: لا حول ولا قوة إلا بالله.

تحدثنا إلى أن أخبر جبريل عليه السلام رسول الله أن عليهما أن يصعدا
إلى ما فوق السماء السابعة.

ودع رسول الله ﷺ أباه رسول الله إبراهيم عليه السلام سعيداً بلقائه
ولقاء كل الأنبياء، ثم صعد مع جبريل عليه السلام إلى أطراف السماء السابعة،
وكانت هناك شجرة وارفة جميلة، إنها شجرة سدر، اقتربا منها
وتصور جبريل في صورته الملائكية، وقد كانت هذه ثاني مرة يراه
الرسول ﷺ في هذه الصورة، ذا ستمئة جناح ما بين كل جناحين كما
بين السماء والأرض، فقال جبريل لرسول الله ﷺ: هذه سدرة

المنتهى، المكان الذي لم يصل إليه بشر.

كانت شجرة جميلة كبيرة، وهناك أربعة أنهار تحتها، نهران

ظاهران ونهران باطنان، فسأل رسول الله ﷺ: ما هذان يا جبريل؟

فقال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل

والفرات.

ثم أتى لرسول الله ﷺ بثلاث آنيات، إناء فيه لبن، وإناء في

خمر، وإناء فيه ماء، ووقف جبريل ﷺ إلى جانبه يقول: اختر

لنفسك وأمتك.

فسمع رسول الله ﷺ صوتاً يقول له: إن أخذ الماء غرق وغرقت

أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هدي وهديت

أمته.

فاختار رسول الله ﷺ اللبن، فشرب منه، فقال له جبريل ﷺ:

هي الفطرة، هديت وهديت أمتك يا محمد.

تقدما أكثر، فتوقف جبريل ﷺ وقال: هذا المكان ما وصل إليه

بشر ولا ملك غيري.

نظر رسول الله ﷺ إلى جبريل ﷺ واقفاً خائفاً من التقدم أكثر،

فسأله لماذا لا يتحرك، فقال جبريل ﷺ: يا محمد، تقدم وحدك،

فوالله لو تقدمت خطوة لاحترقت.

فتقدم رسول الله ﷺ وحده إلى مكان لم يصل إليه بشر ولا ملك من قبل، تكريماً له على سائر الخلق، فوصل إلى جانب سدرة المنتهى، فكانت أوراقها كآذان الفيلة، وثمارها كالأباريق الكبيرة، وإذا بنور ساطع لم ير مثله من قبل يغطي الشجرة، فكان من نور الله، فتغيرت السدرة، وصار حواليتها فراش من ذهب، فصارت من الحسن والجمال ما لا يستطيع بشر أن يصفه.

في هذا الموطن الرفيع والمكان السامي، سمع رسول الله ﷺ ربه يتحدث إليه مباشرة، ليس بينهما وحي، فأمره الله تعالى أن يفرض على أمته الصلاة، فكانت الفرض الوحيد المباشر من الله تعالى دون وحي، وقد فرض على أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة.

انتهى اللقاء، وعاد رسول الله ﷺ أدراجه فرحاً بكل هذا التشريف، ونزل السماوات إلى أن وصل موسى ﷺ، تحدث إليه عما رأى، فسأله موسى ﷺ: بما أمرك ربك في هذا المقام الشريف؟ فقال رسول الله ﷺ: خمسين صلاة في اليوم والليلة.

فقال موسى ﷺ: والله لقد سألت بني إسرائيل أقل من ذلك فما

استطاعوا، ارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عن أمتك.

فكر رسول الله ﷺ في الأمر، ورجى أن يخفف الله عن أمته،
فرجع إلى سدرة المنتهى، وسأل الله أن يخفف عن أمته من هذا الأمر،
فاستجاب الله لرجائه، وأسقط عنه عشراً، فصارت أربعين ركعة في
اليوم واللييلة.

فرح رسول الله ﷺ، وعاد ينزل السماوات إلى أن وصل موسى ﷺ،
فسأله: هل خفف ربك عن أمتك؟

فأخبره رسول الله ﷺ أنها صارت أربعين ركعة في اليوم
واللييلة، ولكن موسى ﷺ قال: والله لقد سألتُ بني إسرائيل أقل من
ذلك فما استطاعوا، ارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عن أمتك.

فكر رسول الله ﷺ في الأمر، ورجى من الله أن يخفف عن أمته،
فاستجاب ربه لرجائه وأسقط عشراً عن أمته، فصارت ثلاثين، ولكن
موسى ﷺ أقنع رسول الله ﷺ أن يرجو التخفيف ثانية، قائلاً: إن
الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف
عني وعن أمتك.

فعاد رسول الله ﷺ فخفف الله عن أمته عشراً، فصارت عشرين
ركعة في اليوم واللييلة.

ولكن موسى ﷺ أخبر رسول الله ﷺ أن عشرين ركعة ما تزال ثقيلة على أمتك، وعاد رسول الله ﷺ فخفف الله عنه عشراً أخرى، وباتت عشراً، وما يزال موسى ﷺ يطلب إلى رسول الله ﷺ أن يرجو التخفيف عن أمته، فعاد رسول الله ﷺ إلى مناجاة ربه، فخفف الله عنه خمساً، فكانت خمس صلوات في اليوم والليلة.

هنا عاد رسول الله ﷺ إلى موسى ﷺ، الذي طلب إليه أن يعود ليخفف عن أمته قائلاً: لقد سألتُ بني إسرائيل أقل من ذلك فما صبروا.

فقال رسول الله ﷺ: قد استحييتُ من كثرة مراجعة ربي. فناداه الله عز وجل، هي خمس وهي خمسون، الحسنه بعشر أمثالها.

فتفضّل الله تعالى على أمة محمد ﷺ بالتخفيف والأجر الوفير.

نزل رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ونزل معه كل الأنبياء من السماوات واحداً تلو الآخر، فكان المسجد ممتلئاً عن آخره، فقال جبريل ﷺ: هؤلاء هم إخوانك الأنبياء من قبلك يا محمد، جاؤوا لتصلي بهم في بيت المقدس.

فصلى رسول الله ﷺ بهم جميعاً، وبعد أن انتهى من الصلاة
ركب البراق عائداً إلى مكة.

مر رسول الله ﷺ بذات القافلة التي رآها عند ذهابه إلى بيت
المقدس تستريح في الطريق، وقد وضعوا ماء لهم في جرة وغطوها
ليناموا، وكان رسول الله ﷺ عطشاً، فشرب من ماء الجرة، فأصبحوا
وقد فرغت الجرة من الماء!

وصل رسول الله ﷺ مكة قبل أن يطلع الفجر، وأنزله البراق مع
جبريل عليه السلام عند الكعبة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين، وشكر الله على
تكريمه وفضله، وشرح من صدره وأزال من همه وتعبه.

كانت أم هانئ تبحث عن رسول الله ﷺ حيث كان فراشه ما
يزال دافئاً وهو ليس فيه، فقلقت عليه من قريش، فبعثت إلى إخوانها
وأقربائها يبحثون عن رسول الله ﷺ، فنهض العباس بن عبد المطلب
فزعاً خائفاً على ابن أخيه جداً، ونزل عند الكعبة، وصرخ بصوته
الجهوري المرتفع: يا محمد! يا محمد!

فأجابه رسول الله ﷺ: لبيك لبيك.

فرح العباس عندما لقي ابن أخيه سالماً معافى، فاقترب منه
قائلاً: يا ابن أخي، أقلقتنا عليك، أين كنت؟

فأجابه رسول الله ﷺ: ذهبت إلى بيت المقدس.

جفل العباس، صمت قليلاً ثم سأل: من ليلتك؟

قال رسول الله ﷺ: نعم.

فقال العباس: هل أصابك إلا خير؟

فقال رسول الله ﷺ: ما أصابني إلا خير.

صمت العباس وقد امتلاً دهشاً وأسفاً، فما كان يظن أن يصل ابن
أخيه في دعواه إلى أن يقول أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في ليلة!
فقال: يا ابن أخي، هيا نعد إلى ابنة عمك أم هانئ، فهي قلقة عليك
جداً.

سارا صامتتين في ظلام الفجر حتى بلغا دار أم هانئ، فدخل
رسول الله ﷺ، فلما رآته هرعت إليه تقول: يا ابن العم، أين ذهبت؟
فوالله لقد قلقْتُ عليك قريشاً.

فأجابها رسول الله ﷺ: يا أم هانئ، لقد صليتُ معكم العشاء
الآخرة كما رأيتُ هذا الوادي، ثم جنّتُ بيت المقدس، فصليتُ فيه ثم
قد صليتُ صلاة الغداة معكم الآن كما ترين.

جفلت أم هانئ، ثم قام رسول الله ﷺ ليخرج، فأخذت بطرف ردائه فتكشفت عن بطنه من شدة جذبها، فقالت له: يا ابن عمي، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك.

فقال: والله لأحدثنهموه.

وخرج رسول الله ﷺ متجهاً إلى الكعبة حيث يجتمع الناس منذ الصباح الباكر، ومن شدة قلق أم هانئ بعثت خلفه جارية لها لتخبرها ما سيجري قائلة: ويحك، اتبعي ابن عمي حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له.

سار رسول الله ﷺ إلى الكعبة وهو يعلم تماماً أن أم هانئ على حق، وأن قومه سيكذبونه، فجلس عند الكعبة يفكر ويسترجع ما حدث معه إلى أن طلع الصبح، فكان أول من مر به ولاحظ الإطراق في وجهه أبو جهل، شعر أن حدثاً قد حصل، فسأله: أحدث شيء؟

قال رسول الله ﷺ: نعم.

قال: ماذا؟

قال: أسري بي الليلة.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

حافظ أبو جهل على تعابيره هادئة، وقال: ثم أصبحتَ بيننا؟

قال: نعم.

ففرح أبو جهل، وحافظ على هدوء تعابيره وقال: رأيتَ إن

جمعتُ قومك، هل تحدثهم بما حدثتني به الآن؟

فقال رسول الله ﷺ: نعم.

فانطلق أبو جهل من فوره يركض حول الكعبة ينادي: يا معشر

قريش! يا معشر قريش!

فاجتمعت كل القبائل حوله، فنظر أبو جهل إلى رسول الله ﷺ

وقال: حدث قومك بما حدثتني به.

فقال رسول الله ﷺ في ثبات: إني أسري بي الليلة.

فنظر الناس إلى بعضهم وسألوه: إلى أين؟

فقال: إلى بيت المقدس.

فقال أبو جهل سعيداً ضاحكاً: ظهر كذب محمد، اسمعوا منه

يدّعي أنه يذهب إلى بيت المقدس ويرجع في ليلة، ونحن نصلها بشق

الأنفس ونعود في شهر.

فسألوه ثانية، فأكد لهم أنه ذهب إلى هناك في ليلة.

في هذه اللحظة، ثار الناس ضاحكين مصفقين ومصفرين، وطار الخبر بمكة، تأثر حتى المسلمون فكان الأمر فوق التصديق، كيف لهم أن يتصوروا أمراً كهذا يحدث في ليلة! هذا كذب واضح للجميع.

أسرع أحدهم إلى أبي بكر، فالجميع يكذبون رسول الله ﷺ من كافر ومسلم، وأمر الدين الجديد بات في شدة شديدة، فاتجهوا إلى متجر أبي بكر حيث كان ما يزال يرتب الثياب قبل أن يبدأ البيع، فقالوا له: يا أبا بكر، إالحق ماذا يقول صاحبك، يقول أنه ذهب إلى القدس ثم نزل في نفس الليلة وعاد وفراشه دافئ.

لم يتأثر أبو بكر بأقوالهم، وتابع ترتيب الثياب وسأل ببساطة: أوقد قال؟

قالوا ضاحكين: نعم!

فقال ببساطة: إن كان قد قال ذلك فقد صدق.

جفل الرجال، لم يصدقوا رد أبي بكر! فقالوا: أتصدقه في هذا؟ وضع أبو بكر الثياب جانباً ونظر إليهم يقول: إنني أصدقه في أبعد من هذا، إنني أصدقه أن خبر الوحي يأتيه من السماء في عشية وضحاها، أفلا أصدقه في أنه انتقل إلى المسجد؟ والله هذه أصعب من هذه.

نظر الرجال إلى بعضهم لا يصدقون، فأغلق أبو بكر متجره
وقال: انطلقوا بي إليه.

وصل أبو بكر الكعبة حيث يقف رسول الله والناس حوله
يكذبونه، الجميع ينظرون إلى بعضهم ويتهايمون فيما يسمعون، لا
يصدقون أكبر كذبة كان من الممكن أن يأتي بها محمد ﷺ! حتى
الصحابة سكتوا لا يعلمون ما يقولون أو يفعلون، أو كيف يردون.
سمع أبو بكر الوليد بن المغيرة سعيداً ساخراً يقول لرسول
الله ﷺ: إن أمرك قبل اليوم كان يسيراً، أما هذا فهو أمر عظيم، إننا
نركب الإبل إلى بيت المقدس شهراً، أتزعم أنك أتيت في ليلة واحدة؟
واللات والعزى لا نصدق قولك قط.

فسمع الناس صوت أبي بكر يقول: يا قوم! بنس ما تقولون.
سكتت الأصوات، واقترب أبو بكر من الرسول ﷺ فأفسح له
الناس في انتظار أهم من يتبع الرسول ﷺ على ما جاء به، إذا كذب
أبو بكر الرسول ﷺ، وهو ما يتوقعه الجميع، فإن الدين قد انتهى.
جلس أبو بكر بهدوء إلى رسول الله ﷺ وقال أمام الجميع: يا
رسول الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟

قال رسول الله ﷺ : نعم.

فقال أبو بكر بهدوء: صدقت.

تعجب الناس! كيف له أن يصدق ما لا يُصدق بهذه الطريقة؟

فقال عتبة بن ربيعة لأبي بكر: هل جننتَ يا أبا بكر، هذا كذب

واضح!

فنظر أبو بكر إليه بهدوء وقال: أنا أصدقه بأكبر من ذلك،

أصدقه أن الوحي ينزل عليه في لحظات، ألا أصدقه في زهاب إلى بيت

المقدس في ليلة؟

ثم قال لرسول الله ﷺ حتى يسمع الناس من حولهم: يا رسول

الله، نحن نعلم أنك لم تر بيت المقدس من قبل، ونحن نعرف بيت

المقدس، فإن كنتَ زرتَ بيت المقدس فصفه لنا.

فنظر الناس إلى بعضهم وقالوا: أجل يا محمد، صفه لنا.

فبدأ الناس يركزون فيما يقول رسول الله ﷺ، وأخذ رسول

الله ﷺ يصف بيت المقدس، وبدأت قريش تسأله عن التفاصيل

الصغيرة، عدد الأعمدة والشبابيك وغيرها، فأوحى الله إلى رسوله ﷺ

فرفع بيت المقدس أمامه ينظر إليه ويصفه لهم بالتحديد، يراه ولا يراه

أحد غيره، فعجبوا لدقة ما يقول! وكان كلما قال وصفاً مطابقاً لوصف

بيت المقدس قال أبو بكر: صدقتَ، أشهد أنك رسول الله.

فلما انتهى رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق.

كان الوصف دقيقاً، ومع ذلك قال أبو جهل: أعطنا دليلاً

لنصدقك يا محمد، فإننا لم نسمع بمثل ما جئتَ به قط.

فقال لهم رسول الله ﷺ: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان

بوادي كذا وكذا، فأنفرهم^(١) حس الدابة، فندّ^(٢) لهم بعير فدللتهم

عليه وأنا موجه إلى الشام، ثم أقبلتُ حتى إذا كنت بضجنان^(٣) مررت

بعير بني فلان فوجدتُ القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه

بشيء، فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه، ثم غطيتُ عليه كما كان، وآية

ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنية التنعيم^(٤)، يقدمها جمل

أورق^(٥)، عليه غارتان^(٦)، إحداهما سوداء والأخرى برقاء^(٧).

فسألوه: ومتى نتوقع قدوم القافلة؟

(١) أنفرهم يعني تفرقت دوابهم.

(٢) ندّ يعني شرذ.

(٣) ضجنان اسم جبل قرب مكة.

(٤) من البيضاء ثنية التنعيم يعني في وقت الفجر تسير في الطريق في جبل اسمه التنعيم.

(٥) أورق يعني رمادي اللون.

(٦) غارتان هي مثنى غرة على مقدمة الوجه.

(٧) برقاء يعني مختلط السواد والبياض.

فأجابهم أنها تصل في ثلاثة أيام.

فقرروا انتظار القافلة ليتبينوا الحقيقة، وأوحى الله تعالى إلى

رسوله سورة الإسراء، وآيات من سورة النجم: ﴿وَاللَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ أَفَرَعَيْتُمْ أَلَّذِي أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِذَا يَدْعُوهُ ۝١٩ أَفَلَا تَتَذَكَّرُ ۝٢٠ أَلَمْ نَكُ خَلْقًا ضَالِّينَ ۝٢١ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۝٢٢﴾^(١).

وبتصديق أبي بكر لرسول الله ﷺ ثبت الكثير من الصحابة على

الإسلام، وارتد منهم القليل.

(١) سورة النجم، الآيات ١-٢٣. صاحبكم هو الرسول، شديد القوى هو جبريل.

في اليوم التالي أتى جبريل ﷺ رسول الله ﷺ، فصلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر، وكانت قبلته بيت المقدس. ثم في اليوم التالي جاءه ثانية، فصلى به الظهر حين كان ظله مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول، ثم صلى به الصبح مسفراً غير مشرق، ثم قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس. وهكذا تعلم رسول الله ﷺ أوقات الصلوات الخمس، وعلمها للصحابة.

انشغلت مكة بحادثة الإسراء والمعراج أياماً، والجميع يتحدث عنها صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، بين مصدق ومكذب، وفي اليوم الثالث وقف الرجال ينتظرون القافلة، وكادت الشمس أن تغرب، وحبست كل الأنفاس، ولكن الله حبس الشمس من أن تغرب إلى أن وصلت القافلة كما وصف لهم رسول الله ﷺ، فوجدوا أول ما وصل

منها الجمل كما وصف رسول الله ﷺ ، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً بالماء ثم غطوه وأنهم أصبحوا فوجدوه مغطى ولم يجدوا فيه ماء، وسألوهم عن البعير الهاربة، فقالوا أنهم قد أضعوا البعير في الوادي، فسمعوا صوت رجل يدعوهم إليه حتى وجدوه. فكان كل شيء كما وصف لهم رسول الله ﷺ ، ولكنهم كابروا وعاندوا وأبوا التصديق، وكتموا غيظهم في أنفسهم.

أما من ثبت من المسلمين على الإيمان والتصديق، فقد كان رسول الله ﷺ يجتمع بهم يعلمهم ويحدثهم عن رحلتي الإسراء والمعراج، وما فرض عليه من الصلاة، فسأله الصحابة أن يصف لهم الأنبياء من قبله، فقال لهم رسول الله ﷺ : أما إبراهيم فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه، وأما موسى فرجل آدم طويل، جعد أفنى، كأنه من رجال شنوة، وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر^(١)، كثير خيلان الوجه^(٢)، كأنه خرج من ديماس^(٣)، تخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء، أشبه رجالكم

(١) سبط الشعر يعني سهل مسترسل.

(٢) خيلان الوجه يعني في وجهه شامات.

(٣) ديماس يعني حمام.

به عروة بن مسعود الثقفي.

ثم نظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر وقال للصحابة لما ثبت أبو بكر وصدقه أمام قريش كلها: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً.

ابتهج أبو بكر، وأشار الجميع برأسهم أنهم يفهمون أن أبا بكر قد وقف وقفة لم يكن أحدهم ليقفها، فاستحق ما استحق من تقرب رسول الله له.

وقف رسول الله ﷺ يصلي في مكة ويعلي صوته بالقرآن ليسمعه الناس، فما إن بدأ حتى بعث وجهاء قريش بعضاً من سفهائها ليسبوا محمداً والقرآن، ثم ابتعد الناس فكان منهم من يود أن يسمع القرآن ولكنه خشي أن يقف وحيداً أمام قريش يستمع فيؤذوه، فانفض معهم.

اجتمع وجهاء قريش من كل قبيلة يتناقشون، قال عتبة بن ربيعة: إن هذا الدين ما يزال صامداً حتى في أحنك الظروف.

قال الوليد بن المغيرة: إن من يستمع إلى كلام محمد يجد فيه سحراً يصعب مقاومته، حتى كذبة واضحة كرحلته إلى الشام لم تثن الناس عن تصديقه!

غضب أبو جهل وقال: أوعدتَ إلى ذلك مجدداً؟ تمدح كلام

محمد.

قال الوليد: تريدون سبب انتشار هذا الدين، وهذا هو السبب.

قال أبو لهب: لسنا هنا لنتشاجر، أنا عمه وأريده أن يكف عما

يفعل، فتجارتني وأموالي قد تأثرت بسببه، والسادة منا باتوا يدعمونه

ويجيرونه.

قال أمية بن خلف: كل تجارتنا ستتأثر إذا استمر الحال على

ما هو عليه، فابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه.

قال أبو سفيان بن حرب: أنا على هذا الرأي، نساومه على

الجاه والملك والمال، فهذا حلم كل إنسان.

اتفق الجميع على ذلك، وبعثوا إلى الرسول ﷺ رجلاً يخبره أن

أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتاهم سريعاً وهو يظن أن قد

بدا لهم فيما كلمهم فيه شيء، وكان حريصاً عليهم يحب رشدهم.

وصل المجلس، وجلس إليهم فقال عتبة بن ربيعة: يا محمد،

إننا قد بعثنا إليك لنكلمك، وأنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل

على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين

وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح

إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.

قال أمية بن خلف: فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك جناً تراه قد غلب عليك فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

قال لهم الرسول ﷺ بهدوء: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قال الوليد بن المغيرة: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق.

قال أبو لهب: وليبعث لنا من مضي من آباؤنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألتك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقال أبو سفيان: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

غضب أبو جهل وقال: فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

قال الرسول ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء أن يفعل به بكم فعل.

تنهد عتبة بن ربيعة وقال: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فیتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما تعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، وأنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا.

وأخيراً ضحك أبو جهل قائلاً: يا محمد، اليهود والنصارى اتخذوا لله ولداً، والمجوس قالوا لولا أولياء الله لذل، ونحن نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله، وها أنت تقول باسم الله الرحمن الرحيم، أنت أيها الصابئ تنهانا أن ندعو إلهين وأنت تدعو إلهين.

فلما قالوا ذلك قام عنهم، وكان بينهم ابن عمته^(١)، قام معه ولحقه وقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله

(١) ابن عمه الرسول عاتكة هو عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، سيذكر في هذا الموضع فقط.

منهم، ثم سألوكم لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتكم من الله كما تقول ويصدقون ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوكم أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوكم أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننتُ أنني أصدقك.

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى منزله حزيناً آسفاً، فنزل جبريل ﷺ يواسي رسول الله ويقول له: إن شئت يا محمد أن تتأني بهم، لعلنا نهدي أناساً منهم، وإن شئت نعطيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا.

فقال رسول الله ﷺ: بل أستأني بهم.

فنزلت الآيات: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَعَاتَيْنَا مُؤَدَّ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩) (١).

وأنزل الله تعالى فيهم الآيات: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ

(١) سورة الإسراء، الآية ٥٩.

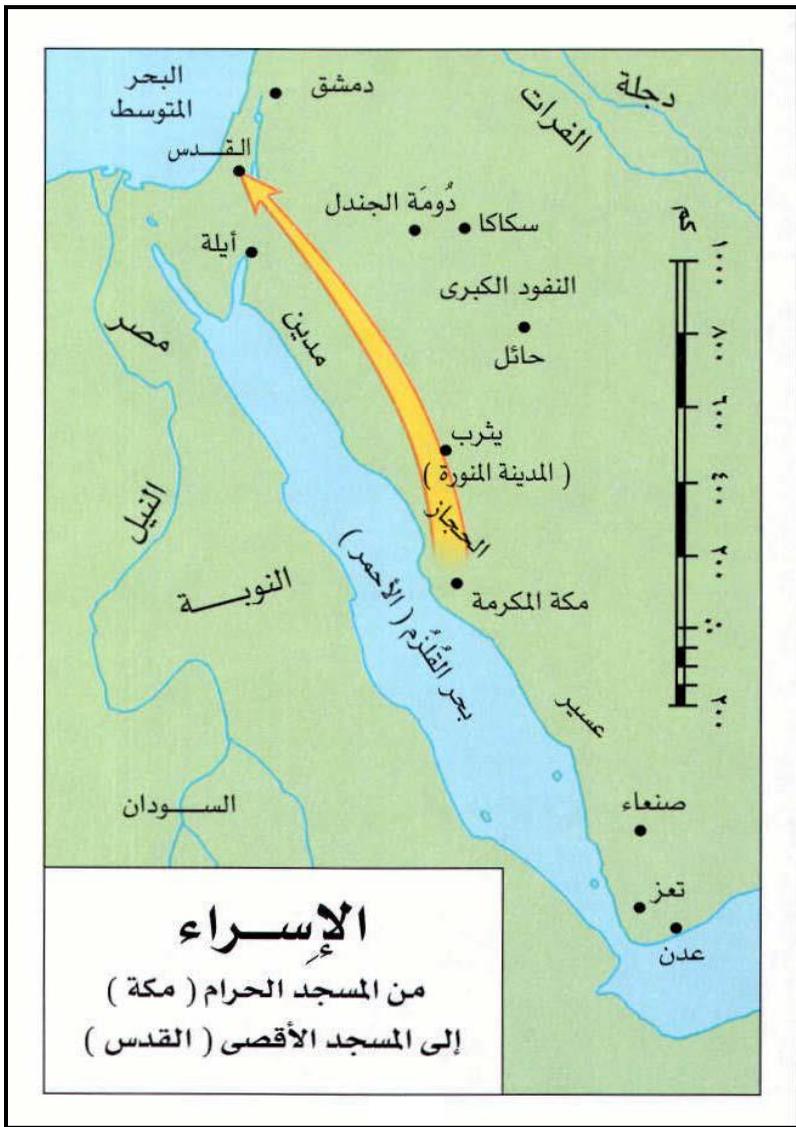
لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ
 الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ
 تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى
 فِي السَّمَاءِ وَلَن نُؤْمِنَ لِرُفِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نُّقْرُوهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ
 رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴿١﴾ .

ونزلت الآيات: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا
 فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
 سَبِيلًا ﴿٩٣﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي
 الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ ﴿٢﴾ .



(١) سورة الإسراء، الآيات ٩٠-٩٣.

(٢) سورة الإسراء، الآيات ١١٠-١١١.



٢- هـ | ٦٢٠ م

زواج الرسول ﷺ

جاء جبريل ﷺ إلى رسول الله ﷺ يحمل خرقة من حرير أخضر، عليها صورة عائشة بنت أبي بكر وقال: يا محمد، هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

مرت زوجة عثمان بن مظعون^(١) تزور الرسول ﷺ في منزله، فقابلت بنته المتزوجة زينب قد حضرت لتساعد أختيها أم كلثوم وفاطمة في أعمال المنزل وتحضير الطعام، ثم غادرت، فشعرت أن المنزل بحاجة إلى عناية، وأن رسول الله ﷺ وحيد فيه، والبنت بحاجة إلى من يعتني بهن، فجلست إلى رسول الله ﷺ تقول: يا رسول الله، أراك وحيداً لفراق خديجة.

(١) زوجة عثمان بن مظعون اسمها خولة بنت حكيم، صاحبة، ستذكر في هذا المكان فقط.

قال رسول الله ﷺ : أجل ، أم العيال وربة البيت .

قالت : أفلا أخطب لك؟

صمت رسول الله ﷺ حتى بدأ يدمع لتذكر خديجة ، وقال : وهل

بعد خديجة من أحد؟

سكتت تتذكر خديجة ، وكيف كانت خير زوجة ، دعمت

الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها ، وصبرت حتى في الحصار إلى أن

أجهدا وتوفيت ، ولكنها بعد قليل قالت : فمن للبيت والعيال يا

رسول الله؟ أنت رسول ولديك مهام عظيمة في الدعوة إلى الله .

فقال رسول الله ﷺ : بلى ، إما إنكن يا معشر النساء أرفق بذلك .

وسألها من تقترح ، فقالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً^(١) .

سألها : فمن البكر ومن الثيب؟

قالت : أما البكر فعائشة بنت أحب الناس إليك ، وأما الثيب

فسودة بنت زمعة ، توفي زوجها السكران بن عمرو وليس لها أحد

الآن .

ولم يكن أحد يعرف بأمر خطبة عائشة بنت أبي بكر ، فقال لها

رسول الله ﷺ : فاذهبي فاذكريهما عليّ .

(١) البكر التي لم تتزوج من قبل ، والثيب هي التي تزوجت من قبل .

ذهبت زوجة عثمان بن مظعون إلى منزل أبي بكر الصديق لتطلب عائشة، لم يكن أبو بكر هناك، فجلست إلى أم رومان وعائشة، فقالت لأم رومان: أبشري بخير يوم طلع عليك منذ ولدتك أمك.

استبشرت أم رومان وعائشة، فقالت: وما ذاك؟

قالت: رسول الله أرسلني أخطب له عائشة.

استبشرت أم رومان كثيراً، ولكن ابنتها قد خُطبت، فتريثت

وقالت: انتظري حتى نعلم أبا بكر.

وظلت أم رومان تحوم في المنزل، وعائشة تنظر إليها تعلم أنهما

يريدان خطبة رسول الله ﷺ، ولكن كيف لهما أن يفسخا الخطبة

الأولى؟

ما إن دخل أبو بكر المنزل حتى ركضت إليه أم رومان تقول: يا

أبا بكر! أبشر بخير يوم طلع عليك، رسول الله يخطب ابنتك عائشة.

استبشر أبو بكر كثيراً، ولكنه سأل: أو تصلح له وهي ابنة أخيه؟

يعني أن علاقته برسول الله ﷺ هي أقرب إلى علاقة الإخوة من

الأصدقاء، فعادت زوجة عثمان بن مظعون تسأل رسول الله ﷺ عما

قال أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: أما أنا أخوه وهو أخي في الإسلام،

وابنته تصلح لي.

فَعَادَت زَوْجَةَ عَثْمَانَ بِالْبَشْرَى، فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: أَنْظِرِينِي، لَا
أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرِدَ عَلَيْكَ الْآنَ.

وَخَرَجَ مِنْ فُورِهِ، فَتَعَجَّبَتْ زَوْجَةُ عَثْمَانَ بْنِ مِطْعُونٍ، فَقَالَتْ لَهَا
أُمُّ رُومَانَ: إِنَّ الْمَطْعَمَ بْنَ عَدِيِّ قَدْ كَانَ ذَكَرَهَا عَلَى ابْنِهِ، وَوَاللَّهِ مَا وَعَدَ أَبُو
بَكْرٍ وَعَدًا قَطُّ فَأَخْلَفَهُ.

اتَّجَهَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ فُورِهِ إِلَى مَنْزِلِ الْمَطْعَمِ بْنِ عَدِيِّ، عَلَيْهِ أَنْ يَجِدَ
حَلًّا لَخُطْبَةِ ابْنَتِهِ مِنْ ابْنِهِ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ الْمَنْزِلَ، وَكَانَ الْمَطْعَمُ بْنُ عَدِيِّ
جَالِسًا إِلَى زَوْجَتِهِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَحِبُّ الْإِسْلَامَ وَالِدِينَ الْجَدِيدَ، فَمَا إِنْ
دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهِمَا حَتَّى قَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، تَرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ ابْنَنَا
فَتَجْعَلَهُ يَدْخُلُ فِي دِينِكَ، وَتَجْعَلَهُ صَابِنًا مِثْلَكُمْ، وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ابْنَنَا
فَرِيسَةً لَكُمْ.

فَنَظَرَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى الْمَطْعَمِ بْنِ عَدِيِّ وَقَالَ: هَذَا مَا قَالَتْهُ امْرَأَتُكَ،
فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتِ؟

تَنَهَّدَ الْمَطْعَمُ بْنُ عَدِيِّ، نَعَمَ قَدْ أَجَارَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِلْحَمِيَّةِ،
وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مَقْتَنَعًا بِأَمْرِ الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَلَا يَرِيدُ لِابْنِهِ أَنْ يَتْرَكَ دِينَهُ،
فَقَالَ: أَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَتْ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّنِي قَدْ تَرَكْتُ الْأَمْرَ.

قال المطعم: اعذرنا يا أبا بكر.

فقام أبو بكر وقد أنهى أمر الخطبة بتيسير من الله حتى قبل أن يحدثهما، وعاد إلى زوجة عثمان بن مظعون وقال لها: أرسلني إلى رسول الله وقولي له أهلاً وسهلاً، فليأت ويخطب عائشة.

فحضر رسول الله ﷺ وخطب السيدة عائشة بنت أبي بكر، وابتهج الجميع بازدياد القرابة بينهم، وغمر الفرحة منزل أبي بكر بشرف خطبة رسول الله ﷺ من ابنتهم، وبات يتردد عليهم أكثر من السابق، أما أم رومان فقد زاد اعتناؤها بابنتها عائشة، وكانت تزيد لها السمن في الطعام حتى تصبح أجمل لرسول الله ﷺ.

كانت السيدة سودة بنت زمعة قد بلغت الثمانين، وكانت وحيدة فاستضعفها أهلها، وضيقوا عليها لعلمهم بإسلامها، فلما دخلت عليها زوجة عثمان بن مظعون تقول: أبشري بخير يوم طلع عليك منذ ولدتك أمك.

استبشرت سودة وقالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله لأخطبك.

تعجبت سودة قائلة: أنا يتزوجني رسول الله!

قالت: نعم، ذكرك لي، وطلب مني أن آتيك.
دمعت عينا سودة من الفرحة، هذا والله فرج الدنيا والآخرة،
ولكنها قالت: إن فاستأذني من أهلي.
فذهبت على الفور إلى والد السيدة سودة، ولم يكن مسلماً،
وقالت له: أرسنلي محمد بن عبد الله أخطب ابنتك.
فقال: كفاء كريم، ذلك الرجل لا يرفضه أحد، ماذا تقول
سودة؟

قالت: تحب ذلك.
قال: ادعها إلي.
فحضرت سودة، فقال لها والدها: أي بنية، إن هذه تزعم أن
محمدًا بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفؤ كريم،
أتحبين أن أزوجك به؟
قالت سودة: نعم.
قال: ادعيه لي.
فجاء رسول الله ﷺ، وخطبها من والدها، فشعرت سودة
بفرحة لم تشعر بها في حياتها كلها، ولكنها خطر خاطر في ذهنها
فقالت: ولكن...

فسألها رسول الله ﷺ : ما يمنعك مني؟

قالت : والله يا رسول الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إلي ، ولكنني أخاف أن يصيح هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية .

قال رسول الله ﷺ : فهل منعك مني شيء غير ذلك؟

قالت : لا والله .

قال : يرحمك الله ، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل^(١) صالح نساء

قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على بعل بذات يد .

فتزوجها رسول الله ﷺ ، وقد كانت مرحة وطيبة جداً ، وتحب

أن تدخل البسمة على وجوه الجميع ، فسر بها الرسول ﷺ خاصة بدخولها منزله في وقت صعب عليه وعلى بناته .

في ليلة عندما كان رسول الله ﷺ يقوم الليل ، قالت له السيدة

سودة : يا رسول الله ، أصلي معك؟

كان قيام رسول الله ﷺ شاقاً ، كان يخفف على الناس في

الصلوات المفروضة ، ولكن قيام الليل كان يصليه وحده ، ولكنه سمح

لها ، وظلت تصلي مع رسول الله ﷺ الذي كان يطيل الركوع والسجود

(١) أعجاز الإبل يعني ظهرها .

إلى أن انتهى ، فقالت له باسمته: يا رسول الله ، صليتُ خلفك فركعتَ ركوعاً حتى خشيتُ أن يسقط الدم من أنفي ، فكنتُ أصلي معك ويدي على أنفي.

فضحك رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ، أصلي معك ثانية ، ولكن خفف في الركوع والسجود ، حتى لا أمسك بأنفي .
فكانت السيدة سودة مصدر بهجة في المنزل ، وسعد الجميع بها بينهم .

عادت قريش تجادل رسول الله ﷺ في أمر دينه ، فكان يتلو عليهم آيات التوحيد ، فنهض عقبة بن أبي معيط يقول: يا محمد ، أنزل علينا كتاباً لا يأمرنا بترك اللات والعزى ، ونعبد إلهك معهما .

فأنزل الله تعالى على رسوله سورة يونس ، وفيها رد عليهم :
﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُمُتٌ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَكُونُونَ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي ۗ إِنَّ أَتْبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ۗ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾
فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا

لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَتُّوْلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ
اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾^(١).

وكان أبو جهل يقول كلما رأى الرسول ﷺ وأصحابه: قد
جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر، أما كلمت اليوم
السماء يا محمد؟

وكان هناك من المشركين رجل حلو الكلام، معسول اللسان، كلما
لقى رسول الله ﷺ يقول له: أهلاً بالصادق الأمين، شريف قريش،
أهلاً بالكلام الطيب الجميل الذي تسمعنا إياه، والله إن له لحلاوة ما
نلاقيها في أفضل الشعر.

وإذا جلس إلى وجهاء قريش أفضى لهم بما يخبئ قلبه من الكره
والحقد، ويقول لهم: كيف تتركونه هكذا ينشر سحره في مكة؟ والله
إن الأمم حولكم ستقاتلكم إذا ما انتشر سحره بينهم.

فأنزل الله تعالى سورة هود تسلية لرسول الله ﷺ بما يلاقى من
تكذيب قومه، ونزلت في الرجل الآية: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ
لَيْسَتْ خُفُوفًا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

(١) سورة يونس، الآيات ١٥-١٨.

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾.

في صباح اليوم التالي، اجتمع رسول الله ﷺ بالصحابة وتلى الآيات: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾. (١). وقال: إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعى به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار! فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يُقال (فلان قارئ) فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول الله له: كذبت! وتقول الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يُقال (فلان جواد)، فقد قيل ذلك.

(١) سورة هود، الآية ٥.

(٢) سورة هود، الآيات ١٥-١٦.

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقال له: فيماذا قُتلت؟ فيقول: أُمرتُ
بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتلتُ. فيقول الله له: كذبت! وتقول
له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يُقال (فلان جريء)،
وقد قيل ذلك. أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعّر بهم النار يوم القيامة.

وبينما رسول الله ﷺ في شعاب مكة، التقى ركانة بن عبد
يزيد^(١)، وقد كان ركانة من أقوى رجال مكة، فقال له رسول الله ﷺ:
يا ركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟

قال ركانة: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك.

فقال رسول الله ﷺ: أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟
ابتسم ركانة يعلم أنه الأقوى بلا شك، وقال: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: فقم حتى أصارعك.

فقام ركانة إليه فصارعه، فهزمه رسول الله ﷺ وصرعه أرضاً،
فنهض ركانة مفزوعاً يرفض الهزيمة وقال: عد يا محمد فصارعني ثانية.
فعاد فتصارعا، فصرعه رسول الله ﷺ أرضاً للمرة الثانية،
فنهض ركانة فزعاً وقال: يا محمد، والله إن هذا للعجب! أتصرعني؟

(١) ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، سيذكر في هذا الموضوع فقط.

قال رسول الله ﷺ : وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه، إن اتقيت الله واتبعت أمري.

قال ركانة: وما هو؟

قال رسول الله ﷺ مشيراً إلى شجرة: أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني.

نظر ركانة إلى رسول الله ﷺ متعجباً، ثم قال: ادعها.

فدعاها رسول الله ﷺ فأقبلت حتى وقفت بين يديه، ثم قال لها: ارجعي إلى مكانك.

فرجعت إلى مكانها! فركض ركانة فزعاً مما رأى وجرى، ودخل مكة يقول: يا بني عبد مناف! ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيتُ أسحر منه قط!

وحضر عالم يهودي إلى مكة، فعلم بأمر رسول الله ﷺ، فجلس إليه وطلب إليه أن يقص عليه ما حدث مع نبي الله يوسف وإخوته، فأنزل الله تعالى سورة يوسف على رسوله ﷺ، وقص القصة كاملة في نمط مختلف عما كانت القصص تروى فيه في القرآن الكريم مفرقة بين السور.

جلس الصحابة في مجلس لأبي بكر ورسول الله جالس، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وأبي طالب، والسيدة خديجة، فقال عن ورقة بن نوفل: قد رأيت فرأيت عليه ثياب بياض، أبصرته في الجنة وعليه السندس.

وعن زيد بن عمرو بن نفيل: يُبعث يوم القيامة أمة وحده.

وعن أبي طالب قال: أخرجته من غمرة من جهنم إلى ضحاح منها.

وعن السيدة خديجة قال: أبصرتها على نهر في الجنة في بيت

من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

ثم جاء رجل ودخل المجلس، ونظر إلى أبي بكر وبدأ يشتمه، ويغلظ في الكلام، ورسول الله ﷺ جالس يبتسم ويعجب، وأبو بكر صامت حلیم على الجاهل، فلما أكثر الرجل على أبي بكر اضطر أبو بكر للرد عليه، واستخدم بعض الألفاظ التي تلفظ بها الرجل رداً عليه، فغضب رسول الله ﷺ وقام من المجلس.

لحق أبو بكر الصديق برسول الله ﷺ على الفور، وسأله: يا

رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله

غضبت وقمت!

قال رسول الله ﷺ: إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت

عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان.

ونظر إلى أبي بكر برفق وقال له: يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق:
ما من عبد ظلم بمظلومة فيُعْضِي^(١) عنها لله عز وجل إلا أعز الله بها
نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة،
وما فتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة.

ثم حان وقت الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ في أصحابه، وكان
بين المسلمين امرأة حسناء تصلي خلف رسول الله ﷺ، فكان بعض
الصحابة يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ويفتن بها عن
صلاته، وكان البعض الآخر يتأخر حتى يكون في الصف الآخر، فإذا
ركع نظر من تحت إبطه ليراها، فلما انتهى رسول الله ﷺ من الصلاة،
تلى عليهم ما أوحى الله تعالى به إليه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ
مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾^(٢).

في هذا العام ولدت رقية بنت رسول الله ﷺ لزوجها عثمان بن عفان،
ابنهما الأول عبد الله بن عثمان بن عفان في الحبشة، وقررا بعد ذلك
العودة إلى مكة، ليبقيا إلى جوار رسول الله ﷺ.

(١) يعضي بمعنى يسكت ويصبر.

(٢) سورة الحجر، الآية ٢٤.

١١+١٢ / ٢-هـ | ٦+٧ / ٦٢٠ م

بيعة العقبة الأولى^(١)

حان موسم الحج، وعاد رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، وأغلظت عليه قريش أكثر فأكثر، وانفقوا أن يفرقوا الناس عنه مهما كان الثمن.

فكان أبو لهب يُسمع الرسول ﷺ ما يكره، وينال ممن يقفون يستمعون إليه أيضاً، ويؤلب الأطفال وينفر منه الكبار والصغار، وكان يتبع الرسول ﷺ وهو يقف على القبائل يقول: يا بني فلان، إنني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أبلغ عن الله ما بعثني به.

فيقول أبو لهب من بعده: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة،

(١) بيعة العقبة الأولى تسمى أيضاً بيعة النساء، لأن ليس فيها اتفاق على القتال.

فلا تسمعوا له ولا تتبعوه.

وظل أبو جهل يتبع رسول الله ﷺ ويقول للناس: إن هذا إلا إفاك افتراه.

فيقول رسول الله ﷺ للقبائل: إنما أنذركم بالوحي.

فيقول أمية بن خلف: افتراه، إنما أنت مفتر.

فيقول رسول الله ﷺ: ﴿... فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَأَدْعُوا مِّنْ أَسْطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

فيقول أبو سفيان: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا؟

فيقول رسول الله ﷺ: ﴿... إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

فيقول الوليد بن المغيرة: أبشراً منا واحداً نتبعه؟ إنا إذا لفي
ضلال وسُعر^(٣).

فيقول رسول الله ﷺ: ﴿... يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ
دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي
يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

(١) سورة هود، الآية ١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٣) سُعر يعني جنون.

(٤) سورة يونس، الآية ١٠٤.

ثم تفرقوا حين تفرق الناس، فنظر الرسول ﷺ إلى سادة قريش وقد ضاق صدره بما يقولون عنه للحجاج والتجار، فأوحى الله تعالى إليه يخفف عنه: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾^(١).

فقال رسول الله ﷺ: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

* * *

ولم ييأس رسول الله ﷺ من طلب النصرة والمعونة، وسار معه أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب يتلمسون القبائل في الحج، وكان أبو بكر عالماً في الأنساب، فكان يجلس إلى القبيلة يتحرى نسبها وشرفها وسيادتها بين العرب، ويسألهم عن أجدادهم وأقرب الناس لهم، فيعرف نسبهم أشرفاء أقوياء أم ضعفاء لا عون لهم. جلس أبو بكر الصديق إلى قبيلة يسألهم بعد أن سلم عليهم:

ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

(١) سورة الحجر، الآيات ٩٧-٩٩.

قال : وأي ربيعة أنتم؟ من أشرافها أم من أوساطها؟

قالوا : بل من أشرافها العظمى.

قال : فمن أي أشرافها العظمى؟

قالوا : ذهل الأكبر.

قال : منكم فلان الذي كان يُقال : لا سيد بوادي فلان؟

قالوا : لا.

قال : فمنكم فلان قاتل الملوك وسالباها أنفسها؟

قالوا : لا.

قال : فمنكم فلان حمي الديار ومانع الجار؟

قالوا : لا.

قال : فمنكم فلان صاحب العمامة التي لا مثيل لها؟

قالوا : لا.

قال : فأنتم أخوال الملوك من كندة؟

قالوا : لا.

قال : فأنتم أصهار الملوك من لحم؟

قالوا : لا.

قال أبو بكر أخيراً : فلستم بذهل الأكبر، بل أنتم ذهل الأصغر.

ذهلوا لعلمه العميق بالأنساب، فوثب غلام إلى أبي بكر أمسك
بزام ناقتة يقول: يا هذا، إنك سألتنا فأخبرناك ولم نكتبك شيئاً،
ونحن نريد أن نسألك ممن أنت؟

قال: رجل من قريش.

قال الغلام: أهل السؤدد والرئاسة، ممن أنت من قريش؟

قال أبو بكر: رجل من بني تيم بن مرة.

قال: أفمنكم قصي بن كلاب الذي قتل بمكة المتغلبين عليها،
وأجلى بقيتهم، وجمع قومه من كل أوب حتى أوطنهم مكة، ثم استولى
على الدار، ونزل قريشاً منازلها، فسمته العرب بذلك مجمّعاً؟
فقال أبو بكر: لا.

قال: فمنكم عبد مناف الذي انتهت إليه الوصايا؟

قال: لا.

قال: فمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ولأهل مكة؟

قال: لا.

قال: فمنكم عبد المطلب شعبة الحمد، وصاحب غير مكة،
ومطعم طير السماء والوحوش والسباع في الفلا، الذي كأن وجهه قمر
يتلأل في الليلة الظلماء؟

قال : لا .

قال : أفمن أهل الإفاضة أنت؟

قال : لا .

قال : أفمن أهل الحجابة أنت؟

قال : لا .

قال : أفمن أهل الندوة أنت؟

قال : لا .

قال : أفمن أهل السقاية أنت؟

قال : لا .

قال : أفمن أهل الرفادة أنت؟

قال : لا .

قال : أفمن المفيضين بالناس أنت؟

قال : لا .

وجذب أبو بكر زمام ناقته من يد الغلام، فقال له الغلام: أما والله يا أبا قريش، لو ثبتّ لخبرتكَ أنك من أطراف قريش ولست من أشرافها.

فاقترب رسول الله ﷺ يتبسم، وقال علي بن أبي طالب لأبي

بكر: يا أبا بكر، لقد وقعت على داهية.

فقال أبو بكر: أجل، إنه ليس من طامة إلا وفوقها طامة،
والبلاء موكل بالقول.

ثم ذهبوا إلى مجلس آخر، كان مجلساً عليه السكينة والوقار،
فيه مشايخ^(١) لهم هيئات السيادة، يعرفهم أبو بكر جيداً، وقد كان
قريباً من بعضهم، فسلم عليهم ثم التفت إلى رسول الله ﷺ يقول: بأبي
أنت وأمي، ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم، هؤلاء سادة قومهم
وسادة الناس.

فاقترب أبو بكر الصديق من أقرب الناس إليه منهم، وبعد
التحية سأله: كيف العدد فيكم؟

فأجابه: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة.

فقال له أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟

فقال: علينا الجهد ولكل قوم جد.

فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟

(١) الرجال هم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك.
سادة بني بكر، سيذكرون في هذا الموضع فقط.

فقال: إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله.

ثم نظر إلى رسول الله ﷺ وقال: لعلك أخو قريش؟
فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فيها هو ذا.

فقال: قد بلغنا أنه يذكر ذلك.

فقام أبو بكر وأجلس رسول الله ﷺ مجلسه، وأظله بعباءته،

فقال له الرجل: فإلى ما تدعو يا أبا قريش؟

فقال رسول الله ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وأن تؤووني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذب رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد.

فسأله: وما هي رسالة ربك؟

فأوحى الله إليه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقِ نَحْنُ نَرَزُّكُمْ وَإِيَاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾^(١).

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥١.

فقالوا: وإلى ما تدعو أيضاً؟

فأوحى الله تعالى إليه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَلِّتُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

قالوا: وإلى ما تدعو أيضاً يا أبا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه.

فأوحى الله تعالى إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

فقال شريف القوم: والله ما دعوت إلا إلى مكارم الأخلاق، وإن قوماً حاربوك وعادوك قد ظلموك، وأنا نحب ما تقول.

ثم نظر إلى صاحبه ليشاركه الرد، فقال: قد سمعتُ مقاتك يا أبا قريش، وصدقتُ قولك، وإنني أرى إن تركنا ديننا واتبعناك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، لم نتفكر في أمرك، وننظر في عاقبة ما تدعو إليه، زلة في الرأي وطبيعة في العقل وقلة في

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(٢) سورة النحل، الآية ٩٠.

النظر، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر.

ثم نظر إلى صاحبه الآخر ليشاركة الرد، فقال: قد سمعتُ مقاتك واستحسنْتُ قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمتَ به، والجواب هو جواب رفاقي، وأنا قد عاهدنا كسرى الفرس ألا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً، ولعل هذا الأمر الذي تدعوننا إليه مما تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرَكَ ونمنعك مما يلي العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه. أريتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟

تعجب الرجال، فرجل واحد في قريش ليس له أعوان يعدهم بالفوز على فارس! فقال أحدهم: لك عندنا هذا.

ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يد أبي بكر، وغادروا

المجلس دون أن يؤذوه ودون أن يدخلوا في الإسلام، فتبعه أبو لهب
يقول: لا تقبلوا قوله.

فسأله: هل تعرف هذا الرجل؟

قال أبو لهب: هذا في أفضل نسبنا، فعن أي شأنه تسألون؟

فأخبروه بما دعاهم إليهم، وقالوا: يزعم أنه رسول الله.

ضحك أبو لهب وقال: لا تأخذوا بقوله، فإنه مجنون يهذي.

نظر الرجال إلى بعضهم وقالوا: قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر

فارس ما ذكر.

عاد رسول الله ﷺ يعرض نفسه ودينه على القبائل، فرآه سادة

قريش، فسخروا منه وقال أبو جهل: يا محمد، أما زلت تظن أن

الناس سيؤمنون لك؟

وقال أبو لهب للناس: هذا ابن أخي، إنه لمجنون.

فيقول رسول الله ﷺ للناس: إنما أنا نذير والله على كل شيء

وكيل.

فقال الوليد بن المغيرة: ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان

يعبد آباؤكم.

فقال رسول الله ﷺ : إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون
إفكاً.

فقال أمية بن خلف : إنه يسب آلهتنا وآلهتكم، ويسفه أحلامنا
وأحلامكم.

فقال رسول الله ﷺ : إلهكم إله واحد لا إله إلا هو، خالق كل
شيء فاعبدوه.

فقال عتبة بن ربيعة: واللات والعزى ومناة؟

فقال رسول الله ﷺ : أتدعون من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا.

فقال العاص بن وائل : أنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون!

فقال رسول الله ﷺ : يا أيها الناس، قد جاءكم الحق من ربكم،
فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنا
عليكم بوكيل.

فرفع أبو جهل يده يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك
فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

ثم قال أمية بن خلف: يا محمد، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا
بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله،
وأنتك رسوله.

فقال العاص بن وائل: نعم يا محمد، لماذا لا ينزل عليك ملك

يكلم الناس عنك؟

فضحكوا، فساء استهزاءهم رسول الله ﷺ، فأوحى الله إليه

الآيات: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾^(١).

ثم جاء أبو سفيان بن حرب، وقد كان مجتمعاً مع وفد من

اليهود والنصارى قدموا مكة، فرأى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، ما

نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود

والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك

أنك رسول كما تزعم.

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧-١٢.

وقال رجل آخر: هذا صحيح يا محمد، أما تعلم مع الله إلهاً

غيره؟

فقال رسول الله ﷺ: لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك

أدعو.

فأوحى الله إليه الآيات: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ
لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ
وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١).

وقال له أبو جهل: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصا

ضرب بها الحجر فانفجرت منها اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى

كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود صالحاً كانت له ناقة، فاتنا ببعض

تلك الآيات حتى نصدقك.

فقال له رسول الله ﷺ: أي شيء تحبون أن آتيكم به؟

فقال أمية بن خلف: تجعل لنا الصفا ذهباً.

فرح الجميع بهذا الاقتراح، فقال لهم رسول الله ﷺ: فإن

فعلت تصدقوني؟

(١) سورة الأنعام، الآية ١٩.

نظروا إلى بعضهم فقال الوليد بن المغيرة: نعم والله لئن فعلت
لنتبعنك أجمعين.

فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: ما
شئت، إن شئت أصبح ذهباً، ولكن لم أرسل آية ولم يصدقوا عند ذلك
إلا عذبتهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم.

فاختار رسول الله ﷺ أن يتركهم، عسى الله أن يهدي منهم ومن
أصلاهم، فأوحى الله إليه الآيات: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن
جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلُوبٌ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَهُمْ فِي عَذَابٍ
إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَقْسَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِ
وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْثِقَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾^(١).

فتغامزوا وتلامزوا، وقال الوليد بن المغيرة: ها يا محمد، لم
تستطع أن تقلب الجبل ذهباً، وتخوفنا بالعذاب إن فعلت، هذا لأن ما
طلبنا أصعب من أن ينفذه شيطانك.

وأثقلوا الكلام على رسول الله ﷺ، فشكا رسول الله ﷺ أذى
سادة قريش إلى جبريل عليه السلام، فطلب إليه جبريل عليه السلام أن يحدد له أشد

(١) سورة الأنعام، الآيات ١٠٩-١١١.

الرجال أذية له، فأشار رسول الله ﷺ إلى الوليد بن المغيرة، فأشار جبريل ﷺ إلى الوليد وقال لرسول الله ﷺ: كفيته.

وأشار إلى العاص بن وائل، فقال جبريل ﷺ: كفيته.

ثم أشار رسول الله ﷺ إلى ثلاثة رجال آخرين، فأشار إليهم جبريل ﷺ وقال عن كل واحد منهم: كفيته.

وبعد بضعة أيام مات الرجال الثلاثة بقروح وعمى واستسقاء في البطن.

وكان الوليد بن المغيرة يجر ثوبه الطويل المسدول على الأرض متفاخراً بثرائه وأناقة ثيابه، فسار رجل إلى جانبه يحمل أسهماً ينقلها إلى السوق، فعلق سهم بثوب الوليد ومزقه، وخدش رجله بخدش صغير. اعتذر الرجل ولكن الوليد لطمه بقوة وأمر عبده أن يضربه بعيداً عن المأدبة، وخشي أن تكون هذه لعنة ألقاها محمد ﷺ عليه.

وما زالت قريش تضيق على الرسول ﷺ وتنفر الحجاج من حوله حتى استعصوا عليه، فدعا عليهم: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف^(٢).

(١) الرجال الثلاثة هم الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن عطييل، سيذكرون في هذا المكان فقط، وقد كانوا يثقلون الكلام على رسول الله.

(٢) سبع يوسف هي السنوات القحط.

فاستجاب له ربه، وانحبس المطر، وبدأت المحاصيل والمواشي تموت شيئاً فشيئاً.

تابع رسول الله ﷺ دعوة الناس في موسم الحج، فمر عليه أبو جهل يسير مصاحباً رجلاً يتحدث إليه، فلما رآه رسول الله ﷺ استوقفه وذكره مخافة الله واتقاء عذابه، فقال أبو جهل: قد كلمتني مراراً، وإني أعلم أنك كذاب، ولو أعلم أنك صادق لاتبعتك.

فحزن رسول الله ﷺ لهذا الرد وغادر، عندها نظر أبو جهل إلى مرافقه وقال له: ألا والله إنني لأعلم أنه صادق.

تفاجأ الرجل من انقلاب كلام أبي جهل هكذا، فسأله: وما يمنعك أن تتبعه؟

قال: يمنعني من اتباعه أننا كنا نحن بنو مخزوم وبنو هاشم بن عبد مناف كفرسي رهان، قالوا منا السقاية قلنا منا الرفادة، أطمعوا فأطعمنا، سقوا فسقيننا، حتى إذا تقاربنا قالوا منا نبي، فأنى لنا بهذه؟

فأنزل الله تعالى آيات مواساة لرسوله ﷺ على تكذيب أبي جهل: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ

فَصَبِّرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
 وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْرُسَلِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
 اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٧﴾ ۝ إِنَّمَا
 يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾^(١).

* * *

جلس رسول الله يعلم الصحابة ما نزل عليه من سورة الأنعام،
 وعلمهم الحلال من الطعام كما أوحى الله تعالى إليه، والحرام منها، ثم
 قال: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها
 الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من
 قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما
 بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل
 بلبن لقحة فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يليب حوضه فلا يسقي فيه،
 ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها.

وقال: إن من قبل مغرب الشمس باباً مفتوحاً للتوبة، حتى
 تطلع الشمس من نحوه، فإذا طلعت الشمس من نحوه لم ينفع نفساً
 إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

(١) سورة الأنعام، الآيات ٣٣-٣٦.

سأل سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله، علمنا عملاً نتقرب فيه إلى الجنة ويباعدنا من النار.

فقال: إذا عملت سيئة فاعمل حسنة، فإنها عشر أمثالها. ثم تلى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

فسأل سعد: يا رسول الله "لا إله إلا الله" من الحسنات؟

قال: هي أحسن الحسنات.

وفجأة رأى الصحابة كوكباً رُمي به، فقال رسول الله: ما تقولون

في هذا الكوكب الذي يرمي به؟

فقالوا: يولد مولود، أو يهلك هالك، ويموت ملك ويملك ملك.

فقال رسول الله: ليس كذلك، ولكن الله كان إذا قضى أمراً في

السماء سبّح لذلك حملة العرش، فيسبح لتسبيحهم من يليهم من

تحتهم من الملائكة، فما يزالون كذلك حتى ينتهي التسبيح إلى السماء

الدنيا، فيقول أهل السماء الدنيا لمن يليهم من الملائكة: مم سبّحتم؟

فيقولون: ما ندري، سمعنا من فوقنا من الملائكة سبّحوا فسبّحنا الله

لتسبيحهم، ولكننا سنسأل. فيسألون من فوقهم فما يزالون كذلك حتى

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

ينتهي إلى حملة العرش، فيقولون: قضى الله كذا وكذا، فيُخبرون به من يليهم حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا، فتسترق الجن ما يقولون، فينزلون إلى أوليائهم من الإنس فيلقونه على ألسنتهم بتوهم منهم، فيُخبرونهم به، فيكون بعضه حقاً وبعضه كذباً، فلم تنزل الجن كذلك حتى رُموا بهذه الشهب.

وتلى عليهم: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّغْلِيَاتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ إِنَّا زَيْنًا أَلْمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيئَةَ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝﴾^(١).

مر الوليد بن المغيرة مع عتبة بن ربيعة مع رجال من أشرف قريش على هذا الجمع، فنظروا إليهم بازدراء، وقال عتبة بن ربيعة لرسول الله: يا محمد، أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهم؟ هؤلاء الذين منَّ الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك، أو اجعل لنا مجلساً مختلفاً عنهم تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تحضر المجالس، فنستحي أن ترانا العرب

(١) سورة الصافات، الآيات ١-١٠.

مع هذه الفئة من العبيد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت.

فطمع رسول الله ﷺ أن يستمع الوجهاء من أقوامهم له، فيؤمنوا ويؤمن قومهم بإيمانهم، ففكر في أمر المجلسين، فيجعل للسادة مجلسهم الخاص، فأنزل الله تعالى الآيات: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِيَّةِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾^(١).

ونزلت كذلك الآيات: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِيَّةِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٥٢﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٥٤﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

(١) سورة الأنعام، الآيات ٥٢-٥٣.

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ
نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾^(١).

فكان مجلس المسلمين جميعاً غنيهم وفقيرهم، سيدهم وعبدهم
سواسية، وكان رسول الله ﷺ إذا وجد من يذكر الله من المستضعفين
جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل لي في أمتي من أمرني أن أصبر
نفسي معه.

وصل إلى مسامع رسول الله ﷺ بعض شعر سهيل بن عمرو يذمه
فيه، ويطلق عليه لقب مذمم بدلاً من محمد، فحزن الصحابة مما
يسمعون، فقال لهم رسول الله ﷺ ببساطة: ألا تعجبون لما يصرف الله
عني من أذى قريش، يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد.

ثم جاء سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وقد سمع ما قال
رسول الله في الطعام الحلال والحرام، فقال له: يا محمد، إنك تزعم
أنك تتبع أمر الله، ثم تزعم أن ما تذبحون فهو حلال، وما ذبح الله فهو
حرام، فالشاة إذا ماتت من قتلها؟

فأنزل الله تعالى الآيات رداً عليه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ

(١) سورة الكهف، الآيات ٢٨-٣١.

أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءِهِمْ
لِيَجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴿١﴾.

كما كان أبو جهل قد سمع ما تلى رسول الله ﷺ من سورة
الصفات، وجاء فيها ذكر شجرة الزقوم: ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةٌ
الزَّقُومِ ﴿٦٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ
الجحيم ﴿٦٩﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا
فَمَا لَوْ أَنَّ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ إِنَّ
مَرَجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٧٣﴾ ﴿٢﴾.

فذكرها رجال قريش في نادي لأبي جهل، فرأى أبو جهل
الخوف في وجوه الجالسين، فقال متهكماً: يا معشر قريش، إن محمداً
يخوفكم بشجرة الزقوم، أليست تعلمون أن النار تحرق الشجر؟ ومحمد
يزعم أن النار تنبت الشجر! فهل تدرون ما الزقوم؟ هو التمر بالزبدة.
ثم نادى على جاريتته: يا جاريه! ابغينا تمرًا وزبدة، فلننزق
ونأكل من هذا الذي يخوفكم به محمد.

فضحك الحاضرون وأكلوا، وعندما انتهوا قال لهم أبو جهل: ألا
ترون يا سادة أنني عزيز كريم في قومي؟

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢١.

(٢) سورة الصفات، الآيات ٦٢-٦٨.

فهتف به الحاضرون تكريماً لمكانته بينهم، فأوحى الله تعالى إلى رسوله الآيات: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَيْمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُدُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُوءًا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾^(١).

قرر أحد سادة قريش أن الطريق الأمثل لإبعاد الناس عن دين محمد هي إلهائهم بالقصص والأغاني، فقام بشراء جارية مغنية، وكان كلما رأى رجلاً بدأ يستمع إلى ما جاء به رسول الله ﷺ اقترب منه، وعرض عليه أن يجلس إلى جاريته لتغني له وتسقيه الخمر، فيقول له: هذا أفضل لك مما جاء به محمد.

فأنزل الله تعالى الآيات: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾^(٢).

وكان يقول لرسول الله ﷺ: لتكفن عن هذا الدين وشتم آلهتنا، أو لنامرن آلهتنا فتصرعك وتخزيك.

(١) سورة الدخان، الآيات ٤٣-٥٠.

(٢) سورة لقمان، الآية ٦.

فأوحى الله تعالى إلى رسوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ
وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَنْ
يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۝﴾^(١).

وبينما كان رسول الله ﷺ يبحث عن يدعوه إلى الإسلام، رأى
ثلاثة رجال مجتمعين عند الكعبة، يقول أحدهم للآخر: أترى أن الله
يسمع ما نقول؟

فأجابه الثاني: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

فقال الثالث: إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إن أخفينا.

وتناقشوا في ذلك، فأوحى الله تعالى إلى رسوله الآيات: ﴿وَمَا
كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا
جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَلِكَ
ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْنَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَإِنْ
يَصْبِرُوا فَأَلْثَارٌ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ۝﴾^(٢).

ونزلت سورة لقمان وسبأ والزمر وغافر وفصلت والشورى على

(١) سورة الزمر، الآيات ٣٦-٣٧.

(٢) سورة فصلت، الآيات ٢٢-٢٤.

رسول الله، وعلمها للصحابة، وتابع دعوة الناس في الموسم، وتحمل أذى قريش وصدها الناس عنه.

سأل عبد الله بن مسعود رسول الله: يا رسول الله، هل من العلم علم لم تؤته؟

فأجاب رسول الله: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١)، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم أحد متى ينزل الغيث إلا الله، ولا يعلم أحد متى قيام الساعة إلا الله، ولا يعلم أحد ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت.

دخل عتبة بن ربيعة المسجد، فوجد رسول الله ﷺ ينهض من اجتماعه بأحد الوفود إلى الحج، لا يببدو أنهم قد صدقوه ونصروه، ولكنه يرى أن الرسول ﷺ لا يستسلم أبداً، فدخل مجلسه في سادة قريش، وقال لهم: يا سادة قريش، إن محمداً لن يكف عن دعوته إلى هذا الدين مهما لقي من أذى.

فقال أمية بن خلف: فماذا تقول؟

(١) سورة لقمان، الآية ٣٤.

قال عتبة: ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله

يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا.

قال أبو جهل: فعلنا ذلك مراراً فلم يقبل.

قال عتبة: دعوني أكلمه.

فقال الوليد بن المغيرة: قم إليه فكلمه.

فذهب عتبة بن ربيعة وحده إلى رسول الله ﷺ وجلس إليه،

وقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة،

والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به

جماعتهم، وسقّيت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت

به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها

لعلك تقبل منها بعضها. يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به

من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن

كنت تريد به شرفاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك جاناً تراه

لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى

نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

أنصت رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة إلى أن انتهى من

حديثه، فقال رسول الله ﷺ: أقد فرغت؟

قال عتبة: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: فاسمع مني.

قال عتبة: أفعل.

فتلى عليه رسول الله ﷺ: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا
عَمِلُونَ ﴿٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرٌ مَّمْنُونٍ ﴿٧﴾ قُلْ أَيْنَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي
يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ۗ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ
فَوْقَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاجَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿٩﴾ ثُمَّ
أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأخْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٠﴾ فَفَضَّلْنَهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ
سَّمَاءٍ أَمْرَهَا ۗ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ۗ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١١﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَتَمُودَ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ (١)

(١) سورة فصلت، الآيات ١-١٣.

فأمسك عتبة بن ربيعة فم رسول الله ﷺ لحظة ذكر عذاب عاد

وتمود، وقال وهو يرتجف: أناشدك الرحم يا محمد، كف عن ذلك.

ثم تابع رسول الله ﷺ تلاوته: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَاتَانَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي
أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ
الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ
تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ
الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْنَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا
فَالنَّارُ مَثْوَىٰ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ
قُرْنَاءَ فَرِيضُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
 فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا
 كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ
 الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
 وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾
 نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ
 صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
 ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾
 وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّمَا
 يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ
 عَائِيَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
 وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا
 فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿١﴾

(١) سورة فصلت، الآيات ١٤-٣٨.

سجد رسول الله ﷺ ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد^(١) ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى نادية، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم عتبة بن ربيعة بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك؟

قال: ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، واخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأً عظيم، فإن تهزمه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب ويفوز عليهم فملكه ملككم، وعزه عزمكم، وكنتم أسعد الناس به.

نهض أبو جهل غاضباً وقال: سحرك والله بلسانه.

فقال عتبة: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

غادر عتبة النادي، فقال الوليد بن المغيرة: ما بال عتبة؟ حتى وإن يكن هذا الكلام عظيماً، أينزل على محمد ويتركني أنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك سادة ثقيف وعظماء القريتين مكة والطائف، وينزل على يتيم أبي طالب؟

(١) أبو الوليد هي كنية عتبة بن ربيعة.

ضحك الرجال في النادي، وأوحى الله إلى رسوله ما دار بينهم، وأنزل رداً على الوليد بن المغيرة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾^(١).

عرض رسول الله ﷺ نفسه ودينه على بني عبد الله، وقال لهم: إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم.

وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم. وأتى بني حنيفة، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم.

ثم اجتمع رسول الله ﷺ بقبيلة بني عامر بن صعصعة^(٢)، وجلس إلى زعيمهم، وعرض عليه الإسلام وتلى عليه القرآن، فتأثر الرجل تأثراً شديداً، وأعجب بما سمع، فقال له: انتظر أجمع قبيلتي. فجمع قبيلته فقال لهم: يا قوم، جاءني رجل بكلام لم أسمع مثله، فوالله ليظهرن على العرب.

(١) سورة الزخرف، الآيات ٣١-٣٢.

(٢) بنو عامر بن صعصعة، القبيلة ستذكر في هذا الموضع فقط.

قالوا: فما الرأي؟

قال: الرأي عندي أن نتبعه.

قالوا: أنت سيدنا والرأي عندك، فافعل ما شئت.

فعاد إلى رسول الله ﷺ وقال: نعم ما قلت يا محمد، نسلم

وننصرك ومعك سيوفنا، بشرط.

فسأله رسول الله ﷺ: ما هو؟

قال: يكون لي الأمر من بعدك.

قال رسول الله ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

فقال الرجل منزعجاً: يا محمد، نعرض رقابنا لسيوف العرب،

ثم يكون الأمر لغيرنا! اجعل لي الأمر من بعد ندفع عنك.

فقال رسول الله ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

نهض الرجل منزعجاً رافضاً الإسلام والدفاع عن رسول الله ﷺ،

ورجع مع قومه إلى قبيلته، فاستقبلهم شيخ كبير في السن وعالم في

القبيلة، فسألهم عما فعلوا، فأخبروه خبر رسول من عند الله، وقالوا:

جاءنا فتى من قريش أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي، يدعوننا إلى

أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا.

فقال لهم: ويلكم! كيف تركتموه؟ أما علمتم أن هذا زمن نبي

وأنه من بني إسماعيل؟ والله ما ادعاها إسماعيلي قط، فكيف تركتموه؟
هل لكم أن تتداركوا ما فعلتم؟
ولكنهم لم يطيعوه ولم يسمعوا رأيه.

وذهب رسول الله ﷺ إلى قبائل أخرى، يقول لهم: لا أكره أحداً
منكم على شيء، من رضي منكم بالذي ادعوه إليه فذلك، ومن كره لم
أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل، حتى أبلغ
رسالة ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء.

فلم يقبله أحد منهم، بل كانوا يقولون: قوم الرجل أعلم به،
أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه وتركوه.

ثم اتجه رسول الله ﷺ مع أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب
إلى وفد يثرب من الخزرج، وكانوا اثنا عشر رجلاً^(١) قدموا للحج،
ونزلوا عند منطقة العقبة بمنى، فقابلهم رسول الله ﷺ كما قابل
القبائل قبلهم يسألهم: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

(١) من الوفد: أسعد بن زرارة، عبادة بن الصامت (لهما دور في السيرة)، عوف بن الحارث،
معاذ بن الحارث، رافع بن مالك، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر، زكوان بن عبد قيس،
يزيد بن ثعلبة، العباس بن عبادة، أبو الهيثم بن التيهان، عويم بن ساعدة.

قال رسول الله ﷺ : أمن موالي يهود؟

قالوا : نعم.

قال رسول الله ﷺ : أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا : بلى.

فجلسوا إلى رسول الله ﷺ وأبي بكر وعلي ، يصغون إلى الحديث الشائق من رسول الله ﷺ ، والذي كانوا قد سمعوا عنه من قبل من حلفائهم من اليهود ، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، وتلى عليهم القرآن ، وهم مأخوذون بسحر بيانه وإعجاز ما فيه ، وظلت أصوات اليهود ترن في آذانهم وهم يتوعدون : سيبعث نبي قد أظل زمانه ، نتبعه ، نقتلكم معه قتلة عاد وإرم.

أنهى رسول الله ﷺ كلامه وسط صمت الجميع ، ثم نظروا إلى بعضهم ، فقال عبادة بن الصامت^(١) لرسول الله ﷺ : هل تأذن لنا أن نتشاور فيما سمعنا؟

فأذن لهم رسول الله ﷺ ، والتف الرجال إلى بعضهم يتهامون ، قال عبادة بن الصامت : يا قوم ، والله هذا صادق ، وإنه للنبي الذي يذكر بنو يهود ويستفتحون به عليكم ، إنه للنبي الذي

(١) عبادة بن الصامت ، صحابي ، من سادة الخزرج ، له دور في السيرة.

توعدكم به يهود أن يذبحونا به ذبح عاد وثمود، فلا تسبقنكم يهود إليه.

قال أسعد بن زرارة^(١): فما الرأي؟

قال عبادة بن الصامت: نسمع ما عنده، ونبايعه على ما يريد، فهو والله حق، وإما أن يظهر عليكم أو تظهروا معه.

فاتفقوا على ذلك، وعادوا إلى رسول الله ﷺ يقولون: إنا نصدقك، وقبلنا منك ما تقول، أنت رسول الله قد عرفناك وآمنا بك، فمرنا بأمرك فإننا لن نعصيك.

استبشر رسول الله ﷺ بردهم كثيراً، وفرح أبو بكر وعلي بن أبي طالب وتهلل وجههما، فأجابهم رسول الله ﷺ: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا وإن شاء عاقبه.

فوافقوا وبايعوه على ذلك، ثم قال أسعد بن زرارة: يا رسول

(١) أسعد بن زرارة، صحابي، من سادة الخزرج، له دور بسيط في السيرة.

الله، إنا قد تركنا قومنا بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

وجلس رسول الله ﷺ إليهم يعلمهم الدين، وأجلسهم بين أصحابه فترة تواجدهم في مكة، ثم أوشك القوم على الرحيل إلى يثرب وما يزالون يريدون تعلم المزيد، فعرضوا على رسول الله ﷺ أن يحضر معهم، فأجابهم: حتى يأذن لي ربي.

فقال أسعد بن زرارة: امكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك وندعوهم إلى الله عز وجل ورسوله، لعل الله يصلح ذات بينهم.

عاد الوفد إلى يثرب، وهناك شعروا بحاجة إلى من يعلمهم أكثر عن دينهم، ويقرئهم القرآن، ويعلم الناس، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً جلس إلى رسول الله ﷺ يقول له: يا رسول الله، إنا نريد أن نتعلم المزيد، فهلا بعثت إلينا رجلاً من أصحابك يعلمنا في يثرب. فنظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ليختار منهم الأنسب لهذه

المهمة، رجل يثق به ويعلمه، رزين وراجح العقل، حسن الخلق، صاحب حجة يقنع الناس، يحفظ القرآن ويفهم كل ما جاء فيه، ويعلم توجيهات رسول الله ﷺ.

وقع اختيار رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير، رغم أنه كان ما يزال شاباً صغيراً، إلا أن هذه الصفات كلها كانت تنطبق عليه، ويثق به رسول الله ﷺ ثقة كبيرة. أمره بالسفر إلى يثرب، يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويؤمهم في الصلاة، وزوده بنصائحه وتوجيهاته، ودعا له بالتوفيق والسداد في مهمته.

وسافر مصعب بن عمير من فوره إلى يثرب، يحمل مهمة كبيرة في هداية قوم يعبدون الأوثان، ويتقاتلون بينهم كل عام.



١هـ | ٦٢١م

إسلام أهل يثرب

رحل مصعب بن عمير، الشاب ذو الرابعة والعشرين من العمر، من مكة إلى يثرب، ودخل يثرب التي يزينها النخيل من كل مكان، وما إن خطا داخلها حتى صلى ركعتين يدعو الله أن يسدده في مهمته، ويهدي أهل هذه المدينة الطيبة إلى الإسلام ونصرة رسول الله ﷺ.

نزل مصعب بن عمير في ضيافة أسعد بن زرارة، حيث كان سيداً في بني الخزرج، أطعمه وآواه، وحضر له مجلساً يستقبل فيه كل من يريد أن يسمع عن الدين الجديد، وأطلق عليه الناس لقب المقرئ.

أما عبادة بن الصامت، فقد لقيه صديق له من اليهود، وسأله عن مصعب بن عمير القرشي الذي أحضروه معهم، فقال له عبادة بن الصامت: إنه صديق لرسول الله الذي كنتم تنتظرون.

جفل اليهودي، ونشر الخبر بسرعة في قبائل اليهود، فدخل على عبادة بن الصامت أحبار اليهود وعلمائهم ممن ينتظرون ظهور نبي آخر الزمان، استقبلهم عبادة بن الصامت وأجلسهم إليه، فبدؤوا يسألونه: صف لنا النبي وصفاً كأنه جالس بيننا.

فقال عبادة بن الصامت: لقد رأيته أول مرة، فاستقرت محبته في قلوبنا، حتى لا يستطيع أحدنا أن يحول وجهه عنه، في وجهه وضاعة ونور، وفي عينيه بريق يأخذ بلب صاحبه، ليس بالقصير ولا بالطويل، أبيض ذو صفيرتين، بين كتفيه خاتم النبوة، لا يقبل الصدقة، يركب الحمار والبعير ويحلب الشاة.

خيم الصمت على المكان، واقترب منه الأحبار أكثر ليسمعوا المزيد، فقال عبادة: واختبرناه، فكان ألين الناس وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً ليس بفظ ولا غليظ، وليس يرفع صوته بشكل قبيح، يعفو ويغفر، لا تغلق دونه الأبواب، ولا يقف أحد على بابه للحراسة، ولا يقدم له الغداء في القدور، يجلس على الأرض، ويأكل طعامه بالأرض، ويلبس الخشن من الثياب، ويلعق أصابعه، يتكلم بكلام قليل واضح يحفظه من يسمعه.

سرت بين اليهود همهمات، فما نقص عبادة في وصفه عما في

كتبهم، فتابع عبادة: بايعنا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.

فقاطعه أحد الرجال قائلاً: إن فعلتم ذلك، ونفذتم ما أمركم به،

ماذا يعطيكم هذا النبي الجديد؟

قال عبادة بن الصامت: ليس عنده شيء يعطيه من مال أو عقار،

ولكن الرسول قال أن من فعل ذلك فله الجنة، وإن وقعنا في الخطيئة فأمرنا إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذب.

سأل حبر منهم: هذا النبي، ألا يقيم حدوداً؟ ألا ينفذ شرعاً؟ ألا

يطبق أحكام الله؟

قال عبادة: قال أنه إن فعلنا الخطيئة، فأخذنا بعقابه في الدنيا

فهو كفارة له، يغفر الله لنا بها، وإن سترنا الله على المعصية إلى يوم القيامة فأمرنا إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر.

ظل اليهود يسألون عبادة بن الصامت ويثقلون عليه في السؤال،

وهو يجيب كما ورد عندهم في كتبهم، إلى أن حل الليل، وغادر اليهود مجلسهم عنده وكلهم في حالة شرود لما سمعوا، وكتبوا دهشتهم إلى أن عادوا إلى مجالسهم وحدهم يتحاورون في شأن هذا النبي الجديد، وما

سيفعلون وما سيتفقون عليه معاً.

بدأ الناس يتوافدون على مجلس أسعد بن زرارة، يستقبلهم ويعرفهم على مصعب بن عمير، الذي يعرض عليهم الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، ويوضح لهم ما جاء به رسول الله ﷺ، وبين مصدق ومعجب ومشكك انتشر خبر وجود مصعب بن عمير والدين الجديد في كل أنحاء يثرب بين الخزرج والأوس واليهود، وبدأ مصعب بن عمير يأم الصلاة في الذين دخلوا الدين الجديد، ويعلمهم ويحيب عن جميع تساؤلاتهم.

قلائل من أهل يثرب كانوا قد تركوا عبادة الأوثان وبحثوا عن الإله الخالق، واعتزلوا ما يفعله أهل يثرب، كانوا أول من اتجه إلى مصعب بن عمير ليدخلوا في الدين الجديد.

منهم أبي بن كعب^(١)، سيد بني الخزرج، كان قد اعتزل يثرب وعاش في أطرافها وحيداً منذ زمن، يتأمل في الدنيا، ويبحث عن الخالق في أوراق التوراة، ولكنها لم تشف غليله.

كان يحس أن البشرية في فترة من الفترات قد ضلت طريقها،

(١) أبي بن كعب، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

وألغت عقلها عندما اتجهت بالولاء والتقدير إلى الشجر والحجر،
أ يكون لهذا الجماد من القدرة على النفع والضر ما ليس للإنسان؟
من خلق السماء والأرض؟ والنجوم والجبال والبحار؟ والنبات
والرياح؟

رجع إلى يثرب فوجد فيها تغيرات جديدة، وعندما سأل قال له
أحدهم: إنه رسول جديد ظهر في مكة، وأخذ يدعو قومها إلى نبذ
الأصنام، ويدعو إلى عبادة الواحد الأحد، حاربه قومه، وجاء أحد
أتباعه إلى يثرب منذ أيام ونزل في منزل أسعد بن زرارة.

دق قلبه عندما سمع ما سمع، وأسرع إلى منزل أسعد بن زرارة
يطرق الباب ليعرف الحقيقة، واستقبله مصعب بن عمير، وأجلسه
إليه، فما إن سمع منه ما جاء به من الدين الجديد حتى عرف أنه ما
كان يبحث عنه، وقال: هذا أخيراً الحق، هذه ضالتي التي بحثت
عنها طويلاً، أشهد أنك رسول رسول الله، وأشهد أن الله حق، خلق كل
مخلوق.

وقرر أن يذهب في أول جمع يغادر إلى مكة لمقابلة الرسول ﷺ.

كما بدأت مجالس الأوس تصل إلى مسامعها ما جاء به أسعد بن

زرارة، سيد الخزرج، من أمر مستحدث عليهم من مكة، وكان سيد الأوس هو سعد بن معاذ^(١)، ابن خالة أسعد بن زرارة، كان يجلس في مجلسه إلى جانب صديقه العزيز أسيد بن حضير^(٢)، وكلاهما في الثلاثين من العمر، حين قدم رجل إليهما يقول: يُقال أن هناك رجل في مكة يدّعي النبوة، وقد حضر رسول له إلى يثرب يعلم الناس الدين الجديد، اسمه مصعب، وهو في استضافة أسعد بن زرارة.

نظر سعد بن معاذ إلى الرجل وقال: يبدو أنك تعرف الكثير عن هذا المبعوث.

قال الرجل: يقول كلاماً لم أفهم منه الكثير، ولكنني سمعت أن أهل مكة لم يقبلوا ما جاء به، يفرق به بين المرء وأخيه، وبين القبيلة وأبنائها.

غضب سعد بن معاذ لما سمع، وقال: جاء الخزرج برجل من مكة ليزيد نار الفرقة بيننا، ألا تكفينا حروبنا وشقاقنا وقتلانا إلى الآن! ونظر إلى صديقه أسيد بن حضير الذي كان يشاركه الرأي، وقال له: انطلق إلى هذا الرجل، وأثقل عليه في الكلام، لعله يغادر يثرب

(١) سعد بن معاذ، صحابي، سيد في الأوس، له دور في السيرة كاملة.

(٢) أسيد بن حضير، صحابي، سيد في الأوس، له دور في السيرة كاملة.

ويتركنا وشأننا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت أنه ابن خالتي، كفيتك ذلك.

نهض أسيد بن حضير من فوره، وحمل رمحه غاضباً، واتجه إلى مجلس أسعد بن زرارة حيث يجلس مصعب بن عمير يحدث الناس عن الدين الجديد، ودخل المجلس والنشر يتطاير من عينيه، فرآه أسعد بن زرارة وقال لمصعب بهدوء: هذا أسيد بن حضير، سيد في قومه، جاءك فاصدق الله فيه.

نظر مصعب إلى أسيد الغاضب فقال بهدوء: إن يجلس أكلمه.
فقال أسيد غاضباً: ما جئت لأجلس ولا لأستمع، لقد جئت لألقن هذا الرجل درساً قاسياً يرد له عقله، ويرجعه إلى بلده، ويجعله لا يفكر في العودة مرة أخرى إلى هذه البلاد، ما جاء بك إلى هنا تفرق جمعنا وتغير أحوالنا؟ اعتزلنا إن كانت لك بنفسك حاجة.

فقال مصعب بن عمير بهدوء: أو تجلس فتستمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

ساد الصمت المكان، ونظر الناس إلى أسيد حيث أفحمه مصعب برد بليغ هادئ، فقال: أنصفت.

فركز رمحه وجلس بتناقل ليستمع إلى ما جاء به مصعب، فبدأ

مصعب يحدثه بهدوء، ويشرح له ما جاء به الدين الجديد، ويقرأ عليه القرآن، فبدأ وجه أسيد يتغير شيئاً فشيئاً، وعلم أن ما جاء به مصعب أمر مختلف تماماً عما سمع من قبل، فانشرح له صدره، وقبل أن ينهي مصعب حديثه قال أسيد: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، ماذا تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا الدين؟

قال مصعب: تغتسل وتتطهر ثم تشهد شهادة التوحيد وتصلي. فقام أسيد فاغتسل وتطهر ونطق الشهادة أمام الجميع، وتعلم الصلاة وصلى أول ركعتين له في حياته، ثم قال لمصعب بن عمير: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن.

كان سعد بن معاذ ينتظر عودة صديقه أسيد ليرسم الخبر، ويرى ما فعل، ولكن صديقه تأخر عليه، وعندما عاد ودخل كان وجهه قد تغير تماماً، فعلم سعد بن معاذ أن صديقه قد عاد بغير الوجه الذي ذهب عليه، فسأله سعد: لقد عدتَ بغير الوجه الذي ذهبت به، ما وراءك؟

تردد أسيد في أن يخبر صديقه الغاضب أنه قد أعجب بمصعب وبما جاء به من دين، وأنه بات على دينه في جلسة واحدة، فقال: كلمتُ

الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.
فهم سعد بن معاذ أن صديقه إنما يريد له أن يذهب ويستمتع
بنفسه إلى هذا الرجل، فقال له: والله ما أراك أغنيت شيئاً.
ونهض وما يزال غاضباً وغير راض عن رجل يحضر من مكة
ليفرق أمر الأوس والخزرج بدين جديد، فحمل رمحه واتجه إلى منزل
ابن خالته أسعد بن زرارة.

وصل سعد بن معاذ منزل أسعد بن زرارة يحمل الرمح ليأمر
مصعباً بترك يثرب والعودة فوراً إلى مكة، وما إن وصل إلى هناك وجد
عدداً من الرجال يتحلقون حول مصعب بن عمير ليسمعوا عن الدين
الجديد، هذه فتنة سريعة تحرق يثرب كالنار الهائجة! قال سعد
غاضباً لابن خالته أسعد بن زرارة: يا أسعد، أما والله لولا ما بيني
وبينك من القرابة ما جئت، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

فقال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله
سيد من ورائه من قومه الكثير، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.
فنظر سعد بن معاذ إلى مصعب بن عمير وقال: أنت الذي جئت
تفرق بين المرء وأخيه؟ أنت الذي جئت تفسد علينا ديننا وأولادنا
وبلدنا؟ اخرج من بيننا.

فقال له مصعب بهدوء: هل أدلك على أفضل من ذلك؟

قال سعد: وما ذاك؟

قال مصعب: تجلس فتسمع، فإن أعجبك ما أقول كان بها، وإن

كرهته أبعدنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت.

ثم ركز رمحہ وجلس يسمع إلى ما جاء به مصعب، فعرض عليه

مصعب الإسلام، وقرأ أول آيات من سورة الزخرف: ﴿حَمِّمٌ ۝ وَالْكِتَابِ

الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمَّ

الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٌ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ

قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ

إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ

الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً

مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

الْفُكِّ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِيَتَسْتَوْا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ

رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا

لَهُ مُّقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ۝ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ

الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَدَكُمْ بِالْمَنِينِ ﴿١٦﴾
 وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
 كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا
 الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ
 وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ
 إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ عَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
 مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
 مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ
 مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ
 أُولُو عِزْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
 بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿١﴾

وكان لمصعب إشراقة في الوجه، ويسر في الكلام، وتحبب إلى
 الناس، وسماحة في الوجه، يجذب إليه كل من يسمع له، فتهلل وجهه
 سعد بن معاذ لما سمع وقال: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في
 هذا الدين؟

قال مصعب: تغتسل فتطهر جسدك وثوبك، ثم تشهد شهادة

(١) سورة الزخرف، الآيات ١-٢٥.

الحق، ثم تصلي ركعتين.

فقام سعد بن معاذ، وتطهر، وشهد الشهادتين، ثم صلى ركعتين خلف مصعب بن عمير، ثم أخذ رمحه وعاد إلى ناديه في قومه حيث صديقه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف عليهم قال سعد: يا قومي، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا رأياً وأشرفنا.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

ابتهج أسيد بن حضير لما شرح الله به صدر صديقه، ووقف يقول: يا قومي، إنني كذلك أقول لكم، رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

فما أمسى دار في قومهما من الأوس إلا ودخل فيه أهله الإسلام، وقام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير بتكسير أصنام قبائلهم بين عشية وضحاها، وباتا كثيراً التردد على منزل أسعد بن زرارة ليستمعوا إلى مصعب بن عمير، ويتعلما الدين الجديد.

انتشر الإسلام سريعاً في المدينة، ولم يبق دار فيها إلا وفيها مسلم، إلا بقية من عائلات قليلة، ومن ضمن من أسلم في يثرب حذيفة بن اليمان^(١) وأبوه^(٢)، الذي كان يسكن مكة، ولكنه هرب منها إلى يثرب بعد أن طالبته مكة بثأر، وسكن في جوارها، لم يستطيع الصبر حتى موسم الحج حتى يقابلا رسول الله ﷺ، فحزما أمتعتهما، وهاجرا من يثرب إلى مكة لمقابلة رسول الله ﷺ.

وصلا مكة، وبحثا عن رسول الله ﷺ إلى أن وجدها قد زار منزل سعد بن أبي وقاص، حيث كان سعد مريضاً، فدخل عليه الرسول ﷺ، فمسح على وجهه وصدره وبطنه وقال: اللهم اشف سعداً. فشفي سعد من فوره، وشعر ببرد يد الرسول ﷺ على كبده طول عمره.

ثم لقي رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ووالده، فعرفا عن نفسيهما، وكانا سعيدين جداً بالجلوس إلى رسول الله ﷺ ورؤية وجهه المنير، وهيبة النبوة في كل جوارحه، وقال له حذيفة بن اليمان: يا رسول الله، ما استطعنا أن نبقي ونتركك.

(١) حذيفة بن اليمان، صحابي، له دور في السيرة كاملة.

(٢) أبو حذيفة اسمه اليمان بن جابر، وكان اسمه قبل الحسيل بن جابر.

فرح بهما رسول الله ﷺ، وقال لهما: يا حذيفة، إن شئتَ كنتَ من المهاجرين، وإن شئتَ كنتَ من الأنصار، فاختر أيهما أحب إليك فتكون منهم.

والمهاجرون هم أهل مكة الذين سيهاجرون إلى إخوانهم في الإسلام في يثرب، والأنصار هم أهل يثرب الذين سينصرون إخوانهم من مكة، فأجاب حذيفة بن اليمان: بل أحب أن أكون أنصارياً من قومي يا رسول الله.

فقال له رسول الله ﷺ: لك ذلك.

وضمه وأبوه إلى الصحابة يعتنون بهما ويؤونهما.

لم يكن إقبال الجميع في يثرب على الدين الجديد واحداً، فكان منهم من ظل على عبادة الأصنام، وكان منهم من يرفض قدوم رسول الله ﷺ إليهم وهو غريب عنهم، وكان أكثرهم متأثراً بقدوم الدين الجديد ورسول الله ﷺ إلى يثرب هو عبد الله بن أبي بن سلول.

فبعد حرب بعاث، كانت يثرب قد قررت أن تجتمع حول عبد الله بن أبي بن سلول، ذو العقل الراجح، والجاه والسيادة، والثروة والأعوان، وتتوجه ملكاً عليهم يوحد صفهم قبل أن يتعرفوا على رسول

الله ﷺ والدين الجديد ليتحدوا تحت رايته.

شعر عبد الله بن أبي بن سلول بالناس تنفض من حوله، يلتفون حول الدين الجديد، وينتظرون رسول الله ﷺ، فحقد على رسول الله ﷺ وعلى الدين الجديد، بل ورأى قبيلته وأفراداً من أسرته قد آمنوا واتبعوا الدين الجديد قبل أن يسمعو رأيه أو يستشيروه فيه. أعلن عبد الله بن أبي بن سلول أنه على الدين الجديد مكرهاً، فلم يكن يريد لقبيلته وأتباعه أن يروا الغيرة والحقد في عينيه وهو صاحب الجاه والمال والعقل الراجح، ولكنه كان يغلي في جوفه، ويكره رسول الله ﷺ من كل قلبه.

علم الصحابة في مكة أن كثيراً من أهل يثرب قد دخلوا في الإسلام، وهم على استعداد لاستقبال إخوانهم المسلمين من مكة، فدخل أبو سلمة على زوجته أم سلمة يقول لها: يا أم سلمة، أسلمت يثرب، إخواننا هناك في انتظارنا، فما رأيك أن نرحل إليهم وقد فقدنا الجوار هنا بعد وفاة أبي طالب؟

قالت أم سلمة: نعم الرأي يا زوجي، فقد أودينا كما أودى الكثير من أصحابنا، وقد كان لنا في الهجرة إلى الحبشة خير، فلنحزم

أمتعتنا ونهاجر إلى يثرب.

حزم أبو سلمة وأم سلمة أمتعتهم، وأخذا ابنيهما سلمة معهما،
وركبا البعير متجهين إلى يثرب، ولكن الخبر وصل إلى قبيلة مخزوم،
وانقسمت القبيلة بين أبناءها، حيث كانت أم سلمة من أبناء المغيرة
المخزومي، بينما كان أبو سلمة من أبناء أسد المخزومي، فقال أبناء
المغيرة لأبي سلمة: هذه نفسك غلبتنا عليها، ولكن زوجتك هذه منا،
علام نتركك تسير بها وترحل في البلاد؟

فنزعوا حبل البعير من يد أم سلمة، وأخذوها واستعادوها منه
لتدخل مكة، وكان على بعيورها ابنها سلمة، فغضب عند ذلك بنو أسد
المخزومي، أهل أبي سلمة، فقالوا: لا والله لا نترك ابننا سلمة عندها
إن نزعتموها من صاحبنا أبي سلمة.

فتجاذب الطرفان سلمة الصغير بينهم، وأم سلمة تنادي فيهم:

ولدي ولدي، دعوا ولدي!

حتى خلعوا يده، وأخذه بنو أسد المخزومي وحبسوه عندهم،
وأخذ أم سلمة بنو المغيرة المخزومي، وحبسوها عندهم رغم استنجاها
وصياحها لولدها وزوجها، بينما انطلق أبو سلمة وحده إلى يثرب،
فتفرقت العائلة تماماً، فكانت أم سلمة تخرج كل صباح تجلس على

تلال مكة تبكي زوجها وابنها، وتدعو الله أن يجمع بينهم قائلة: يا
الله، يا الله، اجمعنا يا الله، فرِّج عَنَّا يا الله، ارحم ضعفنا يا الله.



١هـ | ٦٢١م

أواخر السور المكية

ما زالت قريش تعاني القحط الشديد بدعاء رسول الله ﷺ عليهم بسنين كسنين يوسف، فشق ذلك عليهم، وما بقي لديهم ما يأكلون، حتى باتوا يأكلون العظام، وباتت هيئة السماء تشبه الدخان من الجذب والقحط وبعد المطر، وأنزل الله فيها الآيات: ﴿فَأَرْقُبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَعْنَى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾^(١).
تأذت قريش كثيراً من القحط، واجتمعوا فيما بينهم، فقال عتبة بن ربيعة: واللات يا قوم إنكم تعلمون أن إله محمد قد استجاب لدعائه، وإن سنين يوسف سبع شداد لن نقوى عليها.
قال أبو لهب: لقد هلكننا، ما لنا من طعام ولا شراب، وإن أموالنا لتضيع، وتجارتنا لتكسد.

(١) سورة الدخان، الآيات ١٠-١١.

قال أبو سفيان: نكلم محمداً في أمر دعواه، فإنه لين هين.
قرروا مجبرين أن يبعثوا إلى رسول الله ﷺ من يقنعه أن يدعو
إليه أن يرفع عنهم البلاء، فذهب سهيل بن عمرو مع أبي سفيان إلى
رسول الله ﷺ، فجلسا إليه يسترحمانه، فقال سهيل بن عمرو: يا
محمد، استسق لنا، فإننا قد هلكننا.

وقال أبو سفيان بن حرب: يا محمد، جئت تأمرنا بصلة
الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم.

فدعا رسول الله ﷺ أن يكشف الله عنهم القحط وينزل عليهم
المطر، فاستجاب له، وأمطرت مكة، وفرح أهلها، وعادت الحياة
إليهم جميعاً، ولكن أحداً من المعاندين لم يؤمن، وظلوا على كفرهم
وجحودهم، فأنزل الله تعالى فيهم الآيات: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا
الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ أَلَيْسَ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ ثُمَّ
تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٨﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ
عَائِدُونَ ﴿١٩﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٠﴾﴾^(١).

فتوعدهم رب العالمين ببطشة أكبر من هذه، تهلك الكافرين.

(١) سورة الدخان، الآيات ١٢-١٦.

كان العاص بن وائل، الذي تأذى رسول الله ﷺ منه كثيراً وتوعده جبريل بالعذاب، قد خرج إلى الطائف، فداس على جذع شجرة هناك، فدخلت في رجله شوكة تقيحت، فكانت كلما انتفخت أكثر فأكثر يقول: هذه دعوة محمد! هذا سحر محمد! قتلني محمد!

فمات منها، وحزن عليه ولده عمرو بن العاص، وتوعد رسول الله ﷺ بالانتقام يوماً ما، وبقي الوليد بن المغيرة وحده ممن كفاهم الله تعالى لرسول الله ﷺ.

خشي الوليد بن المغيرة على نفسه بضعة أيام، وذات ليلة طاف بالكعبة مع أبي جهل يتحدثان في شأن رسول الله ﷺ، وما توعدهم، وكيف أصابهم القحط ثم استسقى لهم، وكيف أن إلهه يعاونه، فقال أبو جهل: والله إنني لأعلم أنه لصادق.

جفل الوليد بن المغيرة وزاد قلقه وقال: وما ذلك على ذلك؟

أجاب: أيها الوليد، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن! والله إنني لأعلم أنه لصادق.

فقال الوليد: فما منعك أن تصدقه وتؤمن به يا أبا الحكم؟

ابتسم أبو جهل وقال: تتحدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى لا أتبعه أبداً.

تنهد الوليد بن المغيرة، وزاد قلقه وحيرته في شأن رسول الله ﷺ، وبينما هما يطوفان إذ مر عليهما رجل^(١) يأخذ حجراً أثناء طوافه يعبده، فإذا رأى حجراً أحسن رمى الأول وأخذ الثاني يعبده، ويقول: لقد غرّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث.

توقف الوليد بن المغيرة يظن أنه ما يزال يؤمن بما قاله الرجل آنفاً، وأوحى الله تعالى إلى رسوله ما قاله الرجل، وأنزل فيه الآيات: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٣).

ونزلت سورة الأحقاف، والذاريات، والغاشية، وقام رسول الله ﷺ بتعليمها للصحابة. وبينما كان سادة قريش قد اجتمعت في دار الندوة يناقشون أمر رسول الله ﷺ والدين الجديد الذي لم يستطيعوا إخماده، بل ويزداد أتباعه يوماً بعد يوم، قال النضر بن الحارث العالم

(١) الرجل هو الحارث بن قيس السهمي، سيذكر في هذا الموضع فقط.

(٢) سورة الجاثية، الآيات ٢٣-٢٤.

بالأساطير: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في رأسه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفتهم وعقدهم، وقلتم: كاهن. لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر. لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه وزجره، وقلتم: مجنون. لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم.

فقال له عتبة بن ربيعة: لتذهب أنت وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في يثرب، وسلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء.

اتفقوا على ذلك، وخرج عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث حتى قدما يثرب، ودخلا على أحبار اليهود، وأخبروهم عن صفة رسول الله ﷺ وأمره الذي جاء به، وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل

التوراة، قد جنناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فاجتمع أحبار اليهود، وبعد نقاش بينهم قال أحدهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه أمركم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي، فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

ابتهج عقبة والنضر، وعادا مسرعين إلى أهل مكة، ووقفوا في دار الندوة يقولان: يا معشر قريش، قد جنناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرنا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم. ابتهج سادة قريش، وأسرعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال أبي بن خلف: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، وعن رجل كان طوفاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي. علم رسول الله ﷺ أنهم قد جاؤوا بأسئلة من أهل الكتاب، وهم يحتاجون في علم الله، فقال لهم: أخبركم بما سألتكم عنه غداً.

فغادروا، وانتظر رسول الله ﷺ الوحي من الله ليحاج القوم فيما سألوه، ويؤمنوا به، فمكث الليلة دون أن ينزل الوحي، فحضر إليه سادة قريش يسألونه: ما قلت فيما سألنا؟

فطلب إليهم رسول الله ﷺ أن يمهلوه، وفرحوا وأمهلوه إلى الغد، ولكن الوحي لم يتنزل أيضاً، وطلب إليهم رسول الله ﷺ أن يمهلوه، فشعروا أنهم أخيراً بدؤوا ينتصرون على رسول الله ﷺ في حجج لم يفحمهم بها.

ولكن الأيام مرت، ولم يتنزل الوحي على رسول الله ﷺ، وشق ذلك كثيراً على الرسول، فقد باتت قريش تهزأ به، وتشكك في أمر الوحي.

ومرت خمس عشرة ليلة دون أن يتنزل الوحي، ولا يأتيه جبريل، حتى قال أمية بن خلف: وعدنا محمد غداً واليوم خمسة عشرة ليلة قد أصبنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه.

وقال أبي بن خلف: ظهر كذب محمد، إنه لا يعلم شيئاً، وعلم اليهود أكبر من علمه.

وقال أبو جهل لرسول الله ﷺ: ألا ينزل عليك شيطانك خمسة عشر ليلة يا محمد! أي رسول أنت؟

وضحكوا منه وسخروا، وشق على رسول الله ﷺ ما يتكلم به أهل مكة، وتردد إلى الجبال إلى أن جاءه جبريل، وفرح رسول الله ﷺ بقدمه كثيراً، وقد أوحى الله إليه آيات من سورة الكهف ترد على جميع أسئلتهم، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً.

فقال جبريل: ﴿وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(١).

وجمع رسول الله ﷺ أهل مكة، وتلى عليهم آيات من سورة الكهف، ترد على جميع أسئلتهم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٥﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴿١٧﴾ لَمَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٨﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا ﴿١٩﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٢٠﴾ وَإِذْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأْنَا إِلَى الْكَهْفِ

(١) سورة مريم، الآية ٦٤.

يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴿١٦﴾
وَ تَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ
تَقْرِبُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ
اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْسِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ
أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ
ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَتْ مِنْهُمْ
رُغْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا
لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ
بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ
مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا
عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ
بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا
عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَنَامْنَاهُمْ
كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً
ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ
ذَلِكَ عَدَاً ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكَر رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن
يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِئُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ

وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٥٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ
أَحَدًا ﴿٥٦﴾ ﴿١﴾ .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٥٧﴾
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٥٨﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٥٩﴾ حَتَّى
إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا
قُلْنَا يَبْنَذُ الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٦٠﴾ قَالَ أَمَّا
مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٦١﴾ وَأَمَّا
مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ﴿٦٢﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ
قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٦٤﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٦٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا
يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٦٧﴾ قَالُوا يَبْنَذُ الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٦٨﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
رَدْمًا ﴿٦٩﴾ ءَاثُونِي رُبْرُ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا
حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاثُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٧٠﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ
يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٧١﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

(١) سورة الكهف، الآيات ٩-٢٦.

رَبِّي جَعَلَهُ دَكَاةً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٨٣﴾^(١).
 ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ
 الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

فرح الصحابة بما نزل على رسول الله ﷺ من الآيات والإجابة الواضحة على تساؤلات اليهود، بينما ظل سادة قريش على عنادهم، ولم يأبهوا بما جاءهم به من الإجابات، وبين جبريل ﷺ أنه كان على رسول الله ﷺ أن يقول: إن شاء الله، إذا قال إني فاعل ذلك غداً.

بعد أن أخبر علماء اليهود عن تلك الإجابات، بعثوا وفداً يحتجون فيه إلى رسول الله ﷺ، فحضروا مكة، ووقفوا بين يدي رسول الله يسألون ويستفسرون عما جاء به، فقال سيدهم: أخبرنا يا محمد بهذا الذي جئتنا به حق من عند الله عز وجل، فإننا لا نراه متناسقاً كما تناسق التوراة.

فقال لهم رسول الله: أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به.

(١) سورة الكهف، الآيات ٨٣-٩٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

فقال أحدهم: يا محمد، ما يعلمك هذا إنس ولا جان؟

فقال رسول الله: أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

فقال آخر: يا محمد، إن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما شاء، ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتاباً تقرؤه ونعرفه، وإلا جنناك بمثل ما تأتي به.

فأنزل الله تعالى فيهم الآيات: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) (١).

فغادروا، وفي اليوم التالي جلس أحد الوفد إلى صاحبه يحاوره في خلسة: اذهب بنا إلى هذا النبي فنسمع منه.

فقال صاحبه: لا تقل نبي، إنه لو سمعك كان له أربع أعين.

فذهبا إلى رسول الله ﷺ دون إعلام القوم، وطلبا إليه أن يسمعهما شيئاً من القرآن، فتلى رسول الله الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَقَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (٣١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٥﴾^(١).

فسأل أحدهما: يا محمد، ما هي الآيات التسع البيّنات؟

أجاب: هنّ: ولا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا بيريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحرّوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولّوا يوم الزحف، وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت.

فقبلا يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبي!

قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟

قالوا: إن داوود دعا أن لا يزال من ذريته نبي، وأنا نخاف إن اتبعناك أن يقتلنا يهود.

نزلت سورة الكهف تحدث عن خبر الخضر مع موسى عليه السلام، فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الصحابة يعلمهم حكاية موسى والخضر يقول: قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين^(٢) هو أعلم منك. قال: يا رب،

(١) سورة الإسراء، الآيات ١٠١-١٠٢.

(٢) مجمع البحرين يعني ملتقاهما.

وكيف به؟ فقليل له: احمل حوتاً في مكتل^(١)، فإذا فقدته فهو ثم. فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحملا حوتاً في مكتل، حتى كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما، فانسل الحوت^(٢) من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سرباً^(٣)، وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً^(٤). ولم يجد موسى شيئاً من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، فقال له فتاه: رأيت إذ أوبنا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان. قال موسى: ذلك ما كنا نبغي. فارتدا على آثارهما قصصاً^(٥)، فلما انتهيا إلى الصخرة إذا رجل مسجى^(٦) بثوب، فسلم موسى فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه

(١) المكتل يعني الوعاء.

(٢) انسلّ الحوت يعني خرج بخفة.

(٣) السرب يعني المسلك الخفي.

(٤) النصب يعني التعب.

(٥) آثارهما قصصاً يعني عاداً من حيث أتيا.

(٦) مسجى يعني مغطى.

لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. فانطلقا
يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر فحملوهما بغير نول^(١)، فجاء
عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر،
فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا
العصفور في البحر. فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه،
فقال موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها
لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال: لا
تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. فكانت الأولى من
موسى نسياناً، فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر
برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفساً زكية
بغير نفس؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. فانطلقا حتى
إذا أتيا أهل قرية استطعما^(٢) أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها
جداراً يريد أن ينقض^(٣) فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لاتخذت
عليه أجراً. قال: هذا فراق بيني وبينك.

(١) النول يعني الأجر.

(٢) استطعما يعني طلبا الطعام.

(٣) يريد أن ينقض يعني يوشك أن يسقط.

ثم تلى عليهم رسول الله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٦﴾ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٨﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨١﴾﴾^(١).

ثم قال رسول الله ﷺ: يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما.

مر رسول الله ﷺ يوماً على صبي نصراني اسمه جبر، كان يقرأ التوراة بالرومية، فجلس إليه رسول الله ﷺ يسمع ما يقرأ، فرأهما أمية بن خلف، فعاد إلى ناديه يقول: يا معشر قريش، لقد كشفت سر محمد، والله ما يعلمه ما يأتي به إلا جبر الرومي.

فضحك أبي بن خلف وقال: صحيح، واللات والعزى إن الله أعظم من أن يبعث بشراً رسولاً مثل محمد.

(١) سورة الكهف، الآيات ٧٩-٨٢.

فبينما كان رسول الله ﷺ مع صحابته، أوحى الله تعالى إلى رسوله ما قالوا، ونزلت الآيات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِالْبَيْتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).
 ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٢).

ثم أتى أعرابي إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام، فأوحى الله تعالى إلى رسوله آيات من سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ...﴾.

قال الأعرابي: نعم.

فتابع رسول الله ﷺ: ﴿... وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾^(٣).

قال الأعرابي: نعم.

فتابع رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ...﴾.

قال الأعرابي: نعم.

(١) سورة النحل، الآيات ٤٣-٤٤.

(٢) سورة النحل، الآية ١٠٣.

(٣) سورة النحل، الآية ٨٠.

فتابع رسول الله ﷺ: ﴿... وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا...﴾

قال الأعرابي: نعم.

فتابع رسول الله ﷺ: ﴿... وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ

وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾^(١).

فتولى الأعرابي ولم يسلم، فأنزل الله تعالى الآيات: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا

فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾^(٢).

اتجه رسول الله ﷺ إلى مجلس الوليد بن المغيرة، وفي طريقه مر

على أبي سفيان وأبي جهل يجلسان إلى بعضهما يتحدثان، فضحك أبو جهل ساخراً وقال: هذا نبي بني عبد مناف.

وكان عبد مناف هو جد بني هاشم وبني أمية، وكان أبو سفيان

من بني أمية، فغضب لما قال أبو جهل وقال: أتذكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي؟ والنبي يكون فيمن هو أقل منا وأذل.

قال أبو جهل يلفظ الأجواء: عجبت أن يخرج غلام من بين

شيوخ نبياً.

(١) سورة النحل، الآية ٨١.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٢.

فأتاهم رسول الله ﷺ فقال: أما أنت يا أبا سفيان فما لله ورسوله غضبت، ولكنك حميت للأصل، وأما أنت يا أبا الحكم، فوالله لتضحكن قليلاً ولتبكين كثيراً.

فقال أبو جهل: بنسما تعدني ابن أخي من نبوتك.

فأوحى الله تعالى إلى رسوله الآيات: ﴿وَإِذَا رَأََاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾^(١).

وصل رسول الله ﷺ مجلس الوليد بن المغيرة، فجلس إليه ثم جاء النضر بن الحارث وبعض الرجال يجلسون إليهم، فتكلم رسول الله ﷺ إلى الوليد بن المغيرة، وكان كلام رسول الله ﷺ مفحماً، ولم يستطع أحد أن يرد عليه، و أوحى الله إليه آيات تلاها على الوليد: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٣٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾^(٢).

صمت الوليد بن المغيرة وجميع من في المجلس، كيف لهم أن

(١) سورة الأنبياء، الآيات ٣٦-٣٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ٩٨-١٠٠.

يردوا على كلام منطقي مفهوم، فلما رأى رسول الله ﷺ منهم الصمت والإعراض عن الاقتناع بالحق والمنطق نهض وغادر.

نظر الوليد بن المغيرة إلى النضر بن الحارث وقال: ألم تجد ما

ترد به على محمد؟

تلحك النضر وقال: واللات والعزى لقد باغتنا بكلامه.

ثم حضر رجل^(١) ودخل المجلس، وقد كان شاعراً معروفاً في مكة، فنظر إليه الوليد بن المغيرة وقال له: أرايت، والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، لم يستطع أن يرد عليه وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم.

فقال الرجل: أما والله لو وجدته لخصمته، ولأعطيته حجة لا يستطيع ردها علي، فسلوا محمداً أكل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد عيسى بن مريم.

فعجب الوليد بن المغيرة لرده، ورأى فيه رداً مفحماً مقنعاً، فسر له، كذلك سعد كل من في المجلس، وكسر صمتهم ووجومهم، ورأوا أنهم خاصموا رسول الله ﷺ بهذه الإجابة، فجاء رجل إلى

(١) الرجل هو عبد الله بن الزبيري، سيذكر في هذا الموضع فقط.

رسول الله ﷺ يخبره بما دار في مجلس الوليد بعد أن غادر، فقال رسول الله ﷺ: إن كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته.

وأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ الرد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٣١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٣٢﴾ لَا يَخْرُجُ لَهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾^(١).

وأوحى إليه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣١﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ- وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِّنْ دُونِهِۦ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظّٰلِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾^(٢).

فلما سمع الوليد بن المغيرة الرد في الآيات قال: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً.

فأوحى الله الآيات: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلْهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ

(١) سورة الأنبياء، الآيات ١٠١-١٠٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ٢٦-٢٩.

خَصِيمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ ﴿١﴾.

فقال رسول الله ﷺ: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا

الجدل.

وبينما رسول الله ﷺ بين أصحابه، أنزل عليه الوحي سورة
المؤمنون، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا،
وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا
وارض عنا.

ثم نظر إلى الصحابة وقال: لقد أنزلت علينا آيات من أقامهن
دخل الجنة.

وتلى عليهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَادِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا

(١) سورة الزخرف، الآيات ٥٧-٦٠.

خَلْقَهُ ۝۱۱ وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝۱۲ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
 فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝۱۳ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلْعَلَّةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ... ﴿١﴾ .

لم يكمل النبي تلاوته، ولكن عمر بن الخطاب ما إن سمع مراحل
 تكون الإنسان كما وصفها الله قال عجباً: فتبارك الله أحسن الخالقين!
 فتابع النبي تلاوة الآية كما أوحاها الله له: ﴿... فَتَبَارَكَ اللَّهُ
 أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿٢﴾ .

في أحد اجتماعات قريش في دار الندوة، ذكروا أمر رسول الله ﷺ ،
 فقال سهيل بن عمرو: احبسوا محمداً في وثاق، ثم تربصوا به
 المنون^(٣)، فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء، فإنما هو كأحدهم.
 فأنزل الله تعالى على رسوله سورة السجدة والطور والملك
 والحاقة، وفي سورة الطور رد على ما قالوه في دار الندوة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ
 شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ۝ قُل تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ
 الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ﴿٤﴾ .

(١) سورة المؤمنون، الآيات ١-١٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ١٤.

(٣) المنون يعني الموت.

(٤) سورة الطور، الآيات ٣٠-٣١.

وعندما خرج سادة قريش من دار الندوة، قابلوا رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فنظر عتبة بن ربيعة إلى أصحاب رسول الله ﷺ بينهم بعض المستضعفين فقال: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم.

فأوحى الله تعالى إلى رسوله الرد عليه: ﴿أَيُّطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ ٣٨ ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٩ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ٤٠ ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ٤١ ﴿فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ٤٢ ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ﴾ ٤٣ ﴿خَلِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ٤٤ ﴿﴾^(١).



(١) سورة المعارج، الآيات ٣٨-٤٤.

١١ + ١٢ / ١ - هـ | ٦ + ٧ / ٦٢١ م

بيعة العقبة الثانية^(١)

بعد إسلام الكثيرين في يثرب، بدؤوا يقولون: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويُخاف عليه؟ فقررنا أن يحجوا هذا العام إلى مكة، ويقابلوا رسول الله ﷺ، فتجهزوا وكلهم شوق لرؤية الرسول الذي آمنوا به قبل أن يروه، كيف هو؟ كيف منطقته؟ كيف هي هيئته؟ ما هي صفات النبوة؟ هل فيه علامات مميزة؟

كان أول من تجهز للرحيل مصعب بن عمير، فقد اشتاق إلى رسول الله ﷺ وأصحابه كثيراً، وقرر أن يسبق وفقد يثرب إلى مكة، ويبشر رسول الله ﷺ بإسلام أهلها ونجاح سفارته إليهم.

(١) بيعة العقبة الثانية، تسمى أيضاً بيعة العقبة الكبرى، وبيعة الحرب.

وصل مصعب بن عمير إلى مكة، واتجه من فوره إلى الكعبة، طاف بها وقابل رسول الله ﷺ سعيداً برؤيته، وبشّره بوفد أهل يثرب المسلمين، وأخبره عن تفاصيل السنة التي قضاها هناك، وكيف هي حال أهل يثرب قبل الإسلام وبعده.

علمت أم مصعب أن ابنها قد عاد إلى مكة، وهو جالس إلى رسول الله ﷺ، فغضبت وأرسلت له رسولاً يخبره: يا عاق، أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟

فقال مصعب بن عمير لرسولها: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعندما انتهى مصعب بن عمير من إخبار رسول الله ﷺ بتفاصيل رحلته، وأنس بجواره، قرر العودة إلى المنزل، وفتحت له أمه الباب وقالت له: إنك لعلّ ما أنت عليه من الصبأ بعد؟

قال: أنا يا أماه على دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله لرسوله ولخلقه.

قالت غاضبة: ما الداعي لذهابك أرض الحبشة مرة، ويثرب مرة أخرى؟

قال: يا أماه، فراراً بديني أن أفتن فيه.

فأرادت حبسه ووضعه في القيد كما فعلت سابقاً، وقالت: والله لأحبستك ولأعذبتك.

فقال: لئن حبستني لأحرض على قتل من يتعرض لي.
رأت أمه في عينيه إصراراً وثباتاً، فيئست منه وقالت: فاذهب
لشأتك.

وبدأت عيناها تذرف الدموع، فقال: يا أماه، إنني لك ناصح
وعليك شفيق، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.
قالت: والنجوم لا أدخل في دينك فيزري برأيي ويضعف عقلي،
ولكن أدعك وما أنت عليه، وأقيم على ديني، فقد بيئست منك.

وتجهز مسلموا يثرب للرحيل إلى مكة ومعهم أيضاً مشركون ما
يزالون يحجون لعبادة الأصنام، وممن تجهز من المسلمين عبد الله بن
عمرو بن حرام^(١)، كهل له تسع بنات وابن واحد هو جابر بن عبد
الله^(٢)، شاب بلغ العشرين من عمره، جلس الأب إلى ابنه يوصيه قائلاً:
يا جابر، أنا مغادر إلى مكة، أوصيك بالمرعة خيراً، وكن نعم الابن
المطيع لأوامر أمك حتى أعود من هذه الرحلة، وسأكافئك عند عودتي

(١) عبد الله بن عمرو بن حرام، صحابي أنصاري من الخزرج، له دور في السيرة.

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، صحابي أنصاري من الخزرج، له دور في السيرة.

بالملابس الجديدة وكل ما تهواه نفسك.

ولكن جابراً لم يكن يفكر بشيء من ذلك، كل ما كان يحلم به هو رؤية الرسول الذي آمن به قبل أن يراه، فقال: يا أبت، والله لا أبغي من متاع مكة شيئاً، وكل ما أرجو أن أصحبك إلى مكة وأقابل رسول الله، فكلي شوق لرؤيته، وإني لست بالصغير الذي تخشى عليه أو يتعبك في السفر، سأكون لك عوناً وسنداً، أما أمي وأخواتي فهنّ بخير وفي أحسن حال، وسنوصي عليهم أقرباءنا، وسيتكفلون بهم ويكونون خير معين.

سكت الأب، فألح الابن أكثر: يا أبت، كل ما أريد الآن هو رؤية رسول الله، لا تحرمني من هذه الفرحة، كلي شوق لرؤيته والجلوس بين يديه، يا أبت، اصحبني معك. ظل جابر يلح على أبيه إلى أن وافق أبوه أخيراً أن يصحبه معه، وأوصى على أهله وماله أقرباءه الطيبين، وتجهز جابر سريعاً للسفر بكل حماس.

كان سعد بن الربيع^(١) من سادة الخزرج، وكان كثير الترحال

(١) سعد بن الربيع، صحابي أنصاري، من سادة الخزرج، له دور في السيرة.

للصيد خارج يثرب، لا يعود إلا في منتصف الليل، ولم يسمع بأخبار الإسلام في قبيلته، ولكنه كان كلما خرج إلى الصيد يتفكر كثيراً في الخالق، وكيف لهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع أن تخلق شيئاً بهذا الجمال، حتى كان يوم عاد فيه إلى يثرب وشعر بشيء مختلف، هناك همس في السوق، وحركة لا تتوقف، وبريقاً يملأ عيون الرجال، وإبلاً تعد وقافلة تهيء نفسها للرحيل، ولمح من بين هؤلاء الرجال صديقه الحميم عبادة بن الصامت، تصافحا وتعانقا، ثم قال سعد: كأنكم تريدون الرحيل يا عبادة.

فأجابه عبادة سعيداً: نعم يا سعد، ووجهتنا بيت الله الحرام. فقال سعد: ولكنكم كثير، وعادتنا ألا يخرج لهذا البيت إلا الواحد بعد الواحد ليطوف ويقدم لأصنامها ما يريد. فأشار عبادة برأسه وقال: لا يا سعد، ليست الأصنام وجهتنا، ولكننا...

صمت عبادة، فقال سعد: ماذا بك يا عبادة؟ كأنك تخفي عني شيئاً لا تريد البوح به؟

قال عبادة: ما قصدتُ ذلك يا سعد، ولكن رحلتنا هذه أعدت لمقابلة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

فكر سعد بالاسم، إنه لم يسمع به قبل! فسأل: من محمد هذا

يا عبادة؟

قال عبادة: إنه رسول الله إلى عباده، ليخرجهم من ظلمات

الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الرحمن.

تعجب سعد لما يسمع، فسأل: أيستطيع الرسول هذا أن يدلني

على خالق الأرض والسماء وموجد الإحياء والإماتة؟

ابتهج عبادة وقال: نعم يا سعد، إنه يوحى إليه من ربه وينزل

عليه قرآناً.

ركض سعد بن الربيع من فوره إلى منزله، وبدأ تجهيز دابته

وزاده ليرافق القافلة إلى وجهتها، هناك من سيجيب أخيراً عن

تساؤلاته.

كل حزم أمتعته ووضع توقعاته وآماله، ومن بينهم عبد الله بن

رواحة^(١)، شاب في التاسعة والعشرين، شاعر معروف، قد جهز نفسه

للقاء الرسول ﷺ، وحضر في ذهنه أسئلة ليتيقن بها من صدقه.

(١) عبد الله بن رواحة، صحابي أنصاري، من الخزرج، شاعر معروف، له دور في السيرة.

كان في القافلة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان^(١)، وكان قائدهم البراء بن معرور^(٢)، سيد من سادات الخزرج، يسير إلى جانبه صديقه الشاعر المعروف كعب بن مالك^(٣)، التفت البراء إلى كعب وقال له: يا كعب، إني قد رأيتُ رؤيا ما أدري أتوافقني عليها أم لا.

فسأل كعب: وما ذلك؟

قال البراء: رأيتُ أن لا أذع هذه الكعبة مني بظهر، وأن أصلي إليها.

قال كعب: والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه.

قال البراء: إني سأصلي إلى الكعبة.

قال كعب: ولكننا لا نفعل.

فصلى البراء بن معرور قبلته الكعبة، بينما صلت جميع القافلة باتجاه بيت المقدس في الشام، فشعر البراء أنه قد أخطأ بمخالفته

(١) كان في القافلة أسيد بن حضير مع عشرة من الأوس، والبراء بن معرور، كعب بن مالك، عبد الله بن أبي بن سلول، عبد الله بن عمرو بن حرام وابنه جابر بن عبد الله، عبد الله بن رواحة، عبادة بن الصامت، سعد بن الربيع، أسعد بن زرارة، أبو أيوب الأنصاري، معاذ بن جبل، نسيبة بنت كعب وهي أم عمارة مع زوجها وابنها، وأسماء بنت عمرو مع زوجها في ثلاثة وستين نفر من الخزرج.

(٢) البراء بن معرور، صحابي أنصاري، من الخزرج، له دور بسيط في السيرة.

(٣) كعب بن مالك، صحابي أنصاري، من الخزرج، له دور في السيرة.

الجماعة، وقرر أن يسأل رسول الله ﷺ عما فعل فور وصوله إلى مكة. وصلت القافلة مكة، وكلهم شوق لرؤية رسول الله ﷺ، وضعوا أمتعتهم، وتجهزوا للحج مع قوافل الحجيج، ولكن البراء بن معرور وكعب بن مالك كانا أسرع من بحث عن رسول الله ﷺ، فقال البراء لكعب: انطلق بنا إلى رسول الله حتى أسأله عما صنعتُ في سفري هذا، فإنه قد وقع في نفسي منه شيء لما رأيتُ من خلاصكم إياي فيه.

سألاً عنه في مكة، فقال لهم رجل من مكة: هل تعرفانه؟
قالا: لا.

قال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب، عمه؟
قالا: نعم، يقدم إلينا تاجراً.

قال: فإذا دخلتما المسجد، فهو الرجل الجالس مع العباس. فعلاً وجدا العباس بن عبد المطلب جالساً إلى ابن أخيه رسول الله ﷺ قرب الكعبة، وما إن رأياه استبشرا خيراً، هذا هو بلا شك رسول الله ﷺ.

اقتربا منه، فسأل رسول الله ﷺ عمه العباس إذا ما كان يعرفهما، فقال العباس: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك.

فقال رسول الله ﷺ يعني كعب بن مالك: الشاعر؟

فسر كعب كثيراً أن رسول الله ﷺ قد استمع إلى شعره من قبل،

وقالا: السلام عليك يا رسول الله.

فرد عليهما رسول الله ﷺ بتحية أحسن منها، ورحب بهما

وطيب خاطرهما، وأجلسهما إليه، فسألاه أن يخبرهما عن الإسلام وقد

أسلما على يد مصعب بن عمير من قبل، فتلى عليهما القرآن، وحدثهما

عن الإسلام والوحي، وغمرتهما سعادة عامرة أنهما جلسا إلى رسول

الله ﷺ.

بعدها سأل البراء بن معرور رسول الله ﷺ عن رؤياه التي رآها

أثناء السفر قائلاً: يا رسول الله، إني قد خرجت في سفري هذا وقد

هداني الله إلى الإسلام، فرأيتُ ألا أجعل هذه الكعبة مني بظهر،

فصليتُ إليها وخالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك

شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟

فأجابه رسول الله ﷺ: لقد كنتَ على قبلة لو صبرت عليها.

فعاد البراء يصلي بقبلته إلى بيت المقدس.

كان مسلموا يثرب حريصين على ألا يفشوا إسلامهم بين أهل

مكة، فهم على علم أن أهل مكة لم يسلموا جميعاً، وهم يحاربون الإسلام ويضيقون على رسول الله ﷺ، فكتموا إسلامهم، وحرصوا على أن يروا رسول الله ﷺ فرادى متفرقين، لا يثيرون حفيظة أهل مكة، ولا يشكون في إسلامهم.

رأى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ، وما إن رأى النور في وجهه والبشاشة والهيبة حتى نسي كل الأسئلة التي كان يريد أن يسألها ليتيقن أنه رسول الله، ودخل اليقين في صدره من فوره.

وكذلك جابر بن عبد الله، ذرف الدموع عند رؤيته رسول الله ﷺ، ولكن الجميع كانوا حريصين على ألا يثيروا انتباه الناس إليهم بقربهم من رسول الله ﷺ.

واعد مسلموا يثرب رسول الله ﷺ اللقاء في العقبة، في الثاني عشر من شهر ذي الحجة، أوسط أيام التشريق، وقدموا شعاب العقبة في الثلث الأخير من الليل، يتوافدون الرجل والرجلين حتى اكتملوا جميعاً دون أن يشعر بهم أحد، وكانوا يعلمون جمعياً أن إذا فشى أمر هذا الاجتماع فإن قريشاً لن تتوانى عن قتل الجميع.

كانت منطقة العقبة محصورة بين جبلين قرب منى، يقف على الجبلين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب

يحرصون المكان.

وقف مسلموا يثرب أمام رسول الله ﷺ إلى جانبه عمه العباس بن عبد المطلب، وقالوا: تكلم يا رسول الله.

فنظر رسول الله ﷺ إلى عمه العباس وقال: تكلم يا عمي.

فقال العباس: يا أهل يثرب، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعز الناس في عشيرته يمنعه من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله، منعة للحسب والشرف، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وصبر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة، فإنها سترميكم عن قوس واحدة، فارتأوا رأيكم، واتمروا أمركم، ولا تفترقوا إلا عن ملاء منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه، يا أهل يثرب، صفوا لي الحرب كيف تقاتلون عدوكم؟

فقال عبد الله بن عمرو بن حرام: نحن والله أهل الحرب، غدينا بها ومرثا عليها، ورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر، نرمي بالنبل حتى تفنى، ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر الرماح، ثم نمشي بالسيوف فنضرب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا.

ابتسم العباس ثم قال: أنتم أصحاب حرب، فهل فيكم دروع؟

قالوا: نعم شاملة.

قال العباس: يا أهل يثرب، تعلمون مكان محمد بيننا، وإنه
زاهب إليكم، فإن كنتم ستسلموه وتتركوه فدعوه، فنحن أحق به،
ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة، فإن عليكم من قريش عيناً، وإن
يعلّموا بكم يفضحوكم.

قال عبادة بن الصامت: قد سمعنا ما قلت يا عباس، فتكلم أنت
يا رسول الله، اطلب لنفسك ولربك ما أحببت.

فقال رسول الله ﷺ بعد أن تلى عليهم من القرآن، ودعا إلى الله،
ورغب في الإسلام: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل،
والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني
فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم
وأبناءكم.

فأخذ البراء بن معرور بيد الرسول ﷺ ثم قال: نعم، والذي
بعثك بالحق، لنمنعك مما تمنع منه نساءنا، فبأيعنا يا رسول الله،
فنحن والله أبناء الحروب، وأهل السلاح، ورثناها كابراً عن كابر.

فقال أحد الرجال: يا رسول الله، إن بيننا وبين اليهود حبلاً

وإنا قاطعوها، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم^(١)، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم.

فقاموا إلى رسول الله ﷺ موافقين، وأخذ أسعد بن زرارة بيد رسول الله ﷺ وقد كان من أصغر الوفد سناً يقول: رويداً يا أهل يثرب، فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خيراكم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله.

قالوا جميعاً: أبعد عنا يدك يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسلبها أبداً.

فقال لهم رسول الله ﷺ: أخرجوا لي اثني عشر نقيباً. فخرج أسعد بن زرارة، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت،

(١) الهدم الهدم يعني ذمتي ذمتكم.

وسعد بن عبادة^(١)، وأسيد بن حضير، وأربعة آخرين^(٢)، كانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي.

فقال رجل منهم: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فاتركوه من الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على ما ذكرت لكم، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

فقالوا: فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله؟

قال: الجنة.

قالوا: ابسط يدك نبايحك، ربح البيع لا نقييل ولا نستقييل.

فبسط الرسول ﷺ يده وتقدم الرجال للمبايعة، فكانت أول

(١) سعد بن عبادة، صحابي، من سادة الخزرج، له دور بسيط في السيرة.
(٢) الأربعة هم: رافع بن مالك، والمنذر بن عمرو، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر أو أبو الهيثم بن التيهان. سيذكرون في هذا الموضع فقط.

بيعة على الجهاد والقتال.

ثم وقفت أم عمارة تقول لرسول الله ﷺ: نبايعك يا رسول الله على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف.

فقال رسول الله ﷺ: فيما استطعتن وأطقتن.

فقالت: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلم نبايعك يا رسول الله. فقال: إني لا أصاح النساء، إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة.

ثم نظر رسول الله ﷺ إلى عمه العباس بن عبد المطلب وقال: أخذتُ وأعطيْتُ.

في هذه اللحظة سمع الجميع صوت صارخ يقول: يا معشر قريش! أيها النيام! هذه بنو الأوس والخزرج صبات وتحالف مذمماً على قتالكم!

فزع الأنصار^(١)، ونهض سعد بن عبادة وحمل سيفه وقال: إن شئت يا رسول الله قاتلناهم.

فرح العباس باستعداد الأنصار للقتال من اللحظة الأولى، ولكن

(١) الأنصار، لقب أهل يثرب من الأوس والخزرج بعد أن بايعوا رسول الله ﷺ على النصر.

رسول الله ﷺ قال: بل انصرفوا، لا يروعنكم هذا الصوت.

وقال عبادة بن الصامت: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ

على أهل منى غداً.

فقال رسول الله ﷺ: لم أؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

فقال الصوت:

فإن يبسلم السعدان^(١) يصبح محمد بمكة لا يخشى خلاف المخالف

تسلل الأنصار واحداً تلو الآخر متفرقين، ولم تنتبه إليهم

قريش، وعادوا إلى خيامهم وناموا ليلتهم.

في الفجر نهض أبو سفيان بن حرب يتوهم ما سمع الليلة،

ويقول في نفسه: من السعدان؟

ونهض أبو جهل وقد شعر أنه قد سمع صوتاً غريباً في الليل

يقول أن الأوس والخزرج قد صبات، فلم يهدأ له بال، وجمع سادات

قريش وانطلق معهم إلى خيام الأوس والخزرج، فوقف أبو جهل

أمامهم وقال: يا معشر الأوس والخزرج، بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا

هذا لتخرجه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا، والله ما من حي

(١) السعدان يعني رجلاً يبدأ اسمهما بسعد أو أسعد.

أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا وبينه منكم.

فوقف عبد الله بن أبي بن سلول، ولم يكن قد حضر بيعة العقبة، فقال: هذا باطل! هذا باطل! ما صنع هذا قومي، إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا، وما علمته كان.

بينما كان المسلمون ينظرون في عيون بعضهم أنهم أحسنوا إذ لم يضموا عبد الله بن أبي بن سلول إلى جماعتهم في لقائهم لرسول الله ﷺ. قال أبو جهل: إنك لدينا لصادق، فدعوكم من هذا الذي يسفه أصنامكم ويفرق بين الزوج وزوجه.

غادر أبو جهل مع جماعته، وتجهز الأوس والخزرج للرحيل من فورهم، ولكن أبا جهل لم يهدأ له بال، وآهم يتجهزون للرحيل سريعاً، فبادره الشك، وسأل وتقصى الأخبار فوجد منها ما يدل على الاجتماع السري، فأرسل رجاله ليمسكوا بأحد ممن في القافلة ليجبره على الاعتراف، وفعلاً استطاع الرجال اللحاق برجلين من القافلة، أحدهما هرب منهم، والثاني كان سعد بن عبادة، استطاعوا الإمساك به وربطوا يده إلى عنقه، ودخلوا به مكة يضربونه ويجرونه، ووسط التعذيب نظر سعد بن عبادة إلى رجل قادم، كان أبيض الوجه، عليه البهاء والجمال، فقال: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا.

فدنا منه وقد كان سهيل بن عمرو، رفع يده ولطم سعداً لظماً
شديداً على وجهه، فقال سعد: لا والله ما عندهم بعد هذا من خير.
سر أبو جهل بما فعل أتباعه، وشد وثاق سعد، وطلب إليه أن
يعترف أنه قد صبأ واتبع محمداً، ولكنه أنكر، فبدأ يسلط رجاله
ليعذبوه ويضربوه حتى يعترف أنه صبأ وتواعد مع محمد على حرب
قريش، ولكنه ظل صامداً ولم يفش السر، فركله أبو جهل وتركه في
وثاقه ليستمر رجاله في تعذيبه.

ولكن أحداً من الرجال شفق عليه، وخشي على قريش أن تقاتل
أهل يثرب فيه، فهمس في أذن سعد بن عباد: ويحك يا رجل، ألا
تعرف أحداً من أشرف مكة ينقذك مما أنت فيه؟
قال سعد: بلى، والله لقد كنت أجير للمطعم بن عدي، وأمنعه
ممن أراد ظلمه ببلادي.

فقال الرجل: ويحك، فاهتف باسم المطعم، وانكر ما بينك وبينه.
بدأ سعد ينادي: أيها المطعم بن عدي! الجوار بالجوار! أيها
المطعم بن عدي!

ركض الرجل من فوره إلى المطعم بن عدي، وجده عند الكعبة
فركض إليه يقول: يا سيدي، إن رجلاً من الخزرج الآن يُضرب على

أطراف مكة، ويهتف باسمك، ويذكر أن بينه وبينك جوار.

قال المطعم بن عدي: ومن هو؟

قال: سعد بن عبادة.

قال المطعم: صدق والله، إنه كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن

يظلموا ببلده.

ركض المطعم بن عدي من فوره، ورأى سعد بن عبادة تحت

التعذيب، فأوقف الرجال، وذهب إلى أبي جهل وقال له: أتعذب سيداً

من يثرب، تقاتلنا فيه؟ إنه في جوار.

فك أبو جهل قيود سعد دون أن يحصل على ما أراد، وغادر

سعد بن عبادة مكة سريعاً هارباً إلى يثرب.

في الليلة التالية سمعت قريش منشداً يقول:

أيا سعدُ سعدَ الأوسِ كن أنتَ ناصراً ويا سعدُ سعدَ الخزرجين الغطارف

أجيباً إلى داعي الهدى وتمنيا على الله في الفردوس منية^(١) عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى جنان من الفردوس ذات رفارف

فلما سمعها أبو سفيان بن حرب قال: هو والله سعد بن معاذ

(١) منية تعني الأمنية.

الأوسي، وسعد بن عبادة الخزرجي.

وكان الأنصار سعيدين بلقاء الرسول ﷺ وبيعته على النصره،

فكان عبد الله بن رواحة ينشد:

إني تفرّست فيك الخير أعرفه والله يعلم أنني ما خانني البصر

في هذه الفترة تقدم الزبير بن العوام للزواج من أسماء بنت أبي بكر، فاستبشر أبو بكر، وزوجهما، وعمت الفرحة العائلتين، وبارك لهما رسول الله ﷺ، ولكن الزبير تزوج وما له في الأرض مال ولا عبد يعينه، لا يملك إلا فرسه، فكانت أسماء بنت أبي بكر تعلق فرسه وتسوس البيت، وتدق النوى وتسقي الماء، وتعجن وما كانت تحسن العجن، وصبرت على ذلك رغم قسوة الزبير وخشونة العيش.

وصلت القافلة يثرب، وأعلن الواصلون عن إسلامهم ولقائهم برسول الله ﷺ، وانتشر الإسلام في يثرب أكثر فأكثر، وبات علناً للجميع، وكان هناك رجل يدعى عمرو بن الجموح^(١)، يقارب الخمسين من العمر، من سادة الخزرج، أعرج، له أربعة أولاد، يعبد صنماً من

(١) عمرو بن الجموح، صحابي، له دور في السيرة.

الخشب بكل تفان، وكان مولعاً بحب هذا الصنم، ويسجد له ليل نهار.
كان هذا الصنم بعيداً عن منزله، وكان يصعب عليه بعرجته أن
يذهب إليه ليل نهار، فقرر أن يصنع صنماً مصغراً لهذا الصنم يشبهه،
ويضعه في المنزل.

فعلاً بات عمرو يسجد لهذا الصنم ليل نهار في منزله، لا ينقطع
عن عبادته، ويفديه بكل ما يملك.

ولكن بعد أن جاء خبر الدين الجديد، دخل أولاده الأربعة^(١) في
الإسلام دون أن يعرف، واتفقوا فيما بينهم أن يحاولوا هداية والدهم
إلى الإسلام بروية، حيث يعلمون حب أبيهم لهذا الصنم في منزلهم.
اتفقوا أن يلقوا بالصنم خفية في الليل في بئر قدر، ويراقبوا أباهم
ما يفعل.

في صباح اليوم التالي استيقظ عمرو بن الجموح، وكعادته أول ما
يفعل كل نهار، يذهب إلى صنمه ليسجد له ويدعو، ولكنه لم يجده
هذه المرة في موضعه! فسأل أولاده: أين إلهي؟

نظر الأولاد إلى بعضهم وقالوا له: لا علم لنا يا أبي.

هرع عمرو ويبحث عن صنمه في كل مكان، بحث عنه طويلاً إلى

(١) أولاد عمرو بن الجموح هم خلاد، معاذ، معوذ، هند.

أن وجده داخل البئر وقد اتسخ عن آخره! أخرجه ونظفه بكل عناية،
ثم نظر إليه قائلاً: والله لو علمتُ من فعل بك هذا لأضربته.

وأعادته إلى مكانه بكل عناية، وعطّره، وسجد له وعبده بتفان،
وأنكر أولاده أنهم يعرفون شيئاً عما حدث مع الصنم.

ولكن في اليوم التالي فعل أولاده ذات الشيء دون علم والدهم،
وألقوه مرة ثانية في البئر المتسخ، واستيقظ عمرو في الصباح فرعاً
ينادي: أين إلهي؟ أين إلهي؟

فلم يجبه أولاده، وركض إلى ذات البئر ووجد فيه بسرعة،
فأخرجه ونظفه بعناية وسجد له، وكله غضب وأسى لما يجري، ولكن
أولاده أيضاً أنكروا أنهم يعرفون شيئاً مما يحصل.

قرر عمرو أن يكون أكثر حرصاً في الليلة الثالثة، فوضع سيفاً إلى
جانب الصنم وقال له: آن الأوان أن تدافع عن نفسك، هذا سيف لك،
اقتصّ به ممن يؤذيك.

ودخل فراشه ونام مطمئناً على إلهه القادر على الدفاع عن نفسه
الآن، ولكن الأولاد أخذوا الصنم، وربطوا على رقبتهم كلباً ميتاً على
دمائه، وألقوه في البئر ثانية وتركوا السيف مكانه، فاستيقظ عمرو في
الصباح، فوجد السيف مكانه، وذهب إلى البئر ليجد إلهه متسخاً

هناك، توقف ينظر إليه كيف أنه متنسخ يحتاج إلى تنظيف، ولم يلتقط
السيف ولم يدافع عن نفسه، ولا أحد يعلم من يفعل به ذلك، فقال: والله
لا أخرجك، إله لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، فلا تستحق أن تُعبد.

فرح الأولاد الأربعة بردة فعل والدهم، أخيراً علم أن هذا صنم
لا يضر ولا ينفع، فقالوا له: يا أبانا، إنا والله من فعل ذلك بهذا
الصنم، وهو لا يضر ولا ينفع، ولا يدافع عن نفسه، ويحتاج إلى من
ينظفه ويعتني به ويدافع عنه، فلا يستحق منك أن تعبد، وإنا والله
قد علمنا الحق وأصحابه، ودخلنا في دين جديد، إلهه واحد قادر،
فهل تحضر معنا وتستمع بنسفك؟

قال عمرو: هذا إذن من فعلكم، أردتم بوالدكم الخير، خذوني
أتعرف على إلهكم الذي ارتضيتم من دون إلهي.

ذهب عمرو بن الجموح مع أولاده الأربعة إلى اجتماع للمسلمين
في يثرب، يتدارسون القرآن، ويتحدثون عن الإسلام، فأسلم عمرو بن
الجموح، وفرح به أولاده كثيراً، وأنشد في إسلامه قائلاً:
والله لو كنت إلهاً^(١) لم تكن أنت وكلب وسط البئر في قرن^(٢)

(١) الإله هنا يعني الصنم الذي كان يعبد من قبل.

(٢) قرن يعني مربوطاً معاً.

أف للملقات إلهاً مستدن^(١) الآن فتشناك عن سوء الغبن^(٢)
الحمد لله العلي ذي المنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبر مرتهن
بأحمد المهدي النبي المؤتمن

* * *

وأُنزلت سور النبأ والنازعات، والانفطار، والانشقاق على رسول
الله ﷺ، وفي هذه الفترة نشبت حرب كبيرة بين الفرس والروم في بلاد
الشام، كان المشركون يحبون أن يفوز أهل فارس على الروم، لأنهم
وإياهم يعبدون الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يفوز الروم على
الفرس، لأنهم أهل كتاب، ففازت فارس على الروم، ووصل الخبر أبا
بكر الصديق فحزن لهزيمة أهل الكتاب، وذهب إلى رسول الله ﷺ
وذكر له ما سمع، فقال له رسول الله ﷺ: أما إنهم سيغلبون.

وتلى عليه الآيات التي أوحى الله بها إليه: ﴿الْم ۝ غَلِبَتِ
الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝
لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ

(١) مستدن يعني مخدوم.

(٢) الغبن يعني السفة.

مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

فما إن سمعها أبو بكر حتى خرج بها إلى الكعبة، ووقف يقول:
أسرّكم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في
بضع سنين.

ضحك الناس، فاقترب أبي بن خلف وأخوه أمية بن خلف إلى
أبي بكر وقالوا: يا أبا بكر، فلنتراهن في ذلك.
فقال أبو بكر: نراهن.

قال أمية بن خلف: أراهن بخمس من الإبل أن الروم لن تظهر
على الفرس في ثلاث سنين.

فوافق أبو بكر، وعاد إلى رسول الله ﷺ يخبره أمر الرهان،
فقال له رسول الله ﷺ: فهلا احتطت، فإن البضع ما بين الثلاث
والتسع والعشر، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل.
ف فعل أبو بكر، فالتقى أمية بن خلف وقال له: أزيد في الإبل إلى
المئة، والأجل تسع أعوام.

جفل الناس، مئة من الإبل! ضحك أمية بن خلف وقال: لك
ذلك، مئة من الإبل في تسع أعوام، سيخونك دهاء التاجر الماهر.

(١) سورة الروم، الآيات ١-٥.

وأخيراً أوحى الله تعالى إلى الرسول ﷺ: **﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾** الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾^(١).

ورأى رسول الله ﷺ في منامه صفة يثرب، مدينة ذات نخل وحجارة طويلة، فاجتمع مع أصحابه وقال لهم: قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتین^(٢)، إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها.

وجاء القرار الذي سيغير مجرى التاريخ، وحن وقته المناسب، وأمر رسول الله جميع المسلمين في مكة بالتجهز للهجرة إلى يثرب حيث أسلم من الأوس والخزرج.



(١) سورة الحج، الآيات ٣٩-٤٠.

(٢) اللابة تعني الحجارة السوداء.

- ✽ السيرة النبوية- تأليف ابن هشام الحميري.
- ✽ السيرة النبوية- تأليف ابن اسحاق.
- ✽ البداية والنهاية- تأليف ابن كثير.
- ✽ فقه السيرة- تأليف محمد الغزالي.
- ✽ الأغاني- تأليف أبي فرج الأصفهاني.
- ✽ السيرة النبوية- تأليف عبد الحميد جودة السحار.
- ✽ صحيح البخاري- للمؤلف محمد بن إسماعيل البخاري.
- ✽ رجال أنزل الله فيهم قرآناً- تأليف د. عبد الرحمن عميره.
- ✽ صفوة التفاسير- تأليف محمد علي الصابوني.
- ✽ اللمع في اسباب ورود الحديث- تأليف جلال الدين السيوطي.
- ✽ شرح الأربعين النووية- تأليف الشيخ محمد بن صالح العثيمين.
- ✽ نظم المتناثر من الحديث المتواتر- تأليف أبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني.
- ✽ عيون الغرر في فضائل الآيات والسور- تأليف مشتاق المظفر.
- ✽ أسباب النزول- تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.

❖ لباب النقول في أسباب النزول- تأليف الإمام جلال الدين أبي عبد الرحمن السيوطي.

❖ كنوز رياض الصالحين- تأليف د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار.
❖ تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن- تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

❖ سير أعلام النبلاء- تأليف الإمام شمس الدين الذهبي.

❖ تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل واجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها- تأليف الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي ابن عساكر.

❖ أزد الغابة في معرفة الصحابة- تأليف ابن الأثير.

❖ الإصابة في تمييز الصحابة- تأليف العسقلاني.

❖ الرحيق المختوم- تأليف صفي الرحمن.

❖ شرح شمائل النبي صلى الله عليه وسلم- تأليف الإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.

❖ سيرة الزبير بن العوام ومواقفه من معارك التحرير والفتوحات العربية الإسلامية- تأليف جميل إبراهيم حبيب.

✽ أعلام المسلمين ٦٧ أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين الأمة وفتح

الديار الشامية- تأليف محمد حسن شراب.

✽ أعلام المسلمين ٨٧ سعد بن أبي وقاص السباق للإسلام المبشر بالجنة

والقائد المجاهد- تأليف صلاح عبد الفتاح الخالدي.

✽ أعلام المسلمين ٣١ السيدة خديجة أم المؤمنين وسباقة الخلق إلى

الإسلام- تأليف عبد الحميد محمود طهماز.

✽ أعلام المسلمين ٩٨ عثمان بن عفان الحبي السخي ذو النورين-

تأليف عبد الستار الشيخ.

✽ أعلام المسلمين ٩٧ عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي العظيم والإمام

العادل الرحيم- تأليف عبد الستار الشيخ.

✽ أعلام المسلمين ٩٦ أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه

وسلم- تأليف عبد الستار الشيخ.

✽ أصحاب الرسول ترجمة حقيقية لأكثر من ١٠٠ صحابي- جمع

وترتيب محمود المصري أبو عمار.

✽ محض الشيد في مناقب سعيد بن زيد عاشر العشرة المبشرين

بالجنة- تأليف الإمام العلامة المحدث جمال الدين يوسف بن

حسن بن عبد الهادي المقدسي الدمشقي الحنبلي.

- ❖ فقه السيرة- تأليف سعيد رمضان.
- ❖ صور من حياة الصحابة- تأليف رافة الباشا.
- ❖ صور من حياة الصحابييات- تأليف رافة الباشا.
- ❖ موسوعة الفداء في الإسلام- تأليف الشرواسي.
- ❖ أصحاب الرسول- تأليف محمود المصري.
- ❖ رجال من التاريخ- تأليف علي الطنطاوي.
- ❖ برنامج السيرة النبوية- للدكتور طارق السويدان ١٩٩٣م.
- ❖ أطلس السيرة النبوية- تأليف د. شوقي أبو خليل.
- ❖ المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب- تأليف عبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيري.
- ❖ تاريخ قريش وأنسابها- تأليف أحمد الجدع.
- ❖ تاريخ هوازن وأنسابها- تأليف أحمد الجدع.
- ❖ تاريخ خزاعة وأنسابها- تأليف أحمد الجدع.
- ❖ www.wikipedia.org ، اقتبست من الموقع بعض التواريخ فقط.
- ❖ <http://hdith.com> ، استخدم للتأكد من صحة الأحاديث.

